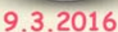
مكسيم غوركي







رواية





مكسيم غوركي



روايـــــة

ترجمـة

الدكتور فؤاد أيوب

المحامي سهيل أيوب






الأم

الكتاب: الأم (رواية)

المؤلف: مكسيم غوركي

الترجمة: الدكتور فؤاد أيوب والمحامي سهيل أيوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: * دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb

www.dar-alfarabi.com

* دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ هاتف 471357(01) ـ فاكس: 475905(01)

e-mail: kansopress@hotmail.com

الطبعة الأولى 1983

الطبعة الثانية 2007

ISBN: 978-9953-71-175-1

القسم الأول

1

كان دويٌّ صفارة المصنع ينطلق عنيفاً، كل صباح، في الجو الدبق المثقل على الضاحية العمّالية؛ فيخرج، في تلبية صاغرة لندائه المرتجف، أناس انقبضت وجوههم وتجهمت، وأنهك التعب عضلاتهم وأجهدها، ولم تردَّ عليهم يقظتهم المبكرة ما يحتاجون إليه من راحة وقوة. كانوا ينطلقون من بيوتات صغيرة غبراء اللون أشبه بالصراصير المذعورة ويستحثّون الخطى، في الفجر البارد المظلم، عبر الشارع غير المرصوف ميمّمين شطر جدران المصنع الحجرية الشاهقة التي تنتظرهم في طمأنينة باردة غير عابئة، مُضيئةً الطريق الموحلة بعشرات من الأعين الزيتية المربَّعة. وكان الوحل يتكسَّر تحت أقدامهم، والجوُّ يتمزق بشتائم قبيحة أو آهات عميقة تطلقها حناجر ناعسة مبحوحة؛ فيما أصداء أخرى تبلغ آذان هؤلاء القوم هي جعجعة الآلات الثقيلة وضجيجها، وغليان البخار وصفيره. وكانت المداخن العالية، القاتمة، السوداء تشرف على الضاحية بأسرها مثل مسلات شامخة تنذر بالويل والثبور.

فإذا تولى النهار وراحت الشمس، وهي تأوي إلى مضجعها، تجد لها على زجاج النوافذ انعكاسات حمراء متعبة تقيّأ المصنع أولئك القوم من أحشائه الحجرية وكأنهم فضلات لا حاجة به إليها، فيملأون ـ من جديد

ـ الشوارع، الوسخة، متعفّرة وجوههم ومسودَّة بالدخان، متألقة أسنانهم الجائعة، فائحة من أجسادهم رائحة زيت الآلات اللزجة. ثمة شيء من النشاط، بل ثمة غبطة أيضاً، يترددان الآن في أصواتهم. لقد انتهى العمل الشاق الى يوم آخر، والعشاء والراحة في الدار ينتظران. . .

لقد استهلك المصنع النهار بأسره، وامتصت آلاته من عضلاتهم ما تحتاجه من قوة. ويمرُّ اليوم على هذا المنوال، دون أن يخلّف أثراً، ويتقدم المرء خطوة جديدة في اتجاه لحده. لكنه يتوقع الآن، بالرغم من ذلك، بعض الأفراح، أفراح الراحة في حانة تعج بالدخان والقذارة؛ وإنه بذلك لسعيد. . .

في أيام الآحاد كان الناس ينامون عشر ساعات، ثم يرتدي المتزوجون الوقورون منهم أفضل ثيابهم ويغدون الى الكنيسة، موجهين اللوم ـ أثناء ذلك ـ الى الشبان لانصرافهم عن أمور الدين والآخرة. فإذا انتهت خدمة القداس الإلّهي قفلوا راجعين الى دورهم، وأكلوا الفطائر اللذيذة، واستسلموا من جديد للنوم حتى المساء.

إن التعب المتكدس خلال الأيام يُفقد الشهية، فلينبِّهوها إذن بالشراب الغزير، وليخرشوا المعدة الكسول بلذع الفودكا الحارق الملتهب.

وإذا أتى المساء أخذوا يتجولون في الشوارع بكسل. . والذين يملكون جزمة مطاط لبسوها وإن كانت الأرض جافة؛ والذين يملكون مظلة حملوها وإن كان الطقس صافياً لا ينذر بالمطر.

وإذا تلاقى الأصحاب دار الحديث حول المصنع والآلات، أو تناقلوا الشكوى ضد رؤسائهم وتعسفهم، فهم لا يفكرون أو يتكلمون إلا في الأمور المتعلقة بعملهم، وفيما ندر، تخترق ومضات من الأفكار العاجزة المتلعثمة أجواء أيامهم الرتيبة المملة، حتى اذا عادوا الى بيوتهم ليلاً أخذ الرجال يخاصمون زوجاتهم، أو يضربونهن في غالب الأحيان، دون أن يأبهوا لما يلحق أكفهم من الأذى. أما الفتيان فيترددون على الحانة، أو يحيون الحفلات في المنازل حيث يعزفون على الأكورديون، وينشدون

أغاني بشعة مرذولة وهم يرقصون، ويتسابّون، ويعبون الخمرة دون حساب، وسرعان ما تتسرب الفودكا الى رؤوسهم، هم الذين أضناهم التعب وأرهقهم، فيتّقد في صدورهم هيجان مريض عصيٌّ على الإدراك يسعى وراء منفذ له، فيتمسكون بأتفه الأسباب كي يطلقوا لمشاعرهم العنان، مزمجرين في وجوه بعضهم بعضاً بوحشية حيوانية تنتهي دائماً باصطدامات دامية، تنتج عنها أضرار بالغة في بعض الأحيان والقتل في أحيان أخرى.

كان إحساس بالحقد الدفين يسيطر على علاقاتهم الانسانية. وكان ذلك الإحساس قديماً قِدَمَ التعب الذي لا شفاء له في عضلاتهم. إنهم يولدون وذلك المرض الروحي فيهم، يرثونه عن آبائهم، فيرافقهم كشبحٍ مظلم طوال حياتهم حتى القبر، يدفعهم دون انقطاع الى ارتكاب أفعالٍ تثير وحشيتها العديمة المعنى الاشمئزاز والنقمة معاً.

وكان الفتيان ـ في أيام الأعياد ـ يؤمون منازلهم في ساعة متأخرة من الليل، متمزقة ثيابهم متلطخة بالأقذار والأوحال. مظلمة عيونهم، دامية أنوفهم، وهم يتبجحون أحياناً، في اعتزاز فارغ، بما كالوا لرفاقهم من لكمات؛ أو يكشرون عن أنيابهم، في أحيان أخرى، غاضبين أو باكين لما نالوا من إهانات. كانوا سكارى مساكين يثيرون في النفس الشفقة والنقمة في آن واحد. وما أكثر ما كان الآباء والأمهات يعودون بأبنائهم الى الدار، وهم يلعنونهم بفظاظة وبذاءة، من حيث وجدوهم يتمرَّغون في ظل أحد الأسوار، أو على أرض إحدى الحانات في حالة من الغيبوبة السكرى، فيسيلون على أجسادهم المترهلة وابلاً من الضربات ثم يوسدونهم الفراش في كثير أو قليل من العناية، كي يوقظوهم للعمل في الصباح الباكر عندما تصرخ صفارة المصنع الصاخبة، فيأتي دويها هادراً في تيارٍ مظلمٍ خلال نور الفجر المنبثق.

كانوا يشتمون أبناءهم ويضربونهم بقسوة، لكن سكر الفتيان وعربدتهم الدائمة كانا مقبولين لديهم كأمرٍ لا مفر منه أو مهرب. كان الآباء، في

شبابهم يتقاتلون أيضاً ويعاقرون الخمرة ويتلقون اللكمات من آبائهم وأمهاتهم... هذه هي سنَّة الحياة دائماً، يجري تيارها الموحل في بطء واستمرار سنوات بعد سنوات، مشدوداً إلى درب لا تتبدل من عادات للتفكير والسلوك قديمة ثابتة تتكرر من يوم الى يوم. وإن الرغبة في إدخال أي تغيير على ذلك كله لم تساور يوماً أحداً منهم على الاطلاق.

وفي بعض الأحيان كان يؤمُّ الضاحية أناس غرباء يسترعون الانتباه للوهلة الأولى بسبب من حداثة قدومهم. وكان الاهتمام الضئيل الذي يحيونه يعيش مدة من الزمن مدعوماً بما يروون من أقاصيص عن الأماكن التي جاؤوا منها وعملوا فيها. لكن سرعان ما كانت البدعة تمضي، ويألفهم الناس، ويكفون عن الشعور بوجودهم. وكان يتضح، مما يروي هؤلاء القادمون حديثاً، أن حياة الشعب العامل واحدة في كل مكان وإن كان الأمر كذلك فماذا بقي لهم كيما يتناولوه في أحاديثهم؟

بعض هؤلاء الغرباء كانوا يتحدثون أحياناً عن أمور غريبة لم يُسمع بها من قبل في ذلك المكان، فلا يناقشهم أحد، بل يصيخ الجميع إليهم في شيء من الإنكار والارتياب. وكان الحديث يثير في البعض حقداً أعمى، وفي آخرين ذعراً غامضاً وقلقاً مبهماً، وفي فريق ثالث خيالاً شاحباً من الأمل يعكِّر صفوهم، ويقودهم الى الاستزادة من الخمرة بغية طرد تلك الأفكار غير المرغوب فيها التي تجعل الحياة أصعب وأشد عسراً.

وكان العمال، اذا لحظوا في شخص غريب أمراً شاذاً غير عادي، أخذوه عليه، وراحوا يراقبونه في يقظة وحذر، وكأنهم يخافون أن يشوش الانتظام المملَّ لتلك الحيوات التي هي ـ وإن كانت عسيرة شاقة ـ هادئة غير مضطربة على الأقل. لقد اعتادوا أن يشعروا بثقل الحياة متساوياً في سائر الأوقات، وأصبحوا يرون في كل تبديل، بعد أن يئسوا من التخفيف عنهم، وسيلةً قمينة بمضاعفة بؤسهم وشقائهم والاستزادة منهما.

كان العمال يتوارون، في سكون، عن أولئك الذين ينطقون بآراء

جديدة ويتجنبون طريقهم. وهكذا اختفى القادمون الجدد ساعين وراء أماكن أخرى. وفي الحالات النادرة حين يؤثرون البقاء في المصنع يصبحون مثل أقرانهم، أو يعيشون حياة انعزالية منفردة.

وبعد خمسين عاماً من مثل هذه الحياة كان المرء يموت.

2

هكذا كان ميخائيل فلاسوف يعيش، وهو ميكانيكي غزير الشعر متجهم الوجه ذو عينين صغيرتين تلمعان بحذر وارتياب ولؤم وضيع تحت حاجبيه الكثين. كان أحسن ميكانيكيي المصنع وأقوى رجال الضاحية، لكنه كثير الفظاظة مع رؤسائه بحيث لم يكسب من المال إلا النزر اليسير. وكان ينال بالسوء بعض الناس في كل يوم أحد، فأبغضه الجميع وخافوه. ولقد باءت سائر المحاولات للتعويض عليه من نوع عملته بالفشل الذريع، فهو يلتقط حجراً أو هراوة أو قضيباً من الحديد كلما استشعر أن بعض الناس ينوون مهاجمته، ويغرس قدميه متباعدتين في الأرض، ويروح ينتظر العدو في هدوء وسكينة. وكان منظر ساعديه المكسوين بالشعر، ووجهه النامية عليه – منذ العينين حتى العنق – لحية سوداء كثة، يكفي ليلقي الرعب في قلب أشجع الناس وأشدهم إقداماً. وكان الجميع يخشون، بصورة خاصة، عينيه الصغيرتين القاسيتين اللتين يخيل للناظر إليهما أنهما تخترقان كل شيء كحربتين من الفولاذ، واللتين يحسُّ كلٌّ من يشخص إليهما أنه في حضرة قوة متوحشة متحفزة أبداً للضرب دون أثر من خوف أو رحمة. كان يصيح في أعدائه بصوت أجش، وأسنانه الصفر الكبيرة تلمع من خلال لحيته:

– هيا اغربوا عن وجهي، يا أبناء الكلبة!

فيولي هؤلاء الإدبار، مزمجرين بالعديد من الشتائم الجبانة في تقهقرهم.

ويهتف فلاسوف باقتضاب في إثرهم، وعيناه محتدَّتان كمخرزين مدببين:

ـ يا أبناء الكلبة!

ويتبعهم شامخ الأنف، وهو يصيح متحدياً:

ـ حسناً، من يرغب منكم في الموت؟

لكن أحداً لم يكن يرغب في الموت.

كان قليل الكلام، وكلمتا «ابن الكلبة» أكثر ما يتردد على لسانه من أقوال، ينعت بهما رجال الشرطة، ورؤساءه. أما زوجته فلا يناديها إلا «الكلبة»، فيقول لها مثلاً:

ـ أنظري هنا، أفلا ترين أن سروالي ممزق، أيتها الكلبة؟!

وذات مرة، عندما كان ابنه بافل في الرابعة عشرة من العمر، أراد أن يمسك به من شعره، ولكن الفتى التقط مطرقة ثقيلة، ونبر باقتضاب وفظاظة:

ـ لا تمسني...

فسأل الأب، متقدماً من ابنه الطويل النحيل مثل خيال يقترب من شجرة فارعة:

ـ ما هذا؟

فقال الفتى في هدوء، رافعاً المطرقة في يده:

ـ لقد اكتفيت ولا أطيق مزيداً...

نظر إليه الأب برهة، وأخفى يديه كثّتي الشعر وراء ظهره، قائلاً في ضحكة قصيرة:

ـ حسناً...

وأضاف، بعد أن صعّد زفرة حرَّى:

ـ أنت ابن كلبة على أية حال...

بعد فترة قصيرة من ذلك الحادث عالن امرأته:

ـ لا تسأليني مالاً بعد اليوم. بافل يقوم بأودك من الآن فصاعداً...

فوجدت المرأة الجـرأة على الجواب بقولها:

ـ وأنت ستسكر بأجورك كلها، على ما أظن؟

ـ ليس هذا من شأنك، يا كلبة. سأتخذ خليلة إن راقني ذلك...

لم يتخذ خليلة. لكنه تجاهل منذ ذلك الحين حتى وفاته، خلال سنتين تقريباً، وجود ابنه ولم يكلمه أبداً.

كان يملك كلباً يماثله ضخامة وكثافة شعر، يتبعه الى المصنع كل صباح وينتظره عند البوابة كل مساء. وكان فلاسوف يقضي أيام العطل متنقلاً من حانة الى حانة دون أن ينبس ببنت شفة، مكتفياً بتفحص وجوه الناس كمن يفتش عن شخص ما، وكلبه يجرُّ ذيله الغليظ وراء سيده النهار بطوله. حتى إذا عاد فلاسوف الى البيت مخموراً، وجلس للعشاء، أطعمه من ذات الصحن الذي يأكل منه. لم يكن يلعنه أبداً أو يناله بالضرب، ولكنه لم يكن ليدلله أيضاً. وإذا انتهى من العشاء فهو يلقي بالأواني أرضاً إن تأخرت زوجه في رفعها، ويضع زجاجة من الفودكا أمامه، ويستند بظهره الى الجدار، ويغمض عينيه، ويفتح فمه، ويعول بأغنية ما بصوت أجش يرسل في جسد المستمع قشعريرة باردة. وكانت الأصداء البشعة الكئيبة تتداخل في شاربيه وتدفع ما علق بهما من فتات الخبز، فيمسح الميكانيكي لحيته وشاربيه بأصابعه الثخينة، ويسترسل في الغناء دون توانٍ أو كسل. كانت كلمات أغنيته غامضة غير مفهومة، أما اللحن فيذكّر بعواء الذئاب في زمهرير الشتاء. وكان يغني ما دام في الزجاجة شيء من الفودكا، فإذا فرغت استلقى على الدكة، أو ألقى برأسه على المنضدة، ونام حتى تدوّي الصفارة. وكان كلبه ينام الى جانبه.

مات بفتق بطني. ظل أياماً خمسة يتململ في فراشه. وقد اسودَّ وجهه، وانغلقت عيناه، وصرَّ على أسنانه، وبين الفينة والفينة يصيح بامرأته:

ـ أعطيني بعض الزرنيخ. سمّميني...

وصف له الطبيب لزقة خردل، وأضاف أنه لا بدَّ من إجراء عملية لميخائيل ونقله الى المستشفى في ذلك اليوم بالذات. فلهث ميخائيل:

ـ إذهب إلى الشيطان! سأموت دون عونك، يا ابن الكلبة!

عندما رحل الطبيب وراحت الزوجة ترجوه، وقد عسف الدمع في جفونها، أن يقبل بإجراء تلك العملية، هزَّ قبضته في وجهها ونبر:

ـ إذا شفيت لن تزداد حالك إلا سوءاً على سوء!

مات في الصباح في ذات اللحظة التي دوت فيها الصفارة. رقد في نعشه فاغر الفم، مقطب الحاجبين استياء. قبره امرأته، وابنه، وكلبه، ودانيللو فيزوفشيكوف (وهو لص قديم وسكير عربيد طُرد من المصنع)، وبعض المستعطين المحليين. بكت امرأته قليلاً، في كثير من الهدوء، أما بافل فلم يذرف الدمع أبداً. كان الناس المارَّة الجنازة بهم يقفون، ويرسمون إشارة الصليب، ويقولون:

ـ يجب أن تكون بيلاجيا سعيدة لموته...

وأضاف بعضهم:

ـ مات كلباً مثلما عاش...

رجع الناس بعد أن واروا النعش التراب. أما الكلب فبقي جالساً على الأرض الرطبة برهة طويلة يشمُّ القبر في سكينة وهدوء. وبعد أيام وجدوه مقتولاً...

3

رجع بافل فلاسوف الى البيت وقد تعتعه السكر، ذات أحد عقيب موت أبيه بأسبوعين، ودلف الى البيت مترنحاً، وتجمع في مقعد عند رأس الطاولة، وراح يضرب عوارضها الخشبية بقبضة يده على ما اعتاد أبوه أن يفعل صائحاً بأمه:

ـ العشاء؛

جلست الأم بجانبه، ولفّت عنقه بذراعيها، وجذبت رأسه الى صدرها. فأبعدها عنه صائحاً:

ـ هيا، يا أمي، عجّلي!

ردّت الأم في حزن وعطف، وهي تواصل معانقته:

ـ أيها المجنون!

فتمتم بافل متلعثماً، وهو يحرك لسانه الخشن بصعوبة فائقة:

ـ وإني عازم على التدخين أيضاً! هاتي غليون أبي...

تلك أول مرة يعاقر الخمرة فيها. أنهكته الفودكا بمفعولها، لكنها ذهبت بوعيه تماماً، فراح هذا السؤال يطنُّ في رأسه دون انقطاع:

«أأنا سكران؟ أأنا سكران؟»

شعر بالضيق تجاه حنان أمه وعطفها، وتأثر بمخايل الكآبة والحزن في عينيها. وأحسَّ برغبة في البكاء. لكنه راح يتظاهر، كيما يتغلب على هذا الشعور، بأنه أشد سكراً مما هو عليه حقيقة.

داعبت الأم شعره المشتبك الرطب، قائلة في لطف ورقة:

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا...

بدأ يحس بالغثيان والقرف. وبعد نوبة شديدة من القيء رافقته الأم إلى فراشه، ووضعت منشفة مبلولة على جبينه الشاحب. ردَّ عليه ذلك بعض رشده، لكن الأشياء ظلت تسبح وتدور حوله وتحته، كما بقيت أجفانه ثقيلة حتى ليعجز عن رفعها. وشخص من خلال أهدابه، وذلك الطعم الكريه يملأ فمه، إلى وجه أمه العريض مفكراً:

«يبدو أنني لا أزال صغير السن. فالآخرون يشربون ولا يصيبهم شيء، أما أنا فمرضت...».

أتاه صوت أمه الحنون من مكان ناء سحيق:

ـ وكيف تستطيع إعالتي إذا أدمنت بنت الكرم؟...

فأجاب، مغلقاً عينيه بشدة:

ـ الجميع يشربون...

تنهدت الأم.. إنه على حق. فهي نفسها تعرف أن الحانة هي المكان الوحيد الذي يجد الناس فيه قطرات من سعادة.

قالت:

ـ لكنْ، لا تعتد أنت على الشرب! شرب أبوك عنه وعنك، وما يزيد أيضاً. أفلا يكفيني ما لقيت من شقاء على يديه.. أفلا ترحم أمك قليلاً؟

تذكر بافل، وهو يصغي إلى هذه الكلمات الحزينة الناعمة، أنه لم يكن يشعر بوجود أمه في الدار تقريباً في حياة أبيه، فهي تحيا في سكون وخوف دائم من الضرب والصفع. ولقد ظل، هو الآخر، بعيداً عن الدار ما استطاع الى ذلك سبيلاً تجنباً لملاقاة أبيه، فشبَّ بعيداً عن أمه غير مؤالف لها. أما الآونة فهو يشخص إليها بشدة وثبات ويصحو من سكره شيئاً فشيئاً.

كانت وافية القامة على شيء من الانحناء الى الأمام؛ يتحرك جسدها الذي حطمه العمل المرهق وضرب زوجها المستمر دون ضجة، مائلاً قليلاً إلى أحد الجانبين كمن تخاف أن ترتطم بشيء ما. وكان وجهها المتورم العريض البيضوي الشكل الذي جعدته السنون وحفرت فيه غضوناً كثيرة عميقة يتضوأ بعينين سوداوين يطفح منهما الذعر والكآبة، مثلها مثل معظم عيون النساء في الضاحية. وكان يعلو حاجبها الأيمن ندبة عميقة تجر الجفن الى العالي، موحية أن أذنها اليمنى ترتفع أيضاً عن مستوى الأذن اليسرى، فيضفي ذلك على وجهها سيماء من يصيخ السمع دائماً، خائفاً من شيء ما. وكانت خيوط من البياض تلمع في شعرها الأسود الكثيف. لقد كانت، بكلِّيتها، رقة وكآبة وإذعاناً...

انحدرت دموع متأنية على خديها، فقال ابنها في عذوبة:

ـ مهلاً، لا تبكي! أعطيني لأشرب.

ـ سآتيك بقليل من الماء المثلج...

وجدته حين عادت يغطُّ في النوم فوقفت برهة تترنَّى إليه، يرتعش

القدح في يدها فيقرع الثلج فيه جدرانه المعدنية. ثم وضعت القدح على المائدة، وسقطت بهدوء جاثية على ركبتيها أمام الأيقونات. كانت أصداء الحياة الثملة في الخارج تصطدم بزجاج النافذة، وأكورديون يزعق في دكنة مساء الخريف ورطوبته، وشخص ما يغني بصوت عالي النبرة، وشخص آخر يتشدق بسلسلة من الشتائم القبيحة، وأصوات بعض النسوة تعكّر سجوَّ الليل منهوكة هائجة...

أخذت الحياة تجري في دار آل فلاسوف الصغيرة في هدوء وسكينة أكثر من ذي قبل، تختلف نوعاً ما عنها في البيوت الأخرى. كانت دارهم تقوم على حافة الضاحية فتشرف على منحدر حاد ـ إن لم يكن على جرف مرتفع ـ يؤدي الى المستنقع الموحل. وكان ثلث الدار يتألف من المطبخ وغرفة صغيرة منفصلة عنه بحاجز خفيف تنام فيها الأم، أما الثلثان الباقيان فغرفة مربعة واسعة ذات نافذتين، يحتل سرير بافل إحدى زواياها، ويحتل الزاوية الأخرى مائدة ودكتان. وكان بقية الأثاث يتألف من عدد المقاعد وصوان بياض عليه مرآة صغيرة، ومن صندوق يحوي ثيابهم، وساعة ثبتت في الحائط، وأيقونتين قائمتين في زاوية ثالثة من الغرفة.

فعل بافل ما ينتظر أن يفعل شاب مثله، فابتاع لنفسه أكورديوناً، وقميصاً ياقته منشّاة، وربطة عنق زاهية الألوان، وجزمة مطاط، وعصاً، فأصبح بذلك مثله مثل أقرانه جميعاً على حد سواء. وكان يذهب الى الحفلات مساء ويتعلم كيف يرقص البولكا والكادريل، ويؤوب في عشيات الآحاد الى البيت ثملاً، متألماً أبداً من تأثير الفودكا. وكان يفيق صباح الاثنين وفي رأسه صداع، وفي معدته حرقة، وفي وجهه شحوب وإمارات بؤس وأوجاع.

سألته أمه مرة:

ـ هل قضيت وقتاً طيباً مساء البارحة؟

فأجاب في امتعاض وانفعال مكتوم:

ـ الضجر... الضجر! يفضل أن أخرج لصيد السمك، أو لعلّي ابتاع بندقية اصطاد بها طيوراً.

كان يعمل في أمانة وغيرة، فلا يرتكب أبداً ما يستحق اللوم عنه. وكان سكوتاً على الدوام، يطفح الاكتئاب من عينيه الزرقاوين الواسعتين، مثله في ذلك مثل أمه. ولم يشترِ بندقية أو يخرج لصيد السمك، ولكن سرعان ما اتضح أنه يحيد عن الدرب التي يسلكها الجميع دونما تفريق إذ ندر اشتراكه في الحفلات، وأصبح يعود إلى المنزل صاحياً أيام الآحاد بالرغم من تغيبه. واستطاعت عين الأم الحادة الثاقبة أن تلمح نحولاً متزايداً في وجه ابنها الأسمر النحاسي، وَجداً متعاظماً في عينيه، وانضماماً في شفتيه يجعلهما منطبقتين بشدة في خط قاس يضمُّ في جنباته حزناً يرعاه أو علة تمتصُّ عافيته. وما أكثر ما كان أصحابه يأتون لزيارته فيما سبق؛ أما الآن، فأصبحوا لا يجدونه في الدار فانقطعوا عن المجيء. واغتبطت أمه حين رأته يختلف عن سائر الشباب في المصنع، وإن لم تستطع أن تخفي القلق والخشية لدى شعورها أنه يوجه طريق حياته، في كثير من العزم والعناد، بعيداً عن تيار الحياة المظلمة التي تحدق به.

كانت تسأله من حين لآخر:

ـ أواثق أنت، يا باشا(*)، من سلامة صحتك؟

فيجيب:

ـ إنني لعلى أحسن حال!

فتتأوه وتقول:

ـ ما أشدَّ هزالك!

بدأ يحمل معه كتباً الى الدار. كان يقرأها خفية، ويخبئها عندما ينتهي

(*) كنية التدليل من بافل. المترجمان.

من قراءتها في حرز أمين. وفي بعض الأحيان يروح ينسخ شيئاً من أحد تلك الكتب ويخفي الورقة...

كانا يتكلمان قليلاً، ولا يلتقيان إلا في فترات قصيرة جداً؛ فهو يحتسي شايه في الصباح صامتاً، ثم يغادر المنزل إلى عمله. وعند الظهيرة يجيء لتناول الغداء فيتبادل وإياها ـ أثناء الطعام ـ بعض الملحوظات العابرة ويختفي من جديد حتى المساء. فإذا رجع بعد انتهاء العمل اغتسل بعناية وتناول عشاءه وقعد يقرأ مدة طويلة. في أيام الأعياد كان يغادر البيت منذ الصباح الباكر ولا يرجع إلا في ساعة متأخرة من الليل. وعرفت أنه يقصد المدينة أحياناً حيث يشهد المسرح من وقت لآخر. لكن أحداً من المدينة لم يأتِ لزيارته أبداً. وكان يبدو لها أن كلام ابنها يتناقص باستمرار على مرِّ الأيام، بَيْدَ أنها وعت في حديثه كلمات جديدة لا تفهمها، فيما تلك التعابير القاسية الفظة التي كان يستعملها قبلاً تتوارى شيئاً فشيئاً من أحاديثه. واسترعى انتباهها كثير من التفاصيل الجديدة في سلوكه، فهو لا يتحذلق الآن في تأنقه بل يزيد من العناية بنظافة جسده وثيابه. وصارت حركاته أكثر حرية واتزاناً وتصرفاته أكثر بساطة وأقل شراسة. ومع ذلك، انشغل بالها لهذه التبدلات التي لم تجد لها تعليلاً ـ لا بل إن عناصر جديدة ظهرت في علاقاته معها فهو ينظف أرض الغرفة أحياناً، ويرتب سريره في أيام الآحاد دائماً، ويسعى بصورة عامة الى معاونتها في عملها. إن أحداً من الرجال الآخرين في الضاحية لم يفعل ذلك أبداً.

ذات يوم حمل معه الى البيت صورة علَّقها في الحائط. كانت الصورة تمثل ثلاثة أشخاص غارقين في نقاش عميق، وهم يحثون الخطى ـ بخفةٍ ولهفة ـ على طول الطريق.

قال بافل لها معنى الصورة:

ـ إنه المسيح القائم من بين الأموات في طريقه إلى قرية عيماس!

أعجبت أمه بالصورة، لكنها قالت في نفسها:

«لماذا لا تذهب إذن إلى الكنيسة ما دمت مغرماً بالمسيح حتى هذا الحد؟...».

وتضاعف عدد الكتب على الرف الجذاب الذي صنعه نجار من أصدقاء بافل. وبدأت الغرفة تأخذ مظهراً جميلاً لطيفاً.

كان يدعوها أمي عادة، لكنه شرع يخاطبها باحترام أكثر، ويستعمل صيغة الجمع في حديثه معها. ومن حين لآخر يتوجَّه إليها في كثير من الحنان والرأفة قائلاً:

ـ لا تقلقي من أجلي، يا أمّاه، فلربما تأخرت في العودة هذه الليلة...

كانت تحبُّ ذلك، وتشعر بوجود شيء رزين قوي في هذه الكلمات.

لكن قلقها نما وتضاعف؛ وبالرغم من أنها لم تعد تعرف له سبباً، فقد ازداد قلبها ثقلاً يوماً بعد يوم، وهي تشعر ـ بغموض ـ أن ثمة شيئاً غير عادي وراء تلك الأمور. لا بل إنها تستاء من ولدها في بعض الأحيان، وعندئذ تأخذ في التفكير:

«الناس يتصرَّفون كما ينبغي أن يتصرفوا، أما هو فأشبه بالرهبان، جدّيٌّ أبداً ورزين دائماً. ذلك لا يلائم سنّه...».

ثم تهامس نفسها من جديد:

«لربما علق بفتاة في مكان آخر!».

لكن صحبة الغواني تتطلب مالاً، وهو ينقدها كامل أجوره تقريباً.

ومرت الأسابيع والشهور على هذا المنوال، وانصرم عامان من هذه الحياة الصامتة الغريبة الملأى بالأفكار الغامضة، الطافحة بالمخاوف المتزايدة أبداً.

4

ذات مساء، بعد العشاء، أسدل بافل ستائر النافذة وعلّق المصباح القصديري في الحائط فوق رأسه، وجلس في إحدى الزوايا مستغرقاً في القراءة. فخرجت أمه من المطبخ حيث تغسل الصحون، واتجهت نحوه متبطئة في سيرها. رفع رأسه وأمعن النظر فيها متسائلاً؛ فتمتمت بسرعة، وهي تقفل راجعة الى المطبخ، وحاجباها يرتفعان في ارتباك:

ـ لا شيء، يا باشا، لا شيء على الاطلاق!

توقفت وسط المطبخ برهة قصيرة مستغرقة في أفكارها القلقة ثم غسلت يديها بعناية كبيرة واقتربت مرة أخرى من ولدها، وقالت في سكينة:

ـ كنت أريد أن أسألك عما تقرأ طوال الوقت؟

فأطبق الكتاب، وقال لها:

ـ أجلسي، يا أماه...

جلست أمه متثاقلة الى جانبه، وقومت من اعوجاج ظهرها، وتهيأت لسماع أمور فائقة الخطورة.

تكلم بافل، دون أن ينظر اليها، في صوت خفيض لم يخلُ، لسبب ما، من قسوة:

ـ أنا أقرأ كتباً ممنوعة. هي ممنوعة لأنها تقول الحقيقة عن حياة العمال... وهي تُطبع في الخفاء. وإذا وجدوها عندي ألقوا بي في غياهب السجن، في السجن لأني أريد معرفة الحقيقة. هل تفهمين؟

على حين غرة أحست صعوبة كبرى في التنفس. فتحت عينين واسعتين، وشرعت تنظر إلى فتاها وقد خيل إليها أنه غريب عنها تراه للمرة الأولى. كان صوته متبدلاً، لكن أعمق وأثرى وأشدّ رنيناً. وكان يفتل شاربه الكث، ويرنو إلى الزاوية بصورة غريبة من تحت جفنيه المسبلين. ساورها الخوف من أجله، وأشفقت عليه في الوقت ذاته.

استفسرت:

ـ ولماذا تفعل ذلك، يا باشا؟

فرفع رأسه وروّى النظر فيها، وأجاب في هدوء وطمأنينة:

ـ لأني أريد معرفة الحقيقة.

كان صوته ناعماً لكن ثابتاً، وكان عزم عنيد يتّقد في عينيه. حدثها قلبها أن ابنها نذر نفسه، حتى الأبد، لشيء رهيب محوط بالأسرار. كانت تعتبر كل شيء في الحياة أمراً محتوماً لا مفرَّ منه ولا مهرب، وكانت معتادة على الاستسلام دون سؤال أو تذمر، فاستسلمت تبكي الآن في هدوء وبساطة، دون أن تجد الكلام في قلبٍ يعتصره الألم واللهفة، والغمّ.

عالنها بافل في لهجة ناعمة حنون، هدهدَ لها ـ مع ذلك ـ أنها كلمات الوداع:

ـ لا تبكي! فكّري فقط في نمط الحياة التي نعيش! هذه أنت سلخت من عمرك أربعين عاماً، فماذا رأيت خلالها؟ كان والدي يضربك ـ وأنا أدرك الآن أنه كان يخفف بذلك المتاعب عنه، وينفّس كل شقاء الحياة التي يعيش. كان ذلك الشقاء يرهقه إرهاقاً دون أن يدري من أين يأتي. لقد عمل طوال ثلاثين عاماً، بدأ يعمل يوم لم يكن المصنع بأسره أكثر من محلين صغيرين؛ أما الآن فقد أصبح سبعاً من البنايات الضخمة!

كانت تصغي اليه في لهفة، لكن في خوف أيضاً. لتلتهِبُ عيناه بنورٍ حبيبٍ الى النفس، وهو يستند بصدره الى المائدة وينحني عليها حتى يلامس وجهها المبلل بالدموع، ويتفوّه بأول حديث له عن الحقيقة التي اهتدى إليها أخيراً. كان يتحدث عن الأمور التي أصبحت واضحة بيِّنة بالنسبة إليه بكل قوى فتوّته، وبكل حماسة التلميذ الفخور بمعرفته المؤمن كل الإيمان بحقيقتها. إنه يتحدث ليجرِّب نفسه أكثر منه ليقنع والدته. وكان يتوقف أحياناً، تعوزه الكلمات، ثم يصبح شاعراً بذلك الوجه

المتألم المائل أمامه بعينيه اللطيفتين المتألقتين من خلال غشاءٍ من الدموع، الناظرتين إليه في ذعر وعجب. أشفق عليها، فطفق يتحدث من جديد، لكن عنها وعن حياتها هذه المرة، فقال:

ـ ما هي الأفراح التي عرفتِ؟ ماذا خلَّف لك الماضي من ذكريات؟

أصغت إليه وهزت رأسها بكآبة، وهي تحس شيئاً جديداً مجهولاً، شيئاً مفرحاً ومؤلماً في وقت واحد، يمسح برفق وحنوٍّ على قلبها الموجع الأسوان. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها إنساناً يتحدث عنها وعن حياتها، فأثارت الكلمات في خاطرها أفكاراً غامضة أبعدتها عنها منذ زمن سحيق؛ بل أحيت فيها ـ بكل هدوء ـ شعوراً ميتاً بالاستياء من الحياة، أفكار الشباب البعيد ومشاعره. في ذلك الحين كانت تتحدث عن الحياة مع صديقات صباها وفتوَّتها؛ كانت تتحدث وإياهن عن كل شيء وفي فترات طويلة. لكن سائر صديقاتها، وهي معهنّ أيضاً، لم يفعلن سوى الشكوى دون السعي وراء إيجاد تعليلٍ لقساوة الحياة التي يعشنها. وهذا ولدها يجلس أمامها الآن فيمسُّ شغاف قلبها كلُّ ما تعبِّر عنه عيناه، ووجهه، وكلماته؛ فيمتلىء ذلك القلب فخراً بهذا الابن الذي يفهم جيداً حياة أمه، والذي يتحدث إليها عن آلامها ويعطف عليها.

لكن الأمهات لم يكنَّ يوماً ليتمتَّعن بالعطف والشفقة.

إنها تعرف هذا، وتعرف أن كل ما قال عن حياة النساء هو الحقيقة المألوفة المرَّة؛ ولذلك تحس الآن مشاعر لطيفة تضطرب في صدرها وتدبُّ، وتدفىء قلبها بعطف غير معهود.

قطعت عليه الحديث متسائلة:

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

فأجاب:

ـ أن أدرس أولاً، ثم أعلِّم الآخرين. نحن، العمال، يجب أن ندرس؛ يجب أن نفتش ونفهم أسباب العناء في حياتنا.

كانت سعيدة وهي ترى عينيه الزرقاوين، وعهدها بهما صارمتين قاسيتين على الدوام، تمتلئان الآن بنورٍ ناعمٍ، حلوٍ، لطيف. تاهت بسمة هادئة على شفتيها، وإن كانت الدموع لَم تزل ترتجف في غضون وجنتيها. كان يتنازعها عاملان: شعور بالفخر بابنها الذي وعى، بكل ذلك الوضوح، مرارة الحياة؛ وإدراكها أنه لا يزال شاباً، وأنه يتكلم بصورة تختلف كثيراً عن سائر الآخرين، وأنه أخذ على عاتقه أن يخوض المعركة وحيداً ضدَّ هذه الحياة المألوفة لدى جميع الناس، وهي منهم. وأرادت أن تقول له: «ماذا تستطيع أن تفعل أنت وحدك، يا حبيبي؟».

لكنها أشفقت أن تتلف إعجابها به، هو الذي كشف، بغتةً، عن ذكاء لم تكن تنتظره منه... أن أحست في الوقت نفسه أنه أصبح غريباً عنها بعض الشيء.

ورأى بافل الابتسامة على شفتي أمه، والانتباه في وجهها، والمحبة في عينيها، فبدا له أنه نجح في إفهامها الحقيقة التي يدافع عنها ويذود، واعتراه شعورٌ مستجدٌّ بالاعتزاز بقوة كلماته رفع من ايمانه بنفسه. وانثال يتكلم بحماسة، يبتسم تارة، ويعبس تارة أخرى، وترن كلماته في بعض الأحيان في كثير من الحقد، فتجفل الأم لدى سماعها هذه الكلمات القاسية الرنانة، وتهز رأسها وهي تسأله في نعومة:

ـ أحقٌّ ما تقول، يا باشا؟

فيجيب في ثبات:

ـ نعم، إنه لكذلك!

ويشرع يحدثها عن أولئك الذين أرادوا مساعدة الشعب، فزرعوا الحقيقة بين الناس، الأمر الذي لاحقهم من أجله اعداء الحياة كالوحوش المفترسة، وألقوا بهم في ظلمات السجن، وحكموا عليهم بعبودية الأشغال الشاقة...

صاح متحمّساً:

ـ لقد رأيت مثل هؤلاء الناس! إنهم ملح الأرض!

أجفلت ذعراً لدى التفكير في هؤلاء الناس، وودَّت مرة أخرى أن تستوضح فتاها: هل الحقيقة ما يقول؟ لكنها لم تجرؤ على ذلك. أخذت تصغي، منقطعة الأنفاس، إلى أقاصيصه عن أناس لا تفهمهم، هم الذين علموا ابنها أن يقول تلك الأمور الخطيرة ويفكر فيها.

وأخيراً قالت له:

ـ سينبلج الصبح عما قريب، فهلَّا أصبت بعض الراحة؟

فوافق قائلاً:

ـ سأذهب إلى الفراش الآن!

وانحنى عليها، وسأل:

ـ أفهمتِ ما قلتُ؟

فردَّت، وهي تتنهد:

ـ نعم!

تدفقت الدموع من عينيها مرة أخرى، وقالت وهي تشهق:

ـ سيؤول ذلك بك الى الدمار، يا بنيَّ!

نهض، وطفق يتمشى في الغرفة جيئةً وروحةً، وقال:

ـ حسناً، أنت الآن تعلمين ما أفعل، والى أين أذهب. لقد رويتُ لك كل شيء! فإن كنت تحبينني، يا أماه، فلا تعترضي سبيلي!

فهتفت:

ـ أواه، يا عزيزي! لربما كان من الأفضل ألّا تروي لي شيئاً!

فأمسك يدها وضغط عليها بحرارة، فغمرها ذلك الاحساس الدافىء الفائضة به كلمة أماه، المتجلي في ذلك الضغط الغريب غير المعتاد على يدها.

قالت في صوت متكسر:

ـ لن أفعل ما يسوؤك، إنما أطلب إليك أن تحترس لنفسك! إحترس جيداً!

ثم أضافت في كآبة، دون أن تفهم ماهية الخطر الذي يهدِّد ولدها:
ـ أنت تزداد نحولاً يوماً بعد يوم...
وأحاطت جسده القوي المتين بنظرة تطفح محبة وحناناً. وأخذت تقول في هدوء وعجل:
ـ فليكن الله معك! عش كما تجد مناسباً أن تعيش! معاذ الله أن أقف في طريقك. بَيْد أني أسألك شيئاً واحداً فقط ـ لا تكُ متهوراً في حديثك مع الناس! ينبغي أن تحمل في نفسك الخوف منهم. إنهم يبغضون بعضهم بعضاً! يعيشون جميعاً في الطمع، والحسد، والغيرة، ويبتهجون إذ يُلحقون الأذى ببعضهم البعض. فإذا أخذت تكشف عن حقيقتهم وتتهمهم أبغضوك ودمّروك!
وقف فتاها في فجوة الباب يستمع إلى كلماتها الموجعة، ثم تبسم عندما انتهت من حديثها وقال:
ـ إنك لعلى حق، فالناس أشرار جميعاً! لكنني حين عرفت أنَّ في العالم شيئاً كالعدالة بدوا لي أفضل من ذي قبل!
وابتسم من جديد، وأضاف:
ـ أنا نفسي لا أعرف كيف حدث ذلك! في طفولتي كنت أخاف من جميع الناس. وعندما شببتُ كنت أكرههم جميعاً، أبغض البعض لدناءتهم والآخرين دون أن أدري لماذا، هكذا لمجرد البغض! أما الآن، فكل شيء يبدو لي غير ما كان عليه. لعلَّ السبب في ذلك أني أشفق على الناس. لقد رقَّ قلبي نوعاً ما عندما تحققت أن الناس جميعاً ليسوا بمسؤولين عن حقارتهم ودناءتهم...
كفَّ عن الكلام، وكأنه يصغي الى صوت في داخله. ثم أضاف في عذوبة وتروٍ:
ـ تلك هي الحقيقة إذن!
قالت أمه في هدوء، وهي تنظر إليه:
ـ أواه، أيها المسيح المخلص! أي تبدل خطير طرأ عليك!

عندما استغرق في نومه نهضت من فراشها بهدوء وذهبت إليه. كان بافل مستلقياً على ظهره ووجهه الصارم الممتلىء عزماً ينعكس بوضوح على غطاء الوسادة الأبيض. وقفت الأم هناك حافية القدمين، في ثياب النوم، ويداها تضغطان على صدرها، وشفتاها تتحركان دون ضوضاء، ودموع كبيرة تتدحرج ببطء على وجنتيها...

وعادا مرة ثانية الى حياتهما الصموت، متباعدين متلاصقين في وقت واحد.

5

ذات يوم عطلة في منتصف الأسبوع التفت بافل إلى أمه وهو يغادر البيت، وخاطبها قائلاً:

ـ سيزورني، نهار السبت القادم، ضيوف من المدينة. فردّدت والدته:

ـ من المدينة؟

وتملكها فجأة نشيج عنيف دفع الدموع إلى عينيها.

سأل بافل متضايقاً:

ـ ما بالك، يا أماه؟

فمسحت عينيها بطرف مئزرها وقالت، وهي تتنهد:

ـ لست أدري... لا شيء البتة...

ـ أخائفة أنت؟

فتمتمت موافقة:

ـ نعم!

انحنى عليها، وخاطبها بفظاظة كما تعوّد أبوه أن يفعل، قائلاً:

ـ هذا الخوف هو دمارنا، والذين يقودوننا يستغلون هذا الخوف ويضاعفون في ذعرنا.

فغمغمت والدته، والشقاء يرتجف مع ارتجافات صوتها:

ـ لا تغضب! كيف يمكنني ألا أخاف؟ قضيت حياتي والخوف يعتصرني. شبّت روحي والخوف معاً!

فقال في لهجة عذبة:

ـ إصفحي عني. ليس هناك من سبيل آخر!

وذهب.

ظلت طوال ثلاثة أيام ترتعد فرقاً، ويكفُّ قلبها عن الخفقان كلما تذكرت أنَّ أولئك القوم الغرباء المخيفين الذين دلوا ابنها على الدرب التي يسير عليها الآن سيؤمون بيتها.

رجع بافل مساء السبت من المصنع، فاغتسل وارتدى ثياباً نظيفة، وخرج بعد أن قال لأمه، دون أن ينظر اليها:

ـ إن سأل عني أحد قولي إني لن أتأخر في العودة. ولا تجزعي من محبة بالآلهة...

تراخت في ضعفٍ على دكة قريبة، فاقترح بافل بعد أن نظر إليها نظرة عابسة:

ـ لعلك ترغبين في الذهاب إلى مكان ما؟

آلمتها كلماته وقالت وهي تهز رأسها نفياً:

ـ كلا، ليس بي رغبة!

كان ذلك في أواخر تشرين الثاني، وقد تساقط ثلج ناعم جاف، طوال النهار، على الأرض المتجمدة التي أخذت تتكسر تحت أقدام الفتى المنصرف لتبلغ فرقعتها سمع الأم. وكان الظلام الغليظ يخيم في الخارج ويتعلق بزجاج النوافذ، وكأنه يتربع منتظراً في تحفز وعداوة. وبقيت الأم جالسة في مكانها، تشدُّ بكلتا يديها على الدكة الخشبية، وعيناها تراقبان الباب لا تحيدان عنه.

خيل إليها أن أناساً أشراراً، يرتدون ثياباً غريبة يخبون في الظلمة من كل جانب، ظهورهم مقوّسة وأنظارهم مختلسة؛ وأن خطوات متلصصة تحاصر المنزل، وأصابع محاذرة تتحسس الجدران.

وسمعت صوتاً يصفر لحناً شرعت أصداؤه تنساب رقيقة في السكون، حزينة متناسقة، تتيه في الظلمة الفارغة وكأنها تسعى وراء شيء ضاع منها. وأخذ الصفير يزداد قرباً، ثم انقطع بغتة عند النافذة تماماً، وكأن خشب الحائط امتصَّه عن آخره. وتردد عند الباب وقع أقدام فأجفلت الأم، وهبّت على قدميها واقفة، وقد ارتفع حاجباها بشدة.

فُتح الباب، وبدا فيه أولاً رأس تغطّيه قبعة كبيرة شعثاء الفرو، ثم خطا في بطء جسد مديد عبر الباب المنخفض الى داخل الغرفة، وانتصب الشخص الدخيل ولوَّح دون عجل بذراعه اليمنى تحية، وقال في نبرة عميقة وهو يتنهد بشدة وضجيج:

ـ عمي مساء!

فانحنت الأم دون أن تردَّ جواباً.

ـ هل بافل هنا؟

خلع الزائر ببطء سترته المصنوعة من الفرو، ورفع إحدى رجليه ليمسح بقبعته عن حذائه ما علق به من الثلج، وكرَّر العمل ذاته بالرجل الثانية، ثم ألقى قبعته في إحدى الزوايا، وتقدم عبر الغرفة مترنحاً على ساقيه الطويلتين؛ وبعد أن تفحص بدقة أحد المقاعد، وكأنه يتأكد من متانته جلس أخيراً وتثاءب وهو يستر فمه بإحدى يديه. كان رأسه مستدير الشكل قصير الشعر، ووجهه حليقاً باستثناء شاربه الطويل المسترسل الى المنتهى. طفق يتفحص الغرفة باعتناء بعينيه الواسعتين الرماديتين الجاحظتين ثم استفسر وهو يلفُ ساقاً على ساق. ويتأرجح إلى الأمام والخلف في مقعده:

ـ أهذا الكوخ ملككما، أم تقطنانه بالأجـرة؟

فأجابت الأم من حيث جلست قبالته:

ـ بل بالأجرة.

ـ ليس هو بالمكان الجميل!

ـ سيأتي باشا عما قريب، فانتظره قليلاً!

فردَّ الرجل الطويل في هدوء:

ـ وهذا ما أنا فاعلٌ!

شجعها هدوؤه، وصوته الرقيق، ومحياه البسيط. كانت نظرته صريحة تبعث على الارتياح، وشرارات من المرح تسطع في أعماق عينيه الصافيتين. كان في طلعته المنحنية، الذابلة، المتطاولة الساقين، شيء جذاب يتوجه الى القلب مباشرة. وكان يرتدي قميصاً أزرق، وسروالاً عريضاً أسود يدخل في حذائيه. أرادت أن تسأله عن هويته، وعن المكان الذي قدم منه، وعما إذا كان يعرف ابنها منذ طويل زمن ولكنه مال الى الأمام، على حين غرة، وبدأ الحديث سائلاً:

ـ من لطمك بكل هذا العنف على رأسك، يا أميمة؟

كان صوته لطيفاً، وعيناه تضحكان دون خبث، ولكن سؤاله جرح شعورها. سألته في أدب بارد، من خلال شفتين منضمتين بعد برهة قصيرة من الصمت:

ـ وما شأنك في ذلك، يا فتى؟

فقال، وقد انحنى صوبها بكامل جسده:

ـ ليس في هذا ما يسوؤك، يا أميمَة! سألتك لأن الأم التي تبنّتني حملت ندبة تشبه هذه الشبه كله. وكان الرجل الذي نعيش معه السبب فيها، إذ ضربها مرة بقالب الأحذية. كان إسكافياً وهي غسالة. لقد التقطته في مكان ما ـ لسوء طالعها اللامتناهي ـ وهو السكير الذي لا يصلح لشيء، وجرى ذلك بعد أن تبنتني. لشدَّ ما كان يضربها! كان جلدي يتشقق عندئذ خوفاً...

جرَّد هذا الاعتراف الأم من سلاحها، فبدأت تخاف غضبة بافل إذا علم أنها أجابت الرجل الغريب بتلك الحدة. قالت، وعلى شفتيها ابتسامة مذنبة:

ـ لم يسؤني ذلك حقاً. ولكنك سألتني بصورة مفاجئة باغتتني. هو زوجي الذي ترك لي هذه الندبة، أسكنه الله جنان ملكوته! ألست تترياً؟

هز الرجل ساقيه، مبتسماً بسخاء حتى لاحت أذناه وقد تراجعتا الى الخلف. لكنه سرعان ما استرد جدَّه ورزانته:

ـ كلا. لم أصبح تترياً بعد.

فقالت الأم مبتسمة، وقد أدركت النكتة:

ـ في حديثك رطانة غير روسية!

قال الضيف وهو يهز رأسه في مرح:

ـ إن لهجتي أفضل من اللغة الروسية! أنا أوكراني من مدينة كانييف.

ـ وأنت هنا منذ زمن طويل؟

فقال، وهو يفتل شاربيه:

ـ عشت في المدينة سنة أو أقل. ثم جئت المصنع هنا منذ شهر تقريباً. ثمة قوم طيبون ههنا، ابنك، وبعض الآخرين أيضاً. أعتقد أني سأبقى هنا طويلاً!

أحبته، وأرادت أن تكافئه بطريقة ما من أجل تلك الكلمات التي قالها عن ابنها. فسألته:

ـ لعلك ترغب في تناول كأس من الشاي؟

فأجاب، وهو يهز كتفيه:

ـ ولِمَ أتناوله وحدي؟ انتظري قدوم الباقين، وعندئذ تكرميننا جميعاً....

فذكرتها كلماته بمخاوفها. همست في نفسها بحرارة: «لو أن الباقين يماثلونه لطفاً فقط!».

علا من جديد وقع أقدام عند مدخل الدار، وانفتح الباب بسرعة، فهبت الأم مرة أخرى على قدميها، ولشدَّ ما كانت دهشتها عظيمة عندما رأت فتاة في زهوة الصبا تدخل المطبخ. كانت أقرب إلى القصر، لها وجه مسطح كوجوه الفلاحات، وقد جمرت شعرها الأشقر في جديلة واحدة كثيفة. سألت في لهجة عذبة:

ـ هل تأخرت؟

فأجاب الأوكراني، متطلعاً من خلال الباب:

ـ كلا، لم تتأخري! أجئت ماشية طوال الطريق؟

ـ طبعاً! ألأنتِ أمُّ بافل ميخائيلوفيتش؟ عمي مساء، أسمي ناتاشا...

فسألتها الأم:

ـ ولقبك؟

ـ فاسيليفنا. وأنت ما اسمك؟

ـ بيلاجيا نيلوفنا.

ـ وهكذا تعارفنا الآن...

فقالت الأم، وهي تتنهد بلطف وتبتسم للفتاة:

ـ نعم!

وسأل الأوكراني، وهو يساعد الفتاة على خلع معطفها:

ـ أكان الطقس بارداً؟

ـ لاذع عبر الحقول! يا لها من ريح عصوف!

كان صوتها غنياً صافياً، وفمها صغيراً، وشفتاها ممتلئتين، وقامتها قصيرة مستديرة، حيّة كالخوخة الناضجة. وبعد أن خلعت معطفها راحت تدلك خديها المورّدين بيدين صغيرتين محمرتين بتأثير الصقيع، ثم دخلت عجلى الى الغرفة الكبيرة وهي تضرب الأرض بشدة بنعلي حذائها.

همست الأم لنفسها: «إنها لا تلبس جزمة مطاط!».

وقالت الفتاة، وهي ترتجف:

ـ برـ ر ـ ر... أنتما لا تتصوران كم أنا متجمدة!

فصاحت الأم، وهي تسرع إلى المطبخ:

ـ لحظة واحدة وأهيىء السماور، لحظة واحدة فقط.

كان يخيل لها أنها تعرف هذه الفتاة منذ فترة طويلة، وأنها تحبها بكل عطف الأم الرؤوم وحنانها. وراحت تبتسم، وهي تصغي إلى الحديث في الغرفة المجاورة.

قالت الفتاة:

ـ ما الذي يحزنك، يا ناخودكا؟

فأجاب الأوكراني في هدوء:

ـ لا شيء على التحديد! إن للأرملة عينين رائعتين، وكنت أفكر أن عيني أمي ربما كانتا مثلهما أيضاً. ما أكثر ما أفكر بأمي، فيخيل إليَّ أنها يجب أن تكون على قيد الحياة.

ـ ولكنك رويتَ لي أنها ماتت؟

ـ تلك حاضنتي التي ماتت، وأنا أتحدث عن أمي الحقيقية. يبدو لي أنها تستعطي الآن في مكان ما على أرصفة كييف، وتشرب الفودكا، والشرطة تلطمها على وجهها كلما شربت وثملت...

وفكرت الأم، وهي تتنهد: «يا للصبي المسكين!».

قالت ناتاشا، في عجلة، شيئاً رقيقاً مؤثراً، فعاد صوت الأوكراني العميق يتردد من جديد:

ـ لا تبرحين طفلة، ولم تجتازي الكثير من التجارب بعد! إن ولادة إنسان في العالم أمر صعب للغاية، والأصعب من ذلك أيضاً تعليمه أن يكون شريفاً....

ـ يا لها من حقيقة!

هتفت الأم بذلك في نفسها، وأحست بدافع يحدوها لأن تقول للأوكراني شيئاً لطيفاً. لكن الباب انفتح ببطء ودخل منه نيقولاي فيزوفشيكوف، ابن اللص القديم دانيللو. كان نيقولاي مشهوراً في الضاحية بجفوته الناس، وانعزاله عنهم، فكانوا يسخرون منه من جراء ذلك.

سألته الأم في دهشة:

ـ ماذا تريد، يا نيقولاي؟

فقال دون أن يحيِّيها، وهو يمسح وجهه العريض المجدور براحة يده:

ـ هل بافل هنا؟

ـ كلا!

فألقى نظرة الى الغرفة ودخلها وقال:

ـ مساء الخير، أيها الرفاق...

وفكرت الأم في استهجان: «أهو منهم أيضاً؟».

ازداد عجبها عندما رأت ناتاشا تقدم إليه يدها، وهي سعيدة برؤيته...

وتبع نيقولاي اثنان آخران يكادان أن يكونا صبيين عرفت الأم أحدهما، وهو فتى قاسي القسمات، مجعد الشعر، عريض الجبهة، يدعى فيودور، وهو ابن أخ سيزوف، العامل القديم في المصنع. أما الثاني فكان خجولاً ذا شعر صقيل يكاد أن يلتصق برأسه؛ لم تكن تعرفه، لكن لم يكن فيه ما يبعث على الذعر. وأخيراً ظهر بافل، يصحبه عاملان شابان لم يكونا مجهولين عندها.

قال بافل في لطف:

ـ هل هيأت السماور؟ شكراً جزيلاً!

فسألته، وهي لا تدري كيف تعبر عن امتنانها لشيء غامض غير محدود:

ـ أأشتري شيئاً من الفودكا؟

فقال بافل، وهو يبتسم بحنان كثير:

ـ كلا، لن نحتاج إليها!

وخطر لها، بغتة، أن ابنها بالغ في وصف خطورة هذا الاجتماع حتى يضحك منها، فسألته في عذوبة:

ـ أهؤلاء هم الناس الخطرون؟

فأجاب بافل، وهو يتسلل الى الغرفة المجاورة:

ـ هم أنفسهم!

فصاحت الأم خلفه في لطف:

ـ أنت لا تعني ذلك حقاً؟ يا لك من مازح!

وفكرت في تسامح: «هو لا يزال صبياً!».

6

عندما أصبح السماور جاهزاً حملته الأم الى الغرفة المجاورة حيث تجمهر الضيوف، جلوساً حول المائدة، إلا ناتاشا التي قعدت في الزاوية تحت المصباح وبين يديها كتاب صغير. كانت تقول:

ـ كي نفهم السبب في قذارة حياة الناس...

فأضاف الأوكراني مقاطعاً:

ـ والسبب في أنهم، هم أيضاً، قذرون حتى هذه الدرجة...

ـ لا بدَّ من إلقاء نظرة على أصول حياتهم...

فتمتمت الأم وهي تصبُّ الشاي:

ـ أنظروا يا أعزائي، أنظروا في ذلك جيداً!

فصمت الجميع.

سأل بافل، وقد زوَّى ما بين حاجبيه:

ـ ما الأمر، يا أماه؟

ـ ما الأمر؟

تلفتت حواليها، فرأت الجميع يتطلعون إليها بثبات، فغمغمت في اضطراب:

ـ أواه! كنت أحدث نفسي، وقلت: ألقوا نظرة!..

فضحكت ناتاشا، وابتسم بافل في شاربيه، وقال الأوكراني:

ـ شكراً من أجل الشاي، يا أميمة!

ـ يفضل أن تعلن شكرك بعد أن تتذوقه!

وأضافت، وهي تصبو إلى ولدها:

ـ هل يزعجكم وجودي؟

فأسرعت ناتاشا تجيبها:

ـ وكيف يمكن أن يزعج وجود المضيفة ضيوفها؟ لكن يا عزيزتي، لو

أنك تسرعين وتعطينني بعض الشاي الساخن! إن سائر أعضائي ترتجف وقدمي تجمدتا حتى أصبحتا كالجليد!

كان صوتها شاكياً، وكأنها طفلة صغيرة، فهتفت الأم في عجلة:

ـ حالاً، حالاً!

عندما انتهت ناتاشا من تناول الشاي ،صعّدت زفرة عميقة، وألقت ضفيرتها الكثّة عن كتفيها، وأخذت تقرأ في الكتاب ذي الغلاف الأصفر المزين بالرسوم. وراحت الأم تصب الشاي وتستمع إليها، وهي تحاول ألا تثير ـ أثناء ذلك ـ أدنى ضجة على الاطلاق. كان صوت الفتاة الرنان يمتزج بهمهمة السماور المتأملة؛ فيما ينتشر عبر الغرفة نسيج رائع من الأقاصيص المحدّثة عن بشر متوحشين كانوا يقطنون الكهوف ويصطادون بالحجارة. وكان ذلك كله يتردَّد كإحدى سير الجنّ، والأم تلقي النظر مراراً الى ابنها، تشاء أن تسأله كيف يمكن أن تكون مثل هذه المعرفة ممنوعة محرَّمة. وسرعان ما تعبت من الاستماع إلى المطالعة فراحت تدرس ضيوفها بنظرات مختلسة حتى لا ينتبه أحد منهم، أو ينتبه ابنها، الى ذلك.

كان بافل يجلس إلى جانب ناتاشا، وكان أجمل الحاضرين طلعة. وكانت ناتاشا، المنكبَّة فوق الكتاب، تدفع من وقت لآخر خصلات الشعر المنزلقة على صدغيها. كانت تتفوه بين الفينة والفينة، وهي تهزُّ رأسها وتخفض صوتها، بملحوظات من عندها؛ فتكفُّ عندئذ عن النظر الى الكتاب، وتأخذ تتطلع الى الوجوه المحيطة بها في كثير من الحنان والعطف. وكان الأوكراني، المتكىء على أحد جوانب المائدة، ينظر إلى أرنبة أنفه، ساعياً إلى رؤية طرفي شاربه المسترسل. وكان فيزوفشيكوف يقعد على كرسيه مستقيماً كالعصا، ويداه على ركبتيه، ووجهه المجدور، العديم الحاجبين، الدقيق الشفتين، خالٍ كالقناع من كل تعبير. كان لا يحيد بناظريه عن صورته المنعكسة على نحاس

السماور اللمَّاع دون أن يرف جفناه مطلقاً، لا بل كان يؤتى للناظر إليه أنه لا يتنفس أيضاً. وكان فيودور الصغير يصغي الى القراءة، ويحرك شفتيه دون ضجة وكأنه يردّد كلمات الكتاب لنفسه؛ بينما جلس رفيقه منحنياً بكل جسده ومرفقاه يستندان إلى ركبتيه، وخداه يعتمدان راحتيه، وابتسامة مفكرة تتيه على شفتيه. وكان أحد الشابين اللذين جاءا مع بافل أحمر الشعر مجعَّده، له عينان خضراوان مرحتان، لا ينقطع عن الحركة فوق مقعده، وكأنه يريد أن يقول شيئاً؛ أما الشاب الآخر، وهو ذو شعر أشقر مقصوص، فلا يفتأ يداعب رأسه بيده وهو مطرق يشخص الى الأرض، بحيث لم تستطع الأم رؤية وجهه أبداً. وكانت الغرفة مليئة بجو طيب وأحست الأم شيئاً غير مألوف لديها مطلقاً، وتذكرت من وراء صوت ناتاشا أمسيات صباها الصاخبة، وحديث الشباب القذر ومداعباتهم السمجة، هؤلاء الشباب الذين كانت تفوح من أنفاسهم رائحة الفودكا دائماً. وعندما تذكرتهم انقبض قلبها أسفاً لحياتها وإشفاقاً على نفسها.

تذكرت كيف خُطبت لزوجها. أمسك بها في إحدى تلك الأمسيات في الممرّ المظلم، وضغط جسدها على الجدار بعزم، وسألها بصوت خشن أبشّ:

– أتريدين الزواج مني؟

آذاها ذلك وجرح كرامتها، بَيْدَ أنه استمر يضغط على ثدييها بأصابعه الغليظة، وينفخ أنفاسه الحارة الرطبة في وجهها. سعت جاهدة للإفلات منه فلم تنجح إلا في الاستدارة جانباً، فزمجر قائلاً:

– إلى أين تذهبين؟ أعطيني جواباً أولاً!

لم تنضّ شفتاها حرفاً، وانقطعت أنفاسها ألماً وحياءً.

وفتح أحدهم باب الممرّ، فأفلتها من قبضته ببطء وقال:

– سوف أرسل خاطباً يوم الأحد المقبل...

ولقد فعل....

أغلقت الأم عينيها، وصعَّدت زفرة حرَّى، بينما ارتفع صوت فيزوفشيكوف محتجاً:

ـ أريد أن أعرف كيف يجب أن يعيش الناس، لا كيف كانوا في الماضي يعيشون!

فقال الفتى الأحمر الرأس، وهو ينهض:

ـ ذلك صحيح!

فهتف فيودور يقول:

ـ لا أوافقكما على هذا!

وتبع ذلك نقاش حامي الوطيس اتَّقدت الكلمات فيه كألسنة النيران الواهرة الملتهبة. ولم تفهم الأم مبعث صراخهم، وإن وجدت أن أحداً منهم لم يفقد زمام نفسه أو يلجأ الى تلك الكلمات البذيئة التي اعتادت سماعها على الدوام، هذا بالرغم من أن وجوه الجميع احمرَّت حدةً وهياجاً.

قالت لنفسها في تعليل ذلك: ـ «وجود الفتاة بينهم يكبح جماحهم!».

حَلَتْ لها سيماء الرزانة التي تعلو وجه ناتاشا، وهي تراقب الجميع بانتباه، وكأنها تجد هؤلاء الفتيان أطفالاً صغاراً ليس غير.

صاحت أخيراً، على حين فجأة:

ـ انتظروا لحظة، أيها الرفاق!

فخيم الصمت على الجميع، وراحوا يتطلعون اليها.

ـ من يقول منكم إن واجبنا أن نعرف كل شيء هو على حق، ذلك أنه ينبغي أن نشغل نبراس المعرفة في أنفسنا حتى يشعَّ على أولئك الذين أظلمت عقولهم وغمرهم الجهل بظله الممقوت. يجب أن نملك جواباً صحيحاً شريفاً لكل شيء. يجب أن نعرف كل الحقيقة، ونتبيّن كل البهتان...

كان الأوكراني يصغي وهو يهزُّ رأسه بتوافق مع كلماتها، أما

فيزوفشيكوف، والأحمر الرأس، وأحد الشابين اللذين جاءا في رفقة بافل، فقد شكلوا فريقاً واحداً، ولسبب ما استاءت الأم منهم.

عندما انتهت ناتاشا من الكلام، نهض بافل وقال في هدوء تام، وهو ينظر الى الثلاثة معاً:

ـ أهي معدة ممتلئة فقط ما نسعى إليه؟ أبداً! لا شيء من هذا القبيل! يجب أن نبين لأولئك الذين يركبون ظهورنا، ويضعون العصابة في ذات الوقت على عيوننا، إننا نرى كل شيء. نحن لسنا أغبياء، وكذلك لسنا حيوانات لا تطلب إلا معدة ممتلئة. نحن نريد أن نعيش حياة جديرة بكائنات بشرية! يجب أن نبرهن لأعدائنا أن حياة العبودية التي ألجمونا بها لا تمنعنا أن نكون مساوين لهم فكرياً، لا بل متفوقين عليهم أيضاً!

كان شعور من الفخر والاعتزاز يجتاح صدر الأم وهي تستمع الى هذه الكلمات. حقاً، ما أجمل حديثه!

قال الأوكراني:

ـ ثمة عدد غفير من الناس يجدون كفافهم من الطعام، لكن الشرفاء بينهم قلَّة! علينا أن نبني جسراً فوق مستنقعات هذه الحياة العرجاء يقودنا إلى مملكة الأخوّة الانسانية المقبلة! ذلك هو الواجب الذي يواجهنا، أيها الرفاق!

فاعترض فيزوفشيكوف بفظاظة:

ـ ما دامت ساعة القتال قد حلت، فما جدوى القعود مكتوفي الأيدي إذن؟

لم ينفرط عقد الاجتماع إلا بعد انتصاف الليل. سبق فيزوفشيكوف والأحمر الشعر الباقين في مغادرة المكان، الأمر الذي استاءت منه الأم أيضاً.

قالت في نفسها، وهي تنحني لهما في شيء من جفوة: «لشدَّ ما أنتما مسرعان!».

وسألت ناتاشا:

ـ هل تصحبني الى المنزل، يا ناخودكا؟

فأجاب الأوكراني:

ـ طبعاً، وهل في ذلك من ريب؟

وقالت الأم تخاطب ناتاشا المرتدية ثيابها في المطبخ:

ـ جورباك رقيقان جداً بالنسبة لهذا الطقس البارد! لعلك لا تمانعين في أن اشتغل لك زوجاً من الجوارب الصوفية؟

أجابت ناتاشا ضاحكة:

ـ شكراً لك، يا بيلاجيا نيلوفنا! الجوارب الصوفية مثار للحكة!

فقالت الأم:

ـ ولكني سأنسجها من نوع لا يثير الحكة!

فنظرت اليها ناتاشا من خلال أهدابها بثبات أحسَّت الأم تجاهه بعض الارتباك، فأسرعت تضيف بهدوء:

ـ يجب أن تغفري لي حماقتي، ولكني قلت ذلك من أعماق قلبي!

فأجابت ناتاشا في هدوء مماثل، وهي تضغط يد الأم بحماسة:

ـ يا لك من امرأة طيِّبة!

وقال الأوكراني، وهو ينظر في عينيها وينحني ليعبر الباب خلف ناتاشا:

ـ طابت ليلتك، يا أميمة!

نظرت الأم الى ابنها. كان يقف على عتبة الباب يبتسم، فسألته في ارتباك:

ـ ما الذي تضحك منه؟

ـ هكذا، فرحاً!

فردَّت بصوت ينمّ عن شيء من الزعل:

ـ قد أكون عجوزاً حمقاء، إنما أستطيع بعد أن أفهم جيداً!

فقال:

ـ عظيم هذا! لكن، يحسن أن تأوي الى الفراش، فلقد مضى من الليل أكثره!

ـ إني في طريقي إليه!

راحت تدور حول المائدة ترفع عنها الصحون والأقداح، متفجرة سعادة حتى تصببت عرقاً. كانت مغتبطة لأن كل شيء جميل، وانتهى بخير وسلام.

قالت:

ـ لقد صنعت حسناً، يا باشا، بدعوتهم! الأوكراني لطيف جداً، وأما الفتاة... فيا لها من فتاة ذكية!... من هي؟

فأجاب بافل باقتضاب، وهو يسير في الغرفة جيئة وذهاباً:

ـ معلمة!

ـ لا ريبة أنها فقيرة جداً، فلباسها سيىء للغاية، وهي لا تحتاط لنفسها من البرد. أين أهلها؟

ـ في موسكو!

قال بافل ذلك، ثم وقف قبالة والدته، وقال لها في رقة وشيء كثير من الرزانة:

ـ والدها واسع الثروة، وهو مساهم في شركة الحديد ويملك عدة أبنية، ولكنه طردها لأنها اختارت هذه الطريق في الحياة. لقد شبت في الدفء ورغد العيش، واعتادت الحصول على كل ما ترغب فيه، أما الآن فهي تمشي سبعة فراسخ، في الليل، وحدها دون رفيق...

شُدِهَت الأم لهذا الخبر، فوقفت في وسط الغرفة تنظر إلى ابنها وجفناها يرفّان دهشة. سألته في رزانة:

ـ هل غَدَت الآن إلى المدينة؟

ـ نعم!

ـ يا الله، وهي ليست خائفة؟

فضحك بافل، وأجاب:

ـ تستطيعين أن تتأكدي، من تلقاء نفسك، أنها ليست خائفة.

ـ ولكن لماذا؟ كان يمكن أن تقضي الليل هنا، فتنام معي!

ـ هذا شيء غير مرغوب فيه! فقد تراها العيون في الصباح هنا، وذلك ما لا نريد.

شخصت أمه من خلال النافذة، غارقة في لجة من التفكير، وقالت في صوت خفيض:

ـ بافل، أنا لا أفهم ما في ذلك من... خطر، ومن... ممنوع... أنتم لم تفعلوا شيئاً مؤذياً، أليس كذلك؟

لم تكن واثقة تماماً من ذلك، فكانت تسعى وراء تأكيد فتاها له.

نظر بافل في عينيها بانتباه، وأجاب في ثبات:

ـ إننا لا نرتكب شيئاً مؤذياً على الاطلاق، ومع ذلك فلسوف نستقر جميعاً في غياهب السجن يوماً. يجب أن تعلمي ذلك...

فبدأت يداها ترتعشان، وسألته في صوت مختنق:

ـ ربما، بإرادة الله، تفلتون من ذلك بطريقة ما؟

فأجابها في لطف:

ـ كلا! لست أريد خداعك، فليس من ذلك مفر!

وابتسم:

ـ إذهبي الى الفراش، الآن، فأنت واهنة القوى. طابت ليلتك!

عندما أصبحت وحيدة توجهت الى النافذة، ومدَّت نظرها الى الخارج. كان كل شيء وراء النافذة بارداً غير واضح المعالم. وكانت ريح صرصر تنفخ الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الناعسة، وتصطدم بالجدران، وتهمس بشيء ما وهي عجلى، ثم تنحدر حتى الأرض لتثير عاصفة من ندف الثلج الجافة تملأ الشارع بها...

همست الأم في رقة وسكينة:

ـ كن رحوماً بنا، أيها الحبيب يسوع!

كانت الدموع تزدحم في قلبها، وتوقُّع الكارثة التي تحدَّث عنها ابنها

بكل تلك الثقة يرفرف في صدرها كفراشة تحت جنح الظلام. وخيل إليها أنها ترى أمامها سهلاً مغموراً بالثلج تهبُّ فوقه ريح بيضاء خافقة، وتعصف وهي تعول بحدة وعنف. وثمة شبح صغير أسود لفتاة تترنح في وسط السهل. كانت الريح تلتف حول ساقيها، وترفع ثيابها، وتصفع وجهها بالثلج القارص، وهي تتقدم بصعوبة، وقدماها الصغيرتان تغوصان في الثلج. وكان البرد لاذعاً والظلام مخيماً، وجسدها يتقوّس إلى الأمام مثل عرق وحيد من العشب ينحني تحت تأثير نفحات ريح الخريف، وجدار الغابة يرتفع في المستنقعات إلى يمينها حيث تتهامس أشجار البتولا الناحلة والحور المعراة بيأس قاتل؛ وهناك، من بعيد جداً، كانت أنوار المدينة تتلألأ باهتة...

همست الأم، وهي ترتعد خوفاً وفرقاً:

ـ أيها المخلص الحبيب، أرفق بها!

7

تعاقبت الأيام، الواحد تلو الآخر، مثل حبات السبحة تشيّد الأسابيع والشهور. وفي كل يوم سبت كان أصدقاء بافل يجتمعون في داره، وكل اجتماع يمثل درجة جديدة في السلّم الطويل الصاعد التي يرتفع عليها الناس ببطء نحو هدف بعيد.

وانضم أناس آخرون الى جماعتهم حتى ضاقت بهم الغرفة الصغيرة في منزل آل فلاسوف. وأصبح جوّها خانقاً وثابرت ناتاشا على الحضور مهدودة القوى، متجمدة الأطراف، لكنها مرحة أبداً. ونسجت لها أم بافل زوجاً من الجوارب وضعته، هي نفسها، في قدمي الفتاة الصغيرتين، فضحكت ناتاشا في البدء، ثم عادت بغتة هادئة جادة، وقالت في صوت خفيض:

ـ كان لي، ذات يوم، مربية لطيفة هي الأخرى بصورة مدهشة! ما أغرب ذلك، يا بيلاجيا نيلوفنا! الشعب العامل يرزح تحت نير حياة قاسية ذليلة، ومع ذلك فقلبه رقيق وهو ألطف من أولئك!

لوّحت بيدها تشير إلى مكان ما بعيد بعيد...

قالت بيلاجيا:

ـ وأنت أيضاً، يا لك من فتاة! تركت أهلك وكل شيء...

وتنهدت، ولاذت بالصمت يعجزها التعبير عن أفكارها. وعندما نظرت في وجه ناتاشا أحست من جديد ذلك الشعور من الامتنان لشيء غامض غير محدود. جلست على الأرض قبالتها، بينما الفتاة تبتسم، مفكرة، مطرقة الرأس.

ردَّدت:

ـ تركت أهلي؟ هذا لا يعني شيئاً! والدي إنسان قاس، وكذلك أخي. وهو سكير أيضاً. وأختي البكر تعيسة الحياة، تزوجت رجلاً يكبرها عدة سنين، كثير الثراء، لكنه وضيع وبخيل مقتر. وإني لآسفة من أجل والدتي! إنها امرأة بسيطة مثلك، هزيلة كالفأرة، سريعة الركض كالفأرة أيضاً، تخاف من كل شيء. وإني لأريد في بعض الأحيان بصورة مخيفة، أن أراها...

فقالت الأم، وهي تهز رأسها بكآبة:

ـ يا لك من مسكينة!

رمت الفتاة بسرعة رأسها الى الخلف، ومدت يدها كمن تدفع شيئاً ما بعيداً عنها:

ـ أوه، كلا! تلهبني الفرحة في بعض الأحيان، فأسعد إلى أبعد الحدود!

اصفرَّ وجهها، واتقدت عيناها الزرقاوان، وقالت في صوت خفيض مؤثر، واضعة يديها على كتفي الأم:

ـ لو أنك تعلمين، لو كنت تستطيعين فقط أن تفهمي عظمة الغاية التي نعمل في سبيلها!

فمسَّ قلب بيلاجيا فلاسوفا شيء يقرب من الحسد كثيراً؛ وقالت في كآبة، وهي تنهض عن الأرض:

ـ أنا عجوز لا أصلح لمثل ذلك، وأمّية بالاضافة إليه...

... ازداد كلام بافل أكثر فأكثر، فهو يتكلم زمناً طويلاً بحماسة أعظم من ذي قبل، ويزداد نحولاً دون انقطاع. وصوِّر لأمه أن نظرته ترقُّ، وصوته يصبح ألطف، ومجمل مظهره أكثر بساطة وهو ينظر إلى ناتاشا أو يتحدث معها.

فكَّرت: «أرجو أن يكون الأمر كذلك بإذن الله!» وابتسمت.

في كل مرة يحتد النقاش بينهم أثناء اجتماعاتهم يهبُّ الأوكراني ناهضاً، ويقف هناك يتأرجح إلى الأمام والخلف مثل مطرقة الناقوس، وهو يتفوَّه في نبرة رنانة عميقة بكلمات لطيفة، بسيطة، سرعان ما تسبغ الهدوء والجدّ على الجميع... وكان فيزوفشيكوف متجهماً أبداً، يحث الآخرين دائماً على إتيان هذا الأمر أو ذاك. فيبدأ، هو أو الأحمر الرأس الذي كان اسمه صموئيلوف كل المجادلات يعضدهما فيما يذهبان اليه ايفان بوكين المدور الرأس أشقره الذي يبدو كمن اغتسل في ماء قلويّ. ولم يكن ياكوف سوموف النظيف الثياب، الحليق الوجه، يتكلم إلا قليلاً؛ فإن فعل فَبِوقارٍ جمّ... وكان هو وفيدور مازين ذو الجبين العريض يدعمان دائماً بافل والأوكراني في سائر المناقشات.

وفي بعض الأحيان كان نيقولاي إيفانوفيتش، وهو رجل يحمل نظارتين ولحية شقراء قصيرة، يجيء من المدينة بدلاً من ناتاشا. ولد نيقولاي هذا في إحدى المقاطعات النائية، الأمر الذي يتضح من لكنته في لفظ بعض الأحرف. وكان يبدو بعيداً بصورة عامة. فيتحدث عن أبسط الأمور: عن الحياة العائلية والأطفال، عن السوق والشرطة، عن ثمن الخبز واللحم، وعن سائر تلك الأشياء الخاصة بحياة الشعب

اليومية. ولكنه يفعل ذلك بأسلوب خاص، بحيث يكشف كل ما فيها من بهتان مناف للمعقول، وما فيها من بلاهة ومدعاة للهزء والسخرية، لكن مضر بالناس ملحق بهم الأذى. كان يخيل للأم أنه جاء من بعد سحيق، من واقع مختلف، حيث يعيش الجميع حياة ميسورة شريفة. وكان كل شيء هنا غريباً عليه، فلا يستطيع أن يألف هذه الحياة فيقبلها كأمر محتوم لا مفرَّ منه. إنه يكرهها، فيثير فيه هذا البغض رغبة هادئة دائبة في تبديلها على طريقته الخاصة. كان وجهه مصفراً، تحيط عينيه خطوط دقيقة. وكان صوته ناعماً، ويداه دافئتين أبداً. وكان يضم مجموع يد بيلاجيا فلاسوفا بين أصابعه القوية كلما صافحها، فتحس على الدوام الهدوء والراحة لمثل هذه التحية.

كانت وجوه أخرى من المدينة تظهر في هذه الاجتماعات، وأكثر من غيرهم جاءت فتاة طويلة، ناحلة القدّ، ذات عينين واسعتين ووجه هزيل شاحب، تدعى ساشنكا(*). كان في حركاتها وطريقتها في السير شيء خليق بالرجال، فهي تعقد ما بين حاجبيها الكثيفين السوداوين بصرامة، بينما يرتجف الجناحان الرقيقان لأنفها المستقيم عندما تتحدث. كانت هي أول من أعلن، ذات يوم، في صوت عال قاسي النبرات:

ـ نحن... اشتراكيون...

عندما سمعت الأم هذا شخصت الى الفتاة في ذعر ساكن. فلقد بلغها، ذات يوم، أن الاشتراكيين اغتالوا القيصر(**). وكان ذلك في أيام صباها عندما هبَّ الملاكون يريدون، كما تقول الرواية، أن ينتقموا لأنفسهم من القيصر الذي حرَّر عبيدهم، واقسموا أن يقصوا شعورهم بعد أن يقتلوه، فلقبوا بالاشتراكيين لهذا السبب. أما الآن، فإن بيلاجيا لا تستطيع أن تفهم لماذا يسمي ابنها وأصدقاؤه أنفسهم بالاشتراكيين.

(*) كنية التدليل من ساشا. المترجمان.

(**) المقصود هنا اغتيال أعضاء المنظمة الثورية الإرهابية «إرادة الشعب» للقيصر الكسندر الثاني في بطرسبورغ في أول آذار 1881. الناشر.

بعد أن انصرف الجميع سألت بافل:

ـ هل أنت اشتراكي، يا باشا؟

فقال، وهو يقف تجاهها قوياً متين البنيان:

ـ نعم! لماذا تسألين؟

فتنهدت بعمق، وأسبلت أجفانها:

ـ أصحيح ذلك، يا بنيّ؟ ولكنهم... ضد القيصر، لا بل إنهم قتلوا أحد القياصرة أيضاً.

فأخذ بافل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يداعب خدّه بيده، ثم قال، بعد ضحكة قصيرة:

ـ نحن لسنا في حاجة الى ارتكاب مثل هذه الأمور:

تحدث إليها طويلاً في كلمات هادئة رزينة. وفكرت، وهي تنظر في وجهه:

«إنه لن يرتكب إثماً أبداً! إنه لا يستطيع ذلك!».

وتكررت من بعد الكلمة المخيفة على مسمعها مراراً وتكراراً حتى نعمت شفرتها الحادة، واعتادت أذنها على سماعها كما اعتادت على سماع عشرات من الكلمات الأخرى غير المفهومة. ولكنها لم تحب ساشنكا، بل هي تشعر بالاضطراب والانقباض في حضرتها...

تحدثت عنها ذات يوم إلى الأوكراني، وهي تضم شفتيها باستياء:

ـ كم هي صارمة ساشنكا هذه! لا تنفك تصدر الأوامر للجميع. أنت يجب أن تفعل هذا، وأنت يجب أن تفعل ذاك...

فقهقه الأوكراني ضاحكاً، وقال:

ـ لقد أصبتِ المرمى! لقد أصبت الحقيقة في كبدها، يا أُميمة! ما رأيك في هذا، يا بافل؟

عالنها وهو يغمز بعينه والابتسامة الساخرة تشع في عينيه:

ـ هي من عائلة نبلاء!

وقال بافل في جفوة:

ـ إنها لانسانة رائعة!

فوافق الأوكراني بقوله:

ـ صحيح جداً! ولكن ثمة شيئاً واحداً لا تفهمه. كل شيء بالنسبة إليها «يجب»، أما بالنسبة إلينا فهو «نريد» و «نستطيع»!

كانا يتجادلان في أشياء غير مفهومة.

لاحظت الأم أيضاً أن ساشنكا تعامل بافل بصرامة أكثر من الباقين، حتى لتصيح في وجهه أحياناً. وعندئذ لا يقول بافل شيئاً، بل يضحك ضحكة قصيرة، وينظر في وجه الفتاة بتلك النظرة الرقيقة التي كان يخص بها ناتاشا من قبل. وذلك أساء الى الأم أيضاً.

كانت بيلاجيا تندهش أحياناً لذلك المرح الشديد الذي يأخذهم جميعاً على حين غرة، الأمر الذي يجري عادة في تلك الأمسيات حيث يقرأون ما تحمل الصحف من أخبار حياة العمال في الخارج. كانت أعين الجميع تشع عندئذ فرحاً. فيصبحون جميعاً سعداء بشكل غريب صبياني، يضحكون جميعاً ضحكتهم النقية الصافية، وكل منهم يربت بعطف على كتف الآخر. ويصيح أحدهم وكأنه ثمل بخمرة الغبطة:

ـ مرحى لرفاقنا الألمان!

وصاحوا في مرة أخرى:

ـ عاش العمال الإيطاليون!

كان يبدو عليهم، وهم يرسلون تلك الصيحات الى أصدقاء بعيدين عنهم، مجهولين منهم، لا يستطيعون فهم لغتهم، أنهم واثقون من سماع أولئك الناس المجهولين لهم، وفهمهم مبعث غبطتهم وفرحهم.

قال الأوكراني، وعيناه تطفحان بنور محبة تحتضن جميع الحاضرين:

ـ حبّذا لو نكتب إليهم حتى يعلموا أن لهم أصدقاء يعيشون هنا في روسيا، ويؤمنون بذات عقيدتهم، ويحيون من أجل الهدف ذاته، ويفرحون بانتصاراتهم!

كانوا يتكلمون طويلاً، والابتسام الحالم يعلو شفاههم، عن الفرنسيين

والبريطانيين والسويديين كما لو كانوا أصدقاء لهم، وأناساً أعزاء على قلوبهم يحترمونهم ويقاسمونهم أفراحهم وآلامهم.

في تلك الغرفة الصغيرة ولد شعور بالقربى الروحية مع عمال العالم أجمع. وكان هذا الشعور يصهرهم جميعاً في روح واحدة عظيمة، ويؤثر في الأم نفسها؛ وبالرغم من عدم إدراكها لذلك الشعور، فقد يستهويها بقوته الفتية المسكرة، وببهجته، وبالأمل النابض فيه.

قالت للأوكراني ذات مرة:

ـ إني لأعجب لكم! كل الناس لكم رفاق، اليهود والأرمن والنمسويون. وأنتم سعيدون أو حزينون من أجلهم جميعاً!

فصاح الأوكراني:

ـ من أجلهم جميعاً، يا أميمة، جميعاً دون استثناء! نحن لا نعرف فرقاً وأمماً. بل نعرف رفاقاً فحسب، وأعداء فحسب. سائر العمال رفاق لنا، وجميع الحكومات والأغنياء أعداؤنا. عندما يلقي المرء بصره على الأرض، يرى ما أكثر عددنا نحن العمال، وما أعظم قوانا، يجتاحه فرح لا حدود له، ويرقص العيد في قلبه. الفرنسي والألماني يحسّان الشعور ذاته عندما يريان الحياة، وكذلك الايطالي، يا أميمة. نحن جميعاً أبناء أم واحدة، وتلك هي عقيدة أخوّة العمال في العالم أجمع، العقيدة التي لا تُغلب. وتلك الفكرة تدفىء قلوبنا. إنها الشمس تشعُّ في سماء عادلة، وتلك السماء هي في قلب الانسان العامل. إن الاشتراكي، كائناً من كان، وبأي اسم يدعى، هو أخ لنا في الروح اليوم والى دهر الداهرين!

كان ذلك الايمان الصبياني المتين يتجلى أكثر فأكثر بينهم ويزداد علواً، وهو ينمو بقوة جبارة عاتية. عندما كانت الأم تنظر اليه تحس، بصورة خارجة عن أرادتها، أن العالم اكتسب ـ في الحقيقة ـ شيئاً عظيماً حسناً كالشمس التي تنظر إليها بذات عينيها.

وما أكثر ما كانوا يغنون، فينشدون بأصوات عالية سعيدة تلك الأغاني البسيطة التي يعرفها الناس جميعاً. وكانوا ينشدون أحياناً أغاني جديدة

جدية في تناسق جميل، لكن بلحن غير معهود. كانوا ينشدونها بأصوات خفيضة وكأنهم يرتلون في الكنيسة، فتحمر وجوه المغنين وتشحب، فيما قوة هائلة تنبض في الكلمات القوية الرنانة.

كانت إحدى تلك الأغاني الجديدة تزعج الأم وتؤثر فيها بصورة خاصة، فهي لم تكن تفصح عن الآمال الموجعة التي تحسها نفس جريحة تهيم خلال شعاب الارتياب والقلق، ولا كانت تعكس شكاوى المخلوقات المسحوقة بوطأة الفاقة والخوف، الفاقدة لكل شكل أو لون أو كيان، ولا كان يسمع فيها ذلك الأنين المفجع الصادر عن قوى عمياء تتلمّس لها مكاناً رحباً، ولا تلك الصيحات المتحدية المفعمة جرأة غير هيّابة، المستعدة لإلقاء نفسها في الخير والشر على السواء. لم يكن يتردّد في تلك الأغنية ذلك الشعور المبهم بالأذى والتعطش للانتقام، القادر على تدمير كل شيء والعاجز عن بناء أي شيء؛ ولا كان في تلك الأغنية شيء من العالم القديم العبودي.

لم تستمرىء الأم كلمات تلك الأغنية القاسية ولحنها الجاف، ولكن شيئاً أعظم من الكلمات واللحن كان يختبىء وراء حداء اللحن والكلمات فيتغلب عليها بقوته ويثير في القلب إحساساً بشيء لا يمكن للفكر أن يحتويه. كانت ترى هذا الشيء في أعين الفتيان ووجوههم، وتحسّ أنه يعيش ضمن صدورهم، فتستسلم لقوة أكبر من أن تنحصر في أية كلمات أو لحن. وكانت تصغي على الدوام الى هذه الأغنية بانتباه أكبر وتأثر أعمق من سواها. فهم ينشدونها بعذوبة تفوق رقة الأغنيات الأخرى، لكن صداها يتردّد مع ذلك بقوة أكبر ويغمر القوم كجو يوم آذار، اليوم الأول من الربيع المقترب.

وكان فيزوفشيكوف يقول في جفوة:

ـ آن الوقت لكي ننشد هذه الأغنية في الشوارع خارجاً!

وعندما ألقي أبوه في السجن مرة أخرى جزاء سرقته الأخيرة، قال فيزوفشيكوف لرفاقه في هدوء:

ـ نستطيع الآن أن نجتمع في داري. . .

وفي كل مساء تقريباً، كان أحد أصدقاء بافل يرد البيت معه بعد العمل، فيقرآن ويسجلان بعض الملحوظات، وهما على عجلة من أمرهما ينسيان معها أن يغتسلا. وكانا يتناولان العشاء ويحتسيان الشاي والكتب بين أيديهما، وقد أضحى حديثهما يزداد صعوبة، يوماً بعد يوم، على مفاهيم الأم. وكثيراً ما كان بافل يقول:

ـ نحن في حاجة إلى صحيفة!

ازدادت حمى الحياة وعجلتها، وأصبح القوم ينتقلون بخفة من كتاب إلى آخر كأسراب النحل تذهب من زهرة إلى زهرة.

ذات مرة قال فيزوفشيكوف:

ـ بدأوا يتحدثون عنا! سينكشف أمرنا عمّا قريب. . .

فلاحظ الأوكراني قائلاً:

ـ خُلقت الأسماك للوقوع في الشبكة!

كانت الأم تزداد تعلقاً به يوماً بعد يوم، ويخيل إليها ـ كلما ناداها يا أميمة ـ أن يد طفل ناعمة تمسح على خدها. وكان الأوكراني يقتطع الحطب يوم الأحد اذا انشغل بافل. وفي ذات يوم جاءها يحمل لوحاً كبيراً من الخشب على كتفه، وأخذ الفأس وصنع ـ بسرعة واتقان ـ عتبة للباب بدل العتبة المهترئة. وفي مرة أخرى أصلح السور دون أن يحسّ به أحد. وكان يصفر على الدوام بنغم حزين حبيب أثناء عمله.

قالت الأم لابنها ذات يوم:

ـ فلنأخذ الأوكراني جاراً لنا. ذلك أفضل لكما، فلا يحتاج أحدكما أن يركض إلى بيت الآخر دائماً.

فأجاب بافل، وهو يهز كتفيه:

ـ ولماذا تحمّلين نفسك عناء جديداً؟

ـ هراء! عانيت الكثير طوال حَياتي دون سبب معقول. فلأتحمل الآن بعض العناء من أجل رجل طيب مثله.

فقال الابن:
ـ ليكن ما تقولين! سأكون سعيداً إذا جاء...
وهكذا انتقل الأوكراني إلى دارهما.

8

بدأ البيت الصغير القائم في أقصى الضاحية يلفت الأنظار ويثير الفضول. فعشرات من الأعين الظانة، ظنَّ السوء تتفحص جدرانه بعناية كبيرة، وأجنحة الشائعات المختلفة تحوم في اضطراب حوله، والناس يسعون جاهدين لاكتشاف ذلك الأمر الخفيّ الذي أحسوه مختبئاً وراء جدران المنزل المنتصب على شفا المنحدر. وفي بعض الأحيان يتلصصون ليلاً من خلال النوافذ أو يقرعون الزجاج، ثم يولون الأدبار فزعاً دون تأخر.

ذات يوم اعترض سبيل بيلاجيا في الشارع صاحب الحانة بيكونتسوف، وهو رجل عجوز جميل المحيّا، يرتدي دائماً صديرياً سميكاً من المخمل الليلكي اللون، وتحيط ربطة عنق حريرية سوداء عنقه المترهّل الأحمر. كان أنفه المدبب البرّاق مركوباً، في كل الأوقات، بنظارتين صنع إطارهما من عظم السلحفاة، الأمر الذي اكسبه لقب «صاحب العينين العظميتين». صب على الأم وابلاً من الكلمات الجافة المتكسرة دون أن يستريح ليتنفس أو يتلقى جواباً:

ـ كيف حالك، يا بيلاجيا نيلوفنا، وكيف حال ابنك؟ ألا تفكرين في زواجه؟ فهو في سن موافقة للتأهل فيما أعتقد. كلما تزوج الأولاد باكراً خففوا عن والديهم العناء والمشقة. والانسان يكسب جسداً وروحاً في العائلة، مثله مثل الفِطر في إناء للخل! لو كنت مكانك لزوّجته واسترحت، فالأيام الحاضرة تتطلَّب عيناً ساهرة تراقب عقل المرء، وقد أخذ الناس يعيشون حسب هواهم فيخلطون في التفكير، ويتحررون في

العمل حتى استحقوا منا اللوم والعتاب. الفتيان لم يعودوا يؤمّون كنائس الله أو يقتربون من الأماكن العامة، بل هم ينتحون الزوايا المظلمة للتهامس بأسرارهم وما الذي يدعوهم الى التهامس أودّ معرفة ذلك! ما الذي يدفعهم الى تحاشي الناس؟ ما الذي يخاف المرء أن يقوله أمام الناس علانية؟ في الحانة مثلاً! أسرار!. المكان الوحيد للأسرار هو كنيستنا الرسولية المقدسة. وكل الأسرار الأخرى المحاكة في الخفاء هي وليدة الشذوذ والاختلاط العقلي! أتمنى لك صحة جيدة!

ورفع قبعته بيده الملتوية بطريقة تكلفية ولوَّح بها في الهواء، ثم انصرف تاركاً الأم في خضم من البلبلة والحيرة. ولاقتها في السوق، في يوم آخر، جارتها ماريا كورزونوفا، وهي أرملة حداد تكسب عيشها ببيع الطعام عند بوابة المصنع. خاطبتها قائلة:

- انتبهي لولدك هذا، يا بيلاجيا!

فسألت الأم:

- ماذا تعنين؟

فأسرَّت لها ماريا في صوت خفي:

- الشائعات تتردَّد، وهي شائعات سيئة وربّي! يقولون إنه يؤلف جمعية سرية كجمعية «الخليستي»(*). وهم يسمونها شيعة، ويقولون إنهم سيأخذون، عما قريب، يجلدون بعضهم بعضاً مثل الخليستي تماماً...

- كفى هراء، يا ماريا!

فقالت البائعة المتجولة:

- لا نار دون دخان!

قصَّت الأم هذه الأحاديث على ابنها، فاكتفى بهزّ كتفيه، أما الأوكراني فجعل يضحك ضحكته العميقة الناعمة.

قالت الأم:

(*) فرقة دينية مسيحية نشأت في روسيا، في القرن السادس عشر. الناشر.

ـ والفتيات حانقات أيضاً! فأنتم فتيان رائعون تصلحون للزواج. تعملون دون كلل ولا تسكرون، ومع ذلك لا تعيرونهن انتباهاً. وهن يقلن إن فتيات سمعتهن مريبة يأتين لزيارتكم من المدينة.

فقال بافل، وقد عبس استياءً واشمئزازاً:

ـ أوه طبعاً!

وقال الأوكراني، ومصعّداً تنهيدة عميقة:

ـ الإناء ينضح بما فيه! وتفعلين حسناً، يا أميمة، إذا أوضحت لهؤلاء الفتيات الغبيات ماهية الحياة الزوجية. وعندئذ لا يتسرعن على هذه الصورة وراء خلع رقابهن...

فقالت الأم:

ـ يا الله! إنهنَّ يرين كل شيء بوضوح، ويفهمن جيداً. ولكن، أية أمور أخرى مخبأة لهن؟

قال بافل:

ـ اذا كنَّ يفهمن فليسعين وراء سبيل للخلاص!

وتطلعت الأم الى وجهه القاسي، وقالت:

ـ ولماذا لا تعلمونهن؟ أدعوا أكثرهن ذكاء ليأتين الى هنا!

فقال الابن في جفوة:

ـ ذلك لن يفيد شيئاً!

فسأل الأوكراني:

ـ ماذا لو جرَّبنا؟

صمت بافل قليلاً قبل أن يجيب:

ـ وعندئذ يشرعون بالتنزه اثنين اثنين، ولا يلبث البعض أن يتزوجوا، ويكون ذلك خاتمة المطاف!

فاستغرقت الأم في التفكير. كان تقشف بافل الرهباني يحيّرها، فهي ترى أن الجميع، حتى الرفاق الذين يكبرونه سناً كالأوكراني مثلاً،

يأخذون التوجيه منه. إنما خيل إليها أنهم يخافونه أيضاً، وأن أحداً منهم لا يحبه بسبب من صرامته هذه.

ذات مساء، بعد أن سعت إلى فراشها تاركة ابنها والأوكراني يقرآن استطاعت أن تسمع، من خلال الحاجز الخشبي الرقيق، ما يدور بينهما من حديث خافت.

هتف الأوكراني على حين غرة:

ـ إني أحب ناتاشا هذه!

فأجاب بافل بعد لحظة صمت:

ـ اعرف ذلك!

وسمعت الأوكراني ينهض ببطء ويذرع الغرفة حافي القدمين. ثم أخذ يصفر بنعومة وحزن، وعاد يقول:

ـ إني لأتساءل عما إذا كانت أدركت ذلك!

فلم يحر بافل جواباً.

خفض الأوكراني صوته، وانثنى يسأل:

ـ ما رأيك في الأمر؟

ـ لقد أدركت ذلك، وهذا ما منعها عن المجيء إلى هنا...

جر الأوكراني قدميه بشدة على الأرض، وعاد يصفر صفيراً خافتاً. سأل:

ـ ماذا لو صارحتها؟

ـ تصارحها بماذا؟

ـ أصارحها... أني...

قال الأوكراني ذلك في صوت خفيض، بيَد أن بافل قاطعه قائلاً:

ـ وما يدعوك الى ذلك؟

فسمعت الأم الأوكراني يتوقف عن المسير. وخيل إليها أنه يبتسم.

ـ أعتقد أنك اذا أحببت فتاة فلا بدَّ أن تصارحها بعواطفك، وإلا فأية فائدة تُرجى من ذلك؟

فأغلق بافل الكتاب بشدة، وسأل:

ـ وماذا تنتظر أن ينتج عن ذلك؟

سكت كلاهما لحظة طويلة، وأخيراً سأل الأوكراني:

ـ ما رأيك؟

فقال بافل في صوت متمهل:

ـ ينبغي عليك، يا أندريه، أن تُمعن النظر جيداً فيما تريد، فلنفترض أنها تحبك ـ وأنا ارتاب في ذلك ـ وأنك تزوجتها! يا للزواج الجميل! هي مثقفة... وأنت رجل عامل! ويأتي الأولاد فتضطر أن تعمل وحدك وتبذل جهداً كثيراً. وستصبح الحياة نيراً ثقيلاً في سبيل رغيف من الخبز، في سبيل الأطفال وأجرة البيت، وعندئذ تخسركما القضية معاً!

خيم السكون برهة على الغرفة، ثم رجع بافل إلى الحديث، لكن صوته كان أعذب هذه المرة:

ـ من الأفضل، يا أندريه، أن تدع هذا جانباً ولا تثقل عليها...

خيَّم الصمت من جديد، إلا رقاص الساعة الذي يدق الثواني بوضوح رنان.

قال الأوكراني:

ـ نصف قلبي يُحبُّ، والنصف الآخر يبغض، أتسمي هذا قلباً؟

وعلا حفيف تصفُّح أوراق الكتاب. لا ريبة أن بافل شرع يقرأ من جديد.

استلقت الأم، مغمضة العينين، لا تجرؤ أن تتحرك وهي تتألم من صميم قلبها من أجل الأوكراني. وكان إشفاقها على ابنها أعظم. فكرت فيه:

«يا حبيبي المسكين!...»

وفجأة، انفجر الأوكراني قائلاً:

ـ وهكذا، فأنت تعتقد أن عليَّ الاعتصام بالصمت؟

فأجاب بافل في نبرة هادئة:

ـ ذلك أشرف ما يمكن أن تفعل!

ـ ذلك ما سأفعله اذن!

وأضاف الأوكراني، بعد ثوان قليلة، في رقة وكآبة:

ـ سيكون ذلك كثير القسوة، يا بافل، عندما تقع بدورك فيه...

ـ إنه قاس منذ الآن!

ونفخت الريح على جدران المنزل، وثابر الرقاص على تسجيل مرور الزمن بدقة وأمانة.

قال الأوكراني متمهلاً:

ـ هذا ليس هزلاً أليس كذلك؟

فطمرت الأم وجهها بين الوسائد وراحت تبكي دون أن تثير أدنى ضجيج.

في الصباح، خيل إليها أن أندريه صَغر قامةً وأصبح أعز على قلبها من ذي قبل؛ أما ابنها فكان مثله أبداً، مستقيم العود، نحيلاً، صامتاً. كانت تنادي الأوكراني، حتى ذلك الحين، أندريه أونيزيموفيتش، أما اليوم فتوجهت إليه دون قصد منها:

ـ اندريوشا(*)، يفضل أن ترمّم حذائيك وإلا أصابك منهما برد!

فأجاب ضاحكاً:

ـ سأشتري زوجاً جديداً يوم الدفع المقبل!

وألقى ذراعه الطويل حول كتفها، وقال فجأة:

ـ لعلك أمي الحقيقية بعد هذا كله ولكنك ترفضين الاعتراف بذلك أمام الناس لشدة قبحي، أليس كذلك؟

ربتت على يده دون أن تجيب. كانت تود أن تقول أشياء كثيرة لطيفة، ولكن قلبها كان منقبضاً شفقة وأسى، والكلمات ترفض أن تغادر شفتيها.

(*) اسم التدليل من أندريه. المترجمان.

9

أخذ الناس في الضاحية يتحدثون عن الاشتراكيين الذين يوزعون منشورات مكتوبة بالحبر الأزرق، تنتقد بشدة وعنف ادارة المصنع، وتتحدث عن إضرابات في بطرسبورغ، وفي جنوب روسيا، وتدعو العمال الى الاتحاد في الدفاع عن مصالحهم الخاصة.

وغضب الكهول الذين كانوا يقبضون أجوراً كبيرة في المصنع، واستشاطوا غيظاً، وشرعوا يقولون:

ـ إنهم مشاغبون، ويجب أن تحطّم أفواههم لمثل هذه الأمور!

وحملوا المنشورات الى رؤسائهم. أما الفتيان فقرأوها في حماسة، وقالوا:

ـ إنهم يقولون الحقيقة كلها!

لكن أكثرية العمال لم يُبدوا كثيراً من الحماسة لتلك المنشورات. كان العمل المنهك قد أرهقهم وامتص قواهم. قالوا في نبرة لامبالية:

ـ لن يجدي ذلك فتيلاً، فهل يمكن أن تنقذنا مثل هذه الأشياء؟

ومع ذلك أحدثت المنشورات اضطراباً وهياجاً عظيمين، وعندما انصرم أسبوع دون أن يصدر منها شيء جديد، أخذ العمال يدمدمون بينهم وبين أنفسهم:

ـ يبدو أنهم أقلعوا عن الاستمرار فيها!

بيد أن منشورات جديدة ظهرت، على أية حال، يوم الاثنين اللاحق، فشرع العمال يتهامسون مرة أخرى ويلغطون.

وظهر في المعمل، وفي الحانة، أشخاص جدد لا يعرفهم أحد: وكان هؤلاء الناس لا ينفكون يراقبون ما يجري حولهم، ويطرحون الأسئلة، ويدسّون أنوفهم في أمور الجميع على حدّ سواء، فيلفتون الأنظار اليهم إما بحذرهم الشديد وبما يثيرون من الارتياب وإما بمبالغتهم في فرض أنفسهم على الناس.

وأدركت الأم أن هذا الهيجان كله وليد أعمال ابنها ورأت كيف يتألب الناس حوله، فأخذ القلق على سلامته يساورها ممزوجاً بالاعتزاز والفخر.

ذات مساء، قرعت ماريا كورزونوفا نافذة آل فلاسوف، وقالت في همس مرتفع حين فتحت الأم النافذة:

ـ حاذري، يا بيلاجيا، اللعبة انتهت! فهم آتون الليلة لتحري منزلك، وكذلك سيفتشون داري آل مازين وآل فيزوفشيكوف...

واصطفقت شفتا ماريا الغليظتان بسرعة، وشخرت من خلال أنفها الكبير وهي تطرف بعينيها تختلس النظر يميناً وشمالاً، وكأنها تبحث عن شخص ما في الشارع وقالت:

ـ وأنا لا أعرف شيئاً، ولم أنقل لك شيئاً، ولم أركِ هذا النهار... أسمعت؟

ثم اختفت.

تهاوت بيلاجيا، بعدما أغلقت النافذة، خائرة القوى متخاذلة على أحد المقاعد، غير أن نذير الخطر الذي يهدّد ابنها ما لبث أن أهاب بها، فنهضت في الحال، وارتدت ثيابها بسرعة، وغطت رأسها بوشاح، ثم خرجت تعدو في اتجاه دار فيودور مازين. كان مريضاً، فلم يذهب الى العمل ذلك النهار. وجدته حين دخلت جالساً الى النافذة يطالع كتاباً، وهو يهز بيده اليسرى يده اليمنى التي كان ابهامها مرتفعاً بشكل غير طبيعي. شحب لونه لدى سماعه الأخبار الجديدة، وقفز واقفاً على قدميه وهو يتمتم:

ـ إنها وربّي تحية رائعة!

سألت بيلاجيا، وهي تمسح العرق عن جبينها بيد مرتجفة:

ـ ما العمل الآن؟

فرد فيودور، وهو يمسّ شعْره الأجعد بيده السليمة:

ـ انتظري لحظة، ولا تجزعي!

صاحت:

ـ لكنك مذعور أنت الآخر!

فاحمرّت وجنتاه، وهتف:

ـ أنا؟

وابتسم في الارتباك والحيرة، وقال:

ـ نعم، يا للشيطان! يجب أن نُعلِم بافل بذلك. سأرسل اليه من يخبره! أما أنت فارجعي إلى الدار ولا تقلقي! لن يضربونا، أليس كذلك؟

عندما بلغت الدار جمعت سائر الكتب وراحت تطوف في البيت، وهي تضمها الى صدرها، تنظر الى الموقد تارة، وما تحت الموقد تارة أخرى، وحتى في برميل المياه أحياناً. وتخيلت أن بافل سيعود حالاً من المعمل، لكنه لم يفعل.

وأخيراً جلست، منهوكة القوى، على دكة في المطبخ والكتب تحتها وبقيت هناك طويلاً، لا تجرؤ على النهوض، حتى رجع بافل والأوكراني الى الدار.

صاحت، حين رأتهما وهي ما زالت تجلس في مكانها:

ـ هل تعرفان؟

فأجاب بافل وهو يبتسم:

ـ نعم، إننا نعرف. هل أنت خائفة؟

ـ إني خائفة، خائفة جداً!

فقال الأوكراني:

ـ يجب ألا تخافي! الخوف لا يفيد شيئاً.

ولاحظ بافل:

ـ إنها لم تهيىء السماور أيضاً!

فقالت الأم بلهجة المذنب، وهي تنهض وتشير الى الكتب:

ـ نعم، بسبب هذه الأشياء...

فانفجر الابن والأوكراني ضاحكَين، الأمر الذي سكّن من روعها قليلاً. وانتقى بافل بعض الكتب، وذهب بها الى الفناء الخارجي ليخفيها. قال الأوكراني، وهو يهيىء السماور:

ـ ليس ثمة ما تخافين منه، يا أميمة. لكن من الخجل حقاً أن يضيّع الناس وقتهم في مثل هذه السخافات. إن رجالاً بالغين تخصَّروا السيوف ولبسوا المهاميز في أرجلهم سيأتون الى هنا، وينبشون كل شيء. وسينظرون تحت السرير، وتحت الموقد، وينزلون الى القبو إن كان في دارك قبو، ويصعدون الى العلّية، وستعلق هناك خيوط العناكب في وجوههم وسينفخون في أنوفهم اشمئزازاً، وسيتضايقون، ويخجلون، وبسبب من ذلك سيتظاهرون أنهم شرسون غاضبون، لأنهم يدركون تماماً نتانة مهنتهم وهوانها! ولقد شعروا بالضيق الشديد، ذات مرة، وهم يهاجمون أشيائي حتى إنهم تركوا كل شيء وانصرفوا. وفي مرة أخرى أخذوني معهم وألقوا بي في السجن، وتركوني هناك طوال أربعة شهور. والمرء لا يفعل شيئاً في السجن، يجلس ويظل هكذا جالساً على الدوام. ثم يأمرون باحضاره اليهم، فيقتاده الجنود خلال الشوارع، يشرعون بتوجيه بعض الأسئلة إليه. هم ليسوا أذكياء فقالوا أشياء غير معقولة، بل هم يثرثرون كثيراً، ثم يأمرون الجنود بالعودة به الى السجن. وهكذا يتقاذفونه ذهاباً وإياباً مدة طويلة. فلا بدَّ لهم، على أية حال، أن يفعلوا شيئاً كي يكسبوا أجورهم! وأخيراً، يطلقون له الحرية... وهذا كل شيء!...

هتفت الأم به:

ـ يا له من أسلوب في الحديث، يا أندريوشا!

فرفع وجهه الأحمر حيث كان جاثياً ينفخ النار في السماور وسألها، وهو يفتل شاربيه:

ـ ما باله؟

ـ كأن أحداً لم يؤذك أبداً!

فأعلن مبتسماً، وهو ينهض ويهز رأسه:

ـ أفي أية بقعة من العالم نفس لم ينلها الأذى؟ لقد آذوني كثيراً حتى لم أعد ألاحظ ذلك مطلقاً. ما عساك تفعلين ما دام الناس جُبلوا هكذا؟ إن ملاحظتك الأذى لا تفعل إلا اعتراض سبيلك، وإنه لمضيعة للوقت أن تفكري فيما يؤذيك. هكذا هي الحياة! كنت أجنُّ فيما قبل، وأحنق على الناس، ثم وجدت ذلك لا يجدي فتيلاً، ورأيت الأمر لا يستحق أن يغضب المرء له. إن كل إنسان يخاف مبادهة جاره له، ولذلك يحاول أن يتغدّى جاره قبل أن يتعشّاه الجار... هكذا هي الحياة يا أميمة!

كانت كلماته تتدفق برفق فتطرد بعيداً مخاوفها من التفتيش المقبل، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان. ألفتهُ خفيف الحركة بالرغم من عدم رشاقته.

تنهدت الأم، ونبرت بحرارة:

ـ جعل الله حياتك سعيدة، يا أندريوشا!

فسعى الأوكراني إلى السماور من جديد، وقرفص أمامه مرة أخرى، وتمتم في هدوء:

ـ لو أني وُهبت قليلاً من السعادة لما رفضتها، ولكني لن أستجديها أبداً!

رجع بافل من الفناء، وقال في ثقة وهو يبدأ حمّامه:

ـ لن يجدوها بتاتاً!

والتفت إلى أمه، وهو ينشّف يديه بشدة وفي عناية كبيرَة وخاطبها بقوله:

ـ إن ظهرت لهم خائفة سيفكرون عندئذ على هذا المنوال: لا بدّ أن يكون في هذا البيت شيء يجعلها ترتجف هكذا! أنت تعلمين أننا لا

نرتكب شراً وأن العدالة في جانبنا، وسنعمل طوال حياتنا من أجل هذه العدالة، وتلك هي جريمتنا الوحيدة، فلماذا تخافين إذن؟

فقطعت على نفسها عهداً:

ـ سأمسك زمام نفسي، يا باشا!

ولكنّها ما لبثت، في اللحظة التالية، أن نبرت بصورة مؤثرة أسيفة:

ـ لو أنهم يسرعون فقط، يأتون في أقرب وقت!

لم يأتوا ذلك المساء. وفي الصباح قطعت الأم على الشابين طريق السخرية من خوفها، اذ كانت السابقة إلى الضحك من نفسها. قالت:

ـ لقد جزعتُ قبل أن يحين أوان الجزع!

10

جاؤوا بعد شهر تقريباً من ذلك المساء المقلق. كان نيقولاي فيزوفشيكوف قد قدم لرؤية بافل وأندريه. واستغرق ثلاثتهم في جدالٍ يتعلق بالجريدة. كان الوقت متأخراً من منتصف الليل. والأم سعت إلى فراشها، تسمع وهي تغفو أصواتهم الهادئة القلقة. ثم نهض أندريه، واجتاز أرض المطبخ متلصّصاً، وأغلق الباب خلفه. وعلا في الدهليز ضجيجُ دلو يتدحرج، ثم فُتحَ الباب بعزم واندفع الأوكراني منه إلى المطبخ هامساً في صوت عال:

ـ المهاميز تجعجع في الشارع!

وثبت الأم من فراشها، واختطفت ثيابها بيدين مرتعشتين؛ وظهر بافل في مدخل الباب، وقال في هدوء:

ـ عودي إلى فراشك، فأنتِ... لست على ما يرام!

وسُمِعَ في الرواق الخارجي حفيف أقدام محاذرة متأنية، فدنا بافل من الباب، وفتحه بعزم وهو يقول:

ـ من هناك؟

ظهر عند الباب في الحال شخص طويل القامة، بثوب رمادي، ومن خلفه شخص آخر، فيما دفع اثنان من رجال الدرك بافل الى الخلف، ووقف كل منهما عن أحد جانبيه. وارتفع صوت عالي النبرة ساخر يقول:

ـ لسنا من كنتم تنتظرون، أليس كذلك؟

كان المتكلم ضابطاً فارع القامة، نحيل العود، ذا شاربين أسودين غير كثيفين. وقف فيدياكين وهو شرطي الضاحية قرب سرير الأم، جاحظ العينين وقال وهو يلمس قبعته بإحدى يديه تحية للضابط، ويشير بالأخرى الى وجه بلاجيا:

ـ تلك هي أمه، يا صاحب السعادة!

ثم أضاف، مشيراً الى بافل:

ـ وهذا هو!

فاستوضح الضابط، وهو يزرُّ عينيه:

ـ بافل فلاسوف؟

فأومأ بافل إيجاباً. وتابع الضابط، وهو يفتل شاربيه:

ـ لديّ أمرٌ بتحرّي بيتك. إنهضي، أيتها العجوز. من يوجد هناك؟

ألقى نظرة من خلال الباب، ثم دخل الغرفة المجاورة حيث جلجل صوته يقول:

ـ ما اسمكما؟

وظهر شاهدان عند عتبة الباب الخارجي، كان أحدهما السبّاك العجوز تفيرياكوف، والآخر واقد النار ريبين، وهو رجل ثقيل الجثة، أسمر الوجه، يستأجر غرفة في دار تفيرياكوف. حيّا الأم بصوت عميق عال:

ـ عمي مساء، يا نيلوفنا!

أما هي فكانت تردِّد لنفسها في هدوء، وهي ترتدي ثيابها، مستحثة شجاعتها وجلَدَها:

ـ ما هذا؟ كيف يأتون في منتصف الليل هكذا، والناس نيام؟ ثم هم يدخلون الدار أيضاً!

ازدحمت الغرفة، وفاحت بقوةٍ من أرجائها، لسبب ما، رائحة شمع الأحذية. وكان دركيان ورئيس شرطة المخفر المحلي وهو يدعى ريسكين يتناولون الكتب من فوق الرف وهم يجرجرون أقدامهم بصخب وضجيج، ويرميان بها على المنضدة أمام الضابط فيما دركيان آخران يضربان على الجدران بقبضات أيديهما، ويفتشان تحت المقاعد، لا بل تسلق أحدهما الموقد في جهد عظيم. وكان الأوكراني وفيزوفشيكوف يقفان جنباً إلى جنب في إحدى الزوايا، وقد امتلأ وجه نيقولاي المجدور بلطخات حمر، وهو يرمق بعينيه الصغيرتين الرماديتين وجه ذلك الضابط ولا يحيد بهما عنه. ووقف الأوكراني يفتل شاربيه حتى إذا دخلت الأم الغرفة أرسل ضحكة قصيرة، وهزَّ رأسه لها مشجعاً.

لكي تتغلب الأم على خوفها وجزعها، لم تَمِل إلى أحد الجانبين كعادتها دائماً، بل مشت منتصبة القامة، مرتفعة الصدر، الأمر الذي أغدق على هيئتها مظهر عظمة وأبهة مضحكتين. وراحت تدبّ على الأرض بتحدّ صاخب، إلا أن حاجبيها كانا يرتجفان...

كان الضابط يختطف الكتب بأصابع رقيقة ليده البيضاء ويقلب صفحاتها بسرعة، ثم يهزها ويلقيها جانباً بمهارة، فيتساقط بعضها على الأرض دون أن تحدث ضجيجاً. وكان الجميع سكوتاً، والأصداء الوحيدة المترددة هي لهاث الشرطة المتصببين عرقاً، وقرقعة مهاميزهم، وبعض أسئلتهم الملقاة في نبرة خفيضة:

ـ أفتشتَ هنا؟

استندت الأم الى الحائط بالقرب من ولدها بافل، وذراعاها

متشابكتان كذراعيه، وعيناها تحدقان النظر في الضابط وهي تحس ضعفاً شديداً يتسلط على ركبتيها، وغشاوة مظلمة جافة تستر عينيها.

ارتفع صوت نيقولاي الحاد، فجأة، يرعد وسط ذلك السكون:

ـ لماذا تلقون الكتب على الأرض؟

فجفلت الأم. وانتفض رأس تفيرياكوف وكأن أحدهم دفعه بعزم، وزمجر ريبين رامياً نيقولاي بنظرة ثابتة.

زرَّ الضابط عينيه، وساقط نظرة على وجه نيقولاي المتحجر المجدور، وشرع يقلب صفحات الكتب بسرعة أكثر من ذي قبل. وأحياناً كان يفتح عينيه الرماديتين الواسعتين محملقاً، وكأنه يشكو ألماً ممضّاً، وهو على وشك أن يصيح صيحة عالية في احتجاج عاجز.

قال فيزوفشيكوف مرة ثانية:

ـ هيه، أنت أيها الجندي! التقط الكتب من الأرض...

استدار رجال الدرك جميعاً، وشخصوا إليه. ثم انحرفوا بأبصارهم جهة الضابط. فرفع الأخير رأسه من جديد، غمر هيئة نيقولاي العريضة بنظرة فاحصة ثاقبة، ثم جمجم من أنفه:

ـ همْ ـ م ـ م... التقطوها...

فأكبَّ دركي على الأرض، وراح يجمع الكتب المبعثرة وقد شزر إلى فيزوفشيكوف...

همست الأم في أذن بافل:

ـ يجدر بنيقولاي أن يمسك لسانه!

فهز كتفيه، ونكس الأوكراني رأسه.

ـ من يقرأ هذه التوراة؟

أجاب بافل:

ـ أنا!

ـ ولمن هذه الكتب كلها؟

أجاب بافل:

ـ هي لي!
فقال الضابط، مستنداً بظهره إلى مسند مقعد:
ـ حسناً، حسناً جداً!
وطقطق بأصابع يديه الرشيقتين، ومدَّ ساقيه تحت الطاولة، وفتل شاربيه، ثم قال مخاطباً نيقولاي:
ـ أأنت أندريه ناخودكا؟
فردَّ نيقولاي، وهو يتقدم منه:
ـ نعم!
أمسك الأوكراني به من كتفه، ودفعه الى الوراء:
ـ التبس الأمر عليه فأخطأ، أنا هو أندريه!..
فرفع الضابط يده، وهزَّ إصبعه الصغيرة في وجه فيزوفشيكوف مهدداً:
ـ إياك أن تفعل هذا!
ثم أخذ يقلّب أوراقه، باحثاً متفحصاً.
كان الليل، بنور قمره الأضحيان الصافي، يطلُّ من النافذة بارداً غير مبالٍ؛ والثلج يتكسّر تحت أقدام شخص يمر بالمنزل متباطئاً.
سأل الضابط:
ـ ناخودكا؟ هل سبق أن اعتقلوك بتهمة جريمة سياسية؟
ـ نعم. مرة في روستوف، وأخرى في ساراتوف... إنما كان رجال الدرك هناك يخاطبونني بصيغة الجمع(*)...
فطرف الضابط بعينه اليمنى، وفركها... وأخيراً أبان، مكشّراً عن أسنانه الصغيرة:
ـ هل تعرفون يا ناخودكا أنتم بالذات من هم أولئك السافلون الساقطون الذين يوزعون منشورات سرية مجرمة في المصنع؟
فكشر الأوكراني، متمايلاً إلى الأمام وإلى الوراء، وهمَّ أن يقول شيئاً فإذا نيقولاي يقتحم الميدان قائلاً بتحدٍ:

(*) تشير صيغة الجمع في اللغة الروسية إلى الاحترام والتأدب. الناشر.

ـ هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سافلين ساقطين. . .

خيَّم سكون عميق، وجمد كل شيء لحظة قصيرة.

ازدادت الندبة في وجه الأم بياضاً، وارتفع حاجبها الأيمن عالياً، وأخذت لحية ريبين السوداء ترتجف بشكلٍ غريب، فدفع أصابعه في وسطها يمشطها متباطئاً، وغضّ من بصره.

قال الضابط:

ـ احملوا هذا الكلب من هنا!

فقبض الدركيان على نيقولاي من ذراعيه، ودفعاه بقسوة داخل المطبخ حيث وقف، وضرب الأرض بقدميه في قوة متشبثاً وصاح:

ـ انتظروا . . . أريد أن أرتدي ثيابي!

ودخل رئيس الشرطة قافلاً من الفناء، وقال:

ـ لم نجد شيئاً هناك. لقد فتّشنا كل مكان!

نبر الضابط وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ طبيعي! إننا نتعامل مع رجل بارع مجرّب. . .

أصغت الأم الى صوته الضعيف المرتجف، وراحت تشخص بخوف إلى وجهه الأصفر، وهي تحس أنها أمام عدو لدود عَمُرَ قلبه بغضاً كلياً لعامة الشعب. إنها لم تحتك بمثل هؤلاء الناس إلا نادراً، ولقد كادت أن تنسى وجودهم تقريباً وفكرت: «إذن، فهؤلاء هم الذين أقلقتهم المنشورات وأزعجتهم».

ـ يا سيد أندريه أونيزيموف، الابن غير الشرعي الذي يحمل اسم ناخودكا، أنت موقوف!

سأل الأوكراني في نبرة رصينة:

ـ ولِمَ؟

فقال الضابط برقة خبيثة:

ـ سأخبركم فيما بعد!

واستدار إلى بيلاجيا، وسألها:

ـ أتحسنين القراءة والكتابة؟

أجاب بافل:

ـ كلا! هي تجهل ذلك!

فقال الضابط بجفوة:

ـ أنا لا أسألك أنت! أجيبي، أيتها العجوز!

كانت جوانب الأم قد طفحت بكراهية عفوية لهذا الرجل. وانتابتها نوبة من الارتعاش على حين غرة فكأنها سقطت في ماء بارد كل البرودة. وانتصبت مستقيمة العود، وقد احمرّت الندبة في وجهها، وارتخى أحد حاجبيها كثيراً فوق عينها. قالت، وهي تمد يدها نحوه:

ـ لا حاجة تدعو للصياح! فأنت لما تزل صغيراً حتى تعرف معنى البلوى...

فقال بافل، وهو يحاول اعتراض طريقها:

ـ هدئي من روعك، يا أماه!

فصاحت، وهي تندفع في اتجاه المنضدة:

ـ انتظر، يا بافل! لماذا تأخذ هؤلاء الناس؟

فصاح الضابط، وهو ينهض:

ـ هذا لا يعنيك أبداً! اصمتي! أحضروا فيزوفشيكوف، فهو موقوف أيضاً!

وراح يقرأ ورقة أمسك بها قريباً من أنفه. وجيء بنيقولاي. فتوقف الضابط عن القراءة، وصاح:

ـ إنزع قبعتك عن رأسك!

وتقدم ريبين من بلاجيا، ودفعها بكتفه، وقال بصوت خفيض:

ـ هدئي من روعك، يا أماه..

سأل نيقولاي، مغطياً بصوته قراءة مذكرة الاجراءات:

ـ وكيف أستطيع نزع قبعتي إذا كانوا يمسكون بكلتا يدي؟

صاح الضابط، رامياً بالورقة على المنضدة:

ـ وقّعوها!

راحت الأم تراقبهم يوقعون، وقد استكنّت حميّاها وضاق قلبها وغصت عيناها بالدموع، دموع الأذية والعجز. لقد ذرفت مثل هذه الدموع خلال عشرين عاماً من حياتها الزوجية، ولكنها كادت تنسى، خلال السنوات القليلة الأخيرة، معنى تلك الدموع ولذعتها المؤلمة الحارة. ألقى الضابط نظرة عليها وقال مكشراً في ازدراء وترفُّع:

ـ جاءت دموعك قبل الأوان يا ستي! وفّريها لنفسك، وإلا لم يبق لك منها شيء للمستقبل!

فاجتاحتها موجة ثانية من الغضب المرّ...

ـ إن للأم، دائماً، ما يكفيها من الدموع لكل شيء ـ لكل شيء! وإن كانت لك أم، فهي لا بدّ تعرف ذلك!

فوضع الضابط أوراقهُ متسرّعاً في محفظة جديدة لها قفل لمّاع، وأصدر أوامره بالمسير في لهجة عسكرية.

قال بافل بحرارة وهدوء، وهو يصافح رفيقيه:

ـ إلى اللقاء، يا أندريه؛ الى اللقاء، يا نيقولاي!

فكرر الضابط، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ إلى اللقاء... صحيح ما تقول سيتحقق قريباً!

راح فيزوفشيكوف يتنفس بصعوبة، واحتقن الدم في عنقه الغليظ، والتمعت عيناه بغضب شديد قاس. أما الأوكراني فأومض وجهه بابتسامة لطيفة، وهز رأسه، وأسرَّ شيئاً في أذن الأم. فرسمت الأم إشارة الصليب فوق صدره، وقالت:

ـ إن الله يرى من هو المحقّ...

وأخيراً، تجمهر أولئك الذين يرتدون سترات رمادية، واتجهوا إلى الممرّ، ثم اختفوا، وقرقعة مهاميزهم تثير ضجيجاً مزعجاً. وكان ريبين آخر من غادر المكان، وهو يقيس بافل بنظرة طويلة ثاقبة من عينيه السوداوين.

ـ حسناً، إلى اللقاء!

قال هذا مفكراً، ثم اتجه الى الباب متباطئاً، وهو يسعل في لحيته.

عقد بافل يديه خلف ظهره، وراح يذرع أرض الغرفة ببطء وتمهل، وهو يخطو فوق الكتب والثياب المبعثرة على الأرض.

قال في صوت كئيب:

ـ أرأيت؟ هذا هو أسلوبهم في ذلك.

رمقت الأم فوضى الغرفة بنظرة منذهلة، وسألت همساً في أسف وأسى:

ـ ولِمَ كان نيقولاي وقحاً هكذا؟

أجاب بافل في هدوء:

ـ أعتقد أنه كان خائفاً.

وهمهمت، وهي تُلوّح بيديها:

ـ لقد دخلوا ـ وقبضوا عليهما ـ واقتادوهما.

إن ابنها لم يُعتقل، ولذلك يخفق قلبها في شيء أكثر من الهدوء. ولكن أفكارها شُلّت تماماً أمام ذلك الحادث غير المفهوم الذي كانت شاهدة عليه.

ـ لقد سخر منا ذلك الرجل الأصفر الوجه، وحاول إخافتنا...

فقال بافل في حزم مفاجىء:

ـ حسناً، يا أماه، تعالي نرتب كل شيء...

ناداها «أماه» بتلك اللهجة التي يستعملها عندما يشعر بالعطف عليها. فدنت منه، ونظرت في وجهه، ثم سألته في رقة:

ـ هل آلموك؟

ـ نعم، فذلك صعب جداً. ليتهم أخذوني مع الآخرين...

خُيّل إليها أن الدموع تترقرق في عينيه، فتنهدت وقالت وهي تجاهد كي تخفف عنه الألم الذي استشعرته في غموض:

ـ صبراً، فلسوف يأخذونك أيضاً!

ـ ذلك لا ريب فيه!

واعتصمت بالصمت لحظة. ثم قالت في كآبة:

ـ ما أقساك، يا بافل! يجدر بك بالأحرى أن تطمئن والدتك وتهوّن عليها، فأنا أقول أشياء مخيفة، وأنت تزيد الخوف.

فتطلع إليها، ودنا منها وقال في هدوء:

ـ لست أدري كيف أفعل ذلك، يا أماه! يجب أن تعتادي عليه.

فتنهدت، وصمتت لحظة، ثم سألته وهي تحاول ألا ترتعش ذعراً:

ـ أتعتقد أنهم يعذبون الناس؟ وأنهم يمزقون أجسادهم ويحطمون عظامهم؟ كلما فكرت في ذلك... أواه، يا عزيزي، إنه شيء مخيف!

ـ إنهم يحطمون الروح... وهذا أكثر أذية، عندما يضعون أيديهم الوسخة على روحك...

11

اتضح في اليوم التالي أنهم ألقوا القبض أيضاً على بوكين، وصموئيلوف، وسوموف، وخمسة آخرين. وفي العشية، جاء فيودور مازين. لقد فتشوا بيته أيضاً، وهو مسرور جداً، يغمر قلبه الشعور بصيرورته بطلاً بكل معنى الكلمة.

سألته الأم:

ـ أكنت خائفاً، يا فيودور؟

شحب وجهه، وقست تقاسيمه، وارتجف جناحا أنفه:

ـ خفت أن يضربني الضابط! كان بدين الجثة، له شعر أسود، وأصابع غزيرة الشعر، ونظارتان سوداوان فوق أنفه توهمان أنه فاقد العينين. وكان يضرب الأرض بقدميه، ويصيح: «لأطوّحن بك في السجن!» إن أحداً لم يضربني قط، حتى ولا والديَّ، فأنا ابنهما الوحيد، وهما يحبانني كثيراً.

أغمض عينيه برهة، وضمّ شفتيه بشدة، حرّك شعره بحركة سريعة من كلتا يديه. قال وهو ينظر إلى بافل بعينين محمرتين:

ـ إذا جرؤ أحد يوماً على أن يضربني، فسألقي بنفسي فيه كالمدية، وأعضه بأسناني. وليقتلوني بعدئذٍ، فذلك أفضل لي!

فقالت الأم متعجّبة:

ـ أنت هزيل العود وضعيف، وأظنك لست بالمقاتل الشديد!

فأجابها فيودور خافت الصوت:

ـ لكنني سأقاتل على أية حال!

قالت الأم لبافل، بعد انصراف فيدور:

ـ سوف يكون أول من لن يصمد!

فلم يحر بافل جواباً.

بعد دقائق فُتح باب المطبخ ببطء، ودلف ريبين منه قائلاً، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ مرحباً، يا قوم! هاأنذا هنا مرة أخرى. البارحة أتوا بي قسراً، أما الآن فجئت بمحض إرادتي!

صافح بافل بحرارة، وأمسك بيلاجيا من كتفها، وسأل:

ـ ما رأيك في قدح من الشاي؟

تفحص بافل، في سكينة، وجه الضيف العريض، الأسمر، بلحيته السوداء الكثة، وعينيه السوداوين. وكانت نظرته الهادئة طافحة بمعنى كبير.

دلفت الأم إلى المطبخ تهيىء السماور، أما ريبين فجلس ومسح لحيته واعتمد المائدة بمرفقيه، ورنا إلى بافل برهة وقال، وكأنه يتابع حديثاً سابقاً لم ينتهِ:

ـ حسناً، أريد محادثتك بصراحة تامة، فلقد ظللت أراقبك زمناً طويلاً، ولاحظت قبل كل شيء، باعتباري جاراً لك تقريباً، أن بعض الناس يأتون منزلك دون انقطاع، ولكنهم لا يسكرون أو يأتون أمراً إدّاً.

هذا أول ما يلفت الأنظار. ولا مفر من ملاحظة الناس عندما يحسنون السلوك، فالمرء يتساءل عندئذ عما حدث، وعما يدفعهم إلى ذلك. وأنا نفسي عرضة للأنظار الآن، لأني أختلي بنفسي دون الناس.

كان كلامه يتدفق ثقيلاً هادئاً. وهو يسرِّح لحيته بيد سوداء كبيرة، ويشخص بإمعان في وجه بافل:

ـ لقد شرع الناس يتحدثون عنك، منهم صاحب البيت الذي أسكن فيه، وهو يدعوك كافراً لأنك لا تذهب إلى الكنيسة، وأنا لا أذهب أيضاً. ثم هناك تلك المنشورات، أهي من صنعك؟

ـ نعم!

فصاحت الأم في جزع، وهي تطل برأسها من خلال باب المطبخ:

ـ ماذا تقول؟ أنت لست الوحيد في هذا!

فضحك بافل وضحك ريبين. وقال هذا الأخير:

ـ حسناً!

نشقت الأم بأنفها الهواء في صوت عال، وابتعدت مستاءة قليلاً من طريقهما في تجاهل كلماتها. وعاد ريبين يقول:

ـ فكرة عظيمة هذه المنشورات. فهي تثير الناس. لقد أصبح عددها تسعة عشر منشوراً، أليس كذلك؟

ـ نعم!

ـ وهذا يعني أني قرأتها جميعاً! إن بعض ما تحويه ليس واضحاً، والبعض الآخر ليس ضرورياً؛ ولكن عندما يكون عند المرء أمور كثيرة يريد الافضاء بها، فمن الصعب ألا يدسَّ بينها كلمة زائدة أو كلمتين...

وابتسم ريبين، فكشف عن أسنان متينة بيضاء، واستتلى يقول:

ـ ثم جاء التفتيش، وذلك الذي حملني اليكم أكثر من أي شيء آخر. أنت والأوكراني ونيقولاي، لقد أظهرتم جميعاً...

ولما أعوزته الكلمة المناسبة جنح إلى الصمت، وهو يتطلع من النافذة إلى الخارج، وينقر بأصابعه على المائدة:

ـ أظهرتم ما تعتقدون كما لو كنتم تقولون: إذهب أنت إلى واجبك، يا صاحب السعادة، ونحن نلتفت أيضاً إلى واجبنا. والأوكراني أيضاً طيب رائع، وعندما أسمعه أحياناً يتحدث في المصنع أقول في نفسي: ليس من وسيلة لسحقه. وحده الموت يستطيع أن يقهره. إنه قوي الشكيمة، قُدَّ من صخر! هل تثق بي، يا بافل؟

فأجاب بافل بإشارة من رأسه:

ـ نعم، إني أثق!

ـ حسناً! أنظر إليّ ـ إن لي من العمر أربعين عاماً ـ فأنا أكبرك سناً بمرتين إذن، وأستطيع القول إني رأيت من أمور الدنيا أكثر مما رأيت أنت بعشرين مرة. ولقد قضيت في الجندية ما يزيد عن ثلاث سنوات. تزوجت مرتين. زوجتي الأولى ماتت. وهجرت الثانية. ولقد ذهبت إلى القوقاز. ورأيت «الدوخوبورتسي»(*). إنهم لا يعرفون كيف يبارون الحياة يا أخي، إنهم لا يعرفون!

كانت الأم تصغي بلهفة إلى حديثه القاسي، وهي تفيض سعادة إذ يفتح مثل هذا الرجل الكهل قلبه أمام ابنها. ولكنها وجدت أن معاملة بافل له جافة نوعاً ما، وأرادت أن تعوّض عن تلك الجفوة بحسن ضيافتها.

قالت:

ـ لعلك تحب أن تأكل شيئاً، يا ميخائيلو إيفانوفيتش؟

ـ شكراً، أيتها الأم! تناولت عشائي. وهكذا تعتقد، يا بافل، أن الحياة ليست كما يجب أن تكون؟

فنهض بافل، وطفق يراوح في الغرفة ويغادي ويداه خلف ظهره، وقال:

ـ إنها تتجه في الصراط القويم! ألم تأتِ بك إليّ بقلب مفتوح؟ إنها

(*) إحدى الطوائف المسيحية. نشأت في روسيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وقفت بحدة ضد الكنيسة والدولة. الناشر.

تجمعنا قليلاً قليلاً، نحن الذين نقضي العمر في العمل، وسيجيء اليوم الذي تجمع فيه جميع البشر! إن الحياة قاسية وصعبة بالنسبة إلينا، ولكن الحياة ذاتها تفتح أعيننا على أكثر معانيها مرارة، وترينا كيف نعجِّل في سيرها.

فقال ريبين:

ـ هذا صحيح! فالانسان يحتاج إلى إصلاح وتجديد واسعين. فالمرء إذا لحق القمل به أرسلته إلى الحمام، ودلكته جيداً، ثم أعطيته ثياباً نظيفة. وعندئذ يصبح مقبولاً من جديد، أليس كذلك؟ ولكن، كيف نستطيع تنظيف المرء من الداخل؟ تلك هي القضية!

راح بافل يتكلم في حماسة وحدّة عن الرؤساء، والمصنع، وعن النضالات الخائض غمارها العمال في البلاد الأخرى دفاعاً عن حقوقهم. وكان ريبين ينقر بإصبعه على الطاولة أحياناً وكأنه يحدّد المقاطع والمواقف في حديث بافل. وكثيراً ما كان يهتف:

ـ تلك هي القضية! تلك هي القضية!

وضحك مرة، وقال في رصانة:

ـ أنت ما زلت حدثاً، ولم تتعلم كيف تعرف الناس!

فأجاب بافل في رزانة، وهو يقف أمام ريبين:

ـ فلندع الكلام عن الشيوخ والفتيان جانباً، ولنرَ الحق في أي صف يقف.

ـ إذن أنت تعتقد أنهم حاولوا أن يخدعونا فيما يتعلق باللّه أيضاً؟ هو ذلك، فأنا أعتقد أن ديانتنا لا تنفع شيئاً.

وهنا تدخلت الأم في الأمر. كانت ـ كلما تحدث ابنها عن اللّه وعن الأمور ذات العلاقة بإيمانها به، هذا الايمان العزيز على قلبها والمقدس في نظرها ـ تسعى إلى ملاقاة عين فتاها، وتتوسل إليه في صمت ألا يجرح قلبها بكلمات إلحاده القاسية. ولكنها تخمّن، خلف ذلك الالحاد، ايماناً؛ فيواسيها ذلك ويرفّه عنها.

كانت تفكر: «كيف أستطيع فهم أفكاره؟»

هُدْهِدَ لها أن ذلك الرجل الكهل لا بدّ مستاء مثلها من كلمات ابنها.

ولما طرح ريبين ذلك السؤال بكل هدوء، لم تعد تستطيع أن تتمالك نفسها فقالت في الحاح:

ـ أمّا فيما يتعلق بالرب، فخير لكما أن تكونا أكثر روية فيما تقولان! يمكنكما أن تفكرا فيما يروقكما!

وأرسلت نفساً عميقاً عميقاً، وأضافت بحماسة مضاعفة:

ـ أمّا أنا، المرأة العجوز، فلن يبقى لي شيء ألتفت إليه في آلامي لأسأله الغوث والمعونة إذا طرحتما اللّه بعيداً عني!

واخضلّت عيناها بالدموع، وأخذت يداها ترتجفان وهي تغسل الصحون.

قال بافل في نبرة لطيفة:

ـ أنت لم تفهمينا يا أماه!

وقال ريبين بصوته العميق المتماهل:

ـ إصفحي عنّا، يا أم!

وأرسل ضحكة قصيرة، وهو يختلس النظر إلى بافل، وأضاف:

ـ لقد غاب عن بالي أنك أكبر سناً من أن تستأصلي ما فيك من ثآليل...

وتابع بافل:

ـ أنا لم أكن أتحدث عن اللّه الطيب الرحيم الذي تؤمنين به. بل عن ذلك الإلّه الذي يستعمله الكهنة مثل العصا لتخويفنا والذي يحاولون باسمه جعل الشعب بأسره ينحني أمام إرادة البعض الشريرة...

فصاح ريبين، وهو يضرب الطاولة بأصابعه:

ـ تلك هي القضية! لا بل استأجروا من أجلنا إلّهاً كاذباً. وهم يحاربوننا بكل ما تقع عليه أيديهم دون تفريق! فكّري في هذا لحظة، يا أماه! اللّه خلق الإنسان على صورته ومثاله، وهذا يعني أنه يشبه الإنسان

ما دام الانسان يشبه اللّه! ولكننا نحن أشبه بالوحوش الكاسرة منا بالآلهة؛ والكنائس تلوّح بفزاعة في وجهنا ليس غير... إن علينا أن نبدّل إلّهنا، يا أماه، وعلينا أن نطهّره كذلك! لقد أحاطوه بالأكاذيب والافتراءات وشوهوا وجهه كي يقتلوا أرواحنا!...

كان يتحدث بعذوبة، ومع ذلك وقعت كل كلمة من كلماته صفعة ثقيلة على رأس الأم الذاهلة التي أجفلت خوفاً من ذلك الوجه العريض المكتئب في إطار لحيته السوداء وعجزت عن تحمل البريق الأسود في عينيه الباعثين في قلبها جزعاً مؤلماً.

قالت، وهي تهز رأسها:

ـ لا، إني ذاهبة، فسماع مثل هذه الأمور يتجاوز قواي!

دلفت إلى المطبخ مسرعة، فيما ريبين يقول لبافل:

ـ أرأيت، يا بافل؟ ليس الرأس، بل القلب... ذلك هو الأمر الأهم! القلب هو مكان خاص جداً بالنفس الإنسانية، ولا يمكن أن ينمو فيه شيء آخر على الإطلاق...

فقال بافل في عزم:

ـ العقل وحده يقوى على تحرير الإنسان!

فعاد ريبين يقول في صوت مرتفع وبإلحاح:

ـ العقل لا يهب الإنسان القوة! قلبه من يهب القوة، لا عقله!

خلعت الأم ثيابها، وسعت إلى فراشها دون أن تتلو صلواتها. كان إحساس بارد مقيت يعتصرها في قبضته. ولم يعد ريبين، الذي بدا لها للوهلة الأولى ذكياً رصيناً، يثير فيها الآن إلا شعور العداوة والنفور.

كانت تفكر، وهي تستمع إلى صوته: «الكافر! الملحد! ما الذي أتى به إلى هنا؟».

لكنه تابع حديثه بثقة هادئة:

ـ لا يمكن أن نترك المكان المقدس فارغاً! فالمكان الذي يحتله اللّه من الروح البشرية هو أكثر الأماكن إيلاماً. فإن أنت نزعته من هناك ترك

جرحاً كبيراً جداً! يجب إذن أن نفكر في إيمان جديد، يا بافل. يجب أن نخلق إلّهاً يكون صديقاً للإنسان! تلك هي القضية!

فهتف بافل في حماسة:

ـ هناك المسيح!

ـ المسيح لا يملك جرأة روحية. لقد قال: لو ترفع عني هذه الكأس! ثم هو اعترف بقيصر. كيف يمكن للّه أن يعترف بسلطة دنيوية على مخلوقاته؟ هو نفسه القوة المهيمنة الوحيدة! يستحيل أن يقسم نفسه أجزاء ـ هذه حصة اللّه، وتلك حصة الإنسان... ولكن المسيح قَبِلَ بالتجارة، وكذلك الزواج. ثم أنه كان مخطئاً عندما لعن شجرة التين ـ أكانت شجرة التين تستحق اللوم لأنها لم تحمل ثمراً ينوعاً؟ وكذلك النفس البشرية لا تستحق اللوم إنْ لم تحمل ثمراً صالحاً. أأنا الذي بذرت هذا الشرّ في نفسي؟ تلك هي القضية!

ظلّ الصوتان يتشابكان في الغرفة، يلتحمان ويتدافعان في نضال شديد، والأرض تصرُّ تحت وقع أقدام بافل وهو يذرعها روحةً وجيئة. وعندما كان بافل يتكلم كانت سائر الأصداء تتلاشى تماماً، فإذا تكلم ريبين بتمهل وهدوء استطاعت الأم أن تسمع صوت تأرجح الرقاص، وطقيق الجليد الخافت على جدران الدار.

ـ سأقول ذلك بكلماتي الخاصة، كلمات الوقّاد: إن اللّه لهيب خالص، وهو يعيش في القلب. وقديماً قيل: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان الله». وهكذا، فإن الكلمة هي الروح...

فعقّب بافل يقول بإصرار:

ـ الكلمة هي العقل!

ـ حسناً، فاللّه اذن في القلب والعقل معاً، وليس في الكنيسة! الكنيسة هي لحد اللّه.

واستغرقت الأم في النوم، فلم تشعر بريبين وقتما غادر المنزل.

بَيْد أنه أصبح منذ ذلك الحين ضيفاً دائماً. فإن كان ثمة أحد من

رفاق بافل جلس ريبين في إحدى الزوايا دون أن يقول شيئاً، اللّهم إلا أن ينطق ـ فيما ندر ـ بهذه الكلمات:

ـ تلك هي القضية!

وذات مرة لفّ الجماعة بنظرته السوداء، وقال مستاءً:

ـ يجب أن نتحدث عن الأشياء كما هي في الواقع لا كما سوف تكون... من يعرف ذلك؟ عندما يحصل الناس على كفاهم ما حُشِيَت أدمغتهم به حتى الآن دون أن يطلبوا حريتهم، فعندئذ يقررون أفضل الأمور بالنسبة اليهم. آن الوقت ليعطوا فرصة يفعلون فيها شيئاً من تلقاء أنفسهم، ولربما أرادوا أن يرفضوا كل شيء، مجمل الحياة والمعرفة. ولربما وجدوا أن كل شيء كإلّه الكنيسة موجَّه ضدهم. ضعوا الكتب بين أيديهم فيجدوا بأنفسهم الأجوبة عن أسئلتهم. تلك هي القضية!

وإن كان وبافل معاً، دخلا مباشرة في نقاش لا ينتهي ولا يفقدان خلاله أبداً زمام نفسيهما. وكانت الأم تصغي اليهما في قلقٍ واضطراب، وتلاحق كل كلمة من كلماتهما، جاهدة أن تفهم معنى أقوالهما. وكان يخيل إليها أحياناً أن الرجل العريض المنكبين، الأسود الذقن، وابنها المديد القامة، المتين البنيان، فقدا البصر تماماً. فهما ينطلقان أولاً في أحد الاتجاهات، ثم في اتجاه آخر، يفتشان عن طريق للخروج، ويمسكان بكل شيء بين أصابعهما القوية العمياء، يهزّاه، وينقلاه من مكان إلى آخر، ثم يدفعان به على الأرض ليطآه بأقدامهما. كانا يرتطمان بالأشياء ويتحسسانها، ثم يقذفان بها بعيداً دون أن يفقدا ايمانهما وآمالهما.

علّماها أن تسمع كلمات مخيفة في صراحتها وجرأتها. ولكن هذه الكلمات لم تعد تؤلمها بذات القوة التي أوجعتها بها في المرة الأولى ـ لقد تعلمت أن تدفع بها بعيداً عنها. وكانت تميز، أحياناً، وراء الكلمات الجاحدة باللّه ايماناً ثابتاً به، فتبتسم عندئذ ابتسامة هادئة

صفوحاً. واستمر ريبين لا يروق في عينيها، وإن لم يعد يثير نفورها أبداً.

في كل أسبوع كانت تحمل إلى الأوكراني في سجنه كتباً وثياباً نظيفة، ونالت الإذن مرة في رؤيته؛ فروت بحنان، عندما رجعت، أَثَرَ تلك المقابلة فيها. قالت:

ـ إنه يشعر نفسه هناك كما لو في بيته. طيب على الدوام لكل الناس، وكل الناس يمازحونه. من الصعب عليه أن يكون هنالك ويؤلمه ذلك جداً ولكنه لا يُظهر أوجاعه.

فعلق ريبين على ذلك بقوله:

ـ صحيح ما يفعل! فالحزن مثل جلدنا، ونحن في داخله تعودنا هذا الثوب. وليس في هذا ما يستحق الفخر. هناك البعض من الناس وُضعت على أعينهم عصابات وهناك البعض الآخر يغمضون أعينهم بأنفسهم، تلك هي القضية! فإن كنا أغبياء، فليس أمامنا إلا التجهم وتحمل ذلك!...

12

أخذ اهتمام الضاحية بمنزل آل فلاسوف الصغير الأغبر يتضاعف يوماً بعد يوم. وكان ذلك الإهتمام ممزوجاً بالريبة وشعور غير واع بالعداوة والنفور. لكن فضولاً آمناً يغلي في قلب البعض، فيجيء غريب أحياناً وهو يختلس النظر يمنة ويسرة، ويقول لبافل:

ـ إسمع، أيها الأخ. أنت تقرأ الكتب وتعرف القوانين، أفلا تستطيع أن توضح لي...

ويروي له قصة ظلامة ارتكبها رجال الشرطة أو إدارة المصنع. وإذا كانت الحال معقدة عسيرة أعطى بافل الرجل كلمة منه إلى محام من

معارفه في المدينة. ولكنه كان يوضح القضية بنفسه كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وبدأ الناس يحترمون، شيئاً فشيئاً، هذا الشاب الرزين الذي يتكلم ببساطة وجرأة، ويحتفظ بعينيه مفتوحتين أبداً، وأذنيه واعيتين على الدوام، ويغوص بعناد إلى أعماق كل نزاع، ويجد دون انقطاع، وفي كل مكان، السلك المشترك الذي يربط الناس بعضهم ببعض بآلاف من العقد المتينة.

ولقد اكتسب بافل هيبةً خاصة بعد حادث «كوبيك المستنقع».

كان مستنقع كبير مكسو بشجر الشوح والبتولا يمتد حول المصنع حتى يكاد أن يحيط به في شبه حلقة متعفنة منفرجة. وكان ينشر في الصيف أبخرة صفراء كثيفة، وسحباً عظيمة من بعوض يبذر الحمّى في طول الضاحية وعرضها. ولما كان ملكاً للمعمل، فقد قرر المدير الجديد تجفيفه بحيث يستخرج منه الفحم النباتي ويستفيد من الأرض في الوقت ذاته. فأصدر أمره أن يُحسم كوبيك واحد من كل روبل من أجور العمال ليخصص لمصروفات تجفيف المستنقع، متذرعاً بأنه لجأ إلى ذلك في سبيل تنقية الجو وتحسين شروط معيشة العمال.

استشاط العمال غيظاً وأثارهم، بصورة خاصة، أن هذا الحسم الجديد من أجورهم لا يشمل المستخدمين في المصنع.

كان المرض قد احتجز بافل في الدار يوم السبت الذي أعلن فيه المدير تلك الضريبة الجديدة، فلم يدر بها. في اليوم التالي وبعد صلاة العشاء قدم سيزوف لزيارته، وهو سبّاك محترم وسيم المحيا، يرافقه ماخوتين الميكانيكي، المديد القامة، السريع الانفعال. وبعد أن تحدثا إلى بافل عن قرار المدير، قال له سيزوف بلهجة ذات مغزى:

ـ اجتمع الأكبر سناً بيننا وناقشوا الأمر ملياً. قرر الرفاق أن يرسلونا اليك باعتبارك شخصاً مطّلعاً لتعلمنا عما اذا كان ثمة قانون يسمح للمدير أن يكافح البعوض بقروشنا.

وقال ماخوتين، وعيناه الضيقتان تبثان اللهب:

ـ تذكر فقط! هؤلاء اللصوص أخذوا أموالنا منذ أربعة أعوام كي يبنوا حماماً. ولقد جمعوا ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل يومذاك. أين هي الآن؟ نحن لم نر أثراً لأي حمام على الاطلاق!

أوضح لهما بافل عدم شرعية ذلك الحسم، والفائدة الأكيدة التي يجنيها المعمل من هذا التدبير، فخرج الرجلان عابسين. وبعد أن شيعتهما الأم قالت، وهي ترسل ضحكة قصيرة:

ـ الشيوخ أنفسهم بدأوا يستخدمونك أدمغةً لهم.

لم يجبها بافل، بل جلس إلى المنضدة وعليه سيماء القلق، وشرع يكتب طوال عدة دقائق، ثم توجه اليها قائلاً:

ـ لي رجاء عندك، يا أماه، هو الذهاب إلى المدينة وتسليم هذه الرسالة إلى صاحبها...

ـ أهي رسالة خطرة؟

ـ نعم، فإني مرسلك إلى المكان الذي يطبعون فيه جريدتنا، فمن الضروري جداً أن تظهر قصة هذا الكوبيك في العدد المقبل...

ـ حسناً، أنا ذاهبة في الحال...

تلك كانت المهمة الأولى التي ينتدبها ولدها لها، وقد قبلتها مغتبطة بصراحته في شرح الموقف دون خداع أو مواربة.

قالت وهي ترتدي ثيابها:

ـ إني أفهم، يا باشا، فهم يسرقونهم دون حياء! ما هو اسم ذلك الرجل... ييجور إيفانوفيتش؟

آبت إلى الدار في وقت متأخر من الليل شديدة الإعياء، لكنها كثيرة المرح والبهجة، وخاطبت ابنها قائلة:

ـ لقد رأيت ساشنكا. وهي ترسل إليك تحياتها؛ أما ييجور ايفانوفيتش هذا فرجل بسيط كثير المرح، وإن له أسلوباً طريفاً في الحديث!

فقال بافل في عذوبة:

ـ إني سعيد باستلطافكِ لهم!

ـ هم أناس بسطاء، يا باشا، وإنه لجميل أن يتواضع الإنسان ولا يشمخ بأنفه! وهم يحترمونك كثيراً...

لازم بافل الدار يوم الاثنين أيضاً لأنه لم يسترد عافيته بعد. وقدم فيدور مازين أثناء فرصة الغداء يعدو منقطع الأنفاس، منفعلاً، سعيداً، وصاح:

ـ هيا بنا، فالمعمل بأسره في هياج هادر، ولقد بعثوا بي في طلبك. سيزوف وماخوتين يقولان إن في مقدورك شرح الأمور أفضل من أي إنسان آخر. ولسوف ترى ماذا يجري هناك!

أخذ بافل يرتدي ثيابه، دون أن ينطق حرفاً.

ـ لقد جاءت النسوة أيضاً، وهن يضفن زعيقهن إلى صراخ الرجال!

وقالت الأم:

ـ إني قادمة أيضاً! ماذا هم فاعلون، يا ترى؟ إني قادمة أيضاً!

فقال بافل:

ـ تعالي، هيا بنا!

مضوا يحثون الخطى، في صمت، خلال الشوارع. كانت الأم منقطعة الأنفاس تقريباً لشدة انفعالها، تشعر أن أمراً عظيم الخطورة سيحدث عما قريب. وكان جمهور من النساء يتخاصمن ويتصايحن عند بوابة المعمل. وما إن تسلل ثلاثتهم إلى الساحة الكبيرة حتى وجدوا أنفسهم وسط حشد أسود كبير يزمجر في هياج شديد. ولاحظت الأم أن سائر الأنظار متجهة إلى حائط المصهر، حيث كان سيزوف، وماخوتين، وفيالوف، وخمسة أو ستة آخرون من العمال القدامى ذوي النفوذ، يعلون كومة الحديد الصدىء تجاه الحائط الآجري الأحمر تماماً.

صاح بعضهم:

ـ هذا هو فلاسوف آت!

ـ فلاسوف؟ فليأت إلى هنا!..

وصاحت أصوات من أماكن مختلفة:

ـ هدوءاً!

وتعالى صوت ريبين المنتظم من مكان قريب:

ـ لسنا نناضل من أجل الكوبيك، بل في سبيل العدالة! تلك هي القضية! ليس الكوبيك بالعزيز علينا حتى هذه الدرجة، فهو ليس أكثر استدارة من سواه وإن كان أثقل، لأن فيه من الدم الإنساني أكثر مما في روبل المدير بما لا يقاس! ليست القيمة في الكوبيك، بل في الدم، في العدالة! تلك هي القضية!

سقطت كلماته في قلب الحشد الذي تلقفها بلهفة، فأثارت بينه هتافات حادة:

ـ أنت على حق، يا ريبين!

ـ قول حسن، أيها الوقاد!

ـ هو ذا فلاسوف!

واختلطت الأصوات في إعصار من الضجيج طغى على زمجرة الآلات، وصفير البخار، وطنين المعادن. وتراكض العمال من كل حدب وصوب وهم يلوّحون بأذرعتهم، ويحرضون بعضهم بعضاً بكلمات حادة قاسية. كان الإستياء الكامن أبداً في تلك الصدور المتعبة يولد الآن ويطلب مخرجاً. كان يحلّق في الجو منتصراً، وينشر أجنحته أوسع فأوسع، ويشد قبضته على خناق الناس، ويجرهم في يقظته، ويلقي بعضهم في وجه بعض، ويغمرهم بلهيب تحوُّله المنتقم. وهبَّت فوق الحشد سحابة من الغبار والهباب، فالتمعت انفعالاً الوجوه المتصببة عرقاً، وبكت الخدود دموعاً سوداً، وبرقت العيون والأسنان جميعاً في الوجوه المسودة.

وظهر بافل فوق كومة الحديد، حيث كان سيزوف وماخوتين واقفين وصاح:

ـ أيها الرفاق!

لمحت الأم شحوباً شديداً في وجهه، وارتعاشاً في شفتيه، فتحركت إلى الأمام دون وعي، تشق لنفسها طريقاً خلال الازدحام الشديد.

صاحوا بها في حدة:

ـ إبقي مكانك!

دفعوها بالمناكب فلم تأبه لذلك، ولم تفلّ عزيمتها، بل استمرت تشق طريقها بكتفيها ومرفقيها، وهي تقترب ببطء، من ابنها تحدوها الرغبة في الوقوف إلى جانبه.

عندما أفرغ بافل ما في صدره من كلمات تطفح معنىً كبيراً ومغزىً خطيراً بالنسبة إليه أحس بالغصة في حلقه هي فرحة المناضل. وامتلكته رغبة جامحة في إلقاء قلبه إلى هؤلاء الناس، هذا القلب الملتهب بأحلام العدالة.

ـ أيها الرفاق!

هتف بهم، وهو يستقي من هذه الكلمة قوته وإشراقه، ثم أضاف:

ـ نحن الذين نبني الكنائس والمعامل؛ نحن الذين نصهر القيود، ونصوغ النقود؛ نحن تلك القوة الحية التي يطعم منها الجميع ويتسلّون بها منذ المهد حتى اللّحد...

فصاح ريبين:

ـ تلك هي القضية!

ـ دائماً، وفي كل مكان، نحن الأولون في العمل، والآخرون في اكتساب الاعتبار. من يهتم بنا؟ من فعل يوماً أبسط الأشياء من أجل منفعتنا وخيرنا؟ لا بل هل نظر الينا أحد، في يوم من الأيام، على أننا كائنات بشرية؟ أبداً!

فردد صوت كرجع الصدى:

ـ أبداً!

ويزداد كلام بافل بساطة وهدوءاً كلما تمالك نفسه، بينما الحشد يقترب منه أكثر فأكثر، ويذوب في جسد أسود واحد يعيش بألف رأس ورأس، ويحملق في وجه بافل بآلاف الأعين المنتبهة، وينهل بلهفة العطشان كل كلمة من كلماته.

ـ لن نكون أحسن حظاً ما لم ندرك أننا رفاق جميعاً، أننا عائلة واحدة من الأصدقاء الذين يجمعهم رباط وحيد، ألا وهو النضال من أجل حقوقنا.

فصاح أحد الحاضرين في صوت جاف، وكان يقف قريباً من الأم:

ـ تكلم في الموضوع!

فصفعه صوتان خفيضان ينصبان من جهتين مختلفتين:

ـ لا تقاطعه!

عبست الوجوه المسودة تفصح عن ارتياب متشائم، ولكن عيوناً كثيرة كانت متجهة إلى وجه بافل وهي تشع بالجد والاهتمام.

ولاحظ بعضهم:

ـ إنه اشتراكي، ولكنه ليس أحمق!

وقال عامل طويل أعور، وهو يدفع الأم من كتفها:

ـ ما أشجع كلامه!

ـ لقد آن الأوان لنا، أيها الرفاق، كي ندرك أنه ليس من يغيثنا سوى أنفسنا! المجموع للفرد، والفرد للمجموع، ذلك يجب أن يكون شعارنا إذا أردنا التغلب على العدو!

فصاح ماخوتين، وهو يرفع يده عالياً في الهواء:

ـ إنه يقول الحقيقة، أيها الأخوان!

وتابع بافل:

ـ نطالب بحضور المديرا

لكأن إعصاراً مباغتاً من ريح صرصر جفول اكتسح الحشد بأسره، فترنح كموجة عاتية، فيما انطلقت عشرات الأصوات تصيح:

ـ نطالب بحضور المدير!

ـ أرسلوا وفداً إليه!

شقت الأم، من جديد، طريقها مقتربة من ولدها، ونظرت إليه ووجهها يطفح فخراً واعتزازاً. هو ذا بافل، فتاها، يقف بين هؤلاء العمال الشيوخ المحترمين، والجميع إليه مصغون، يوافقون على أقواله. وكانت سعيدة لأنه لم يحتدم غيظاً، ولم يشتم كما يفعل الباقون.

كانت الشتائم والهتافات والكلمات الجارحة تنهال من كل حدب وصوب كالبَرَدِ فوق سطح من القصدير الرنان. وتطلع بافل نحو القوم الذين احتفوا به، وبدا عليه أنه يفتش عن شيء ما بعينيه الواسعتين العريضتين.

ـ عيِّنوا الوفد!

ـ سيزوف!

ـ فلاسوف!

ـ ريبين، فإن له أسناناً مخيفة!

فجأة تعالت هتافات مكتومة بين المحتشدين:

ـ لقد جاء من تلقاء نفسه!

ـ المدير، المدير!

افسح المتجمهرون الطريق لرجل فارع القامة، متطاول الوجه، مدبب اللحية:

ـ اسمحوا لي!

كان يقول ذلك وهو يدفع العمال عن طريقه بإشارة خفيفة من يده لم يكن يريدها أن تنال منهم مساً. وكانت عيناه متضيقتين، وهو يتفحص وجوه العمال بنظرات خبيرة تدل عن سيد واسع التجربة. وأخذ القوم ينتزعون قبعاتهم وينحنون له أثناء مروره، فيما هو يتابع طريقه دون أن

يردّ تحياتهم، زارعاً الصمت والبلبلة بين المحتشدين الذين طفقوا يبتسمون في حيرة واضطراب، ويرسلون صيحات مكتومة كالأطفال حين يعبّرون عن ندمهم وتوبتهم بعد أن يضبطوا بالجرم المشهود.

اجتاز الأم، فانزلقت نظراته القاسية على وجهها انزلاقاً، ثم توقف تجاه كومة الحديد. ومدّ أحدهم يده ليساعده على اعتلائها، فرفض تلك اليد وتسلّق الكومة من تلقاء نفسه بحركة نشيطة، وصرى بافل وسيزوف:

ـ ما معنى هذا الاجتماع؟ ولماذا توقفتم عن العمل؟

خيّم الصمت برهة وجيزة، وتموجت رؤوس القوم كسنابل القمح، ولوّح سيزوف بقبعته، وهزّ كتفيه، وأطرق برأسه.

صاح المدير بحدة:

ـ أجيبوا عن سؤالي!

فتقدم بافل ووقف إلى جانبه ونبر في صوت مرتفع، وهو يشير إلى سيزوف وريبين:

ـ لقد انتُخِبَ ثلاثتنا من قبل رفاقنا كي نطلب إليك إلغاء قرارك المتعلق بحسم الكوبيك...

فسأل المدير، دون أن يتكلف التطلّع إلى بافل:

ـ لِمَ؟

فأجاب بافل في صوت مرتفع أيضاً:

ـ لأننا نعتبر مثل هذه الضريبة ظلماً!

ـ أتعتقدون أن نيتي في تجفيف المستنقع أملَتها عليّ الرغبة في استثمار العمال لا الرغبة في تحسين شروط معيشتهم؟ أهذا ما تظنون؟

فقال بافل:

ـ نعم!

فاستدار المدير إلى ريبين وسأل:

ـ وأنت أيضاً؟

ـ جميعنا نعتقد الشيء ذاته!

فاستدار إلى سيزوف:

ـ وأنت، أيها الرجل المحترم؟

ـ وأنا أيضاً، الأفضل إن تركتم لنا كوبيكاتنا هذه!

ونكس سيزوف رأسه مرة أخرى، وعلت شفتيه ابتسامة مذنبة.

فاكتسح المدير الجمهور بنظرة متأنية، وهز كتفيه، واستدار إلى بافل وحدجه بنظرة فاحصة:

ـ يبدو أنك رجل مثقف نوعاً ما. أيعقل أنك، أنت الآخر، لا تدرك حسنات مثل هذا التدبير؟

فأجاب بافل في نبرة أرادها أن تكون مسموعة من الجميع:

ـ لو أن المعمل يجفف المستنقع على حسابه الخاص، لأدركنا جميعاً عندئذ تلك الحسنات!

فقال المدير في جفوة:

ـ ليس المعمل مؤسسة خيرية! آمركم بالعودة حالاً إلى عملكم جميعاً!

وشرع يهبط عن الكومة، وهو يتحسس الحديد بعناية فائقة، دون أن ينظر إلى أي من المحتشدين.

فارتفع من الحشد دويٌّ استياء شديد.

توقف المدير مكانه، وسأل:

ـ ما بالكم؟

فحطَّم السكون صوت وحيد بعيد:

ـ إذهب واشتغل بنفسك!

فَرعَدَ المدير في جفاء، وبلهجة واضحة:

ـ إن لم تعودوا إلى العمل في خمس عشرة دقيقة سأصدر أمري بتوقيع الغرامة عليكم جميعاً!

وشقَّ طريقه مرة أخرى وسط الحشد، فإذا زمجرة ثقيلة ترتفع خلفه هذه المرة وتروح تتعالى كلما ابتعد:

ـ جربوا أن تتكلموا معه!

ـ إليكم عدالتكم! يا لها من حياة مسكينة...
وتوجهوا إلى بافل، وصاحوا:
ـ ماذا ينبغي علينا أن نفعل الآن، أيها اللبيب؟
ـ لقد ألقيتَ خطبة رائعة، وعندما أطلّ الرئيس بوجهه تبدَّلت وجهة الريح!
ـ هيا، يا فلاسوف، قل لنا ما نفعل!
ولما ازدادت الأسئلة والصيحات إلحاحاً ولجاجة، قال بافل:
ـ اقترح، أيها الرفاق، أن نترك العمل حتى يتنازل عن فكرة الحسم...
فقفزت التعليقات في هياج وانفعال شديدين:
ـ أتعتقد أننا مجانين لا ندرك؟
ـ ولكن هذا يعني الاضراب!
ـ أمن أجل كوبيك واحد نفعل هذا؟
ـ لماذا لا نُضرب؟
ـ سيسرحوننا جميعاً!
ـ ومن يعمل له عندئذ؟
ـ سيجد الكثيرين الذين يعملون راضين!
ـ من الخونة؟

13

هبط بافل عن كومة الحديد، واتخذ موقفه إلى جانب أمه.
كان هياج شديد يطغى على الحشد كله فيلغطون، ويتناقشون، ويتصايحون في حمية فائقة.
اقترب ريبين من بافل، وقال له:
ـ لن تستطيع أبداً حملهم على الإضراب! هم جماعة شرهون جداً

ولكنهم جبناء ولن يتبعك أكثر من ثلاثمائة منهم. السماد كثير جداً، ولن تستطيع مذراة واحدة أن ترفعه كله...

اعتصم بافل بالصمت. كان الحشد الأسود الجسيم يتموج أمامه، يبحث عن عينيه في رجاء ملحاح. وراح قلبه يخفق في قلق، وبدت له كلماته وقد تلاشت بين الناس دون أن تترك أثراً، مثل قطرات منفردة من المطر سقطت على أرض ظمأى.

ورجع إلى بيته متعباً، حزيناً يتبعه ـ عن قرب ـ أمه وسيزوف، فيما ريبين يسير إلى جانبه، ولا ينقطع عن الطنين في أذنه:

ـ لقد تكلمت حسناً، لكنك لم تتوجه إلى القلب. تلك هي القضية! ينبغي عليك أن تتحدث إلى قلوبهم وأن تلقي بالشرر في أعماق أرواحهم بالضبط. لست تستطيع إقناع الشعب بمحاكمتك، فهذا الحذاء لا يناسب تلك القدم. إنه صغير جداً وضيق جداً!

وكان سيزوف يقول للأم:

ـ لقد حان الوقت لكي نفتش، نحن الشيوخ، عن مكان لنا في المقبرة، يا بيلاجيا! ثمة نوع جديد من البشر ينمو حالياً. كيف عشنا، أنت وأنا، جاثيين على ركبنا، ضاربين الأرض بجباهنا، منحنيين لمن هم أقوى منا. أما في هذه الأيام، فلعل الناس استعادوا رشدهم ـ لست أدري ـ أو لعلهم يرتكبون خطأ أفدح منا، ولكنهم ليسوا مثلنا على أية حال. خذي الشبيبة مثلاً، هم يخاطبون اليوم المدير وكأنهم مساوون له... حسناً، وداعاً، يا بافل ميخائيلوفيتش! لقد كانت طريقتك في الدفاع عن الشعب رائعة حقاً! فليكن اللّه في عونك! ربما تجد المخرج! فليكن اللّه في عونك!

ومضى.

غمغم ريبين:

ـ هيا اذهب، وامضِ إلى الموت! إن الناس أمثاله ليسوا بكائنات إنسانية، بل طين يصلح أن يكون ملاطاً للحجارة. لاحظ مَنْ صاحوا

يريدونك أن تكون موفداً، يا بافل؟ إنهم هم الذين أذاعوا تلك الاشاعات القائلة إنك اشتراكي مشاغب. هم أنفسهم! لقد فكروا: سيسرّحونه، وهو يستحق ذلك.

فقال بافل:

ـ هم على حق، إذا اعتبرنا الأشياء من وجهة نظرهم!

ـ الذئاب أيضاً على حق عندما تمزق إخوتها إرباً إرباً...

كانت سحابة غبراء تغشى وجه ربيين، وصوته يكشف عن اضطراب غير معهود:

ـ الناس لا يريدون الاستماع إلى الكلمات العارية ـ يجب أن تتألم، ينبغي أن تغمس كلماتك في الدم...

ظل بافل طوال النهار حائراً، متعباً، كئيباً، مضطرباً بصورة غريبة، تلتهب عيناه وتبدوان كأنهما تفتشان عن شيء ضائع. أدركت الأم ذلك فاستوضحته في حذر:

ـ ما بالك، يا باشا؟

رد متفكراً:

ـ أصابني صداع.

ـ هلا اضطجعت، وسأدعو لك طبيباً...

فأسرع يجيب بعد أن ألقى النظرة عليها:

ـ كلا، لا تزعجي نفسك!

وأضاف فجأة في همس خفيض:

ـ إني صغير جداً وضعيف جداً. ذلك هو العناء! هم لا يصدقونني، ولا ينضمون إلى قضيتي، وهذا يعني أني لا أعرف أن أشرحها لهم وأبيّن معانيها. إني أحس بعجزي مما يؤلمني ألماً شديداً!

شخصت إلى وجهه العابس، وسعت إلى مواساته فأعلنت في رقة:

ـ انتظر! لسوف يفهمون غداً ما لم يفهموا اليوم...

فهتف:

ـ لقد آن لهم أن يفهموا!

ـ حتى أنا أرى أنك على حق...

فاقترب بافل منها:

ـ أنت رائعة، يا أماه...

قال هذا واستدار عنها، فأجفلت كأنما طعنتها كلماته الهادئة. تركته خارجة، ويدها تضغط على قلبها، تنعم بعطفه وحنانه.

في تلك الليلة بعد أن توجهت الأم إلى فراشها واضطجع بافل في سريره يقرأ كعادته، جاء رجال الدرك وأخذوا ينقبون البيت وهم يهددون في غضب، يصعدون إلى السطح ويخرجون إلى الفناء في حركّة دائبة. وتصرّف الضابط الأصفر الوجه في سخرية مهينة كما فعل في المرة الأولى، وهو يتلذذ بتصويب طعناته إلى قلب بافل وقلب أمه. وقبعت الأم صامتة في إحدى الزوايا لا تحيد بعينيها عن وجه فتاها الذي يحاول إخفاء عواطفه، وإن كانت أصابعه تهتز كلما ضحك الضابط. وأدركت مبلغ ما يبذل من جهدٍ كي يمتنع عن الرد عليه، ومبلغ ما يحز في قلبه وهو يتحمل نكات الضابط وسخريته. ولم تكن خائفة هذه المرة مثلها في المرة الأولى. لقد نما بغضها لهؤلاء الضيوف الرماديين الليليين بمهاميزهم فاستهلك مخاوفها وطغى عليها.

استطاع بافل أن يهمس في أذنها:

ـ سيأخذونني معهم...

فأجابت خافتة الصوت، وهي تحني رأسها:

ـ أعلم ذلك...

إنها تدرك أنهم سيلقون به في السجن بسبب ما قاله للعمال في ذلك الصباح. ولكن الجميع وافقوه فيما ذهب اليه. وهكذا فسوف يهبون كرجل واحد للدفاع عنه فلا يطول اعتقاله...

أرادت أن تلقي بذراعيها حول عنقه، وأن تبكي. وكان الضابط يقف إلى جانبها يراقبها بعينيه الضيقتين، ترتجف شفتاه وشارباه وكأنه يبتسم

في سره. وصوّر لبيلاجيا أن هذا الرجل ينتظر دموعها وشكاواها وتوسلاتها فجمعت كل قواها ولم ترد أن تقول كلمات كثيرة. إنما ضغطت على يد ابنها وهي تقول ببطء، وصوت خافت، وتنفس ضعيف:

ـ إلى اللقاء، يا باشا! هل أخذت جميع ما تحتاج إليه؟

ـ نعم. لا تستوحشي!

ـ فليكن اللّه معك...

بعدما خرجوا مع بافل تهالكت على دكة، وأغمضت عينيها، وراحت تئن بصوت خافت. جلست وظهرها إلى الحائط، كما اعتاد زوجها أن يفعل، يرهقها الحزن والادراك المؤلم لعجزها وضعفها. ألقت رأسها إلى الوراء، وأنّت أنيناً طويلاً بطيئاً سكبت فيه كل مرارة قلبها المكلوم، بينما طفق ذلك الوجه الأصفر الجامد بشاربيه الرفيعين، وعينيه الضيقتين اللتين تبرقان سروراً ولذة، يُثقل على فكرها ويعذبها. وتراكمت في صدرها سحب سود من المرارة والكراهية لأولئك الناس الذين يحرمون الأمهات من أبنائهن لأن هؤلاء يسعون وراء العدالة ليس غير.

كان البرد قاسياً، وقطرات المطر تضرب على النوافذ في عنف، وهُذهِدَ لها أن أشباحاً رمادية ذات وجوه حمر عريضة لا عيون فيها، وسواعد طويلة جداً، تخطو في الليل حول بيتها متربصة، ومهاميزها تدوّي في خفوت. جمجمت في فكرها: «لو أنهم أخذوني، أنا الأخرى!».

ودوّت الصفارة تدعو الناس إلى العمل، فارتفع دويها ذلك الصباح بطيئاً، أجش الصوت متردداً. فتح الباب ودلف ريبين منه. وقف تجاهها وسأل، ماسحاً عن لحيته قطرات المطر:

ـ هل أخذوه؟

فأجابت، وهي تزفر:

ـ نعم، أخذوه! لعنة اللّه عليهم!

فضحك ريبين ضحكة مقتضبة، وقال:

- كان يجب أن ينتظر ذلك! لقد فتشوا بيتي أيضاً، ومروا بأصابعهم على كل شيء، وتفوهوا بشتائم كثيرة... إنما لم يرتكبوا إلا قليلاً من الأذى. وهكذا أخذوا بافل إذن! يغمز المدير بعينيه، والدركي يومىء برأسه، واذا شخص آخر موقوف! إنهما متفاهمان بصورة مدهشة، فأحدهما يمسك الشعب من القرنين، والآخر يستدر لبنه حتى يجف....

صاحت الأم، وهي تنهض:

- ينبغي أن تدافعوا عن بافل! فما فعله كان في سبيل الجميع.

- من ينبغي له؟

- الجميع!

- كذا إذن، ذلك هو رأيك؟ لن يحدث هذا أبداً!

ومضى وئيد الخطوات وهو يضحك ضحكة قصيرة. وقد تركت كلماته اليائسة الأمّ أكثر بؤساً منها في أي وقت آخر.

«ماذا إذا ضربوه؟ إذا عذبوه؟...»

تخيلت جسد ولدها محطماً يدمى من الضرب، فعصف بقلبها خوف بارد، وراحت عيناها توجعانها.

في ذلك اليوم لم تشعل النار في الموقد، ولم تهيىء غداءها، ولم تشرب الشاي. وحين حل المساء تناولت كسرة من الخبز فقط. ولما حبت إلى فراشها تلك الليلة، أحست أن حياتها لم تكن، في يوم من الأيام، باردة موحشة مثلها الآن. لقد اعتادت، خلال السنين القليلة الأخيرة، أن تعيش وهي تتوقع باستمرار شيئاً عظيماً رائعاً، محوطاً بنشاط الشبان المبتهج وضجيجهم، معتادة على رؤية وجه ابنها المحرّض على تلك الحياة الجيدة، لكن الخطرة في الوقت ذاته، أما الآن، فلقد ذهب... وذهب معه كل شيء آخر.

14

لم ينقض ذلك النهار، والليلة التي أعقبته، إلا بعد طول سهاد لا ينتهي. وحلّ اليوم التالي، فإذا هو يجرُّ أذياله أكثر تمهلاً من سابقه؛ كانت تنتظر وفود شخص ما، لا تدري هويته على وجه التحديد، لكن أحداً لم يأت. وهبط المساء؛ وجُنَّ... الليل أيضاً؛ وزفر المطر البارد فوق الجدران وتدحرج عليها؛ وصفرت الرياح وهي تعصف من خلال المدخنة؛ وأسرع شيء يجري تحت أرض المنزل مثيراً ضوضاء خافتة؛ وانزلقت قطرات من المطر عن السطوح، فاختلط صدى سقوطها على الأرض مع دقات الساعة بصورة غريبة؛ وبدا لها المنزل بكامله كأنه يتأرجح مترنحاً، وقد أحال الحزن كل ما يحيط بها ميتاً، عديم الحياة. لا فائدة منه...

قُرع زجاج النافذة في هدوء... مرة... مرتين. كانت قد تعودت مثل هذا القرع فلم يعد يخيفها مطلقاً، ولكنها ارتجفت هذه المرة في انتفاضة سرور، وقد لمست شرارةُ غبطةٍ قلبَها الكئيب. إن آمالاً غامضة غير منتظرة تهيب بها، فتلقي على كتفيها وشاحاً، وتهرول إلى الباب تفتحه...

دخل صموئيلوف، يتبعه شخص آخر اختبأ وجهه وراء ياقة معطفه المرفوعة، والقبعة الغارقة في جبينه حتى الحاجبين. سألها صموئيلوف، دون أن يلقي عليها تحية المساء:

- أيقظناك؟

كان صوته، على خلاف عادته، قلقاً مكتئباً.

أجابت الأم، وهي تراقب القادمين بنظرات مستفهمة:

- لم أكن نائمة!

نزع رفيق صموئيلوف القبعة عن رأسه، وصعد زفرة عميقة مبحوحة ومد للأم يداً عريضة غليظة الأصابع، وهو يسألها مثل صديق قديم:

ـ سلاماً، يا أماه! أفلا تذكرينني!

فهتفت بيلاجيا، وقد أحست بالسعادة بغتة لسبب لم تدركه جيداً:

ـ أهذا أنت، يا ييجور أيفانوفيتش؟

أجاب، وهو يومىء برأسه العريض الذي طال شعره حتى صار شبيهاً برأس شماس الكنيسة:

ـ هو ذاته!

كانت ابتسامة جميلة تعلو محياه، وعيناه الصغيرتان الرماديتان ترنوان بعطف كثير إلى الأم. كان أشبه بالسماور، صغير القامة، مستدير الجثة، ثخين العنق، قصير الذراعين. وكان وجهه يبرق بكل أساريره، وتنفسه صاخباً يجيش ويدمدم على الدوام بشيء غريب يجتاح صدره بعمق وسعة. . .

قالت الأم:

ـ ادخلا الغرفة الأخرى ريثما أرتدي ثيابي!

قال صموئيلوف في قلق، ونظر اليها شزراً:

ـ هناك موضوع نودّ أن نتحدث معك فيه!

دلف ييجور ايفانوفيتش الغرفة المجاورة حيث يرتفع صوته:

ـ إن نيقولاي ايفانوفيتش، وأنتِ فيما يبدو تعرفينه جيداً، خرج من السجن هذا الصباح، أيتها الأم العزيزة. . .

فقاطعته الأم بقولها:

ـ ما كنت أدري أنه في السجن.

ـ بقي فيه طوال شهرين وأحد عشر يوماً، وشاهد الأوكراني هناك وهذا الأخير يرسل اليك تحياته، وكذلك شاهد بافل الذي يرسل اليك تحياته أيضاً ويسألك الّا تقلقي أبداً. هو يقول أخبروها أن كلٍّ من اختار طريقه يتمتع من حين لآخر بلذة الراحة في السجن، وهذا ما يكفله لنا حرص رؤسائنا الدائب وعطفهم علينا. والآن سأنتقل إلى العمل، يا أماه: هل تعلمين عدد الأشخاص الذين اعتُقلوا البارحة؟

فهتفت الأم:

ـ أبداً! أهل أوقف أحد خلاف بافل؟

فقاطعها ييجور ايفانوفيتش بهدوء قائلاً:

ـ كان بافل الموقوف التاسع والأربعين، ولا ريب أن الادارة ستسعى إلى توقيف عشرة آخرين! هذا الشاب مثلاً...

فقال صموئيلوف عابساً:

ـ نعم، أنا أيضاً!

أحست بيلاجيا أن التنفس، لسبب ما، أصبح أيسر عليها. وومضت هذه الفكرة في ذهنها: «على الأقل، فهو ليس وحيداً هناك!».

عندما انتهت من ارتداء ثيابها لحقت بضيفها، مبتسمة له في مرح:

ـ لا أعتقد أنهم سيحتفظون بهم طويلاً ما داموا قد أخذوا هذا العدد الكثير...

فقال ييجور إيفانوفيتش:

ـ لقد أصبتِ! إذا استطعنا أن نفسد عليهم ـ بطريقة ما ـ هذا المشهد، فلسوف يتراجعون وقد لفوا أذنابهم بين أقدامهم. اليك المشكلة كلها: إذا توقفنا عن توزيع المنشورات في المعمل، فإن رجال الدرك سيستفيدون من هذه الفرصة الكئيبة ويستغلونها ضد بافل وبقية رفاقه المعتقلين...

فصاحت الأم في جزع:

ـ ماذا تعني؟

أجاب ييجور إيفانوفيتش في هدوء:

ـ الأمر بسيط جداً! الدرك يفكرون أحياناً بصورة صائبة. تصوري ذلك جيداً: كان بافل طليقاً... فكانت هناك كتب ومنشورات. اعتُقل بافل... فلم يعد هناك كتبٌ أو منشورات. النتيجة: كان بافل هو الذي يوزع تلك المنشورات، أليس كذلك؟ وعندئذ يتهمون الجميع. لقد اعتاد

رجال الدرك افتراس الناس بصورة فظيعة، حتى لا يتركوا منهم إلا بعض آثار لا تعني شيئاً!

فقالت الأم في كآبة:

ـ إني أفهم، يا إلّهي! ولكن ما عسانا نفعل في هذا الشأن؟

فجاء صوت صموئيلوف من المطبخ يقول:

ـ ألقوا القبض على سائر رفاقنا تقريباً، فليأخذهم الشيطان! وينبغي علينا متابعة العمل الآن، لا من أجل قضيتنا فحسب، بل كي ننقذ رفاقنا أيضاً.

وأضاف ييجور، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ وليس ثمة من يعمل! إن لدينا الكثير من المنشورات الرائعة أعددتها بنفسي جميعاً! ولكن، كيف السبيل لإدخالها إلى المعمل؟ تلك مشكلة لم نجد لها حلاً بعد!

وقال صموئيلوف:

ـ لقد شرعوا يفتشون سائر الداخلين عند البوابة!

أحست الأم انهما ينتظران منها شيئاً، فقالت في لهفة:

ـ كيف يمكن إنجاز ذلك؟ كيف؟

فظهر صموئيلوف في مدخل الباب:

ـ ألك معرفة بالبائعة كورزونوفا، يا بيلاجيا نيلوفنا؟

ـ نعم، وماذا في ذلك؟

ـ تحدثي اليها، ولعلها تقبل أن تحمل المنشورات إلى الداخل.

فلوّحت الأم بذراعيها معارضة، وقالت:

ـ أوه، كلّا! إنها ثرثارة! إنهم سيعرفون أنها حصلت عليها بواسطتي... ان المنشورات تخرج من هذا البيت... أوه كلّا!

وأضافت في هدوء، على حين غرة، وكأن وحياً هبط عليها:

ـ أعطيانها... لي أنا! وسأدبر الأمر وأجد طريقة ناجعة! سأطلب إلى ماريا أن أعمل كمساعدة لها، إذ لا بدّ لي من كسب عيشي بطريقة

ما، وأعمل! وهكذا سأحمل طعاماً أبيعه للعمال في المصنع! سأدبر الأمر على أحسن وجه!

وضمت يديها إلى صدرها، وأسرعت تؤكد لزائريها أنها ستنجز كل شيء على أكمل وجه دون أن تلفت الأنظار، أو تسمح بافتضاح أمرها. ثم هتفت أخيراً في لهفة:

ـ وليروا أن يد بافل تمتد إليهم حتى من السجن، فليروا ذلك جيداً!

أشرق وجه الثلاثة معاً، وفرك ييجور يديه بقوة وقال مبتسماً:

ـ عظيم، يا أم! لا بل إنك لا تقدِّرين روعة ذلك! إنه، بكل بساطة، فخم للغاية.

وقال صموئيلوف، وهو يفرك يديه أيضاً:

ـ إذا نجح هذا فسأذهب إلى السجن، وكأني ذاهب إلى فراش النوم!

وصاح ييجور بصوت أبح:

ـ أنت أروع نساء العالم!

ابتسمت الأم. كان من الواضح بالنسبة إليها أن الادارة لا تستطيع إتهام بافل بتوزيع المنشورات اذا استمرت هذه المنشورات على الظهور في المعمل. وشعرت أنها قادرة على القيام بهذا الواجب، فارتعش جسدها كله فرحاً وبهجة.

قال ييجور:

ـ عندما تزورين بافل في سجنه، أخبريه أن له أماً رائعة...

فضحك صموئيلوف، وقال:

ـ سوف أكون الأسبق إلى رؤيته!

ـ قل له إني سأقوم بكل ما يجب، وليطمئن بالاً!

وسأل ييجور وهو يشير إلى صموئيلوف:

ـ واذا لم يرسلوا صموئيلوف إلى السجن؟

ـ إذن، فلا حيلة لنا في ذلك!

وانفجر كلا الرجلين ضحكاً. وعندما أدركت الأم غفلتها، راحت هي

الأخرى تضحك في ارتباك هادىء وفي شيء من المكر الساذج. ثم قالت مطرقة إلى الأرض ببصرها:

ـ ما أصعب أن يرى المرء الآخرين يزعجون أنفسهم من أجل ذويه!

فهتف ييجور:

ـ ذلك طبيعي جداً، ثم لا تجزعي من أجل بافل ولا تحزني، فلسوف يعود من السجن أفضل منه حين دخل إليه. فالمرء يجد هناك راحة جيدة وفرصة للتحصيل أيضاً، وهذا ما لا يتهيأ لأمثالنا وقتما نكون أحراراً طليقين. لقد دخلت السجن ثلاث مرات، وكل مرة خرجت بجليل الفائدة قلباً وعقلاً، ولو لم يكن ذلك لذة بالمعنى الصحيح للكلمة.

فقالت في عطف، وهي تتطلع إلى وجهه البسيط:

ـ إن التنفس يكلِّفك جهداً كبيراً!

فرفع إصبعه عالياً، وأجابها:

ـ إن لذلك سبباً خاصاً! إذن، اتفقنا على كل شيء، يا أم؟ غداً سأرسل تلك البضاعة إليك، فيأخذ الدولاب بالدوران من جديد مبدداً ظلمات العصور. لتعش حرية الكلام، وليعش قلب الأم! إلى اللقاء في فرصة أخرى!

وقال صموئيلوف، وهو يصافحها في شدة:

ـ وداعاً! لم يكن في استطاعتي حتى أن ألمح لأمي شيئاً كهذا!

فقالت بيلاجيا، وهي تودُّ التخفيف عنه:

ـ الجميع سيفهمون يوماً ما!

بعد أن مضيا أترست الباب خلفهما بالمزلاج، وجثت في وسط الغرفة تمزج صلواتها بأصداء المطر المتساقط. كانت تصلي دون كلمات، لمجرد قلقها على أولئك القوم الذين أدخلهم بافل في حياتها. وتراءى لها أن سائر هؤلاء الناس البسطاء، القريبين إلى بعضهم البعض بصورة

غريبة، الوحيدين مع ذلك من دون البشر جميعاً، تراءى لها أنهم يتحركون رائحين غادين بينها وبين الأيقونات.

في صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة ماريا كورزونوفا في ساعة مبكرة، فاستقبلتها هذه وسخة الثياب كثيرة الضوضاء كعادتها أبداً، واستوضحتها في لطف وهي تضرب على كتفها بيد قذرة:

ـ أتحسين الوحدة؟ خففي عنك! لقد أمسكوا به وأبعدوه عنك، فهذا ليس بلاء! وليس ثمة ما يخجل المرء منه، لقد كانوا قبلاً يسجنون الناس لأنهم يسرقون، أما الآن فهم يزجون بهم هناك لأنهم يقولون الحقيقة. لعل بافل لم يفه بما كان يجب أن يقول، ولكن ما فعله كان من أجل صالح الجميع، والكل يعرفون ذلك، فلا تقلقي! ويعرف الجميع من هو ذا قلب طيب على الرغم من أنهم ليسوا جميعاً يفصحون عن ذلك. لقد أردت أن آتي لزيارتك، ولكني لم أجد فسحة من الوقت، فالنهار ينقضي في الطبخ والبيع، ولكنك سترين أني سأموت مستعطية تستجدي الأكفَّ رغم كل شيء. الرجال يعلقون بي، اللعنة عليهم! ويسرقونني هنا، ويسرقونني هناك، مثل سرب من الصراصير يأكل الخبز! وكلما اقتصدت عشرة روبلات جاء أحد أولئك السكيرين وابتلعها. إنها لتعيسة الامرأة! ذلك آخر ما أتمنى لأي إنسان على الأرض. إذا عشتِ وحيدة... فالحياة لا معنى لها، وإن أتاكِ رجل... فقد انتهت حياتك إذن!

فقالت بيلاجيا، تقطع عليها ثرثرتها:

ـ جئت أسئلك أن تتخذيني مساعدة لك!

ـ ما معنى هذا؟

وحينما شرحت لها الأم ما ترمي إليه، هزت ماريا رأسها موافقة وأعلنت:

ـ طبعاً! أتذكرين كيف كنت تخبئينني من زوجي؟ والآن سأخفيك عن الحاجة... من واجب الجميع أن يقدموا العون لك، باعتبار أن ابنك

اعتُقِل في سبيل المصلحة العامة. إنه فتى رائع، والجميع يقولون ذلك بصوت واحد وهم يشعرون جميعاً بالأسف من أجله. صدقيني... لن يستفيد الرؤساء شيئاً من هذه الاعتقالات. أنظري إلى ما يجري في المعمل! الأقوال سيئة للغاية هناك، يا عزيزتي! إنهم يعتقدون، هؤلاء الرؤساء، أنهم إذا نهشوا المرء من عقبيه فسيتوقف عن الركض. إنهم يضربون عشرة. فإذا مائة يجنون!

ظهرت الأم، نتيجة هذا الحديث، في المعمل ظهر اليوم التالي، وهي تحمل سلتين مملوءتين بأطعمة ماريا، بينما ذهبت ماريا نفسها إلى السوق للبيع هنالك.

15

لفتت البائعة الجديدة أنظار العمال في الحال، واقترب بعضهم منها وقال مشجعاً لها:

ـ أبدأتِ تعملين، يا بيلاجيا!

وأسرع بعضهم يؤكدون لها أن غيبة بافل لن تطول، وحرّك آخرون عواطفهم بكلمات عطوفة. لا بل ذهب البعض أبعد من ذلك فلعنوا المدير والدرك، الأمر الذي وجد له صدىً وترجيعاً حلوين في قلبها المكلوم. ولكنها لم تعدم من يتفرّس فيها بنظرات تعبر عن الشماتة. بل إن أشعيا غوربوف، مراقب الدوام، قال لها من خلال أسنانه المنطبقة:

ـ لو كنتُ الحاكم لشنقت ابنك! وهو يستحق ذلك لأنه يقود الناس إلى الضلال!

أرسل هذا الوعيد السافل قشعريرة باردة في جميع أعضائها. ولم تجب أشعيا، بل اكتفت بالنظر في وجهه الصغير الأنمش ثم أطرقت بعينيها وهي تصعّد الزفرات.

كان المصنع يفور باضطراب شديد؛ والعمال يتكتَّلون في جماعات صغيرة يتهامسون ويلغطون؛ والمراقبون القلقون ينتقلون من مكان إلى آخر؛ والشتائم ترتفع من هنا وهناك، ترافقها في بعض الأحيان ضحكات خبيثة.

مرّ بجانبها شرطيان يقودان صموئيلوف. كان يسير بينهما ويده الواحدة في جيبه، ويده الأخرى تعبث بشعره الضارب إلى الحمرة، يتبعهم حوالى مئة من العمال يشتمون الشرطيين ويوسعونهما سخرية وتهكماً.

هتف أحدهم:

ـ أأنت ذاهب في عطلة، يا صموئيلوف؟

وأضاف آخر:

ـ إنهم يكرِّموننا في هذه الأيام، ويرسلون إلينا حرساً يرافقوننا في تطوافنا...

وتبع ذلك شتيمة بذيئة...

صاح عامل طويل أعور في غيظ:

ـ يبدو أن إلقاء القبض على اللصوص لم يعد اليوم أمراً ذا بال، وهكذا شرعوا يعتقلون الناس الشرفاء...

وارتفع صوت من بين ذلك الحشد يقول:

ـ لو أنهم يتحلون بما يكفي من الحياء فيمسكون بهم ليلاً على الأقل! ولكنهم يفعلون ذلك في وضح النهار... أولئك الكلاب!

عبس الشرطيان، وراحا يستحثّان الخطى محاوليْن ألا يلاحظا شيئاً، متظاهرَين أنهما لا يسمعان تلك النعوت المنهالة عليهما من كل حدب وصوب. وتقدم منهما ثلاثة عمال يحملون قضباناً طويلة من المعدن، وهم يصيحون مصوبينها نحوهما:

ـ حذار، أيها الصيادان!

وأومأ صموئيلوف إلى الأم، وقال باسماً:

ـ ها هما قاداني إلى هناك!

فانحنت له في صمت. لقد أثَّر في قلبها رؤية هؤلاء الفتيان الشرفاء الأذكياء يذهبون إلى السجن وابتسامة تعلو شفاههم فطفحت نفسها عليهم بعاطفة الأم الرؤوم وحنانها.

بعدما عادت من المعمل قضت بقية النهار مع ماريا تساعدها في عملها، وتستمع إليها في ثرثرتها التي لا تنتهي. ولم تعد إلى بيتها الخاوي، البارد، الكئيب، إلا في ساعة متأخرة من المساء. ظلت طويلاً تهيم على وجهها من مكان إلى آخر، مضطربة لا تجد السكينة إلى قلبها درباً، لا تدري ماذا تفعل بنفسها، يراودها القلق لأن ييجور إيفانوفيتش تأخر كثيراً رغم هبوط الليل وحلول الظلام، فلم يحمل اليها المنشورات الموعودة بها.

كانت ندف ثقيلة من ثلج الخريف تتساقط وراء النافذة، متعلقة بزجاجها برهة وجيزة من الزمن قبل أن تذوب بسكينة وتنزلق عنه تاركة وراءها خطوطاً ندية. وراحت تفكر في ولدها....

قُرع الباب في حذر، فطارت الأم إليه ترفع عنه المزلاج، فدلفت منه ساشنكا. لم ترها الأم منذ زمن بعيد بعيد، فكانت أولى الانطباعات التي تركتها فيها الآن بدانة لم تعهدها فيها من قبل قط.

هتفت بها مستبشرة بقدوم من يزجي ولو جزءاً صغيراً من الليل معها، فينقذها من وحدتها المؤلمة:

ـ نعمت مساءً! لم أرك منذ زمن بعيد. هل كنت في سفر؟

فعالنتها الفتاة، وهي تبتسم:

ـ كلا، كنت في السجن! أنا ونيقولاي إيفانوفيتش معاً... هل تذكرينه؟

ـ بالطبع أذكره! لقد روى لي ييجور ايفانوفيتش البارحة أنهم أطلقوا سراحه. ولكني لم أكن أعرف شيئاً عنك... لم يذكر لي أحد مطلقاً أنك كنتِ هناك أنت الأخرى.

فقالت ساشا، وهي تجيل نظرها في الغرفة:

ـ لا دعوى للكلام عن هذا! أرغب في تبديل ثيابي قبل قدوم ييجور إيفانيتش!

ـ لقد ابتللتِ كثيراً...

ـ لقد جلبت معي الكتب والمنشورات...

فصاحت الأم في لهفة:

ـ هاتيها! هاتيها!

حلت الفتاة أزرار معطفها بسرعة وهزّت جسدها بقوة فإذا النشرات تتساقط على الأرض كما تتساقط الأوراق عن أشجارها، فتسرع الأم في جمعها ضاحكة طروباً:

ـ لقد كنت أتساءل من أين جئت بهذه السمنة كلها حالما رأيتك... ظننتك تزوجت، وتنتظرين الآن وليداً. يا إلّهي! ما أكثر ما حملتِ! هل قطعت الطريق بأسرها مشياً على قدميك؟

فقال ساشنكا:

ـ نعم!

وعادت، كعهد الأم بها أبداً، باسقة القامة ناحلة العود. ولكن بيلاجيا لحظت في خديها ضموراً زاد في اتساع عينيها، وأن ثمة دوائر سوداً تحيط بهما من الأسفل، فهتفت وهي تزفر وتهزُّ رأسها في أسى:

ـ وكيف تفعلين هذا، وأنت في أشد الحاجة إلى الراحة بعد خروجك من السجن؟

فقالت الفتاة المرتعشة الأوصال:

ـ هكذا اقتضى الأمر! هاتي حدثيني عن بافل ميخائيلوفيتش. أكان شديد الاضطراب حينما أخذوه؟

لم تنظر ساشنكا إلى الأم عندما طرحت هذا السؤال، بل حنت رأسها، وراحت تصفِّف شعرها بأصابع مرتجفة.

قالت الأم:

ـ لم يضطرب كثيراً، فهو ليس من الذين يخونهم جلدُهم.

فسألت الفتاة في صوت خفيض:

ـ أهو قوي الصحة؟

ـ لم يمرض قط في حياته! ولكنك ترتجفين بكليتك. لحظة وأقدم لك قدحاً من الشاي مع قليل من مربّى العنّاب.

ـ ذلك لطف عظيم منك، لكنه سيزعجك كثيراً... فالوقت جدّ متأخر. دعيني أهيىء ذلك بنفسي...

فأجابت الأم في لهجة عتاب، وهي تضرم النار في السماور:

ـ أأتركك تفعلين وأنت على هذا الاعياء؟

دلفت ساشا بدورها إلى المطبخ، واقتعدت دكة هناك، وقد وضعت يديها خلف رأسها. قالت:

ـ ينهك السجن قوى الإنسان. آه من ذلك العطل الملعون! ليس شيء أسوأ منه أبداً! عندما تعلمين أن هنالك كثيراً من العمل، ومع ذلك فأنت تجلسين كالحيوانات في أقفاصها...

فسألت الأم:

ـ ومن سيكافئكم من أجل هذا كله؟

ثم ردّت على سؤالها بنفسها، وهي تتنهد:

ـ لا أحد إلّا اللّه! ولكني أعتقد أنك لا تؤمنين به أنت أيضاً.

فأجابت الفتاة في اقتضاب، وهي تهزّ رأسها نفياً:

ـ كلا!

فقالت الأم في اندفاع غير متوقع:

ـ لست أصدقكم!

وأضافت في إقناع عميق راسخ، وهي تمسح غبار الفحم عن أصابعها بمئزرها:

ـ أنتم لا تفهمون ايمانكم نفسه! كيف يمكن أن تعيشوا مثل هذه الحياة إن كنتم لا تؤمنون باللّه؟

وفجأة، علا ضجيج أقدام في الرواق الخارجي وصدى غمغمة خافتة، فأجفلت الأم، وهبّت الفتاة على قدميها بسرعة وهمست:

ـ لا تفتحي الباب! إذا كانوا من الشرطة فانكريني!... لقد أخطأت المنزل وأغمي عليّ على وصيد الباب، وأنت خلعت عني ثيابي ووجدت المنشورات. هل فهمت؟

فَأسرَّت الأم، وقد تأثرت حتى أعماق قلبها:

ـ أيتها العزيزة المسكينة! ولمَ يجب أن أقول هذا؟

نبرت الفتاة، وهي تصيخ السمع عند الباب:

ـ انتظري لحظة، فقد يكون ييجور...

كان هو حقاً، مبلل الثياب حتى الجسد، لاهثاً، تعباً حتى الاجهاد. قال:

ـ آه! أرى أنك أطلقتِ العنان للسماور! ليس هنالك ما هو أفضل من السماور في الحياة، يا أماه! وأنتِ وصلت هنا، يا ساشنكا؟

استمرَّ يتكلم دون انقطاع، وهو يخلع معطفه الثقيل في بطء، ويملأ المطبخ الصغير بصدى تنفسه الأجش:

ـ هذه فتاة أثارت السلطات، يا أماه! فإذا أهانها السجان أعلنت الاضراب عن الطعام حتى يعتذر. لقد ظلت طوال ثمانية أيام دون أن تأكل، فأوشكت على مغادرة الحياة نتيجةً لذلك. ما رأيك في هذا؟ ليس سيئاً، أليس كذلك؟ هل رأيت في حياتك مثل بطني؟

أمسك بيديه القصيرتين بطنه المنتفخ بشكل غريب، وذهب إلى الغرفة الأخرى وهو لا ينقطع عن الحديث حتى أغلق الباب خلفه.

سألت الأم في دهشة:

ـ أرفضتِ الطعام حقاً طوال ثمانية أيام؟

فأجابت ساشا، وهي ترتعش برداً:

ـ كان يجب أن أفعل شيئاً لأجبره على الاعتذار!

أثار عناد الفتاة وثبات جأشها في نفس الأم ظلاً من اللوم والعتاب.

فكرت: «تلك هي حقيقتها إذن!»

واستفهمت بعد برهة:

ـ وماذا لو متّ؟

فقالت الفتاة في صوت خافت:

ـ لم يكن لي في ذلك حيلة! ولكنه اعتذر، على المرء أن لا يغتفر الأذى.

فزمزمت الأم في تماهل:

ـ كـ... ذا! أما نحن النساء فنتعرض للأذى طوال حياتنا...

وقال يبجور، وهو يفتح الباب:

ـ حسناً، لقد تخلصت من حملي! هل جُهّز السماور؟ إسمحي لي بإحضاره...

حمل السماور إلى الغرفة المجاورة وهو يقول:

ـ كان أبي العزيز يشرب ما لا يقل عن عشرين قدحاً من الشاي يومياً، وبفضل ذلك عاش في سلام وصحة جيدة حتى الثالثة والسبعين، ووزنه يتجاوز المائة كيلوغرام وهو يخدم قندلفتاً في قرية فوسكريسنسكويه...

فهتفت الأم:

ـ هل أنت ابن الأب إيفان؟

ـ هو كذلك، ولكن من أين لك المعرفة بسيدي المحترم؟

ـ أنا من قرية فوسكريسنسكويه، أنا الأخرى!

ـ من مسقط رأسي إذن؟ وابنة من تكونين؟

ـ ابنة جيرانكم، آل سيريجين.

ـ ابنة الأعرج نيل؟ أعرفه جيداً، فلقد سنحت لي الفرصة السعيدة أكثر من مرة بالتمتع بشدة أذنيّ...

وقفا تجاه بعضهما بعضاً يضحكان ويتطارحان آلاف الأسئلة. ألقت ساشنكا نظرة إليهما مبتسمة، وهي تصب الماء الغالي في ابريق الشاي. ولكن رنين الأقداح نبّه الأم أخيراً إلى واجباتها:

ـ أوه، أرجو المعذرة. لقد استرسلت في الثرثرة وغابت كل الأشياء عن بالي... حقاً! ما أجمل أن يلقى المرء شخصاً آخر من مسقط رأسه...

ـ بل أنا التي يجب أن أستميحك العذر لأني تصرفت كما لو كنت في بيتي الخاص! لكن الساعة تجاوزت العاشرة وما يزال أمامي طريق طويلة لا بدّ من عبورها...

فسألت الأم في دهشة:

ـ إلى أين تذهبين؟ أإلى المدينة؟

ـ نعم.

ـ ولماذا تذهبين؟ لقد هبط الليل، والمطر ينهمر بشدة، وأنت منهكة القوى شديدة الاعياء! أقضي الليل ههنا! سينام ييجور ايفانوفيتش في المطبخ. وننام، أنت وأنا، هنا معاً.

فقالت الفتاة بكل بساطة:

ـ كلا، يجب أن أذهب!

وقال ييجور:

ـ لا بد أن تذهب الآنسة. إنهم يعرفونها ههنا واذا شوهدت غداً في الشوارع ازداد الأمر سوءاً عليها!

ـ لكن كيف تذهب؟ وحدها؟

فقال ييجور، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ وحدها!

صبت الفتاة قدحاً من الشاي، وتناولت قطعة من الخبز الأسود وذرّت عليها شيئاً من الملح، وانثالت تأكل وهي تنظر إلى الأم مفكرة متمعنة.

قالت بيلاجيا:

ـ كيف تجرؤين على ذلك؟ وناتاشا أيضاً؟ أنا لن أقدر على ذلك مطلقاً... إني أخاف!

فقال ييجور:

ـ وهي تخاف أيضاً! أنت تخافين، أليس كذلك، يا ساشا؟

فأجابت الفتاة:

ـ بالطبع أخاف!

وتطلعت الأم اليها والى ييجور، وهتفت بصوت خفيض:

ـ يا لكم من قوم... متيني الأعواد!

عندما انتهت ساشنكا من احتساء قدح الشاي صافحت ييجور في صمت وعبرت إلى المطبخ، فلحقت بها الأم تشيعها. قالت ساشنكا:

ـ اذا رأيت بافل ميخائيلوفيتش بلّغيه أطيب تحياتي! لا تنسي هذا، أرجوك!

واستدارت على حين غرة، بعد أن وضعت يدها على قبضة الباب، وقالت في هدوء:

ـ هل أستطيع أن أقبلك؟

فعانقتها الأم في سكون وقبلتها بحرارة.

ـ شكراً لك!

قالت الفتاة هذا وهي تومىء برأسها، ثم اختفت.

عندما عادت الأم إلى الغرفة أنفذت بصرها من خلال النافذة قلقة وجلى. كانت ندف رطبة من الثلج تنهمر في الظلمة البهيمة المخيمة.

سأل ييجور:

ـ هل تذكرين آل بروزوروف؟

كان يجلس، وقد بدّ بين ساقيه، ونفخ على الشاي في قدحه ليبترد مثيراً ضوضاء صاخبة.

كان وجهه محمراً، راضياً، ندياً بما يتصبب عليه من عرق.

قالت الأم مفكرة، وهي تتجه صوب المائدة:

ـ نعم، أذكرهم!

وجلست، وشرعت ترنو إلى ييجور في أسى وقالت متماهلة:

ـ يا إلّهي! مسكينة ساشنكا! كيف تصل إلى المدينة؟

ـ ستبلغها متهدمة القوى، لا ريب في ذلك! السجن أضناها. كانت في الماضي أقوى منها الآن... لقد عاشت حياة رغيدة سهلة... يخيل إليّ أنها أضحت الآن مصابة في رئتيها...

فسألت الأم في رقة:

ـ من هي؟

ـ إبنة أحد ملاكي الأرض. وأبوها، حسب أقوالها، خنزير كبير. هل تعلمين، يا أماه، أنهما كانا ينويان الزواج؟

ـ من هما؟

ـ هي وبافل... لكن شيئاً من هذا لم يحدث، كما ترين بعينيك... عندما يكون هو طليقاً، تكون هي في السجن، والعكس بالعكس!

قالت الأم، بعد برهة من الصمت!

ـ ما كنت أعلم! بافل لا يتحدث عن نفسه أبداً...

عظم إشفاقها على الفتاة، فنظرت إلى ضيفها وقالت في استياء غير مقصود:

ـ لمَ لم ترافقها إلى بيتها؟

فأجاب في هدوء:

ـ لا أستطيع ذلك، فلديّ كثير من المشاكل هنا في الضاحية. ولسوف أقضي النهار، منذ الصباح الباكر، متنقلاً من مكان لآخر. وهذا ليس بالأمر السهل لمصاب بعسر التنفس مثلي...

ـ إنها فتاة رائعة!

جهرت الأم بهذا، وقد شغل بالها ما رواه لها ييجور تواً، وآلمها أن تعرف ذلك من غريب ولا تعرفه من ولدها مباشرة... فعبست، وعقدت ما بين حاجبيها، وضمت شفتيها بقوة وعنف.

وأومأ بيجور برأسه، وأبان:

ـ وإنها لكذلك حقاً! لأرى أنك تأسفين من أجلها، وأنك تخطئين في ذلك! سينهار قلبك اذا أخذت تحسين الاشفاق من أجلنا جميعاً، نحن المتمردين. فالحقيقة أن أحداً منا لا يتمتع بحياة سهلة. لقد عاد أحد رفاقي منذ مدة قريبة من المنفى، وعندما بلغ نيجني نوفجورود كانت زوجته وابنه ينتظران في سمولنسك، وعندما ذهب إلى سمولنسك، كانا قد أصبحا في سجن موسكو. لقد جاء دور زوجته الآن في الذهاب إلى سيبيريا. ولقد كانت لي، أنا أيضاً، زوجة جميلة رائعة يهواها القلب... لكن أعواماً خمسة من مثل هذه الحياة أودت بها إلى القبر...

أفرغ كأس الشاي دفعة واحدة في جوفه، وتابع قصته. حدَّثها عن الأشهر التي قضاها في السجن، وعن السنوات التي سلخها في المنفى. حدثها عن مصائب مختلفة، عن أساليب الضرب في السجن، وعن الجوع في سيبيريا. وراحت تراقبه، وتعجب لتلك البساطة الهادئة التي يروي بها سيرة حياته الطافحة عذاباً واضطهاداً...

ـ ولكن فلندخل إلى صلب الموضوع الآن!

تبدلت لهجته، وأصبح وجهه أكثر رزانة، وجَهَرَ يسألها كيف تنوي إدخال المطبوعات إلى المعمل، حتى ذهلت لمعرفته التامة بكل التفصيلات ودقائق الأمور.

عندما انتهيا من هذا الموضوع جعلا يتذكران من جديد قريتهما. كان هو يتحدث مازحاً، أما هي فتهيم متأملة خلال شعاب ماضيها، فيُصوّر لها أنه يشبه، إلى حد بعيد، مستنقعاً شبّت فيه بين أكوام التراب أشتال صغيرة من الحور الرجراج النحيل ترتجف فَرَقاً وجزعاً، وأشجار الشوح والبتولا البيضاء التي تنمو ببطء شديد، ثم تسقط وتذوب بعد خمس سنوات من العيش في هذه التربة المتعفنة. شهدت تلك الرؤيا فانبثق في صدرها إشفاق على شيء ما، وظهر أمام عينيها من جديد شبح فتاة قاسية الملامح، عنيدة القسمات، تشقّ دربها خلال ندف الثلج الرطبة،

وحيدة، متعبة... وأن ابنها متوحد الآن في السجن. لعله لم ينم بعد، بل يضطجع في تلك الساعة من الليل يفكر... لا يفكر فيها، في أمه، ولكن في شخص آخر أعزّ على قلبه. وتتالت أفكارها المؤلمة مثل سحب كثيفة سود تغمر روحها بالظلمة القاتمة....

قال پيجور باسماً:

ـ أنت متعبة، يا أماه، هيا بنا إلى الفراش!

فتمنّت له ليلة طيبة، وحَبَت إلى المطبخ بحذر وقد أفعمت قلبها مرارة تحزّ في نفسها.

في اليوم التالي توجه پيجور إليها، وهما على مائدة الافطار، وأعلن:

ـ أذا ألقوا القبض عليك، وسألوك من أين جئت بهذه النشرات الهرطوقية، فماذا أنت قائلة لهم؟

ـ سأقول: ذلك ليس من شأنكم!

ـ أخاف ألا يوافقونك في هذا! فهم واثقون الثقة كلها أن ذلك العمل من شأنهم وحدهم! وسيظلون يسألونك بقسوة زمناً طويلاً!

ـ ولكني لن أخبرهم شيئاً!

ـ إذن، يزجون بك في السجن!

قالت، وهي تتنهد:

ـ وما أهمية ذلك؟ إني لأشكر اللّه إذن، إذ أصلح لهذا على الأقل! ومن يحتاج إليّ؟ لا أحد البتة! وهم لن يعذبوني. يقال إن...

غمغم پيجور، وهو يرنو إليها بانتباه:

ـ وَيْ! كلا، لن يعذبوك. لكن القوم الصالحين الطيبين يجب أن يوفروا أنفسهم...

فأجابت الأم ضاحكة ضحكة قصيرة:

ـ هذا ما لستم قادرين على تعليمه!

فطفق پيجور يجوس الغرفة صامتاً أخرس، ومن ثم اتجه نحوها، وعالنها:

ـ ذلك شاق جداً، يا أماه، وأنا أعرف ثقل وقعه عليك!

فردّت، وهي تحرك يدها:

ـ إنه شاق على الجميع، ولعله أسهل على الذين يفهمون... ولقد بدأت أفهم، شيئاً فشيئاً، ما يسعى إليه أفضل الناس...

فقال في صرامة:

ـ ما دمت فهمت ذلك، فالجميع في حاجة اليك، أيتها الأم. الجميع!

فشخصت إليه وابتسمت.

استعدت، حوالى منتصف النهار، للانطلاق إلى المعمل وهي تحشو نفسها بالمنشورات في عناية ودقة، بحيث طقطق ييجور بلسانه مغتبطاً راضياً، وهو يفحصها ويقول:

ـ «زرغوت!»، كما يقول سائر الألمان الطيبين عندما يُفرغون البرميل الأول من الجعة. المطبوعات لم تبدل منك شيئاً أيتها الأم ـ فما زلت المرأة ذاتها، متوسطة العمر، طويلة، تميل إلى البدانة. فلتباركك الآلهة العديدة لبدايتك هذه!

لم تمرّ نصف ساعة حتى كانت الأم تقف أمام باب المعمل، في هدوء وثقة تامة بالنفس، منحنية تحت عبء ما تحمل من سلال. وكان ثمة حارسان يتحريان بأيديهما الخشنة كل شخص يدلف إلى الساحة، فيكافئهما ضحاياهما بالشتائم والسباب، ويطلق الحارسان ألسنتهما بالسخرية منهم. وكان شرطي ورجل آخر طويل الساقين، أحمر الوجه، ذو عينين سريعتي الحركة، يعتصمان باحدى الزوايا. نقلت الأم حملها من كتفٍ إلى أخرى، وهي تراقب ذلك الطويل الساقين من تحت حاجبيها، فقد عرفت فيه واشياً.

قال أحد العمال، وهو طويل القوام أجعد الشعر، وقبعته عالقة بمؤخرة رأسه، مخاطباً الحارسين اللذين يتحسسان ثيابه:

ـ يحسن بكما، أيها الشيطانان، أن تفتشا رؤوسنا لا جيوبنا!

فأجاب أحدهما:

ـ ليس في رأسك سوى القمل...

ـ إذن ابحثا عنه!

فحدجه الواشي بنظرة خاطفة، وبصق في ازدراء.

قالت الأم:

ـ افسحا لي طريق المرور... ألا تريان أن ظهر الإنسان يكاد ينقصف تحت مثل هذا الحمل الثقيل؟

فصاح الحارس حانقاً:

ـ إمضي، إمضي! أكثرتِ في الثرثرة أنت أيضاً!

لما بلغت الأم مكانها أنزلَت السلال إلى الأرض، ومسحت العرق عن وجهها، وتطلعت حولها.

أسرع اليها الأخوان الميكانيكيان جوسيف في الحال. سأل فاسيلي، البكر، وقد قطّب وجهه:

ـ ألديك فطائر؟

ـ سأحضر شيئاً منها في الغداة!

كانت هذه كلمة السرّ. فأشرق وجه الأخوين. لم يتماسك ايفان نفسه فانفجر قائلاً:

ـ آه، يا للفرحة...

قرفص فاسيلي يلقي نظرة إلى السلة، وفي تلك اللحظة اتخذت رزمة من المنشورات طريقها إلى صدره. قال في صوت عال:

ـ ولمَ نذهب إلى البيت، يا إيفان؟ سنشتري غداءنا منها!

واختفت بسرعة رزمة أخرى في قمة جزمته:

ـ فلنشجِّع هذه البائعة الجديدة...

فوافق إيفان ضاحكاً:

ـ هذا صحيح!

ألقت الأم نظرها، محترسة، على ما حولها وصاحت:

ـ حساء كرنب! شربة معكرونة ساخنة!

وراحت تخرج المنشورات رزمة رزمة، وتناولها بسرعة إلى الأخوين. وكلما دست في أيديهما رزمة، وَمَض أمامها وجه الضابط الأصفر كلهيب عود كبريت مشتعل في غرفة مظلمة، فقالت في نفسها متوجهة اليه في شماتة:

«اليك! خذ هذا، أيها الرجل العزيز!

ثم تقول، وهي تناول الأخوين رزمة أخرى:

«وهذه أيضاً!»

تدفّق العمال يأتون اليها، وقصعاتهم في أيديهم؛ وكلما اقترب أحدهم راح إيفان جوسيف يضحك بصوت مرتفع، فتمتنع الأم في هدوء عن إعطاء المنشورات، وتلتفت إلى حسائها وشربتها.

وضحك الأخوان قائلين:

ـ إنك لبارعة، يا بيلاجيا نيلوفنا!

فقال وقّاد عابساً وقد اقترب منها:

ـ إنها الحاجة التي دفعتها إلى ذلك، فلقد جرّوا كاسب خبزها بعيداً عنها، أولئك الأوباش! والآن، أعطيني شربة معكرونة بثلاثة كوبيكات. لا بأس، أيتها الأم، فلسوف تدبرين أمرك بطريقة ما.

فأجابت، وهي تبتسم:

ـ شكراً لك على هذه الكلمات اللطيفة!

فغمغم، وهو يبتعد:

ـ إن قول بعض الكلمات اللطيفة لا يكلّف كثيراً. . .

وعادت الأم تصيح:

ـ حساء حار! شربة ساخنة!. .

وشرعت تفكر وتفكر كيف تتمكن من إخبار ولدها عن تجربتها الأولى في حمل المنشورات، ووجه الضابط الغاضب، الأصفر المشدوه، يتراءى من خلف أفكارها. كان شارباه الأسودان يرقصان باضطراب،

وأسنانه المنطبقة تلتمع بياضاً من تحت شفته العليا المتقلصة. فاضت السعادة في صدرها تشدو كالعصفور، فحرَّكت حاجبيها في مكر، واستمرت تمجمج في نفسها، وهي تتابع عملها بعناية:

«إليك هذه أيضاً!..».

16

في تلك العشية، فيما هي تتناول الشاي، طرق سمعها وقع حوافر حصان تحطم الوحل المتجمد، وصوت مألوف لديها. فاستوت على قدميها، واندفعت عبر المطبخ ـ متهافتة على الباب. وتردَّد صدى خطوات سريعة عند مدخل البيت، فأظلم كل شيء في عينيها، وأسرعت تدفع الباب بقدمها وتستند واهنة القوى على صفحته.

وجاء الصوت المألوف هاتفاً:

ـ ليلتك سعيدة، يا أميمة!

وأحاطت ذراعان طويلتان نحيلتان بكتفيها، وعانقتاها بحرارة.

حزَّ في قلبها شعور بخيبة الأمل والفرح لرؤية أندريه. وذاب الاحساسان في انفعال واحد، عظيم، مرهق، اكتسحها في موجة عاتية دافئة، ورفعها عالياً حتى سقطت ووجهها على صدر الأوكراني. فضمها إليه بذراعين مرتجفتين، بينما طفقت الأم تبكي في هدوء وسكينة. وراح يمسح على شعرها ويقول ملاطفاً:

ـ لا تبكي، يا أميمة، ولا ترهقي قلبك! أقسم لك بشرفي أنهم سيُفرجون عنه سريعاً! فهم لا يستطيعون إثبات شيء ضده ـ والرفاق جميعاً يعتصمون بالصمت كالسمك المسلوق...

اقتاد الأم، وذراعه ملتفة حول كتفيها، إلى الغرفة الأخرى. فالتصقت

به بشدة، تشرب بتعطشٍ وجشعٍ كل كلمة من كلماته، وهي تمسح الدموع من عينيها بحركات سريعة تشبه حركات سنجاب صغير.

ـ بافل يقرئك تحياته. هو على أحسن ما يتمنى المرء من السعادة والسرور. والازدحام شديد هناك! لقد ألقوا القبض على أكثر من مائة شاب ـ وهم شباب من المدينة ومن المصنع ـ وعيّنوا يطيحون بهم، كل ثلاثة أو أربعة، في زنزانة واحدة. إن مديري السجن رجال طيبون، وهم متخمون من كل ذلك العمل الذي يرهقهم به أولئك الشرطة الملاعين! ليس المديرون أفظاظاً، فهم يقولون دائماً: «احتفظوا بهدوئكم، أيها السادة، كي لا تسببوا المتاعب لنا!» وهكذا يسير كل شيء على ما يرام. والشبان يتحادثون سوية، ويتبادلون الكتب، ويتشاركون في الطعام. إنه سجن بديع ـ قديم وسخ، ولكنه خفيف الوطأة على المرء. وإن المساجين المجرمين طيبون أيضاً، وهم يسدون لنا مساعدات كثيرة. لقد أخلي سبيلي، وسبيل بوكين، وأربعة آخرين. وإني لعلى يقين من أن دور بافل سيحين سريعاً، أما فيزوفشيكوف فسيكون ترتيبه الأخير ـ هم حانقون عليه لفظاظته المتواصلة معهم، ورجال الدرك لا يستطيعون تحمل رؤيته! وسيقدمونه إلى المحاكمة أو يجلدونه في يوم من الأيام! أما بافل فيقول له دون انقطاع: «كفّ عن ذلك، يا نيقولاي! فشتائمك لن تفيد شيئاً في إصلاحهم!» ولكن نيقولاي يصيح: «سوف أسحقهم بقدميّ كما أسحق الحشرة الدنيئة!» أما بافل فيتصرّف بصورة رائعة ـ في ثبات وصلابة. إني على يقين من أنهم سيطلقونه سريعاً...

فرددت الأم متعزية، وهي تبتسم في لطف:

ـ سريعاً! أنا متأكدة أن ذلك سيكون سريعاً!

ـ عظيم أنك متأكدة من ذلك! ما قولك في أن تصبي لي من الشاي قدحاً، وتحدثيني عن أمورك هذه الأيام؟

كان يرنو إليها باسماً، بلطف ورقة، ووميض حب يشع من عينيه اللتين خيم عليهما ظل من الكآبة.

صعّدت الأم زفرة عميقة، وهي تدرس تقاطيع وجهه النحيل، المكسوّ بأدغال سوداء من الشعر بصورة تبعث على الضحك.

ـ إني مغرمة بك، يا أندريوشا!

فأجاب، متأرجحاً إلى الأمام والخلف على كرسيه:

ـ أن النزر القليل يكفي لأن يجعل مني رجلاً سعيداً. أنا أعرف أنك مغرمة بي. إن لك قلباً كبيراً يتسع لمحبة البشر جميعاً!

فقالت في إلحاح:

ـ ولكنني أحبك حباً خاصاً! ولو أن لك أماً لحسدها جميع الناس على مثل هذا الابن الرائع...

فهزّ الأوكراني رأسه، وحكّه بشدة بكلتا يديه.

وجاء صوته ضعيفاً بطيئاً:

ـ إن لي أماً في مكان ما...

فهتفت الأم في حمية:

ـ أتدري ما صنعت اليوم؟

راحت تروي له في حماسة وحميّة كيف حملت المنشورات إلى المعمل، وهي تنمّق وصفها قليلاً، تفيض فرحاً وحماسة.

فتح عينيه بادىء الأمر دهشة؛ ثم انفجر ضاحكاً، وحرّك قدميه، وضرب على رأسه بأصابعه، وصاح والفرح يغمر قلبه:

ـ يوْ هُوْ! هذه ليست توافه! هذا شيء عظيم! أفلن يكون بافل مسروراً؟ هذا رائع، يا أميمة! رائع بالنسبة لبافل، وللآخرين جميعاً!

وراح جسده يهتز إلى الأمام والخلف. وطفق يفرقع بأصابعه، ويصفر متحمساً، ويتألق فرحاً، باعثاً في قلب الأم ترجيعاً شديداً غير منقوص.

قالت، وكأن قلبها فتح ليتدفق منه تيار الكلمات الذي اندفع يتناثر ويتلألأ في بهجة هادئة:

- إيه، أيها الحبيب المبارك أندريوشا! عندما أفكر في حياتي الخاصة... آه، أيها السيد يسوع! لماذا عشت حياتي؟ لأعمل...

وأجلد... ولا أرى أحداً سوى وجه زوجي... ولا أعرف سوى الخوف والهلع! لم ألحظ كيف شبّ بافل ونما. ولم أعرف، طيلة حياة زوجي، إن كنت أحب ابني أم لا! لقد كانت أفكاري وسائر رغباتي منصرفة لأمر واحد: أن أغذي وأسمّن بالطعام الجيد ذلك الوحش الذي يخصني، وأفعل ما يسرُّه ويبهج قلبه دون تباطؤ أو تأخير، كيلا يغضب ويهدد منذراً بضربي. وكنت أتمنى أن يشفق عليّ مرة واحدة، ولكني لا أذكر أنه فعل ذلك أبداً. لقد اعتاد أن يضربني وكأنه لا يضرب زوجته، بل يضرب هؤلاء الذين يريد الانتقام منهم. لقد عشت على هذا المنوال طوال عشرين سنة ولم أعد أذكر أبداً كيف كانت الحياة قبل أن أتزوج. وعندما أحاول أن أذكر ذلك الماضي أصبح كالعمياء، ولا أستطيع رؤية أي شيء على الاطلاق! لقد كان ييجور إيفانوفيتش هنا ـ وكلانا من القرية ذاتها ـ وحدثني عن أمور عدة، أما أنا... فقد رحت أتذكر الناس وأتذكر البيوت، ولكني لم أستطع أن أتذكر كيف كانوا يعيشون، وماذا كانوا يقولون، وماذا حدث لكل واحد منهم! وإني لأتذكر حريقاً، لا بل حريقين. يخيل إليّ أن كل شيء طُرد من نفسي طرداً وأن روحي أُغلقت عليها المنافذ فأصبحت صماء عمياء...

وأخذت تتنفس بصعوبة كسمكة حُرمت من الماء. ثم تابعت في صوت خافت، وقد مالت بكل جسدها إلى الأمام:

ـ ومات زوجي فالتفتُّ إلى ابني، ولكنه انصرف عني إلى هذا العمل... وكان ذلك قاسياً بالنسبة إليّ، ولقد اشفقت عليه هو أيضاً... كيف أستطيع الاستمرار في الحياة اذا أصابه حدث ما؟ لكم خفت وارتعشت... كان قلبي ينفجر انفجاراً كلما فكرت فيما قد يحدث له...

وصمتت لحظة، ثم أضافت وهي تومىء برأسها إيماءة ذات مغزى:

ـ إنه ليس حباً خالصاً، حبنا النسائي! إننا نحب ما نحتاجه من أجل مصلحتنا الخاصة. ولكن عندما أنظر إليك تتألم هكذا من أجل أمك ـ

ما هي بالنسبة إليك؟ وسائر هؤلاء الناس الذين يتعذبون هكذا من أجل الشعب كله، ويذهبون إلى السجن وإلى سيبيريا... ويموتون... وفتيات يمشين، وحدهن، في الليل مسافات شاسعة، يغصن في الوحل، ولا يأبهن بالأمطار والثلوج، يمشين سبعة فراسخ من المدينة حتى بيتنا هذا! من يرغمهم على ذلك؟ ولماذا يفعلونه؟ لأن في قلبهم حباً كبيراً طاهراً! ولأنهم يملكون الايمان، الايمان العميق الراسخ، يا أندريوشا! أما أنا... أنا لا أستطيع أن أحب هكذا! أنا أحب ما يخصني فقط، ما هو قريب مني!

فقال الأوكراني، وقد أشاح بوجهه، وراح يفرك رأسه وخديه وعينيه بشدة كما هي عادته:

- أجل. إنك تقدرين! كل إنسان يحبّ ما هو قريب منه. والقلب الكبير يجعل الأمور البعيدة جداً قريباً أيضاً! إنك تستطيعين فعل أشياء عظيمة جداً - لأنك تملكين في نفسك حباً أمومياً كبيراً...

فقالت بصوت خافت:

- فليساعدني اللّه على ذلك! إني أشعر أن هذه طريق جيدة في الحياة! إني أحبك الآن، يا أندريه - ولربما أحبك أكثر من باشا أيضاً. فهو منطوٍ على نفسه كثيراً... أنظر مثلاً، لقد كان يريد الزواج من ساشنكا ولكنه لم يقل كلمة واحدة لي، أنا أمه...

فاعترض الأوكراني قائلاً:

- هذا ليس صحيحاً! أنا متأكد من عدم صحته. إنه يحبها، وهي تحبه... هذا صحيح، لكنهما لن يتزوجا إطلاقاً! قد ترغب هي في ذلك، أما هو فلا يريده أبداً...

فقالت الأم بصوت خافت، وهي تشخص متفكرة حزينة إلى وجه الأوكراني:

- تلك هي حقيقة الأمر إذن... تلك هي الحكاية... الناس يرفضون حتى سعادتهم...

فجاء صوت الأوكراني عذباً ناعماً:

ـ إن بافل شخص نادر، شخص إرادته فولاذية...

فتابعت الأم متفكرة:

ـ وهو الآن قابع في السجن! إنه لأمر مخيف... لكنه ليس مخيفاً مثله فيما مضى! لقد اختلفت الحياة، ومخاوفي اختلفت أيضاً. أنا الآن أخاف من أجل الجميع. ولقد اختلف قلبي أيضاً لأن نفسي فتحت عين قلبي، فهو ينظر إلى العالم ويحس الكآبة والفرح في الوقت ذاته. ثمة كثير من أشياء لا أفهمها، والأكثر إيلاماً منها أنكم لا تؤمنون بالرب الإلّه! ولكن، ما أقدر أن أفعل في هذا المضمار؟ إني أرى أنكم جميعاً طيبون حقاً وصدقاً، ولقد وطنتم النفس على حياة عسيرة شاقة في سبيل الشعب، حياة صعبة في سبيل الحقيقة. وأنا الآن أفهم حقيقتكم: ما دام هناك أغنياء، فإن عامة الشعب سيظلون عاجزين عن تحصيل أي شيء كان... فلا فرح، ولا عدالة، ولا أي شيء على الاطلاق! والآن، إذ أعيش بينكم، أفكر أحياناً في الماضي ليلاً، أفكر في قواي الفتية المسحوقة تحت الأقدام، وقلبي الفتي المسحوق أيضاً تحت وطأة قبضة قاسية، فيأخذني الاشفاق على نفسي وتثور المرارة في قلبي! ولكنني أرى العيش أيسر عليّ الآن. وإني أستطيع أن أرى نفسي شيئاً فشيئاً وأنا...

فنهض الأوكراني واقفاً، طويلاً، ناحلاً، مفكراً. وطفق يمشي في الغرفة جاهداً ألا يثير أي ضوضاء على الإطلاق. وهتف في صوت خافت:

ـ إنك تعبرين عن أشياء بصورة رائعة، بصورة رائعة جداً! لقد كان يعيش في كيرش يهودي شاب يقرض الشعر، ولقد كتب ذات يوم هذه الكلمات:

وأولئك الأبرياء الذين يقتلون غدراً

ستبعثهم إلى الحياة، يوماً ما، قوة الحقيقة!...

ولقد اغتاله، بدوره، البوليس في كيرش، إنما هذا ليس بذي بال. لقد فهم الحقيقة. زرع بذورها بين الناس. إنك، أنت أيضاً، واحدة من أولئك الأبرياء الذين يقتلون غدراً. . .

وعادت الأم تقول:

ـ أما أنا الآن فإني أتكلم، وأسمع كلماتي الخاصة وأكاد لا أصدق أذني ـ إني لم أفكر، طوال حياتي، إلا في شيء واحد: كيف أتخلص من كل نهار جديد، كيف أقضيه بعيدة عن الناس بحيث لا يمسني أحد منهم. أما الآن، فإني أطفح بالتفكير في الآخرين. وربما لا أفهم قضيتكم تماماً، لكنكم جميعاً أعزاء عليّ. وإني لأتألم من أجلكم جميعاً، وأريدكم دون استثناء أن تكونوا سعداء. وخاصة أنت، يا أندريوشا!

فاقترب منها، وقال:

ـ شكراً لك!

أخذ يدها بين يديه وضغط عليها بشدة وهزها ثم استدار جانباً في سرعة. وأخذت الأم، مثقلة بانفعالاتها وعواطفها، تغسل الأقداح في صمت وهدوء وبطء، وهي تحتضن الفرح الهادىء الذي يملأ قلبها.

قال لها الأوكراني، وهو يذرع أرض المطبخ جيئة وذهاباً:

ـ يجب أن تظهري بعض العطف لفيزوفشيكوف، يا أميمة! إن أباه في السجن، ذلك العجوز الحقير العديم النفع. وكلما وقعت عينا نيقولاي عليه من النافذة، راح يلعنه ويشتمه. وإن هذا الأمر سيىء جداً! نيقولاي لطيف في الأصل. . . وهو يحب الكلاب والفئران وكل أنواع الحيوانات، ولكنه يبغض الناس! أترين أين يمكن أن يبلغ الأمر بالإنسان؟

قالت الأم متفكرة:

ـ لقد ضاعت أخبار أمه. . . وأبوه لص سكّير. . .

عندما غادرها أندريه إلى فراشه رسمت، سراً، إشارة الصليب عليه ثم سألته في صوت خافت، بعد مضي نصف ساعة تقريباً:

ـ أأنت نائم، يا أندريوشا؟

ـ كلا، لماذا؟

ـ طابت ليلتك!

فقال في لهجة امتنان:

ـ شكراً لك، يا أميمة!

17

حينما بلغت بيلاجيا في اليوم التالي بوابة المعمل أوقفها الحراس بفظاظة وأمروها بوضع سلالها أرضاً لتفتيشها؛ فقالت معترضة في هدوء، بينما راحت أيديهم تتحسس ثيابها في قسوة:

ـ ولكن كل شيء سيبرد!

فقال أحد الحراس في نبرة خشنة:

ـ إخرسي!

وقال حارس آخر واثقاً، وهو يدفعها في كتفها بلطف:

ـ قلت لكم إنهم ألقوا بها من فوق السور!

وعندما أصبحت داخل الفناء، كان العجوز سيزوف أول من جاء إليها. قال في هدوء، وهو يختلس النظر حوله:

ـ أبلغك الخبر، يا أماه؟

ـ أي خبر؟

ـ أوراقهم! لقد عادت إلى الظهور مجدداً تنتشر في كل مكان كما ينتشر الملح في الخبز... إن التحريات والاعتقالات لم تجدهم فتيلاً! لقد ألقوا بابن أخي مازين في السجن... لماذا؟ ولقد ساقوا ابنك أيضاً. أما الآن فالجميع يرون أن ذلك لم يكن من صنع أيديهم!

أمسك بلحيته في قبضة يده، ونظر اليها، ثم قال مبتعداً:

ـ لمَ لا تأتين لزيارتي؟ لا ريب أنك تشعرين بالوحشة وحدك...

شكرته، وراحت تنادي على بضائعها، وهي تراقب الضوضاء غير العادية التي تسيطر على المصنع. كان سائر العمال في هياج مستمر، يجتمعون ثم يفترقون، وهم يتراكضون من بناء إلى آخر. وأحست الأم شيئاً جريئاً منعشاً في الجو المشحون بالهبات والدخان. كانت الحماسة تتجلى في عبارات التشجيع أو ملحوظات التهكم التي يتبادلها العمال بين الحين والحين، والكهول منهم يبتسمون ابتسامات مختصرة سريعة، والرؤساء يروحون ويغدون والقلق بادٍ على وجوههم، ورجال الشرطة يتراكضون، فإذا وقعت أنظار جماعات العمال عليها تفرقوا متماهلين أو توقفوا عن الكلام بكل بساطة، وهم يثبتون أنظارهم، بصمت، في الوجوه الثائرة الغاضبة.

وكان العمال يبدون على جانب عظيم من النظافة، وكأنهم اغتسلوا جميعاً لتوّهم. ظهر البكر جوسيف بقامته الطويلة وسط العمال، يخطو في أعقابه أخوه مترنحاً مقهقهاً. ومر من أمامها فافيلوف متباطئاً وهو معلم إحدى ورشات النجارة، وأشعيا مراقب الدوام صغير القامة، هزيل العود. وكان رأس هذا الأخير مائلاً إلى اليسار، وهو ينظر في وجه النجار الساهم المتجمد، ولحيته الليفية ترتجف وهو يقول مسرعاً:

ـ أنظر، يا إيفان إيفانوفيتش. إنهم يبتهجون لذلك ويضحكون، وان كان يعني دمار الدولة كما أشار إلى ذلك المدير المحترم. إن الأرض هنا لا تحتاج إلى اجتثاث الأعشاب الرديئة فحسب، بل إلى حراثة تقتلع منها كل الأشواك من جذورها...

وكان فافيلوف يسير ويداه خلف ظهره، وأصابعه منقبضة بشدة. قال في صوت مرتفع:

ـ اذهبوا واصنعوا ما تشاؤون، يا أبناء الكلبة، ولكن إياكم أن تمسوني بسوء!

وجاء فاسيلي جوسيف إلى الأم، وقال لها:

ـ سأجرب غذاءك مرة ثانية، يا أماه، فطعامك لذيذ حقاً!

ثم أضاف، وهو يخفض صوته ويضيق فتحة عينيه:

ـ لقد أصبتم في النقطة المؤلمة تماماً، يا أماه... إنه لعمل عظيم!

فأومأت إليه برأسها في عطف. كانت سعيدة لأن هذا الشاب، وهو الذي يعتبرونه أكثر أهل الضاحية شراسة وأذية، يخاطبها بمثل هذا الاحترام عندما لم يكن أحد قريباً منهما. وكذلك كانت سعيدة بذلك الهياج في المعمل، وهي لا تفتأ تفكر:

«لو لم أفعل أنا ذلك...»

وقف ثلاثة من العمال غير بعيد عنها. وسمعت أحدهم يقول في نبرة خافتة ولهجة حزينة متألمة:

ـ لم أستطع أن أجده الآن...

فلاحظ أحد رفيقيه:

ـ بودّي أن أسمع ماذا كُتِبَ فيه! أنا لا أعرف القراءة لكن الواضح أن الرامي أصاب الهدف!

واختلس الثالث النظر فيما حواليه، واقترح:

ـ فلنذهب إلى غرفة المرجل...

وتطلع جوسيف إلى الأم وغمز لها بعينيه قائلاً:

ـ أترين ما يجري؟

قفلت بلاجيا إلى البيت راضية مرضية، وتوجهت إلى أندريه قائلة:

ـ العمال يأسفون لأنهم لا يعرفون القراءة! عندما كنت صبية كنت أعرف كيف أقرأ. أما الآن فنسيت...

فاقترح الأوكراني:

ـ ولماذا لا تتعلمين؟

ـ في مثل عمري؟.. لكي أجعل الناس يسخرون مني؟...

فتناول أندريه عن الرف كتاباً، وأشار إلى أحد حروف الغلاف برأس السكين:

ـ ما هذا؟

ـ راء.

وضحكت الأم.

ـ وهذا؟

ـ ألف...

كانت مضطربة خجلى من نفسها، يُصوّرُ لها أن عيني أندريه تضحكان منها في الخفاء، فتتجنب نظراته وتتهرب منها. لكن صوته هادىء لطيف، ووجهه رزين لا أثر فيه للسخرية.

استفهمت، وهي ترسل ضحكة قصيرة غير مقصودة:

ـ أتنوي حقاً أن تعلمني، يا أندريوشا؟

فأجاب:

ـ ولِمَ لا؟ ما دمت تعلّمت القراءة فيما مضى لن يكون ذلك شاقاً. واذا نجحنا فيها فزنا، وإلا لن نخسر شيئاً.

ـ ولكنهم يقولون: لن تصيرَنَّ قديساً بمجرد الشخوص إلى الأيقونات.

فقال الأوكراني، وهو يؤرجح رأسه:

ـ آه... ثمة أقوال كثيرة! ما رأيك مثلاً في هذا: «كلما قلّت معرفتك طال رقادك»؟ المعدة وحدها تستطيع التفكير على هذا الغرار. هم يسعون إلى إرهاق الروح بمثل هذه الأقوال، حتى يسهل عليهم قيادها. ما هذا الحرف؟

ـ لام!

ـ عظيم! وهذا؟

حملقت بعينيها، وزوّت ما بين حاجبيها جاهدة أن تتذكر الأحَرف المنسية، غافلة عن كل شيء آخر. وسرعان ما أرهقت عيناها، فذرفتا في البدء دموع الاجهاد، ثم دموع اليأس. شهقت وقالت:

ـ أتعلّم القراءة! في الأربعين من عمري، وأبدأ أتعلم أحرف الهجاء!

فقال الأوكراني في عذوبة بالغة:

ـ لا تبكي! أنت لا تستطيعين اختيار حياتك، ولكنك تدركين على الأقل مبلغ ما كانت عليه من فساد! إن آلاف الناس قادرون على العيش أفضل مما يعيشون لو أرادوا ذلك، ولكنهم يستمرون يعيشون كالحيوانات، لا بل يرضون بذلك أيضاً. أية حسنة في أنَّ الإنسان يعمل ويأكل اليوم، ويعمل ويأكل غداً، وهكذا أيام حياته.. يقضيها في العمل والأكل، وهو يتدبر أمره أثناء ذلك كي ينجب أولاداً يتسلى بهم حتى يبدأوا يطلبون الكثير من الطعام. وعندئذ يغضب، ويروح يلعنهم: هيا، عجلوا واكبروا أيها الخنازير، فقد آن الوقت كي تجدوا لكم عملاً! وأنه ليودُّ أن يجعل من أولاده حيوانات أليفة، ولكنهم يبدأون العمل في سبيل بطونهم الخاصة، وهم يقضون حياتهم دون سرور في النفس أو بهجة في القلب. الناس الذين يستحقون لقب الإنسان هم أولئك الذين ينذرون أنفسهم وحياتهم من أجل تحطيم القيود التي تغلُّ عقل الإنسان. ولقد بدأت أنت أيضاً، حسب طاقتك وامكانياتك، تساهمين في هذا العمل.

فقالت وهي تصعِّد زفرة:

ـ أنا؟ وماذا أستطيع أن أفعل؟

ـ لماذا تقولين ذلك؟ التعلم أشبه بالمطر، كل قطرة تسقي البذور. وعندما تبدأين القراءة...

وأغرق في الضحك، ثم نهض وشرع يجوس أرض الغرفة بخطواته:

ـ يجب أن تتعلمي بكل تأكيد، ولسوف يعود بافل إلى البيت في القريب العاجل، واذا بك... يا لله!

فقالت الأم:

ـ آه، يا أندريوشا! كل شيء سهل بسيط عندما يكون المرء شاباً. أما فيما بعد فالهموم كثيرة، والقوى قليلة، وليس من ذهن على الاطلاق....

18

في تلك العشية، بعد أن غادر الأوكراني المنزل، أشعلت الأم مصباحاً وشرعت تخيط بعض الجوارب جالسة عند المائدة. وسرعان ما نهضت، وسعت على غير هدى عبر الغرفة، ودلفت إلى المطبخ، وأغلقت الباب بالمزلاج، ثم عادت وحاجباها يتراقصان في عصبية ظاهرة. وبعد أن أسدلت الستائر على النافذتين تناولت كتاباً من الرف وعادت فجلست إلى المائدة؛ تختلس النظر فيما حولها قبل أن تكبَّ على الكتاب، وتأخذ شفتاها تتحركان بلفظ الأحرف. كانت تجفل لدى كل صدى يرتفع من الشارع، فتستر الكتاب بيدها وترهف سمعها، ثم تعود إلى همسها، وهي تفتح عينيها وتغلقهما دون انقطاع:

ـ لام... باء...

قرع الباب، فهبت الأم على قدميها، وألقت بالكتاب في مكانه على الرف، وسألت في لهفة وجزع:

ـ من الطارق؟

ـ أنا!

دخل ريبين، وهو يمسح لحيته في رزانة، وقال:

ـ لم تسألي عن الطارق من قبل! وحدكِ؟ ظننت أن الأوكراني لا بدّ أن يكون هنا. لقد رأيته اليوم، ويبدو أن السجن لم يؤذِه قط.

جلس، وقال للأم:

ـ فلنتحدث قليلاً...

ملأتها نظرته الغامضة بجزع مبهم لم تدرِكْهُ، وقد بدأ يقول في صوته الأجش:

ـ كل شيء يكلف مالاً! الولادة تكلف مالاً، والموت يكلف مالاً، والكتب والمنشورات تكلف مالاً أيضاً. هل تعلمين من أين يأتي المال الذي ينفق على هذه الكتب؟

فقالت الأم في صوت خافت، وهي تحسّ أن الأمور ليست على ما يُرام:

ـ كلا، لا أعلم!

ـ وأنا لا أعلم أيضاً! والسؤال الثاني ـ من يكتبها؟

ـ أولئك الذين تعلموا في الكتب...

فقال ريبين، وقد احمّر وجهه الملتحي:

ـ تعنين الأسياد! وبكلام آخر، فإن الأسياد يكتبون الكتب ويوزعونها. ولكن الكتب موجهة ضد الأسياد. والآن، جربي أن توضحي لي ما معنى ذلك! ولماذا ينفقون المال كي يثيروا ضدهم عامة الناس؟ إيه؟

فأطلقت الأم صرخة رعب، وطرفت بعينيها:

ـ وماذا ترى أنت؟

فقال ريبين، متململاً على مقعده في حركة خرقاء، وقد صار أشبه ما يكون بالدب.

ـ أها! ها أنت ترتجفين. وأنا أيضاً ـ حالما مرت هذه الفكرة في خاطري اقشعرَّ لها بدني كله.

ـ هل اكتشفت شيئاً؟

ـ خُدعنا! إنني أشعر أننا خُدعنا. لا وقائع لدي، ولكنني أحس أن ثمة خديعة في الأمر. تلك هي القضية! الأسياد يتقولون علينا. وأنا إنسان يريد أن يعرف الحقيقة. لقد عرفت الحقيقة الآن، ولن أسير مع الأسياد بعد اليوم أبداً، فسوف يطرحون بي أرضاً عندما يجدون ذلك ملائماً لهم، ويسيرون فوق عظامي كما لو كنت جسراً...

اعتصرت كلماته الحادة قلب الأم، فكأنها به أُخِذَ بين فكيّ كماشة.

صاحت في ألم:

ـ يا يسوع الحبيب! أيمكن أن باشا لم يفهم؟ وكل أولئك الذين...

مثلت أمامها وجوه ييجور، ونيقولاي ايفانوفيتش، وساشنكا، هذه

الوجوه الرزينة الطافحة شرفاً وإخلاصاً. وثار قلبها احتجاجاً. فقالت وهي تهزُّ رأسها نفياً:

ـ لا، لا! لا أستطيع أن أصدق ذلك... إنهم أناس يملكون وجداناً.

فسأل ريبين متفكراً:

ـ من تعنين؟

ـ جميعهم! حتى آخر من رأيت منهم!

فأطرق ريبين، وقال:

ـ لست تنظرين حيث يجب النظر، يا أماه! أرسلي بصرك إلى أبعد كثيراً! إن أولئك الذين اقتربوا منّا ـ لعلهم هم أنفسهم لا يدرون شيئاً. إنهم... يملكون الايمان... يجب عليهم أن يفعلوا ما يفعلون! ولكن ربما كان يقف... وراءهم... أناس لا يهتمون إلا بمصلحتهم الخاصة. إن الإنسان لا يعمل ضد نفسه من أجل لا شيء...

ثم أضاف، في اقتناع الفلاح الذي ينوء بعبء شكوك أجيال طويلة:

ـ إن شيئاً صالحاً لن يخرج من الأسياد قط!

وسألت الأم، وقد تسلط الشك عليها مرة أخرى:

ـ وماذا تفكر أن تعمل؟

ـ أنا؟

شخص ريبين إليها، وصمت ثم ردد:

ـ كلما ابتعدنا عن الأسياد كان ذلك أفضل، تلك هي القضية!

ومرة أخرى اعتصم بالصمت ووجهه عابس متجهم ثم قال:

ـ كنت أريد أن التحق بالفتيان، وأسير جنباً إلى جنب وإياهم. إني صالح لمثل هذه الأمور، وأعرف ما أقول للناس. أما الآن فإني ذاهب، فقد فقدت الإيمان، ولم يبق أمامي سوى الذهاب.

أطرق برأسه، وغرق في لجة من الأفكار:

ـ سوف أذهب وحيداً، خلال القرى والأرياف، أستنهض عامة

الناس. فقد آن لهم أن يأخذوا الأشياء بين أيديهم. وإذا فهموا مرة، فلسوف يجدون طريقهم الخاصة. وستكون مهمَّتي أن أساعدهم على الفهم. إن أملهم الوحيد إنما هو هم أنفسهم... فملكيتهم الوحيدة هي عقولهم، تلك هي القضية!

بدأت تشفق على هذا الرجل وتخاف من أجله. وأضحى، هو الذي كان دائماً مثاراً لنفورها، عزيزاً عليها الآن لسببٍ لم تدرِ له تعليلاً. فقالت في رقة:

ـ ولكنهم سيقبضون عليك...

فحدجها ريبين بنظرة وقال في هدوء:

ـ سوف يوقفونني، ثم يطلقون سراحي فأبدأ كل شيء من جديد...

ـ إن الفلاحين أنفسهم سيسلمونك... وسيلقون بك في السجن...

ـ سأبقى فيه ما شاؤوا، ثم أخرج، وأبدأ من جديد. أما الفلاحون فسوف يسلمونني مرة، ومرتين، ثم مرة ثالثة، وعندئذ يدركون أن الإصغاء إلى ما أقول لهم أفضل مما يفعلون. ولسوف أقول: لا تصدقوني... إستمعوا إليّ فقط. واذا استمعوا إليّ مرة فسوف يصدقون!

كان يتكلم ببطء شديد، وكأنه يزن كل كلمة قبل أن يلفظها.

ـ تلقنت أموراً كثيرة في المدة الأخيرة وتعلمت شيئاً أو شيئين...

فقالت، وهي تهزُّ رأسها في أسى:

ـ ستهلك، يا ميخائيلو إيفانوفيتش!

فتفرَّس فيها، متسائلاً متحفزاً، بعينيه السوداوين العميقتين. ومال جسده المتين إلى الأمام، وأطبقت يداه على مسند المقعد، وبدا وجهه الذي لوَّحته الشمس شاحباً في إطار لحيته السوداء:

ـ أتذكرين ما قال المسيح عن حبة القمح؟ لا بدَّ لها أن تموت كي تولد مجدداً... ولكن الموت لن ينزل بساحتي قريباً، فأنا عجوز داهية!

وتململ في مقعده، ثم نهض متثاقلاً:

ـ سأذهب إلى الحانة، وأجلس بعض الوقت مع روادها. يبدو أن الأوكراني لن يعود سريعاً. هل عاد إلى العمل القديم؟

فأجابت الأم مبتسمة:

ـ نعم!

ـ حسناً! حدثيه عني...

سارا متماهلين إلى المطهى، وقد تلاصق كتفاهما، وراحا يتبادلان كلمات مقتضبة دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر.

ـ حسناً، إلى اللقاء!

ـ إلى اللقاء! متى تستقيل من العمل؟

ـ لقد استقلت.

ـ ومتى تسافر؟

ـ غداً، في الصباح الباكر! إلى اللقاء!

انحنى، وخرج من الباب مكرهاً في حركة خرقاء... ظلت الأم برهة تصغي إلى خطواته الثقيلة وإلى الشكوك المستيقظة في صدرها، ثم استدارت في هدوء، ودلفت إلى الغرفة الثانية ورفعت الستائر عن النافذة. كانت الظلمة تنبسط دون حراك فيما وراء الزجاج. فكّرت: «ـ إني أحيا في الظلام أبداً!».

أحست الأسف لذلك الفلاح المنقبض النفس، القوي البنية، العريض المنكبين.

عاد أندريه مشرق الوجه منشرح الصدر، وهتف عندما حدثته بأمر ريبين:

ـ فلينطلق، وليطوف عبر القرى ينادي بالعدالة ويستنهض الشعب. يصعب عليه كثيراً أن يسير معنا. رأسه ممتلىء بآراء الفلاحين... وليس فيه موضع لآرائنا...

فقالت الأم في حذر:

ـ لقد تحدث عن الأسياد ـ وفي حديثه شيء من الحقيقة! انتبهوا ألّا يخدعوكم!

فضحك الأوكراني، وقال:

ـ أتشكّين؟. آه، يا أميمة، المال المال! لو كنا نملك مالاً فقط! إننا ما نزال نعيش على نفقة الآخرين. فنيقولاي إيفانوفيتش مثلاً يتناول خمسة وسبعين روبلاً في الشهر، وهو يعطينا خمسين منها، وكذلك الأمر مع الآخرين. وفي بعض الأحيان يرسل إلينا طلاب الجامعات، الذين يكادون يموتون جوعاً، بعض الهبات التي جمعوها كوبيكاً كوبيكاً. ولا ريب أن هناك مختلف الأنواع من الأسياد، بعضهم يتركوننا، وبعضهم يخدعوننا، ولكن أفضلهم يربطون مصيرهم بمصيرنا...

وضرب يداً بيد، وتابع في لهفة:

ـ إن عيدنا الكبير لا يبرح أبعد مسافة مما يستطيع النسر أن يطير. ومع ذلك نحتفل بعيد أول أيار. ولسوف يكون احتفالاً رائعاً!

بعثرت حماسته مختلف الشكوك التي زرعها ريبين. كان يسير ذهاباً واياباً في الغرفة، يداعب شعره باحدى يديه، ويشخص إلى الأرض مفكراً:

ـ إن قلبي ليطفح بالاحساسات أحياناً ـ ما أروع ذلك! ويخيل إليّ أني، أيان ذهبت، كل إنسان رفيق لي ـ إنهم جميعاً يلتهبون باللهيب ذاته. كلهم طيّبون، لطيفون، مرحون... وليس من حاجة للكلام كي يتفاهموا. يعيشون مثل جوقة كبيرة، يغني كل قلب فيها لحنه الخاص. وكل الألحان أشبه بتيارات تنصب في نهر واحد، والنهر يتدفق، واسعاً حراً طليقاً، في بحر الحياة الجديدة المشرق المبتهج.

كانت الأم تحاول الا تأتي نأمة تقطع عليه أفكاره، وتعترض حديثه. كانت تصغي إليه دائماً بانتباه أكثر منها إلى أي شخص آخر، فهو يتحدث ببساطة أكثر من الباقين، فتذهب كلماته إلى القلب باستقامة نافذة. ولم يكن بافل يتكلم أبداً عن رؤاه في المستقبل، أما الأوكراني

فكان يبدو أنه يعيش جزءاً من قلبه على الدوام في ذلك المستقبل! كانت أحاديثه تروي كل الفرح الذي سيهبط على شعوب الأرض قاطبة. وكان هذا، في نظر الأم، ما يعطي لحياة ابنها وبقية رفاقه وعملهم معنى ومغزى.

تابع الأوكراني، وهو يهز رأسه:

ـ ثم أستردّ شعوري على حين غرة، وأنظر حولي فإذا الأشياء كلها باردة وسخة، وإذا الناس كلهم متعبون ساخطون...

وأضاف في كآبة عظيمة:

ـ يجب الا أضع إيماني في الناس: هذا يؤلم ويؤذي، وأنا أعلم ذلك، ولكن يجب أن أخاف منهم، لا بل أن... أبغضهم أيضاً! إن لكل إنسان جانبين في ذاته. وأنا أود فقط أن أحبه، ولكن كيف أستطيع ذلك؟ كيف يمكن أن أصفح عن شخص هاجمني كالوحش المفترس، وضرب صفحاً عن نفسي الحية، وسحق مظهر الإنسان المتجلّي فيّ؟ إني لا أستطيع غفران هذا، لا لأنه يتصل بي ـ فأنا أستطيع أن أتحمل كل شيء ـ ولكن لأني لا أستطيع أن أترك الطغاة يعتقدون بموافقتي واستسلامي. إني لا أستطيع أن أسمح لهم باستعمال ظهري كي يتعلموا كيف يجلدون الآخرين.

كانت عيناه تلتهبان بشعلة باردة، ورأسه منحنياً في عناد وحديثه أكثر حزماً منه في أي وقت مضى.

ـ أنا لا أملك الحق في غفران أي شرٍ كان وإن لم يؤذني. فأنا لست الوحيد على هذه الأرض! فقد أصفح اليوم عن إهانة يوجهها أحدهم لي، وربما ضحكت منها لأنها من التفاهة بمكان ـ ولكنه غداً قد يجلد شخصاً سواي بعد أن جرب قوته فيَّ. إني لا أستطيع أن أنظر إلى الناس سواء، بل يجب أن أنتقي وأختار على مهل: هذا يصلح لي، وهذا لا يصلح! كل هذا صحيح، ولكنه لا يعزي كثيراً!

ولسبب ما فكرت الأم في ساشنكا، ثم في الضابط. وقالت، وهي تتنهد:

ـ أي ثمر يمكن أن تنتظر من زهر لم ينضج بعد؟

فهتف الأوكراني:

ـ تلك هي المشكلة كلها!

ـ نعم!

ثارت في ذاكرتها صورة زوجها ثقيلة، كئيبة، كصخرة كبيرة علاها الوحل والطحلب. وتخيلت كيف تصبح الأمور لو تزوج الأوكراني ناتاشا، وإبنها ساشنكا.

قال الأوكراني في لهفة، وهو يعود إلى موضوعه:

ـ ولِمَ تكون الأشياء هكذا! ذلك واضح وضوح الأنف في وجهك. سبب ذلك كله أن الناس لا يقفون على مستوى واحد. فلنضعهم في صف واحد إذن، ولنقسم بينهم كل ما أنتجه الفكر، وما صنعته اليد! فلنحرر الناس من عبودية الخوف، والحسد، وأثر الجشع، والبلاهة والجهل!

ولقد تبادلا، فيما بعد، الكثير من مثل هذه الأحاديث.

قُبِلَ ناخودكا في المعمل من جديد، فراح يعطي الأم كل أجوره التي تقبلتها منه ببساطة، وكأنها تأخذ من بافل نفسه.

كان أندريه يقول لها أحياناً، وعيناه تشعّان بابتسامة لطيفة:

ـ ما رأيك أن نقرأ شيئاً، يا أُميمة؟

رفضت بلطف ولكن بحزم... كانت تلك الابتسامة تؤذيها.

فتفكر في نفسها في شيء من الغضب: «ما دمت تعتبر ذلك هزلاً، فما معنى الازعاج؟».

ولكنها تطلب منه، أكثر فأكثر، أن يشرح لها بعض الكلمات الأدبية، وهي تتطلع جانباً عندما تسأله، متظاهرة بعدم المبالاة. أدرك أنها تدرس في الخفاء. فأقلع تقديراً لما تعانيه من الحياء عن سؤالها القراءة معه.

قالت له ذات يوم:

ـ إن عينيَّ تزدادان ضعفاً، يا أندريوشا، وأنا في حاجة إلى نظارات.

ـ هذا أمر يسهل تدبيره! ولسوف أصحبك يوم الأحد إلى طبيب في المدينة فتحصلين على حاجتك...

19

طلبت السماح لها برؤية بافل ثلاث مرات، وفي كل مرة كان رئيس الدرك، وهو رجل عجوز أشيب الشعر، متورد الخدين، كبير الأنف، يردها خائبة في لطف ورفق:

ـ يجب أن تنتظري أسبوعاً آخر على الأقل، أيتها الأم! بعد أسبوع سوف نرى... أما الآن فذلك مستحيل...

كان ممتلىء الجسم، مستديره، يذكرها بخوخة ناضجة قُطِفت منذ زمن بعيد، حتى اكتست بعفن وبري ناعم. وكانت تجده، أبداً، يحفر في أسنانه البيض الصغيرة بعود أصفر اللون حاد الطرف، تبتسم عيناه الخضراوان الصغيرتان في لطف، وهو يخاطبها على الدوام بصوت متودِّد بشوش.

كانت تقول للأوكراني متفكرة:

ـ إنه أديب كثيراً، يبتسم بصورة مستمرة...

فيجيب الأوكراني:

ـ أوه، نعم! هُمُ، جميعاً، لطيفون جداً، متأدبون، يبتسمون أبداً. ويُقال لهم: ها هو ذا شاب ذكيّ شريف وجدناه خطراً علينا، فاشنقوه! فيبتسمون ويشنقونه. وبعد انتهاء ذلك ـ يستمرون في الابتسام.

ـ إن الأمر يختلف تماماً مع ذلك الذي قام بالتفتيش هنا! لتستطيع أن ترى، للوهلة الأولى، أي خنزير كان...

ـ ليس بينهم كائن بشري ـ ليسوا سوى مطارق يدقون الشعب بها، وآلات ينحتون بها أمثالنا كي يتصرفوا بنا كما يشاؤون بسهولة ويسر. وهم أنفسهم جُعِلوا على صورة تلائم الرؤساء تماماً بحيث يفعلون كل ما يؤمرون به دونما تفكير على الإطلاق، ودون أن يسألوا عن أسبابه. أبداً.

أذنوا لها أخيراً برؤيته، فوجدت نفسها، ذات يوم أحد، جالسة بتواضع في إحدى زوايا مكتب السجن. وكان هناك عدد آخر من الأشخاص في الغرفة الصغيرة، والوسخة، المنخفضة السقف، ينتظرون السماح لهم بزيارة المسجونين. وكان من الواضح أنها ليست المرة الأولى التي يزورون فيها السجن، فقد كانوا متعارفين، ينسجون حديثاً هادئاً، متمهلاً، لزجاً، يشبه نسيج العنكبوت.

قالت امرأة بدينة لها وجه منتفخ، وقد وضعت حقيبة سفر على ركبتيها:

ـ هل بلغكم الخبر؟ لقد كان أستاذ الترتيل في الكاتدرائية، هذا الصباح، يقتلع أذن أحد صبيان الجوقة في صلاة قداس الصباح الأول...

فأجاب شيخ يرتدي ثياب ضابط متقاعد بعد أن سعل في صوت عال:

ـ إنهم لمشاكسون هؤلاء الصبيان المرتلون!

وكان ثمة رجل صغير الجثة، أصلع الرأس، ذو ساقين قصيرتين، وذراعين طويلتين، وذقن مدببة، يغدو في المكتب ويجيء مضطرب الأعصاب، وهو يلقي بملاحظاته دون انقطاع في صوت متحشرج خشن:

ـ الأسعار في صعود مستمر، وهذا ما يجعل الناس خبثاء. الرطل من الصنف الثاني من لحم البقر يكلف أربعة عشر كوبيكاً. والخبز ارتفع حتى أصبح يساوي، من جديد، كوبيكين ونصف الكوبيك...

كان المساجين، من وقت لآخر، يلِجون إلى المكتب مرتدين ثياباً رمادية متشابهة، وأحذية ضخمة جلدية، فتطرف عيونهم حالما يدلفون

إلى الغرفة الباهتة النور. وكان أحدهم مقيد الساقين بسلسلة حديدية ضخمة.

كان الهدوء الغريب والبساطة المزعجة يخيمان على كل ما حولها. وكان يبدو أن هؤلاء القوم اعتادوا هذا الوضع منذ أمد بعيد، وقنعوا بنصيبهم المقدر واستكانوا إليه. وكان بعضهم مساجين، والبعض يقفون للحراسة بكسل وفتور عظيمين؛ والبعض الآخر يأتون بانتظام وضجر لزيارة مساجينهم. وخفق قلب الأم في فارغ الصبر. راحت تتلفت في حيرة حواليها، مشدوهة من بساطة كل ما يحيط بها.

كانت تجلس إلى جوارها امرأة صغيرة عجوز، ذات وجه أجعد الخدين، وعينين فتيتين. وكانت تتطاول برقبتها الناحلة لتستمع إلى ما يدور حولها من حديث، وتشخص إلى كل إنسان ونظرة جريئة تطلُّ من عينيها.

استوضحتها بيلاجيا في لطف:

ـ من لك هنا؟

فأجابت العجوز بصوتٍ عالٍ بسرعة:

ـ ولدي. طالب في الجامعة. وأنت؟

ـ ولدي أيضاً. عامل.

ـ ما اسمه؟

ـ فلاسوف.

ـ لم أسمع به. أمضى عليه زمن طويل هنا؟

ـ سبعة أسابيع...

فقالت العجوز، وفي نبرات صوتها خيلاء وتكبُّر لم يخفيا على بيلاجيا:

ـ أما ولدي فقد قضى عشرة أشهر حتى الآن!

فدمدم العجوز الأصلع:

نعم، نعم! لم يعد ثمة صبر ـ عيل صبر الجميع، فهم يصيحون

عالياً. والأسعار ما زالت ترتفع. وقيمة الناس تهبط بصورة مطردة مع ارتفاعها. وليس من يرفع صوته فيضع لذلك حداً.

فقال الضابط:

ـ أنت محق! لقد طفح الكيل! وحان الوقت كي يقول أحدهم بصوت جهوري قوي: «صمتاً!» فيصمت الجميع. هذا ما نحن بحاجة إليه. صوت قوي حازم...

إنضم الجميع إلى الحديث الذي حمي وطيسه وكثرت حيويته عن ذي قبل، ونشط كل منهم يريد إبداء رأيه في الحياة، ولكن في صوت خافت. وتبينت الأم أن كل ما يقولون غريب عن أفكارها، فأحاديث البيت تختلف كل الاختلاف عن هذه ـ إنها أوضح وأبسط، وأعلى نبرة أيضاً.

نادى بإسمها أخيراً سجّان سمين ذو لحية مربعة حمراء، وتفحصها من ذؤابة رأسها حتى أخمص قدميها، وقال:

ـ اتبعيني...

ومضى وهو يظلع. وأحست الأم في الطريق رغبة تحدوها إلى دفعه في ظهره حتى يحث الخطى. كان بافل واقفاً في غرفة صغيرة يبتسم لها ماداً إحدى يديه، فتناولتها الأم، وأطلقت ضحكة قصيرة، وعيناها تطرفان بشدة بالغة. قالت، وقد خانتها الكلمات:

ـ مرحباً... مرحباً...

فقال بافل، وهو يمسح على يدها:

ـ هدئي من روعك، يا أماه!

ـ حسناً، حسناً.

فقال السجان، متنهداً:

ـ إليك أمك!

وأضاف، وقد أطلق من فمه تثاؤباً طويلاً:

ـ لكن يحسن أن تقفا حتى تكون بينكما مسافة كافية...

سألها بافل عن صحتها، وعن أمور البيت... وكانت هي تتوقع أسئلة أخرى مختلفة، فراحت تفتش عنها، عبثاً، في عيني ولدها. كان هادئاً كعادته على الدوام، وإن ازداد شحوبه قليلاً وبدت عيناه وكأنهما اتسعتا وكبرتا.

قالت:

ـ ساشنكا ترسل تحيتها!

فاضطرب جفناه وارتعشا؛ ورقَّت ملامحه؛ وارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة؛ فاستشعرت الأم غصة مرَّة تتدفق بحدة في قلبها.

سألت، مغتاظة كلمى:

ـ متى سيطلقون سراحك؟ ولِمَ ألقوا القبض عليك واحتجزوك؟ تلك المنشورات عاودت ظهورها مرة ثانية في المعمل...

فالتمعت عينا بافل سروراً.

استفهم بسرعة:

ـ أصحيح هذا؟

فقال السجان بصوت وسنان:

ـ التحدث عن مثل هذه الأمور ممنوع! تستطيعان التحدث عن الأمور العائلية فقط...

فاحتجت الأم بقولها:

ـ أوليست هذه أموراً عائلية؟

فأجاب الحارس في عدم مبالاة:

ـ لا أستطيع الجواب عن هذا. وإنما ـ ذلك ممنوع.

فقال بافل:

ـ حسناً، حدثيني عن أمور البيت. ماذا تعملين فيه؟

فأجابت، وهي تحس في نفسها حماسة فتية:

ـ لقد كنت أحمل إلى المصنع كل تلك الأشياء...

وأمسكت عن الكلام، ثم تابعت وهي تبتسم:

ـ الحساء، العصيدة، وكل الزاد الذي تقوم ماريا بطهوه... وأشياء أخرى أيضاً...

أدرك بافل ما تقصد إليه، فشق بإحدى يديه شعره بينا تقلصت عضلات وجهه من جرَّاء عاطفة مكبوتة من الضحك. قال في صوت حنون لم تسمعه منه أبداً فيما مضى:

ـ إنه لأمر رائع أن تجدي شيئاً يشغلك... وهكذا لا تستوحشين!

فأعلنت في شيء من الخيلاء:

ـ عندما بدأت تلك المنشورات تظهر، راحوا يتحرونني بدوري!

فقال السجان مغتاظاً:

ـ عدنا إلى ذلك الموضوع؟ قلت لكما إنه ممنوع! إنهم يسجنون المرء كي لا يعرف ماذا يجري في الخارج، ومع ذلك فأنتِ تثرثرين هنا! لقد آن الوقت كي تفهمي أن الممنوع ممنوع.

قال بافل:

ـ كفى، يا أماه! إن ماتفي إيفانوفيتش رجل رائع جداً ولا معنى لإثارة غضبه. نحن صديقان حميمان، وأرادت المصادفة المحضة أن يكون السجان الذي سيحضر زيارتك اليوم. فالعادة أن يحضرها مساعد المدير.

قال السجان، متطلعاً إلى الساعة:

ـ انتهى الوقت!

وقال بافل:

ـ شكراً، يا أماه الحبيبة! لا تقلقي، فلسوف يُطلقون سراحي سريعاً...

عانقها بحرارة وقبّلها، فبكت سروراً وتأثراً.

ـ هيا بنا!

قال السجان هذا، ثم غمغم وهو يقودها في طريق العودة:

ـ لا تبكي، سوف يتركونه عن قريب، سيتركونهم جميعاً... فالازدحام شديد هنا...

عندما بلغت الدار قالت للأوكراني كل شيء، وهي تبتسم بإشراق وحاجباها يرتفعان ويهبطان فرحاً وغبطة:

ـ أخبرته ذلك بأسلوب بارع حقاً، ولقد فهم!

وأضافت، وهي تزفر في كآبة:

ـ لقد فهم من دون ريب، وإلا ما تدفق حناناً حتى هذه الدرجة. فهو لم يكُ كذلك أبداً!

فقال الأوكراني ضاحكاً:

ـ ما أحيلاك! الناس يطلبون أبداً أشياء عديدة، أما الأم فكل ما تبتغيه هو الحنان...

فهتفت مشدوهة بغتة:

ـ أوه! كلا، يا أندريوشا! كان يجب أن ترى أولئك الناس، وكَيف ألِفوا ذلك الواقع! لقد انتزعوا منهم أبناءهم وألقوا بهم في فحمة السجن، ومع ذلك فهم يتصرفون كأن شيئاً لم يحدث أبداً ـ يأتون إلى هناك، ويقعدون، وينتظرون، ويتكلمون عن الأخبار. إذا كان المثقفون يألفون الأمر هكذا فماذا يُنتظر إذن من الناس الجاهلين؟

فأجاب الأوكراني وهو يبتسم ابتسامته غير معهودة:

ـ ذلك واضح الوضوح كله. فالقانون، على أية حال، أخف وطأة عليهم منه علينا نحن؛ هم يحتاجون إلى القانون أكثر من حاجتنا إليه؛ فإذا أصابهم بلطمة على رأسهم مرة، كشّروا بعض الوقت، ثم تناسوا كل شيء. فأخفُّ عليك دائماً تحمل أذى أهلك وخاصتك من تحمل أذى الغرباء....

20

ذات مساء بينما الأم جالسة إلى الطاولة تحوك بعض الجوارب، والأكراوني يقرأ لها عن ثورة العبيد في روما القديمة، قرع الباب قرعاً شديداً. وعندما فتح الأوكراني دخل فيزوفشيكوف يتأبط حزمة كبيرة، وقبعته عالقة بمؤخرة رأسه، وساقاه ملطختان بالوحل حتى الركبتين.

قال في لكنة غريبة:

ـ كنت ماراً بكما، فرأيت النور، فدخلت أحييكما. لقد خرجت من السجن توّاً!

وتناول يد بيلاجيا، وهزها بحرارة، وأردف يقول:

ـ بافل يبعث إليك تحيّاته...

جلس متململاً، وأجال في الغرفة نظرة فاحصة حزينة.

لم تكن الأم تحبه. فهي تجد شيئاً مخيفاً مروِّعاً يطل من رأسه الحليق المرّبع وعينيه الصغيرتين. غير أنها كانت سعيدة هذه الليلة بلقائه. راحت تبتسم في ودّ وحنان، وهي تقول له في لهفة:

ـ لكم أصبحت نحيلاً! هلّا صببتَ له قدحاً من الشاي، يا أندريوشا؟

فصاح الأوكراني من المطبخ:

ـ أنا أهيىء السماور!

ـ حسناً، وكيف هو بافل؟ أأخلوا سبيل غيرك؟

فأطرق نيقولاي برأسه:

ـ بافل ينتظر في صبر! لقد اخلوا سبيلي وحدي!

ورفع عينيه إلى وجه الأم، وقال ببطء من بين أسنانه المنطبقة:

ـ لقد صحت بهم: إني نلت الكفاية، ونفذ صبري، فأطلقوا سراحي! وإلا قتلت أحدكم وانتحرت فأخلوا سبيلي.

ـ آه!

قالت الأم ذلك وهي تبتعد عنه. وعندما التقت عيناها نظرته القاسية غضت طرفها بالرغم منها.

صاح الأوكراني من المطبخ:

ـ كيف حال فيدور مازين؟ أما يزال يقرض الشعر؟

فردَّ نيقولاي، وهو يهز رأسه:

ـ نعم، وهذا ما لا أفهمه! ماذا يظن نفسه؟ عندليب؟ ضعه في قفص، وهو يأخذ يغني. ولكن ثمة شيئاً واحداً أفهمه تماماً... وهو أني لا أريد الذهاب إلى البيت...

وقالت الأم متفكرة:

ـ ماذا تجد في البيت؟ منزل خاوٍ، ولا نار في الموقد، وكل شيء بارد...

لم يقل شيئاً، بل أطبق جفنيه، وتناول من جيبه علبة لفائف أشعل واحدة منها متماهلاً، وراح يلاحق بنظراته دخانها الرمادي وهو يتلاشى، تعلو وجهه سيماء الكآبة والغم.

ـ نعم، لا ريب أن كل شيء بارد. صراصير متجمدة على الأرض، وفئران متجمدة أيضاً.

صمت لحظة، ثم سأل في صوت أجش دون أن ينظر إلى الأم:

ـ هلَّا سمحت لي بقضاء الليل ههنا، يا بيلاجيا نيلوفنا؟

فأسرعت تجيب:

ـ بالطبع، وبكل طيبة خاطر!.

وأحست شيئاً من الضيق في حضرته.

ـ في هذه الأيام أصبح الشبان يخجلون من آبائهم...

فسألت الأم، وقد انتفضت:

ـ ماذا؟

حدجها بنظره، وأغلق عينيه بحيث اتخذ وجهه المجدور مظهراً يوحي بأن صاحبه ضرير فاقد البصر، ثم ردَّد متنهداً تنهداً صاخباً:

ـ قلت إن الفتيان أصبحوا يخجلون من آبائهم! لن يخجل بافل منك أبداً. أما أنا فأخجل من والدي العجوز ولن أضع رجلي في بيته ثانية أبداً. ليس لي أب، ولا بيت أيضاً! ولو لم أكن تحت مراقبة الشرطة لذهبت إلى سيبيريا، وسأحرر الناس في المنفى هناك ـ أساعدهم على الفرار...

أدركت الأم بقلبها الحساس أن هذا الصبي يتألم، لكن ألمه لم يثر فيها عطفاً وحناناً.

قالت، كي لا تسيىء إليه بالامتناع عن الكلام:

ـ إن كنت تشعر بذلك حقاً، فأنت تفعل حسناً بالذهاب!

وجاء أندريه من المطبخ ضاحكاً:

ـ ماذا تنادي به؟

فأعلنت الأم، وهي تنهض:

ـ سأمضي لأهيىء بعض الطعام...

وأعلن نيقولاي بغتة، بعد أن تفرس في الأوكراني برهة من الزمن:

ـ يخيل إليّ أن بعض الناس يستحقون القتل!

فاستفسر الأوكراني:

ـ يا لله! ولِمَ؟

ـ للتخلص منهم...

وقف الأوكراني، طويل القامة نحيل القوام، يتأرجح على عقبيه في وسط الغرفة ويداه في الجيبين، ويتطلع إلى نيقولاي الذي جلس على مقعده لاصقاً به، غارقاً في عجاج من دخان التبغ، وقد بدت على وجهه الشاحب لطخات حمر قانية.

وقال نيقولاي:

ـ سوف أدق عنق أشعيا خوربوف. سوف ترى كيف أفعل ذلك!

ـ ولِمَ؟

فقال فيزوفشيكوف، وهو ينظر إلى أندريه بجفاء ونفور:

ـ إنه جاسوس وواشٍ، وهو الذي دمَّر والدي... يريد أن يجعل منه مخبراً عند الشرطة.

فصاح الأوكراني:

ـ إذن فهذه هي المشكلة! ولكن ليس سوى الأحمق يستطيع أن يلومك على هذا...

فقال فيزوفشيكوف في عناد:

ـ الأذكياء والحمقى سواء! فأنت ويافل مثلاً كلاكما ذكي. ولكن هل أنا في نظركما مثل فيودور مازين أو صموئيلوف، أو مثل أحدكما في نظر الآخر؟ لا تكذب، فأنا لن أصدقك على أية حال. إنكم جميعاً تدفعونني جانباً ـ وتضعونني في مكان بعيد عنكم.

فقال الأوكراني في لطف وعذوبة، وهو يجلس إلى جانبه:

ـ أنت مريض النفس، يا نيقولاي!

ـ أنا مريض النفس، حسناً. لكن نفوسكم مريضة أيضاً. أنتم تحسبون أن ما يمرضكم أسمى مما يمرضني. كلنا يعامل بعضنا بعضاً بنذالة. هذا جلّ ما أستطيع أن أقول. ما عندك أنت؟ هيا هاته.

ثبَّت عينيه القاسيتين في وجه أندريه، وراح ينتظر الجواب منطبق الفكين. ولم تتبدل ملامح وجهه المبقع، ولكن شفتيه أخذتا ترتعشان كأن شيئاً مرّاً حرقهما.

قال الأوكراني، وهو يقابل نظرة العداوة في عيني فيزوفشيكوف بابتسامة عينيه الزرقاوين الدافئة:

ـ لن أقول شيئاً، فأنا أعلم أن النقاش مع فتى تدمى كل الجروح في قلبه لا يُنتج إلا الأذية وحدها. أعلم ذلك، يا أخي!

فغمغم فيزوفشيكوف، وهو يغضُّ طرفه:

ـ لا تستطيع أن تناقشني ـ أنا لا أعلم كيف!

فتابع الأوكراني:

ـ يخيل إليَّ أن كلاً منا سلك يوماً طريقه الشائكة، وأن كلاً منا زمجر مثلك في ساعاته السود المظلمة...

فقال فيزوفشيكوف في بطء:

ـ ليس هناك ما تقوله لي! فروحي تعوي كالذئب الكاسر!

ـ لست أريد أن أقول لك شيئاً على الإطلاق! إني أعرف فقط أن ذلك سيمضي... وربما لن يمضي كله، ولكنه سيمضي على أية حال!

وأرسل ضحكة قصيرة، ثم استرسل وهو يربت على كتف نيقولاي:

ـ هذا مرض طفولي كالحصبة، يصاب به كل منا يوماً ما ـ والأقوياء تكون إصابتهم خفيفة، أما الضعفاء فإصابتهم شديدة. إنه يرمي بنا أرضاً ويقعدنا في ذات اللحظة التي نسير فيها في طريق العثور على ذواتنا قبل أن تكمل نظرتنا عن الحياة. أو ينضج إدراكنا لموضعنا فيها. ويخيل إليك عندئذ أنك أطيب قطعة حلوى في الوجود، وأن كل إنسان يريد أن ينال منك كسرة. ولكنك لا تلبث قليلاً حتى تجد أن للباقين في صدورهم نفساً لا تقل طيبة عن نفسك، الأمر الذي يسهل الأمور كثيراً. وعندئذ تخجل قليلاً لأنك تسلقت إلى برج الأجراس بجرسك التافه العاجز عن رفع صوته في رنين الأجراس الشامل. ولكنك تكتشف فيما بعد أن جرسك ينسجم تماماً مع جوقة الأجراس ويزيدها روعة، وإن كانت النواقيس الكبيرة تغرقه في رنينها، إن كان وحيداً، كما تغرق الذبابة في إناء من الزيت. هل تفهم ما أحاول أن أقول؟

فقال نيقولاي، وهو يهز رأسه:

ـ ربما أفهم ولكني لا... أصدق.

فهب الأوكراني واقفاً وهو يضحك، وأخذ يمشي روحة رجعة في ضوضاء حمية:

ـ وأنا أيضاً لم أصدق في الماضي، أيها المتحجر الرأس!

فسأل فيزوفشيكوف ضاحكاً باكتئاب، وهو ينظر إلى الأوكراني:

ـ ولِمَ تدعوني متحجر الرأس؟

ـ لأن تلك هي حقيقتك.

وفجأة أخذ نيقولاي يزمجر ضاحكاً ملء شدقيه، فسأل الأوكراني مشدوهاً، وهو يقف تجاهه:

ـ ماذا دهاك؟

أجابه نيقولاي ورأسه يتمايل:

ـ لقد كنت أفكر ـ كم يجب أن يكون المرء أحمق كي يجرح إحساساتك!

فهَزّ الأوكراني كتفيه:

ـ وكيف يمكن لأي شخص أن يجرح إحساساتي؟

فقال فيزوفشيكوف مبتسماً بجذل:

ـ لست أدري، ولكني أعني فقط أن المرء سيشعر بالتأسي على نفسه إذا آذاك مرة.

فضحك الأوكراني:

ـ تلك هي فكرتك إذن!

وصاحت الأم من المطبخ:

ـ أندريوشا!

فغادر أندريه الغرفة.

بعد أن أصبح فيزوفشيكوف وحيداً تطلع حوله، ومدَّ رجلاً حُبست في حذاء ضخم، وتفحصها بعناية شديدة وراح يتحسس بطة ساقه. ورفع يده يتمعن في راحتها الثخينة، وفي ظهر أصابعها الضخمة المكسوة بشعر أصفر اللون. وأخيراً نهض وهو يلوح بيده.

عندما رجع أندريه بالسماور، كان نيقولاي يقف مقابل المرآة. قال في ابتسامة ملتوية وهو يهز رأسه:

ـ لم أرَ وجهي منذ زمن طويل. إنه قبيح!

فسأل اندريه، وهو ينظُر إليه في فضول:

ـ وما الذي يجعلك تفكر في مظهرك؟

قال نيقولاي متماهلاً.

ـ تقول ساشنكا إن الوجه يعكس النفس!

فصاح الأوكراني:

ـ هراء! إن لها أنفاً أشبه بصنارة الصيد، وعظام وجنتيها كحد السكين، ولكن نفسها أشبه بالكوكب المضيء.

فحدق نيقولاي فيه وابتسم.

وجلس ثلاثتهم يحتسون الشاي.

تناول فيزوفشيكوف قطعة كبيرة من البطاطا وذر الملح بكثافة على كسرة من الخبز، وابتدأ يمضغ في هدوء وتمهل كالثور العجوز.

سأل، ممتلىء الشدقين طعاماً:

ـ كيف حال الأمور ههنا؟

عندما قدم له أندريه تقريراً مرحاً عن انتعاش دعايتهم في المعمل، امتقع لونه مرة أخرى وتجهم وقال:

ـ ليتطلب ذلك وقتاً طويلاً جداً... يجب أن نعمل بسرعة أكبر...

فنظرت إليه الأم، واختلج في صدرها شعور بالعداء نحوه.

وقال أندريه:

ـ ليست الحياة حصاناً يساق بالسوط!

فهَزّ نيقولاي رأسه في عناد، وقال:

ـ هذا يطول بنا جداً، ولست أستطيع أن أنتظر هكذا! ماذا يجب أن أفعل؟

وندت عنه إشارة يأس وهو ينظر إلى الأوكراني انتظاراً للجواب فقال أندريه وهو يطرق برأسه:

ـ علينا جميعاً أن ندرس ونعلّم الآخرين، ذلك ما ينبغي أن نفعل!

فسأل فيزوفشيكوف:

ـ ومتى ابتدأنا القتال؟

فضحك الأوكراني ضحكة قصيرة، وأجاب:

ـ لست أدري متى ابتدأنا القتال، ولكني أعلم أنهم سيغلبوننا مرات عديدة كثيرة قبل أن ننتصر عليهم! ويبدو لي، حسب نظرتي للأمور، أنه ينبغي أن نسلح رؤوسنا قبل أن نسلح أيدينا. . .

استدار نيقولاي إلى الطعام من جديد، أما الأم فراحت تسترق نظرة شزراء إلى وجهه العريض وهي تحاول أن تكشف هناك شيئاً يصالحها مع ذلك الجسد الثقيل المربع البنيان.

لاقت أخيراً النظرة الشائكة في عينيه الصغيرتين فراح حاجباها يرتجفان في وجل. أما أندريه فقد فَقَدَ هدوءه، على حين غرة، وأضحى كثير الاضطراب والتململ، وانطلق يضحك ويتكلم دون حساب، ثم توقف عن الحديث بغتة، دون أن يكمل الجملة التي بدأها، وراح يصفر لحنه المعتاد.

أحست الأم أنها تفهم ما الذي يقلقه. أما نيقولاي فجلس صامتاً، يردُّ على أقوال الأوكراني بأجوبة مقتضبة بادية الامتعاض.

أصبحت الغرفة الصغيرة ثقيلة الوطأة على الأم وأندريه معاً، وراح كل منهما، بدوره، يرمق الضيف بنظرات خاطفة سريعة.

نهض نيقولاي أخيراً، وقال:

ـ أظن أني سأذهب إلى الفراش. لقد لبثت جالساً طويلاً في ذلك السجن، ثم أطلقوا سراحي فجأة ودون انتظار، فخرجت حراً طليقاً، وأنا متعب الآن.

وظل يتململ في المطبخ فترة من الزمن في فراشه، ثم تلاشت ضوضاؤه تماماً وكأن الموت نزل بساحته. فأصاخت الأم بسمعها إلى السكون برهة وهمست في أذن أندريه:

ـ لقد اكتسب افكاراً مخيفة. . .

فوافق الأوكراني، وهو يهزُّ رأسه:

ـ نعم، وإنه لإنسان صعب معقد! ولكن هذه الحالة ستزول! لقد كنت هكذا أنا أيضاً في فترة من الزمن. إن النار ترسل الكثير من الهباب

والدخان قبل أن تلتهب مضطرمة في قلبك. إذهبي إلى الفراش يا أُميمة، فأنا أريد أن أقرأ قليلاً.

سعت إلى إحدى الزوايا حيث كان سرير وراء ستائر مصنوعة من القطن. وظل أندريه طويلاً يسمع حفيف تنهداتها وصلواتها الدافىء. يقلب صفحات كتابه في عجلة وهو يحك جبينه منفعلاً أو يفتل شاربيه بين أصابعه الطويلة، ويحرك قدميه دون انقطاع. وكانت الساعة تدق في انتظام، والريح لا تني عن الأنين وراء النافذة.

وجاء صوت الأم الناعم يقول:

ـ آه، يا إلّهي! هؤلاء البشر في العالم، كل منهم يتألم على طريقته الخاصة! أين هم السعداء بينهم؟

فأجاب الأوكراني:

ـ إن ثمة أناساً سعداء يا أُميمة، وعما قريب سيكون عددهم عظيماً... عظيماً جداً!

21

تدفقت الحياة في سرعة تتلاحق أيامها متباينة مفعمة بالحوادث، وكل منها يحمل إلى الوجود شيئاً جديداً غير معهود، فلا يثير ذلك جزع الأم وقلقها أبداً. كان يَفِدُ على بيتها، أكثر فأكثر، أناس مجهولون يأتون في العشية. ويتحدثون إلى أندريه طويلاً بأصوات قلقة خافتة، ثم يرفعون ياقات معاطفهم، ويجرون قبعاتهم حتى تستر كل جباههم، ويختفون في الظلمة في حذر ودون أي ضوضاء. وكانت تدرك ذلك الانفعال المكبوت الذي يحسه كل منهم، فهم جميعاً، فيما يبدو، يريدون أن يضحكوا أو يغنوا، فلا يجدون لذلك متسعاً من الوقت لأنهم أبداً يحثون الخطى إلى مكان ما. وكان بعضهم وقورين جداً، وساخرين؛ وبعضهم الآخر مرحين على الدوام يشعون فتوة وشباباً؛ وفئة ثالثة أيضاً أفرادها

هادئون غارقون في التفكير دون انقطاع. ولكن الجميع يتحلون، في نظر الأم، بذلك العزم الواثق بذاته. وكانت وجوههم جميعاً، وإن يكن لكل منها مظهره الفردي الخاص المتميِّز، تذوب في وجه واحد، نحيل هادىء، طافح بالحزم، ذي عينين عميقتين صافيتين سوداوين تطلُّ منهما نظرة لطيفة وصارمة في الوقت ذاته، مثل نظرة المسيح على طريق عيماس.

وكانت الأم تُحصي عددهم، وهي تجمع في ذهنها حشداً كبيراً حول بافل يختبىء هذا في وسطه عن عين العدو.

ذات يوم قدمت من المدينة فتاة متوقدة الذكاء، مجعدة الشعر، تحمل طرداً إلى أندريه، وبينما هي تغادر الدار استدارت نحو الأم وفي عينيها المرحتين بريق شديد اللمعان، وقالت:

ـ إلى اللقاء، يا رفيقة!

فأجابت الأم، وهي تكبح ابتسامة هجمت على شفتيها:

ـ إلى اللقاء!

بعد أن شيعت الفتاة ذهبت إلى النافذة وراحت تراقب، وهي تضحك، رفيقتها هذه تقطع الشارع في خطوات صغيرة سريعة، خفيفة كالفراشة، ممتلئة حيوية كوردة ربيعية. غمغمت:

ـ يا رفيقة! أوه يا عزيزتي! فليهب لك اللّٰه رفيقاً حقيقياً يرافقك طوال الحياة!

كانت تميز في كل أولئك الناس الذين يأتون من المدينة شيئاً طفولياً، فتبتسم في تعطف وتسامح. ولكنها تتأثر، وفي نفسها مزيج من الدهشة والفرح والحبور، بإيمانهم المتجلي لها ثباته ورسوخه أكثر فأكثر على مرِّ الأيام وكرِّها. وكانت أحلامهم عن انتصار العدالة تداعب قلبها وتبثُّ فيه الحرارة والسعادة، فتتنهد مصغيةً إليهم في كآبة لا تدرك لها كنهاً. ولكنها تتأثر، بصورة خاصة، ببساطتهم التامة، وبتلك اللامبالاة الرائعة تجاه هنائهم الخاص.

ولقد أصبحت تفهم الكثير مما يقولون عن الحياة، فتحس أنهم اكتشفوا منبع الآلام الإنسانية الحقيقي، فاعتادت أن توافق على أفكارهم. ولكنها لم تكن تثق، في أعماق نفسها، بأنهم قادرون على تحويل مجرى الحياة على طريقتهم الخاصة أو أنهم سيصيرون إلى ما يكفيهم من القدرة على ضمِّ العُمال إليهم. إن كل إنسان يهتم بإملاء معدته في هذا اليوم ذاته، وليس ثمة من يرضى بتأجيل ذلك إلى الغد. قليلون هم أولئك الذين يرضون عبور تلك الطريق الطويلة العسيرة، وقليلة هي الأعين التي تستطيع إدراك هذه الرؤيا الأسطورية عن مملكة الأخوة الإنسانية التي لا مفرَّ من بلوغها في نهاية الطريق. ولذلك بدا لها كل هؤلاء الناس الطيبين أطفالاً بالرغم من لحاهم ووجوههم الناضجة التي أذواها التعب المرهق أحياناً.

وكانت تفكر، وهي تهزُّ رأسها: «آه، يا أحبائي الأعزاء!».

ولكنهم الآن يحيون جميعاً حياة رائعة رزينة عاقلة. إنهم يتكلمون عن عمل الخير، ولا يُعفون لنفسهم من جهد يبذلونه كي يعلِّموا الآخرين ما سبق لهم أن حازوا معرفته ووعوها. واستطاعت أن تدرك كيف يمكن للمرء أن يحب مثل هذه الحياة بالرغم من أخطارها، فراحت تحدُّ بصرها متنهدة إلى شريط ماضيها الأسود الضيق، فينمو فيها شيئاً فشيئاً إدراك هادىء لأهميتها، هي أيضاً، في هذه الحياة الجديدة. فيما مضى لم تحسّ أبداً أن ثمة إنساناً يحتاج إليها، أما الآن فهي ترى بوضوح أن الكثيرين في أشدّ الحاجة إليها. وكان هذا شيئاً جديداً مفرحاً جعلها ترفع رأسها في فخر...

كانت تحمل المنشورات إلى المعمل بصورة منتظمة، تجد في ذلك واجباً عليها يجب أداؤه. واعتاد رجال الشرطة والتحري رؤيتها، فكفوا عن إعارتها أدنى انتباه. وكثيراً ما فتشوها، لكن دائماً في اليوم التالي لظهور المنشورات في المصنع. وإذا لم تكُ تحمل شيئاً على كتفها فهي تجهد أن تثير انتباه الحرس ورجال الشرطة حتى يمسكوا بها ويفتشوها،

بينما تذهب في مناقشتهم شوطاً طويلاً، تفصح عن امتعاضها، واعتبار ذلك إهانة موجهة إلى كرامتها، فإذا ثبتت براءتها انطلقت فخورة معجبة ببراعتها تيّاهة بذكائها. تلك كانت لعبة تتمتع بها وتلقى فيها اللذة كل اللذة.

لم يُقبل فيزوفشيكوف مرة أخرى في المعمل، فوجد عملاً لدى تاجر خشب أرسله يبيع جذوع الأشجار وحطب الوقود والألواح الخشبية. وكانت الأم تراه وحمله الثقيل، كل يوم تقريباً: فيبدو لها أولاً جوادان هزيلان أسودان عجوزان ترتجف أطرافهما من عناء الجهد الذي يبذلان، ويهتز رأساهما في ضجر وكلل، بينما تطرف عيونهما المعذبة المرهقة، ثم يأتي بعدهما جذع طويل رطب أو كومة من الألواح تتلاطم في ضجيج هائل، وإلى جانبها يتدحرج نيقولاي ممسكاً بالأعنة في تراخ بين يديه وسخاً، رثَّ الثياب، ثقيل الحذاءين، دفع قبعته حتى مؤخرة رأسه، غليظ السحنة مثل أرومة مقتلعة من الأرض. وكان هو الآخر يؤرجح رأسه وهو يسير، وقد أطرق بعينيه إلى الأرض. وجواداه يتعثران دون رادعٍ بالعربات والمارة طوال الطريق، فيوجه هؤلاء إلى نيقولاي صيحات قاسية حادة أو شتائم غاضبة تحاصره مثل سرب من الزنانير الثائرة، فلا يجيب، ولا يرفع رأسه، بل يرسل من بين أسنانه صفيراً حاداً عالياً، ويغمغم متوجهاً إلى الجوادين:

ـ هيا! هيا!

وكل مرة يدعو أندريه رفاقه فيها لقراءة العدد الأخير من صحيفة أجنبية، أو كتيباً حديثاً، كان نيقولاي يأتي أيضاً وينزوي في إحدى الزوايا منصتاً، في صمت، ساعة أو ساعتين. وبعد القراءة يدخل الفتيان في نقاش حامٍ طويل لا يساهم فيه فيزوفشيكوف أبداً، بل يبقى بعد انصراف الجميع، ويتحدث إلى أندريه وحده. كان يقول متجهماً:

ـ مَنْ منَ الناس يستحق اللوم أكثر من غيره؟

فيجيب الأوكراني مازحاً:

ـ أكثر الناس ملامة هو أول من قال: هذا ملكي! ولقد مات هذا الشخص قبل ألف من السنوات أو يزيد، ولذا فليس في سخطنا عليه معنى أو جدوى.

ولكن إمارات القلق تبدو في عينيه.

ـ ما رأيك في الأغنياء، وأولئك الذين يحمونهم ويذودون عنهم؟

كان الأوكراني يعبث بشعره، ويشد شاربيه، وهو ينتقي كلمات بسيطة يتحدث بها عن الحياة وعن البشر. وكان يتضح من حديثه دائماً أن سائر الناس ملومون على السواء، الأمر الذي لم يكن يقنع نيقولاي أو يرضيه، فيضغط على شفتيه الممتلئتين ويهز رأسه نفياً ويغمغم بأن الأمر ليس كما أعلن صاحبه مطلقاً. ويستأذن أخيراً، وينصرف مستاء ممتعضاً.

جهر ذات يوم:

ـ كلا. ينبغي أن يكون هنالك أناس مسؤولون عن هذه الأمور كلها، وإنهم لموجودون هنا أيضاً! لقد أخبرتك أن علينا قلبَ حياتنا بأجمعها رأساً على عقب، مثل حقل من الأشواك الضارة وذلك دون أدنى أثر للرحمة!

فعلّقت الأم على كلامه:

ـ هذا ما قاله عنكم مرة أشعيا، مراقب الدوام!

فسأل فيزوفشيكوف بعد برهة وجيزة من الصمت:

ـ أشعيا؟

ـ نعم. إنه إنسان وضيع، يراقب جميع الناس ولا يكفُّ عن إلقاء الأسئلة. ولقد شرع يأتي إلى شارعنا ويتلصّص من نوافذنا...

فردد نيقولاي:

ـ يتلصّص من النوافذ؟

كانت الأم قد لجأت إلى الفراش بحيث لا تستطيع رؤية وجهه، بيد أنها أدركت خطأها فيما صرحت به من تسرُّع الأوكراني بالتعليق على ذلك قائلاً:

ـ فليأتِ ويتلصص إن كان يملك كثيراً من الفراغ. . .

أما نيقولاي فهتف في صوت أجش:

ـ إنتظر! إنه واحد من الذين يتحملون المسؤولية!

فسأل الأوكراني متسرعاً:

ـ وما هو ذنبه؟ ألأنه غبي أبله؟

فخرج فيزوفشيكوف دون أن يجيب.

شرع الأوكراني يتمشى في الغرفة على مُهْلتِهِ متعباً جارّاً ساقيه الطويلتين العنكبوتيتين في هدوء وسكينة. وكان قد خلع حذاءيه كعادته دائماً كيلا يُحدث ضوضاء تزعج بيلاجيا. ولكنها لم تكن نائمة، بل قالت في قلق بعد ذهاب نيقولاي:

ـ إني خائفة منه!

فهمهم الأوكراني متماهلاً:

ـ هم. . . م، نعم! وإنه لجادّ كل الجد فيما يذهب إليه. لا تذكري أشعيا أمامه بعد الآن أبداً، يا أُميمة. أشعيا ذلك جاسوس حقاً وفعلاً.

ـ لا غرابة في هذا. فأحد أقربائه دركي!

وتابع أندريه وفي نبراته رعشات من قلق:

ـ سيضربه نيقولاي على ما أعتقد! أترين هذه المشاعر التي غذاها أولئك السادة القائمون على السلطة في قلوب عامة الناس؟ ماذا سيحدث عندما يدرك الناس، أمثال نيقولاي، أنهم خدعوا، ولم يعد لهم في قوس الصبر منزع؟ لسوف يلطخون وجه السماء بالدماء ويغرقون الأرض بها إغراقاً. . .

فهتفت الأم في صوت خفيض:

ـ ذلك مخيف، يا أندريوشا!

فصمت أندريه لحظة، ثم قال:

ـ حسناً، من يلاعب القط يجب أن يتحمل وخزات مخالبه! لكن كل

قطرة من دماء هؤلاء غُسلتْ سلفاً في بحار دموع ذرفها عامة الناس بسببهم...

وأغرق بعد ذلك في ضحك خافت، وأضاف:

ـ ذلك عدل... عدل لا يريح الضمير كثيراً!

22

آبت الأم من الحانوت ذات أحد، وما إن فتحت الباب حتى وقفت على العتبة دون حراك، وقد اجتاح الفرح سائر أعضائها مثل مطر الصيف الدافىء. كان صوت بافل الواضح... يرتفع من الغرفة الداخلية.

صاح الأوكراني:

ـ ها هي ذي!

ورأت الأم بافل يستدير في سرعة واندفاع، ويشرق وجهه بنور طافح بالوعود الجمة لها.

قالت متلعثمة:

ـ ها هو ذا... في البيت أخيراً!

وجلست ذاهلة لعودته غير المنتظرة.

انحنى بوجهه الشاحب عليها، وقد التمع بعض الندى في زاوية عينه، فيما ارتجفت شفتاه... لم يقل شيئاً طوال هنيهات، بينا أمه تتفرس فيه في سكون أيضاً.

تركهما الأوكراني وخرج إلى الفناء، وهو يصفر لحناً ناعماً مطرقاً رأسه.

قال بافل بصوت عميق خفيض، وهو يشدُّ على يدها بأصابعه المرتجفة:

ـ شكراً، يا أماه! شكراً لك يا حبيبتي!

أخذت تمسح على رأس ابنها، وقد طغى عليها الفرح لرؤية ذلك التعبير في وجهه، وسماع تلك النغمة في صوته، وراحت تحاول أن تهدىء من خفقان قلبها الشديد. قالت في همس:

ـ يا إلَهي، ولِمَ؟

فثنَّى يقول:

ـ من أجل مساعدتك في عملنا العظيم! شكراً لك! إنها لسعادة نادرة عندما يستطيع المرء أن يقول إنه وأمه روحان منسجمان!

اعتصمت بالصمت، وهي تعبُّ في شراهة من كلماته بجوارح متفتحة؛ معجبة بهذا الابن الذي يقف أمامها، طيب القلب، عزيزاً محبوباً حتى الدرجة القصوى.

ـ كنت أرى مبلغ صعوبة ذلك بالنسبة إليك، يا أماه، وأتخيل ما فيه من أمور لم يحبها قلبك. وكنت أظنك لن تتصالحي معنا أبداً، وأن أفكارنا لن تصبح أفكاراً لك، بل إنك ستستمرين على تحملنا في سكون كما تحملت الأمور طوال حياتك. وكان ذلك صعباً بالنسبة إليَّ!

فقالت:

ـ ساعدني أندريوشا على فهم كثير من الأمور!

فضحك بافل، وأعلن:

ـ لقد حدثني عنك!

ـ وييجور كذلك، فكلانا من القرية نفسها. لا بل إن أندريوشا أراد تعليمي القراءة...

ـ وكنت أنت خجلى، فأخذت تدرسين وحدك في الخفاء؟

فهتفت في ارتباك:

ـ وهكذا فقد لاحظ!

وقالت لبافل، وهي متعبة من تخمة الغبطة من قلبها:

ـ فلندَعْهُ. لقد خرج عامداً كيلا يضايقنا. ليس له أم خاصة به...

فصاح بافل، وهو يفتح الباب:

ـ أندريه! أين أنت؟

ـ ها أنذا، كنت أريد أنْ أقتطع بعض الحطب.

ـ تعال هنا!

لم يأتِ رأساً. عندما دخل المطبخ أخيراً شرع يتحدث كمَنْ يهتم بقضايا البيت:

ـ لا بدَّ أن نطلب من نيقولاي تأمين بعض الحطب لنا، فلم يبق الكثير منه. لكن أنظري إلى فتاك بافل هذا، يا أميمة. يبدو أنهم يسمِّنون المتمردين بدلاً من أن يعاقبوهم...

ضحكت الأم ولم تقلْ شيئاً. كانت لا تزال نشوى بالفرح وقلبها يخفق في بهجة وحلاوة، في حين أثار شيء ما في نفسها إحساساً بالحذر والحيطة جعلها تتمنى رؤية بافل يستعيد هدوءه المعتاد. كان كل شيء رائعاً جداً، وهي تود أن تحتفظ في قلبها إلى الأبد بهذه السعادة الكبيرة الأولى في حياتها، قوية حية مثلها الآن. وأسرعت، خشية أن تتلاشى، تضعها في القفص كهاوي عصافير إذ يمسك، على غير انتظار، نموذجاً نادراً من الطيور.

قالت بعجلة:

ـ فلنتناول الغداء، فلست أعتقد أنك طعمت شيئاً، يا باشا.

ـ كلا، فقد أخبرني السجان البارحة أنهم قرروا إطلاق سراحي، فلم تكن لي الرغبة اليوم أن آكل أو أشرب شيئاً...

وتابع بعد برهة:

ـ كان سيزوف العجوز أول من صادفت في الضاحية. اجتاز الشارع حين رآني كي يرحب بي، فأوصيته أن يكون أكثر روية وحذراً. ذلك أفضل ـ فأنا شخص خطر في هذه الأيام، تراقبني عيون الشرطة في كل مكان ـ فقال: «هذا لا يهمني». وكان يجب أن تسمعا كيف راح يسألني عن إبن أخيه. قال: «هل يتصرف فيدور كما يجب؟» فقلت: «وكيف يمكن أن يتصرف المرء جيداً عندما يكون في السجن؟». فقال: «حسناً،

ولكنه لم يشِ بأحد من رفاقه مثلاً». وعندما قلت له إن فيدور شاب عظيم ـ شريف وذكي ـ مشّط لحيته ونبر مفتخراً: «ليس ثمة أنذال بيننا، نحن آل سيزوف!».

فقال الأوكراني، وهو يهزُّ رأسه:

ـ إن للرجل العجوز عقلاً يدرك الأمور، فلقد تحادثت وإياه طويلاً. هو رجل طيب. هل سيطلقون سراح فيدور عن قريب؟

ـ أعتقد أنهم سيطلقون سراح الجميع، فليس لديهم دليل ضدهم على الاطلاق باستثناء ما رواه أشعيا العجوز. ترى ما الذي قاله؟

كانت الأم تروح وتغدو وعيناها معلقتان بولدها، وأندريه يقف عند النافذة ويداه خلف ظهره، يصغي إلى ما يقول بافل الذي يجوس الغرفة ذهاباً وإياباً. كان قد أطلق لحيته، فنمت على خديه حلقات صغيرة من الشعر الأسود الناعم المجعد الكث تليّن من قساوة ملامحه قليلاً وتخفّف لون وجهه الأسمر.

قالت الأم، وهي تحمل الحساء:

ـ هيا اجلسا!

حدثه أندريه، أثناء الطعام، عن ريبين. فهتف بافل في أسف عندما أنهى الأوكراني حديثه:

ـ لو كنت حراً لما تركته يذهب! ماذا أخذ معه؟ لا شيء سوى رأس مشوش وسخط عظيم.

فقال الأوكراني، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ حسناً، عندما يبلغ المرء سن الأربعين، وقد قضى جلَّ هذا الزمن يصارع الريبة في نفسه، فلن يكون من السهل إقناعه أبداً...

وابتدأت احدى تلك المناقشات التي كانت أكثر كلماتها عسيرة على فهم الأم. انتهى الغداء، ولكنهما استمرا يتراشقان سيلاً من الكلمات الرنانة. ومن وقت لآخر يتكلمان ببساطة، فيقول بافل في حزم:

ـ يجب علينا أن نتقدم باستمرار دون أن ننحرف جانباً خطوة واحدة!

ـ ونصطدم بعشرات الملايين من الناس الذين سيعتبروننا أعداء لهم. . .

فهمت الأم، وهي تستمع إلى نقاشهما، أن بافل لا يحب الفلاحين، بينما يقف الأوكراني إلى جانبهم، جاهداً أن يبرهن أن من حق الفلاح أيضاً الاطلاع على الحقيقة. ولقد فهمت الأم أندريه بصورة أوضح، وخيل إليها أنه أقرب إلى الحقيقة، لكن أعصابها كانت تتوتر، كلما قال أندريه لبافل شيئاً، تنتظر منقطعة الأنفاس جواب ابنها لتتأكد من أن الأوكراني لم يجرح شعوره. ولكنهما استمرا يتناوبان الصياح دون أن تثور ثائرتهما.

وكانت الأم تتوجه أحياناً إلى ابنها، وتقول:

ـ هل الأمر كذلك حقاً، يا بافل؟

فيجيب مبتسماً:

ـ إنه كذلك!

وقال الأوكراني في سخرية حلوة:

ـ آه، أيها الرجل الطيب. لقد تناولت طعاماً ولكنك لم تمضغ جيداً. . . وإن هناك شيئاً منه عالقاً في حلقك، ومن الأفضل أن تزدرد ما يدفعه!

فقال بافل:

ـ دع الهزل عنك الآن.

ـ إني لجادّ كما لو كنت في مأتم!

فضحكت الأم في رقة، وهزَّت رأسها. . .

23

جاء الربيع وذابت الثلوج، فكشفت عن الأوحال والأوساخ تحتها. وازداد الطين بروزاً يوماً بعد يوم، حتى بدت الضاحية جميعها رثة،

قذرة، مرتدية الأسمال البالية. وكانت المياه تتساقط طوال النهار من السطوح، وأبخرة كثيفة تتصاعد كالدخان من جدران المنازل الرمادية. وكانت مياه السطوح تتجمد في العشية وتتدلى قطعاً طويلة بيضاء في كل مكان ترسل لمعاناً ضئيلاً تكاد العين لا تميزه. وأصبحت الشمس أكثر ظهوراً من ذي قبل. وكان في استطاعة المرء الاستماع إلى خرير الجداول وهي ترقرق في المستنقع القريب.

كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق للاحتفال بأول أيار، فوزعت في المعمل والضاحية بأسرها منشورات توضح معنى هذا العيد، فإذا الفتيان الذين لم يتأثروا قبلاً بالدعاية يقولون وهم يقرأونها:

ـ ينبغي أن نقوم بهذا!

وكان فيزوفشيكوف يقول، وهو يبتسم ابتسامة عابسة:

ـ لقد حان الوقت! كفانا نلعب لعبة الاستغماية!

وكان فيودور مازين بادي الفرح، يشبه القُبَّرة السجينة، وقد أصبح شديد النحول، عصبي الحديث والحركات معاً. وكان يوكوف سوموف الصامت يرافقه أبداً، وهو صبي يعمل في المدينة، يتجاوز وقاره حداثة سنه. وكان صموئيلوف ـ الذي بدا شعره وقد ازداد حمرة خلال مدة حبسه ـ وفاسيلي جوسيف وبوكين ودراجونوف وآخرون أيضاً، يصرون على أن تكون المظاهرة مسلحة؛ أما بافل والأوكراني وسوموف وآخرون فلم يوافقوا على ذلك الرأي.

وقد أحال ييجور نقاشهم مزاحاً. كان كعادته متعباً، منقطع الأنفاس، يرشح عرقاً. قال، وهو يشير إلى حذائيه الباليين الرطبين:

ـ أيها الرفاق إن الجهود التي نبذلها في سبيل تبديل النظام الاجتماعي القائم لعظيمة في الحقيقة. لكن لا بدَّ، كي نيسّر لها سبيل النجاح، من أن أشتري لنفسي زوجاً جديداً من الأحذية! وكذلك فإن جزمتي المطاطية بلغت حالة من الاهتراء تتحدى كل إصلاح والرطوبة تنفذ إلى قدميَّ كل يوم. وأنا لا أرغب استقراراً في أحشاء الأرض حتى يحين الوقت الذي

نفضح فيه، بصورة علنية صارمة، النظام العتيق. وعلى هذا الأساس، فأنا أرفض اقتراح الرفيق صموئيلوف الرامي إلى القيام بمظاهرة مسلحة، مستبدلاً إياه باقتراحي الخاص بأن أتسلح بزوج جديد من الأحذية، لأني على يقين تام راسخ بكون مثل هذا التدبير أكثر فائدة في تقريب انتصار الاشتراكية من أي اصطدام مسلح واسع النطاق!

وراح يروي لهم، بتلك الكلمات الزاهية، كيف يناضل الشعب في البلدان الأخرى من أجل تحسين شروط حياته. كانت الأم تهوى الإصغاء إلى أحاديثه التي تترك فيها شعوراً غريباً، فيخيل إليها أن أكثر أعداء الشعب ضراوة، أولئك الذين يخدعونه كثيراً ويقسون عليه بصورة وحشية، هم رجال قصيرو القامة، ضخام الأبدان، حمر الوجوه، لصوص وقساة وأشرار جشعون، إذا ثقلت وطأة القيصر عليهم حرضوا عامة الشعب عليه، فإذا قلب هؤلاء القيصر استولى أولئك الرجال الصغار على السلطة بأساليب خداعة، وطردوا الشعب وفرّقوه إلى جحوره، وقتلوا المئات والألوف إذا أبدى مقاومة.

ذات يوم جمعت الأم شجاعتها ووصفت ليجور الصورة التي رسمتها أحاديثه في مخيلتها، وسألته وهي تضحك في اضطراب واستحياء:

ـ أليست الأمور هكذا، يا ييجور إيفانوفيتش؟

فأغرق في الضحك طويلاً وقد رفع عينيه إلى الأعلى، وراح يفرك صدره كي يلتقط أنفاسه المنقطعة:

ـ الأمر كذلك حقاً يا أماه! لقد أمسكت ثور التاريخ بقرنيه! إن شيئاً من الزينة منسوج على قعر الصورة الأصفر، ولكن الحقائق جميعها هي في مواضعها الخاصة! إن هؤلاء الرجال الصغار البدينين هم بالضبط أكبر الخطاة وأسمُّ الحشرات التي تمتص دماء الشعب. وإن الفرنسيين لعلى حق عندما يسمونهم بورجوازيين... تذكري هذا جيداً، يا أماه.. بور ـ جوازيين. بور «قاحل» هُمُ لا يرتوي غليله أبداً. يتناولون نصيبهم من الذين يستطيعون الاستفادة من جهلهم، ويروحون يمتصون دماءهم...

ـ أتعني الأغنياء؟

ـ بالضبط! وتلك هي مصيبتهم، فأنت إذا رحت تضيفين النحاس إلى طعام الطفل الصغير، تدخّل ذلك في نمو عظامه وجعله قميئاً، أما إذا سمَّمتِ إنساناً بالذهب فإن نفسه هي التي تصبح صغيرة، وضيعة، مجردة عن الحياة مثل إحدى الدمى المصنوعة من المطاط التي يشتريها الأولاد بخمسة كوبيكات...

ذات يوم، وكانوا يتحدثون عن ييجور، قال بافل:

ـ الواقع، يا أندريه، أن الناس الذين يكثرون من المزاح هم الذين يتألمون أكثر من سواهم...

فسكت الأوكراني قليلاً قبل أن يجيب، وهو يزرُّ عينيه:

ـ لو كنت محقاً لوجب أن نتوقع إذن أن تموت روسيا كلها من الضحك...

عادت ناتاشا إلى الظهور من جديد ـ كانت في السجن هي أيضاً في مدينة أخرى، ولكن التجربة فيما يبدو لم تبدل فيها شيئاً على الإطلاق. وقد لاحظت الأم أن الأوكراني يصبح أكثر حيوية في حضورها، فيمزح ويسخر من الجميع حتى يجعلها تضحك في سرور وغبطة. ولكنها لا تكاد تمضي حتى يشرع يصفِّر أغنيته الحزينة المعهودة، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً، ويجرُّ قدميه في ضجر واجهاد.

وكثيراً ما كانت ساشا تأتي برهة قصيرة جداً، عابسة أبداً، وفي عجلة من أمرها على الدوام. وقد أضحت، لسببٍ ما، أكثر جفاء منها قبلاً.

وذات مرة، عندما رافقها بافل إلى الباب يشيعها، ونسي أن يغلقه خلفهما، استطاعت الأم أن تسمع حديثهما المتدفق في سرعة ولهفة.

قالت الفتاة في صوت خفيض:

ـ هل ستحمل الراية؟

ـ نعم.

ـ أهذا أمر مقرر؟

ـ نعم، فذاك من حقي.

ـ إلى السجن مرة ثانية إذن؟

فلم يحرْ بافل جواباً.

ـ ألا تستطيع...

ولكنها لم تكمل حديثها.

ـ ماذا؟

ـ أن تترك سواك يفعل ذلك؟

فقال في صوت عال:

ـ كلا!

ـ فكِّر في ذلك جيداً، فأنت ذو نفوذ كبير هنا، والجميع يحبونك! أنت وناخودكا أكثر الجميع شعبية، وكم من خير عميم تستطيع أن تفعل ههنا! أما حمل الراية... فسوف يرسلونك من أجله بعيداً... بعيداً جداً... ولزمن طويل جداً!

وخيل إلى الأم أنها تميِّز في صوت الفتاة انفعالات الخوف واللهفة المعهودة إليها، فسقطت كلمات ساشا على قلبها مثل قطرات من الماء المثلج.

قال بافل:

ـ كلا... قررت ذلك، ولن يثنيني شيء عن عزمي.

ـ ولو سألتك، أنا، ذلك؟

أصبح صوت بافل، بغتة، سريعاً قاسياً:

ـ ليس من شأنك أن تتكلمي هكذا، ليس لك الحق فيه!

فقالت خافتة الصوت:

ـ أنا كائن بشري!

فأجاب بمثل صوتها الخافت، لكن كمن يغصُّ بدموعه:

ـ كائن بشري رائع، كائن عزيز عليَّ جداً، وهذا هو السبب... هذا هو السبب... ينبغي ألا تقولي مثل هذه الأشياء...

فقالت الفتاة:

ـ إلى اللقاء!

أدركت الأم، من صدى وقع أقدامها، أنها تركض. وانطلق بافل وراءها في الفناء.

انقبض قلب الأم خوفاً وجزعاً. إنها لم تفهم موضوع حديثهما، ولكنها أحست أن بلية كبيرة تنتظرها.

«ترى، ماذا ينوي أن يفعل؟»

عاد بافل يرافقه أندريه. كان الأوكراني يقول، وهو يهزُّ رأسه:

ـ أواه! يا لأشعيا هذا! ما عسانا فاعلون معه؟

فقال بافل عابساً:

ـ الأفضل أن ننذره بالاقلاع عن هذه النوايا!

فسألت الأم، مطرقة برأسها:

ـ بافل، ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ متى؟ الآن؟

ـ في الأول... في الأول من أيار.

فهتف بافل، مخفضاً صوته:

ـ آه! سوف أحمل رايتنا... في طليعة المظاهرة. وأعتقد أنهم سيلقون بي من جديد في السجن بسبب ذلك.

أحست الأم وخزاً في عينيها، وأصبح فمها جافاً كل الجفاف، فأخذ بافل بيدها ومسح عليها برفق، قائلاً:

ـ ينبغي عليَّ ذلك. جربي أن تفهمي، يا أماه!

فأجابته، وهي ترفع رأسها ببطء:

ـ أنا لم أقل شيئاً!

ولكنها أطرقت رأسها من جديد عندما التقت عيناها بما في عينيه من بريق عنيد.

تنهد بافل وأفلت يدها.

قال في لهجة عتاب:

ـ يجب أن يبعث ذلك الغبطة في قلبك بدلاً من أن يحزنك. متى يصبح لدينا أمهات يرسلن أبناءهن إلى الموت وهنَّ يبتسمن؟

فغمغم الأوكراني:

ـ وَيْ! وَيْ! لقد استبدَّ صبينا برأيه، وراح يشمخ بأنفه في الهواء!

وانبرت الأم تقول:

ـ أنا لم أقل شيئاً، ولست أبغي الوقوف في طريقك، وإن يكن ذلك قاسياً عليَّ... إذ لست أستطيع الامتناع عن أن أكون أمًا!..

فابتعد عنها، وأحست طعن كلماته الجارحة:

ـ إن ثمة حباً يمنع المرء أن يحيا كما يودّ ويتمنى...

فقالت الأم بسرعة، مرتعشة خوفاً من أن يقول شيئاً آخر يجرح قلبها:

ـ لا، يا باشا، لا تقل هذا! إني أفهم ـ لست تستطيع أن تفعل شيئاً آخر... من أجل رفاقك...

ـ كلا، بل من أجلي أنا.

ظهر أندريه في مدخل الباب الذي كان واطئاً جداً بالنسبة إليه حتى اضطر إلى ثني ركبتيه بصورة غريبة، واتكأ بإحدى كتفيه على مصراع الباب، وألقى برأسه والكتف الأخرى إلى الأمام.

قال بنغمة خاصة، وعيناه الجاحظتان مثبتتان بوجه بافل في تجهم:

ـ إنك لتحسن صنيعاً إذا امتنعتَ عن هذا الكلام، أيها السيد الشهم!

كان أشبه بحرباء في شق صخري.

وكانت الأم على وشك الانفجار باكية. غمغمت فجأة، مسرعة إلى خارج الغرفة حتى لا يراها ابنها تبكي:

ـ يا إلَهي! نسيت أن...

عندما أصبحت خارج الأبواب تكومت في إحدى زوايا الدهليز، وأطلقت العنان لدموع صامتة مؤلمة فكأن دم قلبها يسيل مع عبراتها.

سمعت من خلال الباب نصف المغلق صوتيهما الخافتين يتجادلان.

قال الأوكراني:

ـ ماذا دهاك؟ أتتلذذ بتعذيبها؟

فصاح بافل:

ـ ليس من حقك أن تخاطبني هكذا!

ـ أكون صديقاً رائعاً إذن لو التزمت جانب الصمت والهدوء وأنا أراك على جنون وسخف. ما الذي يدعوك إلى التفوُّه بذلك؟ ألا تفهم شيئاً؟

ـ يجب أن تكون راسخ القدم، لا تخاف أن تقول «نعم» أو «لا».

ـ لأمك؟

ـ للجميع! لست أريد حباً أو صداقة يعترضان سبيلي أو يثقلان على ظهري...

ـ يا لك من بطل مغوار! كفاك تبجُّحاً... قل ذلك لساشنكا. فهي التي عليك أن تقول لها كل هذه الأشياء...

ـ لقد فعلتُ!..

ـ فعلتَ؟ أنت تكذب! لقد خاطبتها بلطف، خاطبتها بودّ وتحبب. أعرف ذلك، بالرغم من أنني لم أسمعك أبداً! ولكنك تلعب دور البطل العظيم مع أمك... إن كل خيلائك، لو تدري، لا تساوي ألا كوبيكا!

مسحت بيلاجيا الدموع عن خديها بسرعة، وذهبت تفتح الباب وتدلف إلى المطبخ خوفاً من أن يقول الأوكراني شيئاً قاسياً لابنها.

قالت في صوت مرتفع يرتعش جزعاً وحزناً:

ـ بر ـ رر... ما أبرد الطقس! يكاد المرء لا يصدق أنه الربيع.

وجعلت تنقل الأشياء، دون غاية، من مكان إلى آخر، ساعية إلى إغراق الصوتين في الغرفة المجاورة.

راحت تقول في نبرة أكثر ارتفاعاً:

ـ لقد تبدل كل شيء، فأصبح الناس أكثر حرارة والطقس أكثر برودة. لقد كانت الحرارة ترتفع في مثل هذه الأيام، فتشرق الشمس، وتصحو السماء...

وانقطع الصوتان، فوقفت تصيخ السمع في وسط المطبخ.

قال الأوكراني وقد أخفت صوته:

ـ أسمعت هذا؟ آن لك أن تفهم! يا للشيطان! إنها لأكبر قلباً منك...

وسألت مرتجفة الصوت:

ـ ما رأيكما في قليل من الشاي؟

وانثالت تضيف، كيف تفسر سبب ارتعاشها:

ـ يا إلّهي! لقد تجمدت!

ذهب بافل إليها ببطء، مطرق الرأس، تحوم على شفتيه ابتسامة مذنبة.

قال بصوت خفيض:

ـ اصفحي عني، يا أماه! فأنا لمّا أزل غراً... أحمق...

فصاحت شقية الفؤاد، وهي تدفن رأسه في صدرها:

ـ دعني وحدي. ولا تزدْ شيئاً! اللّه يعلم أن حياتك ملك لك تتصرف بها كما تشاء! ولكن... دع قلبي وحيداً! كيف يمكن الأمّ ألا تحبّ؟ إن حقها أن تفعل... أنا أحبكم جميعاً، وجميعكم أعزاء على قلبي، وجميعكم تستحقون المحبة والحنان! من يشفق عليكم إن لم أفعل أنا؟ أنت تذهب في المقدمة... والآخرون خلفك... لقد هجرتم كل شيء... آه، يا باشا!

كانت أفكار كبيرة ملتهبة تخفق في صدرها وتتدفق، وسرور مفجع يمزق قلبها فلا تجد الكلمات كي تعبر عنه، فتروح في عذاب صمتها الجبري تنظر إلى فتاها بعينين تطفحان ألماً حاداً عنيفاً...

أطرق رأسه وغمغم:

ـ حسناً، يا أمّ، اصفحي عني! إني أفهم ذلك الآن! ثم أضاف بعد أن ألقى نظرة اليها خطفاً:

ـ لن أنساه أبداً! أقسم أني لن أنساه!

واستدار عنها مبتسماً سعيداً، وفي الوقت نفسه مرتبكاً خجولاً.

تركته وطفَّت من باب الغرفة الثانية، وقالت في نغمة طلب لطيف:

ـ أندريوشا، لا تَقْسُ عليه! إنك بالطبع تكبره سناً...

فصاح أندريه بصوت غريب ومضحك، وظهره إليها، دون أن يتلفت:

ـ أفٍ! بل سأقسو عليه، ولسوف أضربه أيضاً!

فذهبت إليه متماهلة ومدّت له يدها:

ـ يا لك من إنسان طيب...

فاستدار الأوكراني، ومضى عنها إلى المطبخ، ويداه خلف ظهره، مطأطأ الرأس كالثور. ودفَّ إليها صوته يقول في نغمة سخرية عابسة:

ـ أغرب عن وجهي، يا بافل، قبل أن أقطع رأسك! إني أمزح فقط يا أميمة فلا تخافي! سأهيىء السماور، أتوافقين؟ يا للفحم الرائع الذي نملك... يعصر ماء!

وسكت. حين دخلت الأم إلى المطبخ وجدته جالساً على الأرض ينفخ في السماور. قال، دون أن يرفع رأسه:

ـ لا تخافي، فلن أمسَّه بسوء! فأنا رقيق مثل اللفت المطبوخ! وأنا ـ هِيْ، أنت هناك، أيها البطل، لا تسمع ـ وأنا في الحقيقة مغرم به جداً، ولكني لا أحبُّ تلك الصديرية التي يرتديها! إنه يملك صديرية جديدة ويظن أنها جميلة جداً. فيروح يتخطر منتفخ البطن، يقتحم كل إنسان في طريقه وهو يقول: أنظروا فقط ما أجمل الصديرية التي أملكُ! إن الصديرية لجيدة، ولكن ما معنى اقتحام الناس؟ هناك ازدحام واقتحام الناس لا يفعل إلا أن يزيده.

قال بافل، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ إلى مَ ستستمر على هذا؟ لقد غلبتني هذه المرة... وكفاية!

فتطلع إليه الأوكراني، وساقاه تحيطان بالسماور، من حيث يجلس على الأرض. كانت الأم تقف في مدخل الباب، تشخص في حنان وحزن إلى مؤخرة رأسه المدورة ورقبته الطويلة المنحنية، فالتوى إلى الوراء مستنداً على ذراعيه، ونظر إلى الأم والابن معاً.

قال في رقة، وعيناه المحمرتان قليلاً تطرفان:

ـ ما أطيبكما، أنتما الاثنان!

فانحنى بافل وأمسك بيده.

قال الأوكراني بصوت عميق:

ـ لا تشدَّني، وإلا رميتني...

فسألت الأم في كآبة:

ـ ممَّ تخافان؟ هيا قبّلا بعضكما بعضاً، وتعانقا بأقصى ما تستطيعان من قوة...

فاستوضح بافل:

ـ ما رأيكَ؟

فقال الأوكراني، وهو ينهض:

ـ تعالَ!

تعانقا بشدة، وتجمدا لحظةً، فهما جسدان بروح واحدة تضطرم بالصداقة في حرارة. وانهمرت الدموع على وجنتي الأم، بَيْدَ أنها كانت ـ هذه المرة ـ دموع السعادة. قالت في خجل، وهي تكفكف دموعها:

ـ نحن، معشر النساء، نحب أن نبكي عندما نكون سعيدات، وأن نبكي عندما نكون تعيسات!..

ودفع الأوكراني بافل عنه بلطف، وقال وهو يمسح عينيه أيضاً:

ـ كفى! عندما تُذبح العجول فلا بدَّ من شوائها. ألا لعن اللّه فحمكما هذا! فلقد نفخت فيه كثيراً حتى امتلأت عيناي منه، ودمعتا...

فقال بافل في رقة، وهو يجلس مطأطئاً رأسه قرب النافذة:

ـ ليس في مثل هذه الدموع ما يدعو إلى الخجل...

دنت أمه منه وجلست إلى جانبه. كان قلبها مفعماً بشجاعة جديدة هدأت من روعها، وبعثت في نفسها الرضى بالرغم من كآبتها.

قال الأوكراني، وهو يذهب إلى الغرفة:

ـ سأقوم أنا بترتيب الآنية. لا تنهضي، يا أُميمة. فمن الأفضل أن تستريحي قليلاً، بعد أن خضّوا قلبك بكل هذا العنف. . .

وجاءهما صدى صوته الغنيّ يدفدف من الخارج:

ـ لقد تذوقنا قليلاً من حياة رائعة قبل هنيهة. . . قليلاً من حياة إنسانية دافئة!

فنبر بافل، وهو يحدج أمه بنظراته:

ـ بلى!

فقالت الأم:

ـ لقد بدَّل ذلك كل شيء. تبدلت آلامنا، وتبدلت أفراحنا. . .

فعقَّب الأوكراني:

ـ وذلك ما ينبغي أن يكون، لأن قلباً جديداً قد ولد، يا أُميمتي. إن قلباً جديداً بُعث إلى الحياة. والإنسان يسير قدماً إلى الأمام، وهو يضيء كل شيء بنور العقل، ويصيح وهو يدبُّ في طريقه: هاي! يا شعوب جميع البلدان اتحدوا في عائلة واحدة! فتردُّ القلوب على ندائه فتضمُّ أصواتها إليه، وتصبح قلباً واحداً كبيراً يشبه في قوته ودويه ناقوساً من الفضة. . .

فضمت الأم شفتيها بشدة لتحول دون ارتعاشهما، وأحكمت إطباق عينيها لتمنعهما من سحّ الدموع.

رفع بافل ذارعه كمن يود الكلام، فجرته الأم بيده الأخرى وهمست:

ـ لا تقاطعه. . .

وجاء الأوكراني ووقف عند العتبة:

ـ أود أن أقول لكما. . . سوف تجتاح الناس آلام عظيمة، وسيراق بعد كثير من الدماء؛ ولكن كلَّ آلامي ودمائي رخيصة بالنسبة لما أحمل في صدري وعقلي. . . إنني غني كالنجمة بكل ما تشع من أضواء. . . وأنا أستطيع تحمل كل شيء، ومواجهة كل شيء، لأني أحمل في

داخلي فرحاً عظيماً لا يستطيع أي شيء أو أي إنسان أن يدمّره قط، وفي هذا الفرح تقوم قوتي!

ظلوا يحتسون الشاي حتى منتصف الليل، ويتحدثون بوداعة عن الحياة، والبشر، والمستقبل.

وكلما اتضحت فكرة للأم، ذهبت تبحث متنهدة في ماضيها عن بعض ذكرى قاسية محزنة تجعل منها أساساً تبني الفكرة عليه.

ذابت مخاوفها في تيار حديثهم الدافىء، وأحست مرة أخرى ذلك الاحساس الذي جرَّبته قبل زمن طويل، يوم قال لها والدها بجفاء:

ـ عبثاً تكشرين وتتكبرين! هناك أحمق يريد أن يتزوّجك، فهيا، تقدمي واستفيدي من الفرصة، فكل الدجاجات يتزوجن ويلدن أولاداً لا يحملون سوى المتاعب والقلق. من تحسبين نفسك؟

خيل إليها بعد هذه الكلمات أنها ترى درباً لا مفرَّ منها تمتد أمام عينيها، وتدور عبثاً حول قفر معتم مجدب، وقد ملأت حتمية المسير على تلك الدرب صدرها سلاماً أعمى. وهكذا كانت الحال الآن. بيد أنها استمرت تهمس في أذن شخص مجهول في داخلها، متوقعة على الدوام حدوث حزن جديد:

«تعال، خذ هذا!».

خفّف ذلك عن قلبها الموجَع الذي يدوّي في صدرها مثل وتر مشدود.

لكن أملاً ضعيفاً مستمراً راح يعتلج في نفسها المنفعلة بحزن الانتظار، الأمل بأنهم لن ينتزعوا كل شيء منها، لن ينتزعوا آخر ما تملك، ولسوف يبقى لها شيء ما بكل تأكيد...

24

في بكرة أحد الأيام، إثر خروج بافل وأندريه في طريقهما إلى العمل، قرعت كورزونوفا النافذة في سرعة، وصاحت متلهوجة:

ـ لقد قتلوا أشعيا! فهيا بنا نرى...

أجفلت الأم، وومضَ في ذهنها مثل شرارة اسم القاتل.

استفهمت، وهي تلقي وشاحاً على كتفيها:

ـ من فعل ذلك؟

ـ إنه لم ينتظر هناك بجانب أشعيا! لقد صرعه وولى هارباً!

وقالت، وهما تهبطان الشارع:

ـ سيعاودون التحري والبحث من جديد، وسيحاولون اكتشاف هوية القاتل. لمن حسن الحظ أن رَجُليك كانا في الدار البارحة، وأنا شاهدة على ذلك. كنت في طريقي إلى داري بعد منتصف الليل، فتطلعّت من نافذتك ـ كنتم جميعاً جالسين حول المنضدة...

سألت الأم، والرعب بادٍ عليها:

ـ ماذا تعنين، يا ماريا؟ أيمكن لأي إنسان أن يرتاب فيهما؟

فقالت كورزونوفا في قناعة:

ـ حسناً، من قتله إذن؟ لا بدَّ أن يكون متصلاً بفتيانكم! والجميع يعرفون أنه كان يتجسّس عليهم...

فوقفت الأم لاهثة، وهي تضغط يدها على صدرها.

ـ ماذا دهاك؟ لا تخافي ـ لقد نال نصيبه المحتوم. أسرعي، وإلا أخذوه قبل أن نراه!..

كانت شكوك الأم في فيزوفشيكوف أشبه بيدٍ ثقيلة تمسك بها وتجعلها تترنح في مشيتها. فكرت في لامبالاة:

«يا للّه! لقد تجاوز الحدود!»

كان حشد من الناس قد تجمهر قرب أنقاض منزل محترق غير بعيد

عن المعمل وهم يدوون مثل الزنابير، ويمتهنون بأقدامهم الأنقاض المتفحمة فيثيرون عجاجاً من الرماد والتراب. وكان ثمة نساء كثيرات، وعدد أكبر أيضاً من الأولاد الصغار، والبائعون، وخدم المقهى، والشرطة، يرافقهم الدركي بتلين، وهو رجل عجوز طويل القامة، ذو لحية شديدة البياض كالفضة، وصدر مكسو بأوسمة عديدة.

وكان أشعيا مطروحاً على الأرض في نصف استلقاء، يستند ظهره إلى أرومة متفحمة، ورأسه العاري يميل على كتفه اليمنى. وكانت يده اليمنى مختفية في جيب سرواله، بينما أطبقت أصابع اليد اليسرى على التربة اللينة.

تطلعت الأم إلى وجهه. كانت عينه الواحدة تشخص في بلاهة إلى قبعته المرتمية بين ساقيه المنفرجتين، وفكه يتدلى قليلاً فينفرج فمه نصف انفراجة وكأنه مدهوش من أمر ما، ولحيته الحمراء منحرفة إلى أحد الجانبين دون سبب معقول. وكان جسده الناحل، برأسه المدبب ووجهه المتعظم المغطى بالنمش، قد أصبح في انقباضة الموت أصغر منه في أي وقت آخر. رسمت الأم إشارة الصليب وصعَّدت زفرة عميقة. لقد كان يثير نفورها حياً، أما الآن فهي لا تحسُّ تجاهه سوى شفقة هادئة ليس غير.

ولاحظ بعض الواقفين في صوت خفيض:

- ليس هناك قطرة دم أبداً، لا ريب أنهم ضربوه بقبضة اليد...

فقال آخر في لهجة تشفٍ وانتقام:

- خرس لسانه الثرثار إلى الأبد...

فانتفض الدركي، وشقَّ له طريقاً بين جموع النساء، ثم قال مهدداً:

- من قال هذا؟

انفرط عقد الناس أمامه، لا بل هرب بعضهم أيضاً، بينما أطلق أحد الواقفين ضحكة شريرة طويلة.

وقفلت الأم إلى الدار.

قالت في نفسها:

«إن أحداً لا يرثي له!»

صُوِّر لها أنها ترى أمامها شبح نيقولاي الكثيف يتطلع إليها بعينيه القاسيتين، الباردتين المتضيقتين، وذراعه اليمنى تتأرجح فكأن شيئاً أصابها في تلك البرهة وآذاها...

ولم يكد ابنها وأندريه يؤمان الدار للغداء، حتى سألتهما عن الحادث:

- هل أوقف أحد... بتهمة قتله؟

فأجاب الأوكراني:

- لم يبلغني شيء من هذا القبيل!

وأدركت أن كليهما حزين منقبض النفس.

استفهمت في صوت لطيف:

- هل أتى أحد على ذكر نيقولاي؟

فأجاب الابن:

- كلا.

كانت عيناه القاسيتان معلقتين على وجهها وصوته راسخ.

- مما لا شك فيه أنهم لا يرتابون فيه. فهو متغيب عن الضاحية، غادرها البارحة ظهراً في اتجاه النهر ولم يَعُدْ بعد. لقد سألت عنه...

فتنفست الأم الصعداء، وقالت:

- الحمد للّه! الحمد للّه!

واختلس الأوكراني النظر إليها، وأطرق برأسه.

قالت الأم في بطء وتفكر:

- لقد كان يضطجع ووجهه يوحي بأنه لا يفهم شيئاً من كل ما حدث له. ولم يرثِ له أحد على الاطلاق، أو يوجه له كلمة لطيفة يشيّعه بها. كان يلوح صغيراً جداً تافهاً كل التفاهة، وكأنه شيء ضئيل بُتر عن أصله وسقط أرضاً حيث تُرك مطروحاً في مكانه...

أثناء الغداء ألقى بافل ملعقته على المائدة بغتة، وصاح:

ـ هذا يتجاوز إدراكي!

فسأل الأوكراني:

ـ ماذا؟

ـ إننا نقتل الماشية كي نحصل على الطعام، وهذا وحده أمر سيء. ومن الواضح أنه ينبغي على المرء قتل الحيوانات المفترسة إذا أصبحت خطرة! وأنا شخصياً على استعداد لأن اقتل كائناً إنسانياً إذا انقلب وحشاً مفترساً بالنسبة لأشباهه البشر. أما أن يقتل المرء مثل هذا النموذج الحقير المثير للاشمئزاز... من يقوى على رفع يده في سبيل ذلك؟

فهزّ الأوكراني كتفيه، وقال:

ـ لقد كان أكثر ضرراً وأذية من أي حيوان مفترس. إننا نقتل البعوض لأنه يمتص قليلاً من دمنا فقط!

ـ هذا صحيح كثيراً، ولكني لست أعنيه، بل أعني أن الأمر يبعث على النفور والاشمئزاز!

فأجاب أندريه، وهو يهزُّ كتفيه مرة أخرى:

ـ لا حيلة في ذلك!

فسأل بافل بعد برهة طويلة من الصمت، وهو يفكر في شيء ما:

ـ أتستطيع أنت أن تقتل مثل هذا المخلوق؟

فثبت الأوكراني فيه عينيه الواسعتين، ثم اختلس من الأم نظرة خاطفة، وقال أخيراً بكآبة وحزم في الوقت ذاته:

ـ في سبيل رفاقي وفي سبيل قضيتنا أستطيع أن أفعل كل شيء! أستطيع أن أقتل... حتى ابني نفسه...

فهتفت الأم في همس مخفوت:

ـ أوه! أندريوشا!

فابتسم:

ـ لا حيلة في ذلك، يا أماه! هي الحياة هكذا...

وقال بافل متماهلاً:

ـ إنك لعلى حق، هي الحياة هكذا...

وعلى حين غرة، هبّ أندريه واقفاً في حالة من الهياج الشديد وكأن شيئاً تصدع في داخله، وصاح وهو يحرك ذراعيه:

ـ ما عسانا نفعل؟ إننا مجبرون على بغض الناس كي نعجل بالزمن الذي نستطيع فيه ألا نضمر لهم سوى الحب الخالص. إننا مرغمون على القضاء على كل من يقف في طريق الحياة، كل من يبيع الشعب لقاء المال كي يشتري لنفسه العزّ أو الراحة والرفاهية. وإذا كان ثمة يهوذا يعترض سبيل الناس الشرفاء، وينتظر أية فرصة كي يخونهم، فإني أكون أنا أيضاً يهوذا آخر إذا لم أقضِ عليه! تقولان إني لا أملك الحق في ذلك؟ ولكن أسيادنا أولئك... ألديهم الحق في الاحتفاظ بجنودهم وجلاديهم، بدور بغائهم وسجونهم، بمنافيهم وكل الوسائل الأخرى اللعينة التي يصونون بها راحتهم وأمنهم؟ أهي خطيئتي إذا أُجبرت أحياناً على أخذ سوطهم بيدي؟ حسناً، لسوف آخذه، دون أن تطرف عيني أبداً. وإذا كانوا يقتلوننا بالعشرات والمئات، فإني أملك الحق في أن أرفع ذراعي، وأتركها تهوي على رأس واحد منهم، على الرأس البغيض الذي اقترب مني أكثر من غيره، وراح يضرُّ بقضية حياتي أكثر من الباقين. هي الحياة هكذا، ولكني ضد مثل هذه الحياة، ولا أريد مثل هذه الحياة. أنا أعلم أنه لن ينتج عن دمائهم شيء أبداً... إنه دم مجدب لا يثمر مطلقاً! إن دمنا يعطي مولداً للحقيقة عندما ينسكب كوابل المطر على الأرض، أما دماؤهم المتعفنة فتُمتص دون أن تترك أثراً، أنا أعلم هذا!.. ولكني أتحمل تبعة خطيئتي هذه... وأني سأُقتل إذا رأيت أن لا مندوحة عن ذلك! ولا تنسيا إني أتكلم عن نفسي فقط. وإن خطيئتي ستموت معي، ولن تلوّث المستقبل بأقل لطخة... إنها لن تلوث أي إنسان سواي. أي نفس أبداً!

كان يمشي في الغرفة جيئة وغدوةً، يلوّح بيديه كأنه ينتزع شيئاً ويلقي

به بعيداً . . . ينتزعه من ذات نفسه. وراحت الأم تراقبه في ألمٍ وجزع، وهي تحسُّ شيئاً تحطم في داخله، وتحس أنه يتألم كثيراً بسببٍ ذلك. لقد غادرتها الآن أفكار الجريمة المظلمة الخطرة ـ فإذا كان فيزوفشيكوف لم يرتكبها فليس أحد من أصدقاء بافل الآخرين بقادر على ذلك. وجلس بافل مطرق الرأس يصغي إلى وابل الكلمات العنيف الدائب الذي ينهمر من الأوكراني كالسيل المدرار:

ـ أنت مضطر في بعض الأحيان إلى أن تحارب نفسك كي تستمرّ على السير قدماً. ينبغي أن تكون قادراً على إعطاء كل شيء. . . قلبك بأسره. وإنه لأمر سهل أن تهب حياتك فتموت من أجل القضية. . . ولكن عليك أن تعطي أكثر من ذلك أيضاً. . . ما هو أعزُّ من حياتك نفسها. وعندما تعطي ذلك تعرف كيف تنمو الحقيقة التي تناضل من أجلها قوة وبأساً. . . تلك الحقيقة التي هي أعزُّ شيء في العالم على قلبك!

وتوقف في وسط الغرفة، شاحب الوجه مغمض العينين نصف إغماضة، مرفوع الذراع في وعد مهيب:

ـ أنا أعلم أن يوماً سيأتي يعجب الناس فيه بعضهم ببعض، فيضحى كل واحد منهم كوكباً بالنسبة للآخرين! ويومذاك تكون الأرض آهلة بالبشر الأحرار، العظماء في حريتهم، وستصبح قلوب الجميع مفتوحة، ويكون كل قلب طاهراً من أدران الحسد والغيرة، بريئاً من الخبث. وعندئذ تتحول الحياة إلى تمجيد عظيم «للإنسان» الذي سترتفع صورته حتى السماء، لأن سائر القمم سهلة المرتقى على الإنسان الحر وعندئذ يعيش الناس في الحقيقة والحرية، يسعون وراء الجمال وحده، وسيكون أخيارهم أولئك الذين تملك قلوبهم قوة أعظم تضم إليها العالم كله وتحبه، أولئك الذين هم أكثر حرية لأن فيهم يقوم الجمال الأعظم! عندئذ تكون الحياة الجديدة عظيمة، وعظماء البشر الذين سيحيونها. . .

سكت برهة، ثم استقام وأضاف في صوت آتٍ من أعماق روحه:

ـ وفي سبيل تلك الحياة... أنا مستعد لكل شيء...

ومرت رعشة على وجهه، وانهمرت دموع كثيرة ثقيلة فوق خديه.

رفع بافل رأسه، شاحب الوجه، ينظر إليه متسع العينين؛ وهبّت الأم عن مقعدها وقد ثار في قلبها قلق غريب مظلم، راح يعظم وينمو باستمرار.

سأل بافل في همس خافت:

ـ ما بالك، يا أندريه؟

فهز الأوكراني رأسه، وتعالى بجسده حتى أقصى ما يستطيع، وتفرس في الأم بنظرات مستقيمة:

ـ لقد رأيت كيف حدث ذلك... أنا أعرف...

فاندفعت إلى الأمام وأمسكت بيديه، فجرب أن يحرر اليمنى من قبضتها، بيد أنها تعلقت بها بكل قواها وهي تقول همساً منفعلاً:

ـ صه! أواه، يا عزيزي، يا صغيري العزيز...

فغمغم الأوكراني في نبرة جشاء:

ـ انتظري لحظة، وسأروي لك كيف كان ذلك...

فهمست، وهي ترمقه من خلال دموعها:

ـ كلا، لا تفعل، يا أندريوشا...

دنا منه بافل متماهلاً شاحب الوجه، رطب العينين أيضاً. قال بصوت خفيض، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ أمي تخاف أن تكون أنت القاتل...

ـ لست... بخائفة! أنا لا أصدق ذلك! ولن أصدقه وإن رأيته بأمّ عينيّ!

فقال الأوكراني، وهو يلوي رأسه ويحاول من جديد أن يحرر يده:

ـ انتظري لحظة... لم أكن أنا، إنما كان في مقدوري أن أحول دونه...

فقال بافل:

ـ إخرس، يا أندريه!

وأمسك يد صديقه بإحدى يديه، ووضع اليد الثانية على كتفه، وكأنه يريد أن يهدىء ارتعاش ذلك الجسد المديد. لكن أندريه التفت إليه، وقال متكسر الصوت خافته:

ـ أنت تعلم، يا بافل، أني لم أطلب ذلك ولا كنت أريده، ولكن إليك كيف جرى: عندما مضيت أنت في طريقك ولبثت أنا مع دراجونوف في زاوية الشارع، وجاء أشعيا ووقف قريباً منا يراقبنا ويضحك ضحكة قصيرة، فقال دراجونوف: أنظر إليه، لقد ظل يتبعني طوال الليل، وسوف أضربه. ثم اتخذ وجهة بيته كما توهمت؛ عندئذ تقدم أشعيا مني...

وأرسل الأوكراني نفساً عميقاً:

ـ لست أعرف إنساناً أهانني كما فعل ذلك الكلب عندئذٍ.

جرّته الأم في سكون نحو المنضدة وأجبرته على الجلوس، ثم جلست إلى جانبه وكتفاهما متلامستان، فيما ظلّ بافل واقفاً، بائساً معذباً، يعبث بلحيته.

ـ قال لي إنهم يعرفون كل أسمائنا، وإننا جميعاً مسجلون في قوائم الدرك، وإننا سنُعتقل بالضبط قبل احتفالنا بأول أيار. ولم أحر جواباً، بل ضحكت منه وأنا أغلي وأفور. وانهمر يقول إني شاب ذكي، وإني أخطىء في اختيار تلك الطريق، وإنه من الأفضل أن...

وسكت، وراح يمسح وجهه بيده اليسرى، وفي عينيه بريق جاف.

قال بافل:

ـ إني أفهم!

ـ إنه من الأفضل أن أخدم القانون!

وهزّ الأوكراني قبضته، وغمغم من خلال أسنانه المنطبقة:

ـ القانون ـ لعن اللّه روحه! كان الأفضل أن يصفعني على وجهي ـ

إذن كان ذلك أيسر لي، وله أيضاً. لقد طفح الكيل بالنسبة إليَّ عندما بصق في قلبي بصقته المنتنة تلك.

وانتزع أندريه يده من يد بافل بحركة عنيفة مضطربة، واسترسل يقول في صوت خفيض يطفح نفوراً:

ـ صفعته ومضيت. ثم سمعت دراجونوف يقول ورائي في صوت خافت: «لقد أمسكتُ بك أخيراً». لا ريب أنه كان ينتظر عند زاوية الطريق.

وصمت الأوكراني برهة، ثم عاد يقول:

ـ ولم التفت... رغم إحساسي أنه... وسمعت اللطمة... ولكني تابعت طريقي هادئاً وكأنني دست على ضفدعة حقيرة. وجاؤوا يصيحون أثناء العمل: لقد قتلوا أشعيا. لم أصدق ذلك، بيد أن ذراعي جعلت تؤلمني حتى شعرت أن يدي تزعجني. لم تؤلمني بالضبط، بل أحسست بها قصرت...

وألقى على يده نظرة خاطفة:

ـ أعتقد أني لن أستطيع، طوال حياتي، غسل هذه اللطخة...

فقالت الأم في صوت مهموس:

ـ الشيء المهم هو أن قلبك طاهر، يا عزيزي!

فقال الأوكراني في عزم:

ـ لست ألوم نفسي من أجل ذلك ـ أوه كلا! ولكن هذا يثير الاشمئزاز، ولم تكن بي حاجة لأن أندسّ فيه.

وقال بافل، وهو يهزُّ كتفيه:

ـ إني لا أفهمك! فأنت لم ترتكب الجريمة، ولكنك لو فعلت...

ـ إسمع، يا أخي. هبْ أنك عرفت أن جريمة قتل سترتكب ولم تفعل شيئاً للحيلولة دونها...

فأصرّ بافل يقول:

ـ إني لا أفهم. على الاطلاق...

فكر برهة ثم أضاف:

ـ أو لعلي أفهم، ولكني لا أحسُّ ذلك.

دوّت الصفارة، فأصاخ الأوكراني السمع إلى النداء العاتي وهو يميل رأسه إلى جانب، ثم تململ على كرسيه، وزمزم:

ـ لن أعود إلى العمل...

فتأثره بافل:

ـ ولا أنا أيضاً.

وقال الأوكراني، وهو يرسل ضحكة قصيرة:

ـ أنا ذاهب إلى الحمام!

وبدأ يجمع ثيابه في صمت وبسرعة، وغادر الدار محطم النفس.

شيّعته الأم بنظرة إشفاق، وقالت بعد خروجه:

ـ قل ما بدا لك أن تقول يا بافل، فأنا أعلم أن قتل الإنسان خطيئة، ولكني لا أعتبر أحداً مذنباً على الاطلاق. وإني أرثي لأشعيا، فقد كان رجلاً متداعياً منحلاً. عندما نظرت اليه اليوم تذكرت كيف هدّد وتوعد بشنقك، لكن ذلك لم يدفعني إلى الحقد عليه أو الفرح لموته. لقد رثيت له بكل بساطة. وأنا الآن... إني لا أحسُّ حتى الاشفاق...

أمسكت عن الكلام برهة واستغرقت في التفكير قبل أن تضيف، وعلى شفتيها ابتسامة دهشة وعجب:

ـ يا إلَهي! هل سمعت ما أقول، يا باشا؟

لم يسمع ذلك فيما يبدو لأنه أجاب مكتئباً، وهو يذرع الغرفة رائحاً غادياً:

ـ تلك هي الحياة لك! أرأيت إليهم كيف أثاروا الناس ضد بعضهم بعضاً؟ ها أنت تضربين شخصاً دون أن تريدي ذلك. ومن هو الذي تضربين؟ مخلوق مسكين لا يملك من الحقوق أكثر مما تملكين. لا بل إنه أكثر بؤساً منك في هذا المضمار، لأنه أحمق غبي. الشرطة والدرك والجواسيس جميعاً أعداء لنا، ولكنهم جميعاً أناس مثلنا، امتُصّت

دماؤهم كما امتصت دماؤنا، وجُرِّدوا من كل صفة إنسانية مثلما جردنا نحن أيضاً. حالتنا وحالتهم، في كل شيء، سواء. لكنهم أثاروا فئة ضد أخرى، وأعموا بصائرهم بالخوف والجهل والهراء، وأوثقوا أيديهم وأرجلهم، وراحوا يضطهدونهم ويمتصون دماءهم ويدفعونهم لأن يضربوا ويسحقوا بعضهم بعضاً. لقد أحالوا الناس بنادق وهراوات وحجارة وقالوا: هذه هي الدولة.

واقترب من أمه، وتابع:

- ذلك إجرام، يا أماه! إنه أبشع قتل لملايين الناس! إنه مجزرة النفوس الإنسانية... هل تفهمين؟ إنهم قتلة النفوس! هل تدركين الفارق بينهم وبيننا؟ إنه يضرب شخصاً ما، وهذا مخجل مؤلم مقرف قبل كل شيء. أما هم فيقتلون ألوف الناس بهدوء دون رحمة أو تأنيب من ضميرهم، لا بل في فرح ورضىً أيضاً! إن ما يدفعهم إلى اضطهاد الناس حتى الموت هو الاحتفاظ بفضتهم وذهبهم وأوراقهم المالية الحقيرة وكل ذلك المتاع البائس الذي يمكنهم به الاحتفاظ بالسلطة على الناس. فكري في ذلك جيداً... إنهم لا يدافعون عن حيواتهم عندما يقتلون الناس ويشوِّهون أرواحهم... ليس في سبيل ذواتهم، بل في سبيل ممتلكاتهم يفعلون ذلك. إنهم لا يدافعون عما في داخلهم، بل عما في الخارج منهم...

وأخذ يديها بين يديه وانحنى عليهما يضغطهما بين أصابعه، وهو يقول:

- إن كنت تدركين ما في ذلك من قرف، ما فيه من نتانة مخجلة، فستفهمين الحقيقة التي من أجلها نناضل، وسوف ترين ما أروعها وأعظمها!

نهضت الأم شديدة الانفعال، تملؤها الرغبة في أن تذيب قلبها مع قلب ابنها في شعلة براقة واحدة.

غمغمت لاهثة الأنفاس:

ـ تمهَّل قليلاً، يا بافل، تمهل قليلاً! إني أستطيع أن أحس ذلك ـ تمهل قليلاً!

25

دنا شخص من الباب الخارجي مثيراً ضوضاء صاخبة، فأجفل كلاهما وحدَّق أحدهما في الآخر.

فتح الباب في بطء، ومنه دلف ريبين. قال، وهو يرفع رأسه مبتسماً:

ـ ها أنا ذا! إن توما المرتاب، وفياً لعهده، يسافر هنا وهنالك، ويدسّ أنفه في كل مكان!

كان يرتدي معطفاً من جلد الخراف ملطخاً بالقطران، ينتعل حذاء مصنوعاً من ألياف البتولا ويغطي رأسه بقبعة شعثاء، وقد علَّق في حزامه زوجاً من القفازات السوداء.

ـ كيف حالكما؟ وهكذا إِذن أطلقوا سراحك، يا بافل؟ كيف أنت، يا بيلاجيا نيلوفنا؟

وعرَّى أسنانه البيض في ابتسامة عريضة، وقد أصبح صوته أكثر لطفاً، ووجهه أكثر اكتساء بلحيته الثقيلة.

كانت الأم سعيدة برؤيته، فذهبت إليه وتناولت يده الكبيرة المسودّة. قالت، وهي تأخذ نفساً عميقاً من رائحة القطران الصحية الحادة:

ـ يا إلهي! كم أنا سعيدة برؤيتك!

وقال بافل مبتسماً، وهو ينظر إلى ريبين:

ـ إليكِ هذا الفلاح!

فخلع الضيف ثيابه عنه ببطء، وهو يقول:

ـ حسناً، فإني أصير فلاحاً من جديد. أنتم تصبحون مثل السادة أكثر فأكثر، بينما أسير أنا في الاتجاه المعاكس!

وطفق يتمشى في الغرفة يراقبها باهتمام وهو يصلح من شأن قميصه القطني المتعدد الألوان.

ـ لا جديد هنا سوى الكتب. حسناً، حدثاني عن كل شيء!

جلس وقد بدَّ ساقيه، وأمسك ركبتيه بكلتا يديه يتفحص وجه بافل بعينيه السوداوين، ويبتسم في انتظار الجواب.

قال بافل:

ـ كل شيء رائع هنا!

فضحك ريبين، وقال مازحاً:

ـ إننا نحرث ونبذر ونراقب الزرع كيف ينمو، ثم نحصد قمحنا ونطحنه وننام بقية السنة مرتاحي البال... هكذا تجري الأمور، أليس كذلك، يا صديقي؟

فسأل بافل، وهو يجلس قبالته:

ـ حدثنا كيف تسير بك الأمور، يا ميخائيل إيفانوفيتش؟

ـ إنها تسير على ما يرام. أنا أعيش على ييجلدييفو ـ هل سمعت عنها قط؟ ييجلدييفو ـ هي قرية جميلة، تقيم سوقين في العام ولا يزيد عدد سكانها عن الألفين، وهم إلى ذلك معشر خبيث. لا يملكون أرضاً بل يضطرون إلى استئجارها... ويا لها من أرض فقيرة! لقد استأجرني أحد الأغنياء هناك ـ والمكان مليء بهم مثل امتلاء الجثة بالديدان، وأنا أحرق الفحم وأصنع منه القطران ولا أكسب إلا ربع ما كنت أكسب هنا وألاقي من العناء ضعفين. تلك هي القضية! نحن سبعة نعمل من أجله، ذلك الغني، والجميع شبان طيبون، في ميعة العمر، وكلهم أبناء القرية ما عداي، وسائرنا نعرف كيف نقرأ ونكتب. وإن أحدهم، ويدعى ييفيم، فتى كثير الهيجان حتى لا أدرك ما أفعل به.

وسأل بافل في لهفة:

ـ وكيف تعمل معهم، أتخوض نقاشاً وإياهم؟

ـ أني لا أحتفظ بلساني مقيداً. وقد أخذت معي كل منشوراتكم،

أربعة وثلاثين منشوراً. ولكنني أستعين بالتوراة في أغلب الأحايين. ثمة أشياء كثيرة يستطيع المرء أن يستخرجها من التوراة، وهي كتاب ثخين الحجم، ورسمي أيضاً، قام بطبعه المجمع المقدس. إنك تستطيع أن تمنحه ثقتك، ذلك الكتاب!

ضحك ضحكة قصيرة، وهو يغمز بافل بعينه...

ـ سوى أن هذا لا يكفي على أية حال. لقد جئت أطلب كتباً منك. ونحن اثنان... إذ أن ييفيم ذلك يقف في صفي. لقد أرسلونا بحملٍ من القطران، فاكتسبنا الفرصة وقمنا بدورة صغيرة، وها نحن هنا! أعطني الكتب قبل أن يأتي ييفيم هذا... فليس من المستحسن أن يعرف أشياء كثيرة...

نظرت الأم إلى ريبين وخيل إليها أن شيئاً آخر فيه، إلى جانب ثيابه، قد تبدل. فحركاته أصبحت أقل ثقلاً وهيبة، ونظرته تبدو أكثر مكراً ودهاء، وعيناه أقل صراحة مما كانتا عليه.

قال بافل:

ـ أماه. هلّا ذهبت لإحضار الكتب؟ القوم هناك يعرفون أياً منها، قولي لهم إنها ستوجه إلى الريف.

فقالت الأم:

ـ حسناً، سأذهب حالما يغلي السماور!

وضحك ريبين، وقال:

ـ وأنت أيضاً تشتركين في هذا العمل، يا بيلاجيا نيلوفنا؟ حسناً، ثمة عدد كبير يريدون كتباً، وهذا من عمل الأستاذ المحلي. يقال إنه شاب طيب، رغم انحداره من الاكليروس. وهناك أيضاً معلمة تبعد عنا حوالى سبعة فراسخ. ولكنهما لا يقرآن الكتب الممنوعة، يخافان لأن عملهما عمل رسمي. أما أنا فلي حاجة إلى الكتب الممنوعة، كتب فيها بعض الفلفل اللاذع، وسأوزعها سراً كأنني أعمل باسمهما... فإذا وقع عليها

مفتش البوليس أو الكاهن لم يتهما بها أحداً سوى المعلمين. أما أنا فأبقى جانباً لوقت معين.

وكشَّر مبتسماً راضياً عن دهائه ومكره.

وفكرت الأم:

«آها! إنك تشبه الدب في مظهرك، ولكنك ثعلب في حقيقتك...».

وسأل بافل:

- إذا اشتبهوا في أن المعلمين ينشران مطبوعات غير مشروعة، أفلن يلقوا بهما في السجن؟

- بكل تأكيد، وماذا في ذلك؟

- ولكن المذنب هو أنت... لا هما... فأنت إذن من يجب أن يذهب إلى السجن...

فابتسم ريبين، وقال وهو يضرب ركبتيه بيديه:

- أنت غريب الأطوار حقاً! إن أحداً لن يشتبه بي. الفلاحون لا يصلحون لمثل هذه الأمور. الكتب من شأن الأسياد وحدهم، والأسياد هم المسؤولون عنها...

وأحست الأم أن بافل لم يفهم ريبينِ، إذ لمحته يضيِّق عينيه مما يدل على غضبه. قالت في حذر ورقة:

- إن ميخائيلو إيفانوفيتش يريد إنجاز العمل بنفسه، ولكنه يريد من الآخرين تحمُّل المسؤولية...

فقال ريبين، وهو يمشط لحيته:

- ذلك صحيح، في الوقت الحاضر على الأقل.

وقال بافل في جفوة:

- أماه! لو أن أحداً من فتياننا، أندريه مثلاً، اختبأ وراء ظهري وهو يفعل شيئاً يلقون بي من أجله في السجن، فماذا يكون شعورك؟

فأجفلت الأم، ونظرت اليه في ذهول، وسألت وهي تهز رأسها:

- وكيف يستطيع المرء خداع رفيقه على هذا الشكل؟

فجمجم ريبين متشدقاً:

ـ آه! لقد فهمتك، يا بافل!

استدار نحو الأم، وهو يطرف بباصرتيه في خُيَلاءٍ وعجرفة:

ـ هذه قضية دقيقة جداً، يا أماه!

وعاد يلتفت إلى بافل من جديد، وهو يقول في لهجة واعظة:

ـ أفكارك لما تنضج، يا أخي! ليس للشرف مكان عندما تتعلق الأمور بالعمل السري غير المشروع... أحكم على ذلك بنفسك. إن أول شخص يُلقى به في السجن هو ذلك الذي وُجد الكتاب معه، لا المعلم... هذا أولاً. ثم إن المعلمين، وإن كانا يقرآن كتباً مسموحاً بها ليس غير... فإن الأفكار التي يذيعانها هي نفسها ـ والكلمات وحدها تختلف... إنها أقل صدقاً وحقيقة. هذا ثانياً. وبكلمة مختصرة، هما يتوخيان نفس الغاية التي أتوخاها أنا، إلا أنهما يسلكان سبيلاً ملتوياً بينما أذهب أنا في الطريق القويمة. ونحن جميعاً، في نظر الرؤساء نستحق اللوم الشديد. أليس كذلك؟ والأمر الثالث هو أني لا أعبأ بهما أبداً، يا أخي! إن فرق المشاة لن تصادق الخيالة. ولعلي لا أفعل الشيء ذاته مع فلاح أبداً. أما هما ـ فإن أحدهما ابن كاهن، والثانية ابنة ملاك أرض ـ فماذا يدعوهما إلى تحريض الشعب؟ لا يهمني، أنا الفلاح، أن أقرأ أفكارهما. فأنا أعرف ما أفعل، وليست عندي أية فكرة عما يسعيان، هما، وراءه. لقد ظل الأسياد آلاف السنين في أماكنهم الخاصة يسلخون الجلد عن ظهور الفلاحين، أما الآن فهم يستيقظون بغتة ويشرعون يرفعون العصابات عن عيون الفلاحين بذات أيديهم. وأنا لست من الذين يؤمنون بأقاصيص الجنيات. ولكن هذا كله يشبه إحدى هذه الأقاصيص إلى درجة بعيدة. فبيني وبين أسيادك هؤلاء مسافة شاسعة. ذلك أشبه ما يكون بحالك عندما تجتاز الحقول في الشتاء. إنك ترى، على حين غرة، شيئاً يندفع عبر الطريق إلى الأمام منك. ما هو؟ ذئب أم

ثعلب أم مجرد كَلب ليس غير؟ لست تقدر أن تعين هويته، فهو بعيد عنك كل البعد.

واختلست الأم النظر إلى ابنها. كان يبدو شقياً بائساً.

برقت عينا ريبين بنورٍ وهو يراقب بافل راضياً عن نفسه، ويمشط لحيته بأصابعه في عصبية ظاهرة. تابع حديثه قائلاً:

ـ ليس لي الوقت لتبادل المجاملات، فالحياة شاقة. وعصبة من الكلاب ليست بقطيع من الغنم... فكل كلبٍ يعوي على طريقته الخاصة...

وقالت الأم، ممعنة التفكير في وجوه مألوفة لديها:

ـ لكن ثمة أسياداً يلقون الموت في سبيل عامة الناس، ويقضون سنيَّ حياتهم في السجون...

ـ هؤلاء من طبقة خاصة إذن ويستحقون الاحترام والتقدير. الفلاح يثري فيرتفع إلى طبقة الأسياد، والسيد يفتقر فينزل إلى مصاف الفلاحين. وإذا كانت اليد قصيرة، فالقلب طيب بكل تأكيد. أتذكر، يا بافل، يوم أوضحت لي ذات مرة كيف يقرّر أسلوب المرء في الحياة طريقتَهُ في التفكير؟ إذا العامل قال: نعم؛ قال مديره: لا! وإذا العامل قال: لا، قال مديره: نعم، وفقاً لطبعه. وهناك ذات الفرق بين الفلاح والملّاك، فإن معدة السيد تصاب بسوء الهضم إذا وجد الفلاح يحصل على كفايته من الطعام. وطبيعي أن يكون لكل طبقة أنذالها، وأنا لا أدافع عن سائر الفلاحين دون استثناء...

ونهض على قدميه، قوياً، قاتماً، ممتقع الوجه، وراحت لحيته ترتعش وكأن أسنانه تصطك دون ضوضاء؛ وتابع في صوت أقل خفوتاً منه قبلاً:

ـ لقد همت على وجهي من مصنع إلى مصنع طوال خمسة أعوام، فنسيت كيف تكون حياة القرية. وعندما عدت إليها وألقيت عليها نظرة، أدركت أني لا أستطيع أن أعيش هكذا أبداً! هل تفهم؟ إني لا أستطيع

ذلك! عندما يعيش المرء ههنا فهو يعجز عن رؤية الشر هناك. وهناك يخيم الجوع على الناس وكأنه ظل لهم، وليس من أمل في الحصول على الخبز، ليس من أمل إطلاقاً! الجوع يبتلع أرواحهم ويشوه الوجوه البشرية منهم. إنهم لا يعيشون، أولئك الناس؛ إنهم يتفسخون فقط وسط حاجة لا يوجد سبيل إلى الخلاص منها... بينما تقف السلطات لهم بالمرصاد كالغربان لتمنعهم من وضع أيديهم على قطعة زائدة من هذا الشيء أو ذاك، فإذا فعلوا اختطفوها منهم وأعطوهم بدلها لطمة على الوجه...

وجال ريبين بنظراته فيما حوله، ثم مال نحو بافل مستنداً بيده على المائدة، وتابع:

- لقد تقززت نفسي عندما رأيت تلك الحياة من جديد، وفكرت أنني لن أستطيع لها احتمالاً، ثم قلت في نفسي: كلا، ينبغي لك ألا تنهزم، بل أن تبقى وتقاوم! لعلك لا تستطيع أن تعطيهم خبزاً، ولكنك تستطيع أن تجهز طبخة جيدة. إني أطبخها بالتأكيد! وقلبي يحترق بالحقد على الناس والاشفاق عليهم. وهذا الحقد وهذا الاشفاق ما يزالان هناك، يحفران في قلبي وكأنهما مدية مدببة.

واقترب من بافل ببطء، والعرق يتصبب على جبينه، وألقى بيده المرتجفة على كتفه قائلاً:

- إني بحاجة إلى معونتك! أعطني كتباً من ذلك النوع الذي يذهب بنوم الإنسان طوال ليال عديدة إذا قرأها مرة. إننا بحاجة لأن نضع قنفذاً في قحفهم، قنفذاً أشواكه حادة! قل لأولئك في المدينة الذين يكتبون لكم أن يكتبوا شيئاً للقرية أيضاً! فليكتبوا حتى يصبح للأحرف ضجيج، وحتى يذهب الناس إلى حتفهم في سبيل القضية!

ورفع ذراعه وراح يقول بصوت أجش، وهو يلفظ كل كلمة على حدة، وبصورة شديدة الوضوح:

- الموت سيسحق الموت، وبكلام آخر: مُتْ كي يُبعث الشعب.

وليمت الألوف منا كي يبعثوا ملايين الناس في العالم كله، تلك هي القضية! الموت أمر سهل... في سبيل قضية الانبعاث، في سبيل قضية الشعب القائم من الموت!

حملت الأم السماور وبدأت تختلس النظر إلى ريبين، شاعرة بالانسحاق تحت ثقل كلماته وعنفها. ثمة شيء فيه يذكّرها بزوجها. لقد كشَّر زوجها عن أسنانه بذات الطريقة، وهزَّ ذراعيه بذات الأسلوب وهو يطوي أكمام قميصه، ولقد كان يملؤه ذات الغضب ـ الهلع ـ كان غضبه هلِعاً لا يجد له تعبيراً، فيما هذا الرجل يعطي لمشاعره تعبيراً واضحاً، وهذا ما يجعله أقل إرهاباً.

قال بافل، وهو يهز رأسه:

ـ يجب أن نحقق ذلك! أعطنا المعلومات، ونحن نصدر صحيفة خاصة بكم...

ابتسمت الأم وهي تنظر إلى ولدها، ثم ارتدت ثيابها، صامتة لا تنبس ببنت شفة، وبرحت الدار.

صاح ريبين:

ـ حسناً، سنزودّكم بكل شيء! اكتبوا ببساطة كي يستطيع، حتى العجول، أن يفهموا أيضاً!

وفُتح باب المطهى، ومرَّ منه شخص ما.

قال ريبين، وهو ينظر إلى المطهى:

ـ هذا يفيم! تعال هنا، يا يفيم. ما هو ذا ـ يفيم ـ أما هذا فيدعى بافل، ولقد حدثتك عنه.

وقف تجاه بافل فتى طويل القامة، أشقر الشعر، عريض الوجه، رمادي العينين، يتوشّح معطفاً قصيراً من فرو الغنم ويمسك قبعته بيديه، وراح يتطلع إلى بافل من تحت حاجبيه المنخفضين. كان مظهره يوحي بأنه شديد البأس صنديذي القوة.

قال في صوت فظ أبح:

ـ مرحباً!

صافح بافل، ثم أرسل كلتا يديه في شعره الأملس، وجال بعدئذ في الغرفة حتى إذا وقع بصره على الكتب مال يتجه نحوها في تمهلٍ ورويّة.

قال ريبين، وهو يغمز بافل بطرف عينه:

ـ لقد وجدها!

فاستدار ييفيم وحملق فيه، وبدأ يتفحص الكتب. هتف:

ـ ما أكثر ما عندك للقراءة! لا ريبة أنك لا تلقى متسعاً من الوقت لذلك. لو كنت تعيش في القرية لوجدت فراغاً أكبر للقراءة...

واستفهم بافل:

ـ ولكن رغبة أقل؟

فأجاب الفتى، وهو يداعب ذقنه:

ـ ولِمَ؟ بل رغبة عظيمة أيضاً! لقد بدأ الناس يحثون أدمغتهم. «جيولوجيا». ما معنى هذا؟

فأوضح بافل له ذلك.

قال الفتى، وهو يردُّ الكتاب إلى مكانه على الرف:

ـ نحن لسنا في حاجة إلى هذا!

وقال ريبين، متنهداً بصوت مسموع:

ـ الفلاح لا يعبأ بأصل الأرض ومنشئها، وإنما تقسيمها يثير اهتمامه قبل كل شيء، وكيف سرقها الملاكون منه. وسواء لديه إن كانت تدور حول نفسها أو كانت ثابتة، بل فلتثبت تحت أقدامه ما دامت تعطيه قمحاً وخبزاً، ولتسمّر في المساء إذا أعطته الجاودار!

وقرأ ييفيم:

ـ «تاريخ العبودية». أهو يبحث عنا؟

فأجاب بافل، وهو يناوله كتاباً آخر:

ـ هذا يتحدث عن نظام العبودية في روسيا!

أخذ يفيم الكتاب، وقلَّبه بين يديه، ثم قال في هدوء وهو يضعه جانباً:

ـ هذه أمور تتعلق بالماضي!

سأله بافل:

ـ هل تملك أرضاً خاصة بك؟

ـ بكل تأكيد! اخواي وأنا نملك أربعة هكتارات من الأرض، رمل كلها، تصلح لتنظيف النحاس ولا تفيد شيئاً للزراعة!

وتابع بعد برهة من الصمت:

ـ ولقد تركت الأرض، فما الفائدة منها؟ إنها لا تطعمك، بل تربطك بها. ومنذ أربع سنوات وأنا أعمل في مزارع الآخرين، وسأقوم بخدمتي العسكرية في الخريف المقبل. والعم ميخائيلو يقول ألا أتقدم إليها، ويقول إنهم يرسلون الجنود ليجلدوا الشعب في هذه الأيام. ولكني أعتقد إنني سأذهب، فالجنود كانوا يضربون الشعب أيام ستيبان رازين وبوغاتشيف أيضاً، ولقد آن الأوان كي نبدِّل الأمور. ما رأيك؟

وجَّه إلى بافل هذا السؤال وهو يحدجه بنظرات مستفسرة، فأجاب بافل مبتسماً:

ـ بلى، لقد حلَّ الأوان، لكن ذلك ليس بالأمر السهل! يجب أن تعلم ماذا تقول للجنود وكيف تقوله...

فقال يفيم:

ـ سنتعلم!

فلاحظ بافل، وهو يرمق يفيم بنظرة فضولية:

ـ وإذا اكتشفت السلطات ذلك، فسوف يرمونك بالرصاص!

فوافق الفتى في هدوء، وهو يعود إلى استكشاف الكتب:

ـ لست أنتظر منها هذه الرحمة!

وقال ريبين:

ـ إشرب الشاي، يا يفيم، فلا مناصَ من الذهاب عما قريب!

ـ حسناً! هل الثورة... عصيان؟

ودخل أندريه، أحمر الوجه، ساخن الجسد بعد الحمام، وتعلو وجهه مسحة كئيبة أسوانة. صافح يفيم في صمت، ثم جلس إلى جانب ريبين وأرسل ضحكة قصيرة وهو يتفحصه.

سأل ريبين، وقد ضربه على ركبته:

ـ ما بالك؟ لمَ هذا الاكتئاب؟

فأجاب الأوكراني:

ـ لا شيء بالتحديد.

واستفهم يفيم، مشيراً برأسه إلى أندريه:

ـ أهو عامل أيضاً؟

فرد أندريه:

ـ نعم، ولمَ السؤال؟

فقال ريبين موضحاً:

ـ إنه لم يرَ من قبل عاملاً في مصنع قط. وهو يجد هؤلاء العمال ذوي شأن خاص...

واستعلم بافل:

ـ بأي معنى؟

فأعلن يفيم مجيباً، بعد أن درس أندريه ملياً:

ـ عظامكم مستدقة، أما عظام الفلاح فأكثر استدارة...

وأضاف ريبين:

ـ إن الفلاح يقف بثبات أكبر! إنه يحسُّ الأرض تحت قدميه، وإن لم تكن ملكه. إنه يحسُّها... الأرض! أما عامل المصنع فأشبه بالعصفور ـ لا يملك موطناً ولا بيتاً ـ هو اليوم ههنا، أما في الغد فيذهب إلى مكان آخر! والمرأة نفسها لا تتمكن من ضبطه في بقعة واحدة، فلا تكاد الأمور تسوء حتى يُودِّعها... وينطلق سعياً وراء ما هو أفضل. أما

الفلاح فيريد أن يجعل الأمور أفضل حوله دون أن يبرح مكانه. هذه هي أمك عادت!

وسأل ييفيم مقترباً من بافل:

ـ أتريد إعارتي كتاباً من كتبك هذه؟

فجهر الآخر بطيبة خاطر:

ـ بكل تأكيد!

فالتمعت عينا الفتى في لهفة وإشراق، وأسرع يؤكد لبافل:

ـ سوف أردُّه لك! إن رفاقنا ينقلون القطران دائماً إلى هذه الجهات، وسوف يحملونه إليك.

قال ريبين، بعد أن لبس فروته وحزمها جيداً:

ـ آن لنا أن نذهب!

وهتف ييفيم، وهو يشير إلى الكتب ويبتسم ابتسامة عريضة:

ـ أنظر، لقد أصبح لديَّ ما أقرأ!

بعد ذهابهما استدار بافل نحو أندريه في انفعال وهياج، وهتف:

ـ ما رأيك في هذين العفريتين؟

فقال الأوكراني متماهلاً:

ـ هِمْ... م م. مثل سحابتين تحملان العاصفة...

وقالت الأم:

ـ ميخائيلو؟ لكأنه لم يعمل في مصنعٍ قط ـ فلاح حقيقي، ومخيف جداً!

وقال بافل لأندريه، الذي جلس عند المنضدة وراح يحملق في قدح الشاي بين يديه عابساً:

ـ يؤسفني جداً أنك لم تكن هنا منذ البدء، إذن لألقيت نظرة على ما يجري في قلبه ـ فأنت تتكلم أبداً عن القلب البشري! لقد أطلق ريبين ههنا كثيراً من البخار حتى طرحني أرضاً وسحقني سحقاً، ولم أجد كلمة

واحدة أردُّ بها عليه... ما أقل إيمانه بالكائنات البشرية، وما أرخصها في نظره! إن أمي لعلى حق... إن قوة مخيفةً تملك هذا الرجل!

فأجاب الأوكراني في كآبة:

ـ أرى ذلك! لقد أفسدوا الناس! ويوم تثور الجماهير ستقلب كل شيء وتحطمه! إنهم يريدون الأرض العارية، وعارية سوف يجعلونها. إنهم سيدمرون كل شيء على الإطلاق!

كان يتكلم في رويَّةٍ، يتضح من حديثه، بجلاء أن فكره مشغول بشيء آخر. واقتربت الأم منه ولمسته في حنان قائلة:

ـ هدّىء من روعك، يا أندريوشا، واستعذْ صوابك!

فأجاب في هدوء وعطف كبيرين:

ـ رويدك لحظة، يا أُميمتي!

ثارت حمياه على حين غرة، فضرب المائدة بقبضة يده صائحاً:

ـ ذلك صحيح، يا بافل. الفلاح سيجرِّد وجه الأرض آونة ينهض على قدميه، ولسوف يحرق كل شيء ويذروه في الهواء، كما يحدث عقيب الطاعون، حتى يحيل رماداً كل آثار الأذى الذي تحمّل وقاسى...

فلاحظ بافل بصوت خافت:

ـ وعندئذٍ يقف في طريقنا.

ـ يعود إلينا كيلا نسمح بحدوث ذلك، يعود الأمر إلينا كي نلجم انطلاقه! نحن أقرب إليه من أي كائن آخر... ولسوف يثق بنا ويتبع خطانا!

قال بافل:

ـ لقد طلب ريبين أن نصدر صحيفة خاصة بالريف!

ـ هذا هو المطلوب حقاً!

فقال بافل، وهو يطلق ضحكة قصيرة:

ـ مما يؤسف له أني لم أتناقش وإياه في هذه القضية!

فأعلن الأوكراني في هدوء، وهو يرسل أصابعه بين خصل شعره:

ـ لم يزل لدينا الوقت الكافي لذلك. ما عليك إلا متابعة العزف على مزمارك، حتى ترقص الحانك أولئك الذين لم تُغرس أقدامهم في الأرض. لقد كان ريبين على حق عندما قال إننا لا نحسّ الأرض تحت أقدامنا، ويجب ألا نفعل لأن مهمتنا نهزّها هزاً قوياً شديداً. ولسوف نهزّها مرة فيفقد الناس مواقع أقدامهم... ثم نهزها مرة ثانية وثالثة!

فقالت الأم ضاحكة:

ـ كل الأمور بسيطة جداً بالنسبة إليك، يا أندريوشا.

فقال الأوكراني:

ـ بكل تأكيد، بسيطة مثل الحياة ذاتها.

وأضاف بعد عدة دقائق:

ـ إني خارج إلى نزهة في الحقول...

فنبرت الأم تحذّره:

ـ بعد الحمام؟ الريح تعصف شديدة، وسيصيبك برد!

فأجاب:

ـ إني لفي مسيس حاجة إلى بعض ابتراد لأفكاري!

وقال بافل في عطف:

ـ احترس من البرد. من الأفضل أن تغفو قليلاً.

ـ كلا، بل سأذهب.

ارتدى ثيابه، وخرج دون أن يقول شيئاً...

قالت الأم، وهي تتنهد:

ـ إنه يتألم كثيراً مما حدث!

ـ أني لسعيد إذ أصبحت أكثر حدباً عليه منذ حدوث ذلك.

ـ أحقاً؟ لم الحظ هذا. لقد أصبح عزيزاً جداً عليّ حتى لا أدري كيف اعبّر عن حبي.

فجهر بافل في لطف ورقة:

ـ إن لك قلباً لطيفاً، يا أماه!

ـ ليتني أستطيع أن أساعدك ـ وأساعد أصدقاءك أيضاً ـ ولو قليلاً... بل ليتني أعلم كيف أفعل ذلك.

ـ لا تقلقي، سوف تتعلمين!

فقالت، وهي ترسل ضحكة قصيرة خافتة:

ـ آه، لو كنت أتعلم فقط... كيف لا أقلق.

ـ حسناً، يا أماه، الأفضل أن ندع هذا الحديث. ولكن تذكري شيئاً واحداً... وهو أني ممتن لك كثيراً... كثيراً جداً!

فهرولت إلى المطهى حتى لا تربكه دموعها.

كان الوقت متأخراً جداً عندما رجع الأوكراني متعباً منهكاً، فذهب إلى الفراش رأساً وهو يقول:

ـ من المؤكد أني مشيت حوالى عشرة فراسخ...

فسأله بافل:

ـ أخفف عنك ذلك؟

ـ صمتاً، فإني أريد أن أنام.

ولم يفه بعد ذلك ببنت شفة.

جاء فيزوفشيكوف بعد برهة قصيرة، رثّ الثياب، وسخاً، متبرماً كعادته أبداً، واستوضح بافل وهو يمشي في الغرفة روحة وجيئة بخطوات خرقاء:

ـ هل تعلم من قتل أشعيا؟

فأجاب بافل باقتضاب:

ـ كلا.

ـ لقد وُجِدَ شخص لم يقرف من ارتكاب ذلك. لقد كنت أنا، شخصياً، على استعداد للإجهاز عليه، وكان يجب أن أفعل هذا... كنت أليق الجميع به.

فقال بافل بلهجة ودية:

ـ دع عنك هذا الحديث، يا نيقولاي!

وأضافت الأم في حنان:

ـ كفاك مثل هذا الكلام! أنت تزمجر مثل الأسد وقلبك ممتلىء رقة وعذوبة، فلِمَ ذلك؟

كانت سعيدة برؤية نيقولاي في تلك اللحظة، بل بدا لها وجهه المجدور جذاباً لطيفاً.

قال نيقولاي، وهو يهزُّ كتفيه:

ـ لست أصلح كثيراً إلا لمثل هذه الأمور. إني أفكر دون انقطاع... أين هو مكاني؟ ليس لي مكان! أحتاج إلى الحديث مع الناس، وأنا لا أدري كيف أفعل ذلك. إني أفهم كل شيء... وأرى سائر الشرور التي قاسى منها البشر. ولكني لا أستطيع أن أعبر عن مشاعري في كلمات. لي روح خرساء...

عبر الغرفة حتى محاذاة بافل، وأطرق بعينيه إلى الأرض، وراح يقول بنغمة صبيانية تختلف الاختلاف كله عن لهجته المعتادة، وهو لا يبرح ينقر على المائدة بأصابعه:

ـ أعطوني عملاً ثقيلاً أقوم به، أيها الأخوان، فأنا لا أقوى على الاستمرار في العيش هكذا دون جدوى. أنتم جميعاً منهمكون في قضيتكم، وأنا أرى كيف تتطور، ولكن أقف في معزل ناءٍ عنها لا أفعل إلا نقل الجذوع والأخشاب. هذا لا يمنح المرء شيئاً يعيش من أجله. أعطوني عملاً شاقاً أقوم به.

فتناول بافل يده، وشدّه إليه قائلاً:

ـ حسناً!

وجاء صوت الأوكراني من وراء الستار

ـ سأعلّمك أن تصفَّ الأحرف في مطبعتنا، يا نيقولاي... ما رأيك في هذا؟

فذهب نيقولاي إليه، وقال:

ـ إذا علّمتني، قدّمت لك سكيني... هدية.

فصاح الأوكراني:

ـ إلى الجحيم أنت وسكينك!

وانفجر ضحكاً على حين غرة.

فألحّ نيقولاي قائلاً:

ـ إنها سكين جيدة!

وانثال بافل يضحك بدوره، فوقف نيقولاي في وسط الغرفة وقال:

ـ أتضحكان مني؟

فأجاب الأوكراني، وهو يقفز من سريره:

ـ بالطبع. استمعا إليّ، هيا بنا ننطلق في نزهة إلى الحقول. القمر رائع هذه الليلة... أفلا تريدان ذلك؟

فثنىّ بافل:

ـ إني أوافق.

وقال نيقولاي:

ـ وأنا أيضاً، فإني أحب سماع ضحكة الأوكراني...

فقال الأوكراني، وهو يبتسم:

ـ وأنا أحب رؤيتك تعدني بالهدايا.

وذهب إلى المطبخ يرتدي ثيابه، فقالت له الأم في تذمر ظاهر:

ـ إلبس ثياباً دافئة...

عندما خرج ثلاثتهم راحت تراقبهم من وراء النافذة، ثم نظرت إلى الأيقونات وغمغمت:

ـ أيها الرب العزيز، إرفق بهم... وأعنهم!

26

كرَّت الأيام مسرعة حتى لم تترك للأم فرصة للتفكير في عيد أيار، ولكنها كانت تحسُّ، حين تستلقي ليلاً في سريرها مجهدة من أعمال النهار الصاخبة المزعجة، ألماً يئيد على قلبها، فتعمل جهدها مفكرة:

«لو يأتي ذلك قريباً...»

وعند انبلاج الفجر كانت صفارة المصنع تدوي، فيتناول ابنها وأندريه طعام الفطور سريعاً ثم يغادرانها بعد أن يعهدا إليها بتنفيذ العديد من المهمات.

وينقضي النهار بطوله وهي تروح تغدو في أرجاء الدار كعصفور حبيس في قفص، تهيىء الغداء، وتغلي الغراء، وتحضر الحبر البنفسجي، وتستقبل أناساً مجهولين يسلمونها رسائل موجهة إلى بافل، ثم يختفون بعد أن يتركوها مصابة بعدوى انفعالهم وحماستهم.

في كل ليلة تقريباً، كانت نداءات موجهة للعمال تدعوهم للاشتراك في احتفال أول أيار تلصق على الجدران والأسيجة، بل وأبواب مركز الشرطة، وتثبت وجودها يومياً في المعمل، فإذا حلّ الصباح كان بعض رجال الشرطة يتجولون عبر الضاحية يصبّون الشتائم وينتزعون تلك النداءات؛ ولكن منشورات جديدة كانت تُبعثر في الشوارع، عند الظهيرة، تحت أقدام المارة.

وقدم من المدينة بعض رجال التحري، فاستقروا في زوايا الشوارع يراقبون وجوه العمال الذاهبين إلى بيوتهم والغادين منها بمرح خلال فرصة الغداء. وكانت جموع الناس تتمتع بما ترى من عجز الشرطة في تدارك الحالة، بل كان الشيوخ من العمال يبتسمون بدورهم وهم يقولون بعضهم لبعض:

ـ ألا انظروا إلى ما يصنعون!

وكانت جماعات من العمال تشاهد في كل مكان وهي تناقش النداء

في حماسة. إن الحياة لتصخب وتجيش، وتصبح أبعث على الاهتمام عند الجميع في هذا الربيع، لأنها تحمل إليهم دافعاً جديداً يتدفق بين جنباتهم. ولقد وجد بعض هؤلاء في ذلك ذريعة جديدة للغضب والنقمة، فإذا هم يكيلون الشتائم للمتمردين بصوت عالٍ رنان؛ وأحس آخرون أملاً غامضاً وجزعاً في الوقت ذاته؛ فيما البعض الآخر، وهم الأقلية، يتمتعون بلذة فائقة إذ يدركون أنهم قوة مسؤولة عن هذا التحفز عند الناس.

وكان بافل وأندريه لا يكادان يذوقان للنوم طعماً، فهما يأتيان البيت عند الفجر، شاحبين متعبين بُحّ صوتاهما. وكانت الأم تعلم أنهما يعقدان الاجتماعات في الغابة والمستنقع كما تعلم أيضاً أن كتائب من فرسان الشرطة تراقب ليلاً المنطقة المحيطة بالضاحية، وأن رجال التحري ينبثون في كل مكان ويضبطون العمال المنفردين ويفتشونهم، ويفرّقون أية جماعة من الناس يقعون عليها ويعتقلون البعض من حين لآخر. وأدركت أن ابنها وأندريه معرضان باستمرار لخطر الاعتقال، فتمنت لهما ذلك واثقة أنه يكون النصيب الأفضل.

ولسبب ما أسدل الستار على مقتل مراقب الدوام، فبعد أن تابعت الشرطة المحلية تحقيقها خلال يومين، واستجوبت عشرة من الناس، لم تلبث أن فقدت اهتمامها بالجريمة وأهملتها.

وقد عبّرت ماريا كورزونوفا، في حديث لها مع الأم، عن رأي الشرطة في الموضوع، إذ كانت طيبة العلاقات معهم مثلها مع سائر الناس. قالت:

ـ من الصعب معرفة القاتل، إذ صادف أشعيا حوالى مائة شخص ذلك الصباح، ومن بينهم تسعون على الأقل يتمنون قتله من صميم قلوبهم. منذ سبع سنوات وهو يسيء إلى الجميع على السواء...

تغير الأوكراني بشكل جلي ظاهر، فنحل وجهه، وترهل جفناه حتى غطيا نصفياً عينيه الجاحظتين، وبدت خطوط رفيعة تمتد من خيشوميه

حتى زاويتي فمه. أصبح أقل كلاماً عن الأمور المعتادة، وإن تضاعفت لحظات هيجانه وحماسته حيث يبعث في المستمعين إليه رؤاه عن مستقبل مشرق يظفر العقل فيه وتنتصر الحرية.

وحين مات الحديث عن مقتل أشعيا، قال وابتسامة اشمئزاز ارتسمت على شفتيه:

ـ إنهم لا يهتمون بالشعب، ولا بأولئك الذين كانوا يطلقونهم كالكلاب في أعقابنا. وهم لا يأسفون لخسارتهم يهوذا خدمهم باخلاص... بل يأسفون على أموالهم ليس غير...

قال بافل في حزم:

ـ كفى حديثاً عن هذا الموضوع يا أندريه!

فعقَّبت الأم بقولها:

ـ لقد تفتَّت الجذع المتعفن لدى اللمسة الأولى...

فأجاب الأوكراني مكتئباً:

ـ حقٌّ ما تقولين، ولكنه لا يعزي!

وأمسى يردد هذه الكلمات كثيراً، فإذا تفوه بها اتسعت الكلمات حتى أصبحت تعميماً موجعاً شديد المرارة.

... وأخيراً جاء اليوم المرتقب بفارغ الصبر. أول أيار.

دوَّت صفارة المعمل بعنف وتسلط كعادتها ذلك الصباح، فهبت الأم من فراشها، ولم يغمض لها جفن طوال الليل، وأضرمت النار في السماور الذي هيأته منذ العشية، وهمَّت أن تقرع باب غرفة الشابين كعادتها، لكنها فضلت ألا تفعل، فجلست إلى النافذة وقد اعتمدت وجهها على يدها وكأن أضراسها تؤلمها ألماً شديداً.

وسبح عبر السماء الزرقاء الشاحبة عنقود من السحب الوردية والبيضاء مثل سرب من طيور كبيرة أرعبتها صفارة المعمل، فراحت الأم تراقبها وتصغي إلى إفكارها الخاصة في الوقت ذاته. كان رأسها ثقيلاً جداً وعيناها جافتين ملتهبتين من عناء هذه الليلة، ومع ذلك فإن هدوءاً غريباً

يملأ نفسها، وقلبها يخفق في انتظام وسكينة، وذهنها يعمل جاهداً في أفكار بسيطة عادية:

«لقد بكَّرت في إشعال السماور ـ وسوف يتبخر الماء كلّه... إنهما مجهدان منهوكا القوى، فلينالا قسطاً أوفر من الراحة هذا الصباح...»

وأطل شعاع وليدٌ من الشمس يمرح من خلال النافذة، فمدَّت له يدها، حتى إذا جاء يستريح بدفء على جلدها مسحت عليه بيدها الأخرى وشفتاها تفتران عن ابتسامة لطيفة متأملة. ثم نهضت ونزعت عن السماور مدخنته، ومن بعدُ اغتسلت وهي تجهد ألا تثير ضوضاء وشرعت تصلي وهي ترسم إشارة الصليب دون انقطاع، وتحرك شفتيها في سكون. وبرق وجهها بضوء لامع، بينما حاجبها الأيمن يرتفع تارة ببطء، ويتداعى أخرى في وهن...

وجاء الصفير الثاني أقل ارتفاعاً وتسلطاً، يتماوج في لحنه الكثيف الرطب ارتعاش ضئيل، فيخيَّل للأم أن دويَّهُ دام مدة أطول من المعتاد.

وارتفع من الغرفة الثانية صوت الأوكراني العميق الواضح:

ـ أسمعت هذا، يا بافل؟

وتردد حفيف قدمين حافيتين لامسا الأرضية، ووصل إلى سمعها تثاؤب متطاول...

صاحت الأم:

ـ السماور جاهز!

فأجاب بافل مسروراً:

ـ إننا ناهضان في الحال!

وقال الأوكراني:

ـ الشمس تشرق، وفي السماء سحب تسبح. إننا لا نحتاج اليوم إلى السحب...

ودلف إلى المطبخ مشعث الشعر، منتفخ الوجه نعاساً، لكنه مبتهج النفس مرح الفؤاد. قال:

ـ أسعدتِ صباحاً، يا أميمة! كيف كان رقادك؟

فزرفت الأم إليه، وقالت خافتة الصوت:

ـ إمشِ إلى جانبه، يا أندريوشا!

فقال الأوكراني همساً:

ـ بكل تأكيد! تستطيعين التأكد، يا أميمة، من أننا سنمشي جنباً إلى جنب ما دمنا معاً.

وسأل بافل:

ـ بماذا تتهامسان، أنتما الاثنان؟

ـ لا شيء بالتحديد، يا باشا.

وأجاب الأوكراني، وهو يهمُّ بالاغتسال في الدهليز:

ـ إنها تنصحني بغسل وجهي جيداً لأن الفتيات سيتطلعن إليَّ هذا النهار!

وأنشد بافل بصوت خافت:

ـ «انهضوا إلى النضال، يا أيها العمال، انهضوا!»

ازداد الجو نوراً مع تقدم النهار، بينما هبَّت الريح تطرد السحب بعيداً. وهزّت الأم رأسها وهي تهيىء مائدة الإفطار، وتفكر في مبلغ الغرابة التي تحوط هذا كله: ها هما يضحكان ههنا ويتراشقان بالملائح في حين لا يدري أحد ماذا يقبع لهما في الانتظار بعد قليل. وإنها لتشعر، هي الأخرى، بالهدوء نوعاً ما، لا بل بالغبطة أيضاً.

قضيا على الطعام زمناً طويلاً يحاولان تخفيف حدة الانتظار. وكان بافل، كعادته، يحرك السكر في كأسه ببطء واعتناء بالغين، ويذرُّ الملح بصورة منتظمة على الخبز المفضل لديه، ألا وهو قشره. أما الأوكراني فكان يحرك قدميه تحت المائدة دون انقطاع، وهو لا يجد أبداً لقدميه وضعاً مريحاً ـ يراقب شعاعاً شمسياً يعكسه الشاي المتراقص في قدحه على الجدار والسقف. قال:

ـ عندما كنت صبياً في العاشرة من عمري خامرتني رغبة ملحّة في التقاط الشمس بكأسي، فأخذت قدحاً وأطبقت على بقعة من الشمس على الجدار ـ فإذا القدح يتحطم. وقد جرحت يدي وجُلِدْتُ بالاضافة أيضاً. وبعد أن جُلدت خرجت إلى الفناء فوقع بصري على الشمس في بركة موحلة، فأقبلت عليها أدوسها بقدميَّ بكل ما فيَّ من قوى. وواضح أن ثيابي كلها تلطخت، الأمر الذي استأهلت من أجله الجلد مرة ثانية... ما عساني أفعل؟ أمدّ لها لساني وأصيح فيها: ذلك لم يؤذني، أيتها الشيطانة الحمراء الرأس، ذلك لم يؤذني. وقد كان ذلك بعض المواساة لي.

وضحك بافل، وسأل:

ـ ولماذا أسميتها حمراء الرأس؟

ـ كان يقطن في الشارع، مقابل دارنا، حداد أحمر الوجه واللحية، وكان فتى رقيق القلب عذب النفس، فلاح لي أن الشمس تشبهه...

ولم تعد الأم تطيق مزيداً، فقالت:

ـ لِمَ لا تتحدثان عما ستقومان به اليوم؟

فقال الأوكراني في لطف:

ـ الحديث عما سبق واتخذ قرار بشأنه يزيد الأمور اختلاطاً ليس غير! وإذا حدث واعتقلونا جميعاً، يا أُميمة، فسيأتي نيقولاي إيفانوفيتش ويحدثك بما ينبغي أن تفعلي.

فقالت الأم، وهي تتنهد:

ـ حسناً.

وقال بافل حالماً:

ـ ما علينا لو خرجنا من البيت؟

فأجاب أندريه:

ـ الأفضل أن نبقى في الدار الآن. لِمَ نلفت أنظار الشرطة قبل الأوان؟ إنهم يعرفونك جيداً من دون ذلك!

وجاء فيودور مازين يعدو، مشرق الوجه، ملتهب الخدين، فحطمت حماسته المرحة عناء انتظارهما. قال:

ـ لقد بدأت الأمور تسير، والناس جميعاً في هياج، يخرجون إلى الشوارع بوجوه كالحة. وإن فيزوفشيكوف وفاسيا جوزيف وصمونيلوف يخطبون عند بوابات المعمل، وقد عاد كثير من العمال إلى دورهم. هيا بنا، لقد حان الوقت للذهاب، وقاربت الساعة العاشرة!

فقال بافل في حزم:

ـ إني ذاهب.

وقال فيودور:

ـ سترون كيف أن سائر العمال سيُضربون بعد الغداء.

وذهب يعدو.

قالت الأم في هدوء:

ـ إنه يلهب مثل شمعة في مهب الريح!

نهضت وهَبَتْ إلى المطهى لتبدل ثيابها.

ـ إلى أين الذهاب، يا أُميمة؟

فأجابت:

ـ معكما!

فشدَّ أندريه على شاربه وتطلع إلى بافل، فأرسل الأخير أصابعه بسرعة في شعره وذهب إليها:

ـ لن أقول لك شيئاً، يا أماه، وأنت... لا تقولي لي شيئاً... هل اتفقنا؟

فغمغمت:

ـ اتفقنا، اتفقنا، وليبارككما اللّه!

27

عندما أصبحت خارج الدار، وسمعت لغط الأصوات المتحفز المنتظر يرتفع في الهواء، ورأت تجمهرات الناس عند البوابات وفي نوافذ الدور يتطلعون جميعاً إلى ابنها وأندريه بأعين مستقرئة، انهمرت لطخ خضر تارة ورمادية تارة أخرى تتراقص أمام عينيها.

وكان الناس يبادلونهما التحية، فيكمن في الكلمات هذه المرة معنى خاص. وطرق سمعها نتف من الملحوظات المقتضبة التي يتبادلونها بأصوات خافتة:

ـ ها هما القائدان!

ـ إننا لا نعلم من هم القادة...

ـ إنني لم أعنَ ضرراً أو إساءة على الإطلاق!

وصاح صوت متهدج في فناء أحد البيوت:

ـ الشرطة ستعتقلهم، فينتهي أمرهم!

ـ لقد اعتقلوهم مرة!

وقفز من إحدى النوافذ إلى الشارع عويل امرأة مذعورة:

ـ إنتبه لما تقول! فأنت لست عازباً مثلهم... بل رب عائلة!

مروا أمام دار زوسيموف، وهو رجل فقد إحدى رجليه ويتقاضى من المصنع مرتباً شهرياً تعويضاً عن آفته التي أصيب بها أثناء العمل، فإذا هو يمدُّ رأسه من إحدى النوافذ ويصيح:

ـ بافل، سوف يحطمون رأسك يا وغد، وبذلك تنال ما تستحق!

فارتعدت فرائص الأم وجمدت في مكانها وقد اندلع في نفسها غضب حاد، وتطلعت إلى وجه الأعرج السمين المتورم، فأخفى هذا رأسه سريعاً وهو يرسل شتائم مقذعة... لكن الأم حثَّت الخطى حتى لحقت بابنها، ومشت في أعقابه جاهدة ألا تتأخر عنه.

كان يبدو على بافل وأندريه أنهما لا يلاحظان شيئاً مما يجري

حولهما، ولا يستمعان ضروب الملاحظات التي يرميها الناس عند مرورهما. كانا يسيران في هدوء ودون تسرُّع، ولم يتوقفا إلا مرة واحدة، عندما التقيا بميرونوف، وهو رجل متوسط العمر، متواضع، يحترمه الجميع لأسلوبه المستقيم في الحياة وسيرته الطيبة. سأله بافل:

ـ وأنت أيضاً لم تذهب إلى العمل، يا دانيللو إيفانوفيتش؟

ـ زوجتي تنتظر مولوداً. هذا اليوم يحمل القلق والمخاوف!

وتطلع بثبات إلى رفيقيه، وهو يسأل بصوت خافت:

ـ يقولون إنكم تنوون إزعاج المدير هذا اليوم... فتحطمون بعض النوافذ، أصحيح هذا؟

فهتف بافل:

ـ نحن لسنا سكارى!

وقال الأوكراني:

ـ نحن ننوي السير عبر الشارع بأعلامنا بكل بساطة، وإنشاد بعض الأغاني! إستمع إلى أغانينا، فهي تعبير عن أيماننا!

فقال ميرونوف مفكراً:

ـ أعرف أيمانكم من قبل، ولقد قرأت منشوراتكم.

ثم صاح، وهو يبتسم للأم بعينيه الذكيتين:

ـ آه، يا بيلاجيا نيلوفنا، أتنضمين إلى العصيان؟

ـ لا بدَّ لي أن أسير مع العدالة، ولو مرة واحدة، قبل أن أموت!

فقال ميرونوف:

ـ عظيم! يبدو أنهم مصيبون عندما قالوا إنكِ أنتِ حملت المنشورات إلى المعمل!

فاستجلى بافل:

ـ من يقول هذا؟

ـ هُمْ م! هذا ما يقولون. حسناً، إلى اللقاء. تصرفوا برزانة ودون وجل!

ابتسمت الأم بهدوء ودعة. كان يسعدها أن يقال عنها مثل هذه الأقوال. وقال بافل، ضاحكاً:

ـ ستجدين نفسك في السجن يوماً ما، يا أماه!

استمرت الشمس تتسلق السماء وتسكب دفئها في طراوة اليوم الربيعي المنعشة. وكانت الغيوم تحبو متباطئة وقد ازدادت ظلالها ضياء وشفوفاً. وراحت تدبُّ في هدوء على طول الشارع وفوق سطوح المنازل، وتظلل الجموع وكأنها تريد أن تطهر الضاحية وتنظفها، فتغسل الغبار والأوسخة عن الجدران والسطوح، وتمحو الملل والكرب عن وجوه الناس المتعبة. وأضحى كل شيء أكثر بهجة ومرحاً، فالأصوات تتردد أكثر ارتفاعاً ورنيناً، تُغرق في لجتها جلبة الآلات، وزفرات المعمل البعيد.

مرة أخرى راحت الكلمات تتطاير وتدبُّ حول أذني الأم منبعثة من النوافذ والباحات، بذيئة مضطربة تارة، حزينة أو مرحة تارة أخرى. فتلهب الأم كي تنقضها بالحجة الدامغة، أو توضح الأمور لأولئك الذين يتفوهون بها وتعبِّر عن امتنانها لمن يستحقون منهم الشكر والامتنان، تتلهف بصورة عامة كي تشترك في حياة يوم ذلك الغريب المتباينة الصاخبة.

كان حشد من الناس يبلغون المائة عدّاً قد تجمهروا عند زاوية زقاق جانبي ضيق يرتفع من بينهم صوت فيزوفشيكوف قائلاً:

ـ إنهم يستنزفون الدماء منا كما يمتصون العصير من الفاكهة!

كانت كلماته تتساقط بعنف وقوة على رؤوس الناس المحتشدين حوله.

وارتفعت، في الوقت ذاته، عدة أصوات قاسية تقول:

ـ هذا صحيح!

وقال الأوكراني:

ـ الفتى يبذل كل جهده، وأعتقد أني سأذهب لمساعدته!

وقبل أن يتمكن بافل من اعتراض سبيله، كان جسده المديد المرن قد

اندس في الحشد كالمبزل في غطاء الزجاجة الفليني، وهتف بصوته الثري الرنان:

ـ أيها الرفاق، يقولون إن شعوباً مختلفة تقطن الأرض ـ يهوداً وجرماناً، إنكليزاً وتتاراً. ولكني لا أصدق ذلك! هناك شعبان فقط، شعبان لا يتوافقان ـ الغني والفقير! الناس يختلفون في لباسهم وفي لغتهم، لكن انظروا كيف يعامل الغني الفرنسي أو الانكليزي أو الألماني الشعب العامل، لتتحققوا أنهم جميعاً، بالنسبة إلينا نحن العمال، أوغاد سفلة، ألا حلَّت عليهم لعنة اللّٰه!

وضحك شخص بين الحشد.

ـ وإذا نظرتم من جهة أخرى وجدتم العمال الفرنسيين والتتريين والأتراك يعيشون ذات حياة الكلاب التي نعيشها نحن العمال الروسيين!

وازداد عدد الناس الذين يتدفقون من الشارع الرئيسي، يمطّون أعناقهم ويتطاولون على رؤوس أصابعهم دون أن يتفوهوا بكلمة على الإطلاق.

ورفع أندريه صوته قائلاً:

ـ إن العمال في الخارج فهموا هذه الحقيقة البسيطة. واليوم، في الأول من أيار...

ـ الشرطة!

اندفع أربعة من فرسان الشرطة في الزقاق الجانبي متجهين إلى الحشد مباشرة وهم يلوّحون بسياطهم ويصرخون:

ـ تفرَّقوا!

عبس الناس وهم يفسحون، باضطرار، الطريق أمام الجياد المنطلقة، وتسلق بعضهم فوق الأسوار.

وصاح صوت في جرأة تحدٍ:

ـ هذه الخنازير على ظهور الجياد تأتينا مزمجرة: افسحوا الطريق فنحن قادة عظام!

ظل الأوكراني وحيداً واقفاً في وسط الشارع وقد أقبل عليه جوادان

يهزان رأسيهما بقوة، فوثب جانباً يفسح لهما سبيلاً. عندئذ أمسكت الأم به من يده وجرّته وراءها وهي تتمتم:

ـ وعدتَ أن تظل إلى جانب بافل، وهذا أنت هنا تفتش وحدك عن المتاعب!

فقال الأوكراني مبتسماً:

ـ ألف معذرة!

سيطر على بيلاجيا تعب مؤلم ينذر بالسوء هبَّ من أعماقها وبلغ رأسها فجعله يسبح في دوار شديد، وراح يتناوبها إحساس بالفرح والكآبة، فتشتاق أن تسمع صفير الغداء يدوي معلناً انتصاف النهار.

بلغوا أخيراً الساحة الكبرى، حيث تقوم الكنيسة. يحتشد وراء سياجها ما يقرب من خمسمائة شخص من الشباب المرحين والأطفال الصغار، بعضهم وقوف وبعضهم جلوس يتزاحمون في هرج ومرج، ويتطاولون برؤوسهم في قلق، ويتطلعون بعيداً وهم ينتظرون بفارغ الصبر شيئاً ما. وكان الجو مشحوناً بالانفعال والهياج، وبعض الناس يبدون كأنهم لا يدركون ماذا يفعلون، والآخرون يتخذون مظهر الشجاعة والاستخفاف. وكانت أصوات النساء المكتومة ترتفع في خفوت، فيستدير الرجال عنهن في ضجر. ومن حين لآخر تعلو بعض الشتائم الخافتة، فتحوم فوق الجمهور المتباين المغمور بهزيم ثقيل من العداوة والنفور.

صاحت امرأة بصوت رقيق مرتعش:

ـ ميتيا، إشفق على نفسك!

فجاء الجواب بفظاظة:

ـ دعيني لشأني!

ورنَّ صوت سيزوف القاسي هادئاً مقنعاً:

ـ كلا، لا نريد أن ننفضَّ من حول الفتيان، فهم أكثر منا إدراكاً وشجاعة أيضاً. من هبَّ يدافع عن مصالحنا في قضية كوبيك المستنقع؟

هم وحدهم، وهذا ما يجب ألا ننساه. ولقد ألقي بهم في السجن من أجل ذلك، بينما أفاد جميعنا من جرَّاء موقفهم!

دوّت الصفارة، فابتلعت أصوات الناس في هديرها الأسود، وارسلت في الحشد موجة من الارتعاش الشديد. وانتفض الذين كانوا يجلسون وقوفاً، وخيم الصمت لحظة على الجميع وقد وقفوا على أهبة الاستعداد، شاحبة وجوه عدد غفير منهم.

وارتفع صوت بافل القوي الرنان:

ـ أيها الرفاق!

ولفحت غشاوة حارة عيني الأم، وأحست جسدها قوياً فأسرعت بحركة وحيدة سريعة تتخذ مكانها خلف ابنها. واستدار الجميع نحو بافل وأحاطوا به مثل بُرادَة الحديد وهي تنجذب نحو المغناطيس.

تطلعت الأم إلى وجه فتاها تلاحظ عينيه الفخورتين، الجريئتين، الملتهبتين بنار متأرثة عظيمة:

ـ أيها الرفاق، لقد قررنا أن نعلن اليوم للملأ، في صراحة تامة، عن هويتنا؛ وأن نرفع اليوم رايتنا، راية العقل والعدالة والحرية!

واندفعت في الفضاء عصاً بيضاء طويلة انتصبت هنيهة ثم هوت وغابت بين الجماهير، فشطرتها وتوارت بينها برهة وجيزة قبل أن ترفرف راية الشعب العامل الحمراء، كأجنحة طائر قرمزي كبير، فوق الرؤوس المرتفعة والوجوه الناظرة إلى العلاء.

رفع بافل ذراعه، فخفت الراية، فاندفعت عشرات الأيدي تمسك الخشب الأبيض الناعم، وكانت يد الأم في عدادها.

هتف بافل بأعلى صوته:

ـ عاش الشعب العامل!

فزمجرت مئات الأصوات ترجيع هتافه.

ـ عاش حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي، حزبنا أيها الرفاق، وينبوع أفكارنا!

وثارت حميّا الجماهير، فاندفع الذين أدركوا معنى الراية يشقون طريقهم نحوها. وسرعان ما كان مازين وصموئيلوف والأخوان جوسيف يقفون إلى جانب بافل. وشقَّ نيقولاي طريقه، منخفض الرأس، خلال الحشد، فيما أحست الأم بفتيان ملتمعي العيون لا تعرفهم يدفعونها جانباً في انطلاقهم نحو الراية...

صاح بافل:

ـ عاش عمال العالم!

فتلقى الجواب صيحة عميقة خرجت من آلاف الحناجر ترنُّ في فرح وقوة، وتلهب في النفس الحماسة والتأثر.

أمسكت الأم بيد نيقولاي وشخص آخر، وهي تغصُّ بالعبرات. ولكنها لم تبكِ... وراحت ركبتاها ترتجفان، وهي تغمغم من خلال شفتين مرتعشتين:

ـ يا أعزائي....

وانتشرت على وجه نيقولاي المجدور ابتسامة عريضة، وطفق يتمتم بشيء ما ناظراً إلى الراية، ماداً يده في اتجاهها. وعلى حين غرة، ألقى بيده هذه على عنق الأم، واندفع يقبّلها، وهو يضحك أثناء ذلك.

قال الأوكراني، مقاطعاً زمجرة الحشد، بلكنة حديثه الأوكراني الرخيمة العذبة:

ـ أيها الرفاق! لقد بدأنا مسيرة مظفرة باسم إلّه جديد، إلّه النور والعقل، إلّه المحبة والحقيقة. إن هدفنا الأخير لبعيد جداً، أما إكليل الشوك ففي متناول اليد. فإن فقد أحد الايمان بانتصار الحقيقة، إن فقد أحد الشجاعة على إعطاء حياته إلى الحقيقة، إن ارتاب أحدٌ بقواه الخاصة وانتابه الخوف من العذاب، فليخرج من صفوفنا إذن، وليقف جانباً! نحن نتوجه إلى أولئك الذين يؤمنون بانتصارنا من دون سواهم، وأولئك الذين لم يدركوا رؤيانا عن المستقبل لا يملكون المسير معنا،

لأنهم لن يدركوا سوى الحزن والكآبة وحدهما. انضموا إلى الصفوف، أيها الرفاق! عاش عيد الإنسانية الحرة! عاش أول أيارا

وازداد الحشد تكاثفاً فرفع بافل الراية عالياً وسار بها إلى الأمام، فانبسطت وراحت تخفق مغمورة بأشعة الشمس، فكانت تشبه ابتسامة عريضة لطيفة...

وشرع فيدور مازين يُنشد بصوته الرنان:

فلنتخلص من العالم القديم إلى الأبد....

فانضمت إليه عشرات الأصوات في قوة ولهفة:

ولننفض غباره عن أقدامنا!..

كانت الأم تسير وراء مازين، وابتسامة سعيدة تمرح على شفتيها، وعيناها تسعيان ـ من وراء رأس فيدور ـ نحن الراية ونحو فتاها. كان كل ما يحيط بها وجوهاً فرحة وعيوناً براقة. بينما ولدها وأندريه يسيران في المقدمة فتستطيع أن تستمع إلى كليهما ينشدان، وصوت أندريه الجهوري الرنان يذوب مع صوت بافل الخفيض العميق:

إنهضوا إلى النضال يا أيها العمال، انهضوا انهضوا،

يا أيها الجياع، وثوروا!...

وهرع عدد كبير من الناس لملاقاة الراية الحمراء عَدْواً، وهم يصيحون أثناء ركضهم، فينضمون إلى السائرين، وتندغم هتافاتهم مع أصداء النشيد ـ ذات ذلك النشيد الذي كانوا يغنّون بأصوات مكتومة في المنزل، والذي يتعالى الآن في الشارع بقوة عنيفة لا تعبأ بالعقبات. كان يتردد بجرأة لا يُكبح لها جماح، يدعو الناس إلى الطريق الطويلة المؤدية نحو المستقبل، معلناً لهم في الوقت نفسه ـ بكل صراحة ـ مبلغ ما ستكون عليه هذه الطريق من صعوبة وعناء. كان لهيب النشيد الهادىء يحرق سائر فحوم الماضي السود، ويذيب كل ما ألف الناس من إحساسات تقليدية، ويحيل الخوف من كل جديد في الحياة هباءً منثوراً...

وتأرجح إلى جانب الأم وجه شخص مذعور، لكنه سعيد مغتبط، فيما هتف صوت مرتجف مجهش في البكاء:

ـ ميتيا، إلى أين أنت اذهب؟

فقالت الأم، دون أن تتوقف عن المسير:

ـ دعيه يذهب، لا تقلقي من أجله! لقد كنت أخاف مثلك في البدء ـ إن ولدي هناك في المقدمة ـ وهو الذي يحمل الراية!

وارتفع صوت يقول:

ـ إلى أين أنتم ذاهبون، أيها المجانين؟ إن الجنود ينتظرون غير بعيد هناك!

وفجأة أمسكت المرأة الناحلة الطويلة يد الأم بيدها الجافة، وصاحت:

ـ أواه! إسمعي اليهم كيف ينشدون! يا إلّهي، وميتيا ينشد بينهم أيضاً...

فحثتها الأم بقولها:

ـ لا تجزعي! فهذا عمل مقدس... فكري، أكان ثمة مسيح لو لم يلقَ الناس حتفهم من أجله؟

ولمعت تلك الفكرة بغتة خلال ذهنها، وأذهلتها بحقيقتها الواضحة البسيطة! رفعت نظرها نحو وجه المرأة التي لم تُفلت بعد يدها، وعادت تقول وشفتاها تفتران عن ابتسامة دهشة وعجب:

ـ لو لم يمت الناس من أجل المسيح، من أجل الرب، لما كان ثمة مسيح أبداً!

وظهر سيزوف إلى جانبها. قال، وقد رفع قبعته وراح يلوح بها في الهواء في توافق مع إيقاع النشيد:

ـ إنهم يعملون على المكشوف هذا النهار، أليس كذلك؟ وينشدون أغنية، ويا لها من أغنية، يا أماه! ما رأيك؟

القيصر في حاجة إلى الجنود لحروبه،

فأرسلوا إليه أبناءكم إذن...

قال سيزوف:

ـ إنهم لا يخافون شيئاً! وابني المسكين ينام في لحده...

راح قلب الأم يخفق بشدة حتى اضطرت إلى التباطؤ عن الآخرين. وسرعان ما دُفعت جانباً، وألقيت على أحد الأسوار. بينما الناس يتدفقون أمامها مثل موجة شاسعة الأبعاد. كان ثمة عدد لا يحصى منهم، فامتلأت جوانحها غبطة وسعادة.

انهضوا إلى النضال، يا أيها العمال، انهضوا!!

كان يتراءى أن بوقاً ضخماً من النحاس يصبُّ ذلك النشيد في الهواء صباً فيوقظ الناس، ويبعث في بعضهم استعداداً للقتال، وفي الآخرين فضولاً وتشوقاً لاهبين، وتوقعاً سعيداً غامضاً لحَدثٍ جديد. كان يوقظ هنا آمالاً مترددة، ويفتح هنالك سبيلاً واسعاً لما تراكم من الغضب خلال السنين. وكانت الأنظار جميعها تتطلع إلى حيث ترفرف الراية الحمراء يخفق بها النسيم العليل ويلهو.

زمجر صوت يلتهب حماسة:

ـ ها هم يسيرون! ما أروعكم، أيها الفتيان!

واذ كان صاحب الهتاف يجيش بإحساس عظيم جداً يصعب التعبير عنه بالكلمات العادية، فقد طفق يعبِّر عنه بالشتائم المغلَّظة. ولكن حقداً أعمى أيضاً، حقد العبودية المظلم، راح يفحُّ كالأفعى التي أزعجها ضياء الشمس، ويتلوَّى في كلمات دنيئة شريرة...

صاح بعضهم بصوت أبح، من نافذة أحد المنازل، وهو يهزُّ قبضته في الفضاء:

ـ يا للهراطقة!

وقرع سمع الأم صوت صارخ ظل يتردد في أذنيها تردداً حاداً:

ـ يثورون ضد جلالة الأمبراطور، ضد جلالة القيصر؟ ينظمون عصياناً؟

كانت تلمح، في نظرات خاطفة، وجوهاً مضطربة تتلاحق أمامها، ورجالاً ونساء ينصبون في حشد متزايد الكثافة باستمرار حمم بركان ثائر، يجرهم النشيد إلى الأمام دائماً، فكأن هذا النشيد يجرف كل شيء من أمامه ويجلو الطريق بقوة انطلاقه العاتية. وتصورت وجه ابنها دون أن تراه، وهي تتطلع إلى الراية الحمراء المرفرفة في المقدمة. وتخيلت جبينه البرونزي، وعينيه اللامعتين، وقد برقت جميعاً بنار الايمان اللاهبة.

وجدت نفسها أخيراً في مؤخرة الموكب، بين أناس يسيرون على مهل، ويتطلعون في لامبالاة المتفرجين الذين يدركون نهاية القصة فلا تثير فضولهم. كانوا يتكلمون بصوت غير عالٍ، وبقناعة تامة مطلقة:

ـ ثمة ثلة من الجند تتواجد بالقرب من المدرسة، وثلة أخرى بالقرب من المعمل...

ـ لقد جاء الحاكم...

ـ حقاً؟

ـ لقد رأيته بأمّ عينيّ، وصل قبل برهة وجيزة!

ـ لا ريب أنهم طفقوا يرهبوننا. ألا تصوروا ـ الجنود والحاكم...

وأرسل المتكلم بعض الشتائم المرحة.

وقالت الأم في نفسها؛

ـ يا لكم من نفوس طيبة!

لكن الكلمات التي سمعتها ترددت ميتة باردة، فاستحثت خطاها بغية الابتعاد عن هؤلاء القوم، فلم يصعب عليها تجاوزهم، لشدة تماهلهم وتكاسلهم في المسير.

وفجأة، تراجع الموكب إلى الخلف وهو يرسل زمجرة خافتة متوعدة، وكأن مقدمته اصطدمت بشيء ما. وارتعش النشيد قليلاً، كي يعود فيتصاعد أكثر ارتفاعاً وأسرع نغماً منه قبلاً. ثم عادت الموجة الرنانة فخبت من جديد، وسكتت الأصوات الواحد تلو الآخر عن الانشاد،

وارتفعت هتافات متفرقة هنا وهناك تحاول أن تردَّ إلى النشيد عظمته السابقة، وأن تستمرَّ فيه قدماً:

إنهضوا إلى النضال، يا أيها العمال، انهضوا انهضوا، يا أيها الجياع، وثوروا!!...

ولكن هذا النداء كان ينقصه الارادة المشتركة، والايمان المتراص. وكانت الأصوات فيه مشوبة بالقلق.

لم تعد الأم ترى شيئاً، ولا استطاعت أن تعرف ما أصاب الموكب في صفوفه الأمامية، فراحت تدفع المشاة جانباً ذات اليمين وذات اليسار، وتشقُّ طريقها قدماً إلى الأمام؛ فلا تفتأ تصطدم، في تقدمها، بقومٍ يتراجعون، وقد عبس بعضهم وطأطأ الرؤوس، وراح بعضهم الآخر يبتسم ابتسامة الفشل والهزيمة، وفريق ثالث يصفر ساخراً هازئاً. شرعت تتفرس في وجوههم بحزن، وعيناها مليئتان بالاستفهام، والرجاء، والدعاء...

وارتفع صوت بافل يقول:

- يا أيها الرفاق، إن الجنود أناس مثلنا، ولن يمسونا بسوء. ولِمَ يفعلون ذلك؟ لأننا ننادي بحقيقة تنطبق على الجميع دون تفريق؟ إنهم يحتاجون إليها مثل حاجتنا، ولعلهم لم يدركوها بعد. ولكن الزمن الذي ينضمون فيه إلى صفوفنا تحت راية الحرية، بدلاً من أن يقاومونا تحت راية القتل والسرقة، هذا الزمن ليس ببعيد. وينبغي لنا، كي نعجِّل في إدراكهم لهذه الحقيقة، أن نتابع مسيرنا إلى الأمام، إلى الأمام، أيها الرفاق دائماً، إلى الأمام!

كان صوت بافل يتردد في ثبات وعزم، وكلماته ترن حادة واضحة، ومع ذلك انفرط عقد الحشد. وأخذ الناس، الواحد تلو الآخر، يتركون الصفوف ويتجهون إلى البيوت أو يستندون إلى الأسوار. واتخذ الموكب الآن شكل الإسفين وبافل في رأسه. ترفرف الراية الحمراء بتألق فوق

رأسه. أو لعل الموكب كان يشبه بالأحرى طيراً أسود منشور الجناحين يتهيأ للطيران. وكان بافل يمثل منقار ذلك الطير...

28

رأت الأم، في نهاية الشارع، جداراً رمادياً رتيباً مؤلفاً من أناس لا وجوه لهم يسدون المنفذ إلى الساحة العامة، ينِدُّ عن كتف كل واحد منهم لمعان حربة رقيقة باردة. وكان ذلك السور الصامت العديم الحركة ينفث ريحاً باردة تغمر العمال وترسل في قلب الأم قشعريرة عنيفة.

شقت طريقها بين الحشد ساعية إلى بلوغ الراية، والالتحاق بالقوم الذين تعرفهم، والذين اختلطوا بقوم آخرين لا تعرفهم وكأنهم ينتظرون العون منهم، فإذا هي تلتصق برجل أعور، طويل القامة، حليق الذقن، التفت نحوها نصف التفاتة ينظر إليها من طرف عينه، ثم قال:

ـ ماذا تريدين؟ من أنت؟

فقالت، وهي تحسُ رجفاناً في ركبتها، وعجز عن ضبط شفتها السفلى:

ـ إني أم بافل فلاسوف!

فأبان الرجل الأعور:

ـ آه!

هتف بافل:

ـ أيها الرفاق، يجب أن نستمر في التقدم إلى الأمام طوال حياتنا، وليس هناك أي اتجاهٍ آخر أمامنا!

أضحى الجو هادئاً متحفزاً، وارتفعت الراية عالياً في الهواء، وترنحت لحظة قصيرة، ثم خفقت فوق رؤوس القوم وهي تنطلق بثبات واستقامة نحو جدار الجنود الرمادي، فارتجفت الأم وأغمضت عينيها وهي ترسل

أنيناً عالياً... إن أربعة أشخاص ليس غير، هم بافل وأندريه وصموئيلوف ومازين، قد انفصلوا عن الحشد المتجمهر.

واخترق الهواء صوت مازين الواضح رناناً هادئاً:

لقد سقطتم ضحايا نبيلة...

فارتفع الجواب، مثل زفرة عميقة من عدة أصوات خافتة، وكأنه أنين ثقيل:

في هذا القتال الرهيب...

وتقدم الأربعة في خطوات موزونة مع لحن النشيد الجديد يطفح عزماً.

وتدحرج صوت فيودور مثل شريط لامع:

لقد أعطيتم كل ما تملكون...

فانضمت إليه أصوات رفاقه في البيت التالي:

في سبيل الحرية...

فصاح أحدهم في وقاحة وخبث من جانب:

ـ آه، إنهم ينشدون مرثاة، أبناء الكلاب هؤلاء!

فهتف صوت غاضب:

ـ لتضربوه!

ضغطت الأم يدها على صدرها وتطلعت حولها. فوجدت الجماهير التي كانت تغمر الشارع بأسره قبل قليل، قد ثبتت في مراكزها الآن مترددة تراقب الأربعة وهم يتقدمون برايتهم، فلا يلحق بهم إلا بضع عشرات من الناس فقط، يتخلف واحد منهم في خطوه، فكأن بلاط الشارع يلتهب ويحرق نعال أحذيتهم.

ولسوف يوضع للعنف حد...

تنبأ النشيد بذلك على لسان فيودور، فردَّ عليه جوق من الأصوات القوية العنيفة يقول في لهجة وعيد:

وسينهض الشعب من غفوته!..

لكن همساً حذراً كان يمتزج بالنشيد:

ـ القائد يتأهب لإصدار أوامره...

وفي اللحظة نفسها، علا صراخ حاد في المقدمة يأمر:

ـ خفضوا البنادق!

فخفضت الحراب في موجة واحدة واستقبلت الراية بابتسامة فولاذية ماكرة:

ـ إلى الأمام سِرْ!

فقال الرجل الأعور، وهو يدسُّ يديه في جيبيه ويمضي بخطى واسعة إلى جانب الطريق:

ـ ها هم انطلقوا!

وراحت الأم تراقب ما يجري أمام عينيها دون أن يرتعش لها جفن.

لقد انتشرت موجة الجنود الرمادية على عرض الشارع كله، وطفقت تتقدم في حزم بارد، يلتمع المشط الفضي في مقدمتها. وأهذبت الأم بخطوات سريعة قليلة تقترب من ابنها، فرأت أندريه يتقدم إلى الأمام منه يحميه بجسده المديد. بيد أن بافل صاح به في حدة وقسوة بالغتين:

ـ عُدْ إلى مكانك، أيها الرفيق.

كان أندريه يُنشد وقد ألقى رأسه إلى الخلف، ووضع يديه خلف ظهره، فدفعه بافل بكتفه، وصاح مرة أخرى:

ـ عُدْ إلى مكانك، فليس لك الحقّ في أن تفعل هذا. يجب أن تكون الراية في الطليعة!

وصاح ضابط قصير القامة بصوت حاد، وهو يلوِّح بسيفه:

ـ تفرَّقوا!

كان يسير وهو يرفع قدميه عالياً، دون أن يثني ركبتيه، ضارباً الأرض بعنف وقسوة بنَعْلي حذائه. ولفت أنظارَ الأم لمعانُ هذا الحذاء.

وكان رجل طويل القامة، حليق الرأس، رمادي الشارب الكثّ، يسير إلى جانبه في تثاقل، متأخراً عنه قليلاً، يرتدي معطفاً رمادياً طويلاً أحمر

البطانة، وسروالاً عريضاً يمتد على جانبيه شريط أصفر. كان يتقدم ويداه خلف ظهره، مثل الأوكراني تماماً، وعيناه مثبتتان في بافل، وحاجباه الاشيبان الكثيفان مرتفعان في تقطيبة استياء.

لم تستطع نظرة الأم أن تشمل كل ما تراه عيناها. أما صدرها فقد امتلأ بصيحة عالية تهدِّد، في كل زفير، أن تفلت منجرة بكل قوة وعنف... وكانت تلك الصيحة تضيِّق الخناق عليها فتضغط على صدرها بشدة لتردَّها وتمنعها من الانطلاق. وراح الناس يتدافعونها فتتمايل يمنة ويسرة وهي تتقدم دون تفكير، بل دون وعي تقريباً. وأحسَّت الحشد يهزل من ورائها دون انقطاع، فكأنما تلك الموجة الباردة الزاحفة لملاقاته تبعثره وتكنسه.

تقدمت الجماعة ذات الراية الحمراء إلى الأمام قُدماً فيما الموجة الصلبة المصنوعة من القوم الرماديين تقترب كذلك باستمرار حتى استطاعت الأم رؤية وجهها، هذا الوجه المشوه الذي تشهم إلى شريط وسخ أصفر اللون ينتشر على عرض الشارع كله، تنقِّطه هنا وهناك أعين متباينة الألوان. وإلى الأمام منهم كانت أسنان الفولاذ الرهيبة تلتمع، وهي مصوبة نحو صدور المشاة تقطعهم الواحدة في إثر الآخر حتى قبل أن تمسهم، فتفرِّق الجماهير بذلك وتشتتها.

وسمعت الأم أناساً يتراكضون خلفها، وأصواتاً مضطربة تصيح:

ـ تفرقوا، أيها الفتيان...

ـ أهرب، يا فلاسوف!..

ـ عُذ، يا بافل!

وقال فيزوفشيكوف في كآبة:

ـ أنزل الراية، يا بافل، أعطني إياها وسأخفيها!

أمسك بالعصا. فاضطربت الراية ومالت إلى الخلف قليلاً.

زعق بافل:

ـ أتركها!

فردَّ نيقولاي يده إلى الخلف وكأن لهيباً محرقاً أصابها. ومات النشيد، وتوقف القوم عن المسير وقد أحاطوا بافل بطوق كثيف، بَيْدَ أنه شقَّ طريقه من جديد قُدماً. وعلى حين غرة، ساد صمت مطبق فكأنه وقع من علٍ ولفَّ الجميع في سحابة شفافة غير منظورة.

كان ثمة عشرون رجلاً تقريباً ـ لا أكثر يحتفُّون بالراية، قد ثبتوا في مراكزهم في عزم وتصميم. وجُذبت الأم إليهم يدفعها ما يعمُر قلبها من قلق عارم وتستحثها رغبة غامضة في أن تقول لهم شيئاً ما...

قال الرجل العجوز الطويل بصوت هادىء، مشيراً إلى الراية:

ـ أيها الملازم، خُذْ هذا الشيء منه!

فركض الملازم القصير إلى بافل وأمسك بالعصا، زاعقاً:

ـ أعطني هذه!

فقال بافل في صوت مرتفع:

ـ إرفع يديك عنها!

اضطربت الراية، برَّاقة، في الفضاء؛ وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار، ثم عادت فارتفعت مستقيمة من جديد، بينما قفز الملازم القصير إلى الوراء بعنف ثم وقع أرضاً، وركض نيقولاي أمام الأم بسرعة وهو يهزُّ قبضته.

صاح الرجل العجوز، وهو يضرب الأرض بقدمه:

ـ ألقوا القبض عليهم!

فركض عدة جنود إلى الأمام، ولوَّح أحدهم بعقب بندقية... فترنحت الراية، وسقطت إلى الأمام، واختفت في كتلة الجنود الرمادية.

هتف بعضهم في مرارة:

ـ آه!

وأطلقت الأم عويل حيوان جريح، فجاء صوت بافل الواضح من بين الجنود يردُّ عليها:

ـ إلى اللقاء، يا أماه! إلى اللقاء، يا حبيبتي...

وانبثقت في خاطر الأم فكرتان: «إنه لا يزال حياً، وهو يذكرني!»
ـ إلى اللقاء، يا أُميمتي!
فتطاولت الأم على رؤوس أصابعها كي تلمحهما مرة أخيرة، فرأت من فوق رؤوس الجنود وجه أندريه. كان يبتسم وينحني لها.
صاحت:
ـ آه، يا عزيزيَّ... أندريوشا... باشا...
فهتف بعضهم من بين الجنود:
ـ إلى اللقاء، أيها الرفاق!
فأجابه صدى متعدد الموجات، انطلق من النوافذ، ومن مكان إلى الأعلى منها، ومن السطوح ذاتها.

29

دفعها بعضهم في صدرها، فتبينت من خلال السحابة التي تغشي عينيها وجه الضابط القصير الأحمر المنتفخ. كان يقف أمامها ويصيح:
ـ هيًّا تواري، يا امرأة!
فغمرته بنظراتها، وبصرت بعصا الراية محطمة عند قدميه وقد علقت بإحدى نهايتها قطعة من القماش الأحمر، فانحنت مسرعة وتناولتها. لكن الضابط انتزعها من يدها ورماها جانباً وهو يزمجر ويضرب الأرض بقدميه:
ـ إذهبي، أقول لك!
فارتفع من بين الجنود إنشاد مجلجل:
انهضوا إلى النضال، يا أيها العمال، انهضوا...
فترنح كل شيء، وسبَح وارتجف، وامتلأ الجو بزمجرة متوعدة أشبه بطنين الأسلاك البرقية، واندفع الضابط هادراً في غضب:

ـ كفوا عن الإنشاد... أيها الرقيب كرينوف...

واندفعت الأم، مترنحة، إلى حيث ألقى بقطعة الراية والتقطتها من جديد.

ـ سُدَّ لهم حلوقهم الفاجرة!

ناضلت الأغنية، وارتعشت، ثم تقطعت وتلاشت... وأمسك بعضهم بالأم من كتفها ودار بها ثم راح يدفعها في ظهرها، قائلاً:

ـ إمضي، إمضي.

وزعق الضابط:

ـ هيا، اتركوا الشارع!

التقت الأم، على بعد عشر خطوات، حشداً آخر من الناس. كانوا يرسلون الصياح، والشتائم، والصفير، وهم يعودون أدراجهم متماهلين عبر الشارع ويختفون في باحات المنازل.

صاح جندي شاب مرسل الشاربين في أذن الأم تقريباً، وهو يدفعها جانباً نحو الرصيف:

ـ هيا تحركي، أيتها الشيطانة...

سارت الأم وهي تعتمد عصا الراية مسترخية الركبتين، وتتمسك بيدها الأخرى بالأسوار وجدران الدور حتى لا تسقط أرضاً. واستمر الناس يتراجعون إلى الأمام منها، والجنود يسيرون إلى جانبها وإلى الوراء منها، وهم يصيحون دون انقطاع:

ـ إمضي، إمضي...

تركت الجنود يتجاوزونها، ثم توقفت وألقت حواليها نظرة فاحصة. كان أفراد آخرون من الجنود يقفون في صفٍّ واحدٍ في نهاية الشارع يسدون مدخل الساحة الكبيرة المقفرة، وإلى الأمام كانت الأجساد الرمادية تتقدم ببطء مقتربة من الناس المتقهقرين...

اشتاقت أن تعود على أعقابها، لكنها شرعت مرة أخرى، دون وعي

منها أو إرادة، تسير قدماً حتى بلغت زقاقاً جانبياً، ضيقاً خالياً، فانعطفت فيه.

وقفت فيه مرة أخرى، وصعَّدت زفرة عميقة، وأصاخت بسمعها. كانت همهمة حشد من الناس تبلغ أذنيها، آتيةً من مكان ما، هناك، غير بعيد عنها.

وانطلقت من جديد، تتوكأ على العصا دائماً، متصببة عرقاً على حين غرة يرتجف حاجباها، وتتحرك شفتاها وتضطرب يداها في حركات متناسقة، بينما كلمات ملتهبة تومض كلمعان البرق في ذهنها، وهي تنمو حجماً باستمرار حتى اندلعت في لهيب رغبة جموح عاتية تطلب البوح بتلك الكلمات، والهتاف بها عالياً، على رؤوس الأشهاد...

انعطف الزقاق الجانبي، بغتة، إلى اليسار... وعند الزاوية بصرت الأم جمعاً غفيراً من الناس.

قال بعضهم في صوت مرتفع قوي النبرات:

ـ المرء لا يتقدم لملاقاة صف من الحراب من أجل التسلية وحدها، أيها الإخوان!

ـ يا إلّهي! أرأيتموهم والحالة هذه! كانت الحراب تتجه نحوهم مباشرة. وهم يقفون هناك، أيها الإخوان، ولا أثر للخوف في قلوبهم...

ـ يا له من بافل!

ـ والأوكراني؟

ـ يداه وراء ظهره، وهو يبتسم طوال الوقت، ذلك الشيطان!

صاحت الأم، وهي تشقُّ طريقها إلى وسطهم:

ـ أيها الأعزاء! أيها الناس!

فتنحَّى الناس، في احترام، يوسعون لها الطريق. وضحك أحدهم وقال:

ـ أنظروا، لقد أخذت الراية، إن الراية بين يديها!

فنبر صوت في جفوة:

ـ صمتاً!

فتحت الأم ذراعيها واسعتين، وراحت تقول:

ـ إسمعوا، محبة بالمسيح! أنتم جميعاً أيها الناس الأعزاء، افتحوا عيونكم جيداً وأنظروا دون ذعرٍ إلى ما حدث اليوم. إن أولادنا، فلذات أكبادنا، خرجوا إلى العالم باسم العدالة ـ العدالة لسائر الناس! خرجوا في سبيلهم جميعاً... وفي سبيل أولادكم ولقد حملوا هذا الصليب سعياً وراء أيام أكثر إشراقاً. إنهم يريدون حياة أخرى ـ الحياة في الحقيقة والعدالة، وإنه الخير العميم للشعب بأسره ما يطلبون!

كان قلبها يتأرث في صدرها، وحنجرتها ملتهبة جادة. وفي أعماق أعماقها كانت كلمات جديدة تولد، كلمات حب يضمُّ كل شيء في أحضانه ويغمر سائر الكائنات، فتلذع لسانها لذعاً تضطره إلى النطق في حرية وقوة تعبير تتضاعفان باستمرار.

استطاعت أن تراهم ينصتون جميعاً في صمت وهدوء، أدركت أن هؤلاء المتجمهرين حولها يفكرون، فولدت في داخلها رغبة أضحت الآن تعيها بكل وضوح، رغبة تناديها أن تحثّهم وتدفعهم نحو ابنها وأندريه وسائر أولئك الفتيان الذين تركوهم وحدهم وسط الجنود وقفلوا راجعين.

استرسلت تقول في قوة وعذوبة، وهي تتفرس في الوجوه العابسة المنتبهة المحتفة بها:

ـ إن أبناءنا خرجوا قدماً إلى العالم يبحثون عن الفرح ويفتشون. وفي سبيل الجميع خرجوا، وفي سبيل حقيقة المسيح أيضاً. إنهم يسيرون ضد كل شيء يخنقنا به أشرار هذا العالم الكاذبون الجشعون، ويقيدون أيدينا ويضغطون علينا... أيها القوم الأعزاء، إن أبناءنا نهضوا في سبيل الشعب كله، في سبيل العالم أجمع، في سبيل العمال حيثما وجدوا. لا تتركوهم، لا تنكروهم، لا تجبروا أبناءكم على الذهاب في الطريق وحيدين منفردين. ارحموا أنفسكم، وثقوا وآمنوا بقلوب أبنائكم الذين

أعطوا الحقيقة مولداً، هذه الحقيقة التي يضحون بحياتهم في سبيلها بكل طيبة خاطر... آمنوا بهم!

وتكسّر صوتها، وترنحت خائرة القوى، إلا أن بعضهم أسرع يمسك بها ويسندها...

صاح أحدهم في صوت منفعل أجش:

ـ هذا صوت اللّه يتكلم، أيها القوم الطيبون، إنه صوت اللّه فاسمعوا!

وقال آخر في لطف وحنان:

ـ أنظروا كيف تعذّب نفسها!

فأجاب آخر لائماً:

ـ إنها لا تعذب نفسها، بل تقصد افهامنا. يا لنا من أغبياء! سعيها أن ندرك!

وصاحت امرأة في صوت مرتفع يرتعش:

ـ أيها المسيحيون المؤمنون، إن ولدى ميتيا... روح طاهرة نقية. ماذا ارتكب من شر؟ لقد لحق برفاقه، هم الذين يحبهم... إنها تقول الحقيقة... لماذا يجب أن نتخلى عن أبنائنا؟ ما هو الأذى الذي ألحقوه بنا؟

طفقت الأم ترتجف حتى سمعت هذه الكلمات، وراحت تبكي في هدوء وسكينة.

قال سيزوف بصوت مرتفع:

ـ إمضي إلى البيت، يا بيلاجيا نيلوفنا! إذهبي أيتها الأم، لقد تعبتِ اليوم!

كان محياه شاحباً ولحيته مشعثة مرتجفة. انتصب فجأة، وقطّب جبينه، وألقى حواليه نظرة صارمة، ثم قال في لهجة واضحة:

ـ إنكم تعرفون جميعاً كيف قُتل ابني ماتفي في المعمل. ولكنه لو كان حياً، لأرسلته بنفسي وراء هؤلاء الآخرين، وقلت له بنفسي إذن:

إذهب أنت الآخر يا ماتفي، فهذه هي الطريق الحقة الوحيدة، الطريق الشريفة الوحيدة!

جنح إلى الصمت فجأة، فأضبَّ الباقون جميعاً وفي سيمائهم كآبة، يعتصرهم شيء جديد جبار لم يعودوا يخافون منه أبداً... وهزَّ سيزوف قبضته في الهواء، وتابع:

ـ إنه لشيخ عجوز هذا الذي يخاطبكم، وأنتم جميعاً تعرفونني. إني أعيش على هذه الأرض منذ ثلاثة وخمسين عاماً، وأعمل هنا منذ تسعة وثلاثين. وفي هذا اليوم اعتقلوا ابن أخي مرة أخرى، وهو فتى طيب ذكي. لقد كان، هو الآخر، يسير في المقدمة إلى جانب فلاسوف، وراء الراية تماماً...

وتراخى بحركة من يده، ثم أمسك بيد الأم وأضاف:

ـ إن ما قالت هذه المرأة هو الحقيقة بعينها. يريد أبناؤنا أن يعيشوا شرفاء، بحسب العقل والمنطق. ومع ذلك تخلينا عنهم. لقد هربنا. هذا ما نفعل! إمضي، يا بيلاجيا نيلوفنا...

فأذاعت، وهي تنظر حولها بعينين محمرتين من البكاء:

ـ أيها القوم الطيبون، إن الحياة لأبنائنا، والأرض لهم أيضاً!

فقال سيزوف، وهو يناولها ما تبقى من الراية:

ـ امضي، يا بيلاجيا نيلوفنا. خذي، هذه عصاك.

أخذ الناس يراقبون الأم في ألم واحترام وهم يشيِّعونها بدويّ من الملاحظات المشفقة. وشقَّ سيزوف الطريق أمامها في سكون، والناس يتنحون لها جانباً دون أن ينطقوا بكلمة واحدة... ثم لحقوا بها بلا تسارع، تجذبهم قوة غامضة على طول الشارع، وهم يتبادلون أثناء ذلك بعض الملاحظات المقتضبة بأصوات خافتة هامسة.

عندما بلغوا بوابة بيتها استدارت إليهم، وانحنت وهي تعتمد على العصا، ثم قالت بنغمة رقيقة تطفح امتناناً:

ـ شكراً لكم...

وإذ تذكرت مرة أخرى تلك الفكرة الجديدة، الفكرة الجديدة التي خيل إليها أنها ولدت في أعماق قلبها، أضافت:

ـ ما وُجد الرب يسوع لو لم يقدّم البشر حياتهم في سبيل مجده...

فنظر إليها الحشد في صمت.

انحنت مرة أخرى لهم، ثم دلفت إلى دارها، فخفض سيزوف رأسه ولحق بها.

وبقي الناس حيناً عند البوابة يتحدثون.

ثم انصرفوا في خطوات بطيئة متثاقلة.

القسم الثاني

1

انقضت بقية النهار في ضباب كثيف من الذكريات، وفي عناء مثقل أطبق على روحها وجسدها جميعاً. كانت بقعة رمادية تمثّل الضابط القصير القامة تتراقص أمام عينها، وإلى جانبها يُضيء محيا بافل البرونزي، وتبسم عينا أندريه الضاحكتان.

هامت على وجهها في أرجاء الغرفة، تجلس إلى النافذة تارة تتطلع إلى الشارع، ثم تنهض من جديد تجوس في الغرفة معقودة الحاجبين، تجفل وهي تتطلع هنا وهناك على غير هدى كأنها تبحث شاردة الذهن عن شيء ما. وأقبلت على الماء تعبُّ منه، فلا يروي ظمأها، ولا يُطفىء ذلك الأتون من الأذية واللهفة المُستعر في صدرها. لقد فُلق اليوم إلى شطرين، كان الشطر الأول منهما يملك معنى ومحتوى، ولكن كل المعنى تبخر من الشطر الثاني وتلاشى، فإذا هي في فراغ يائس مؤلم يفغر الآن فاه أمامها، ويبعث فيها هذا السؤال صارخاً دون أن يتلقى جواباً:

«ما العمل الآن؟...»

جاءت كورزونوفا، فلوّحت بيديها وأكثرت من الصراخ، وبكت واستغرقت في حماسة عظيمة، وضربت الأرض بقدميها، وتوعدت

شخصاً ما، وتعهدت بأمور عديدة، وقدمت الاقتراحات تترى، غير أن شيئاً من هذا كله لم يحرِّك في الأم ساكناً.

صاحت البائعة بصوتها الحاد:

ـ نعم. لقد وخزهم ذلك، الناس، أخيراً، فهبوا جميعاً. لقد نهض المعمل غاضباً، المعمل كله!

فقالت الأم في هدوء، وهي تهزُّ رأسها:

ـ بلى!

كانت عيناها معلقتين بكل ما أصبح جزءاً من الماضي، بسائر الأمور التي ذهبت مع بافل وأندريه وخلفتها وراءها. لم تستطع إلى البكاء سبيلاً، فقلبها انقبض واعتُصِرَ وجفَّ تماماً. وكذلك يبست شفتاها، ونأت الرطوبة عن فمها، وراحت يداها ترتجفان، وقشعريرات صغيرة تتلاحق على طول ظهرها.

جاء الدرك ذلك المساء، فاستقبلتهم دون دهشة أو جزع. دخلوا المنزل في جلبة عظيمة، تبدو عليهم علائم الغبطة والرضى، ثم كشّر الضابط الأصفر الوجه عن أسنانه وعالنها:

ـ كيف حالك؟ هذه المرة الثالثة التي نلتقي فيها، إن لم أكُ مخطئاً. أليس كذلك؟

فلزمت الصمت، واكتفت بإمرار لسانها الجاف على شفتيها.

أكثر الضابط من الحديث في لهجة مَنْ يلقي المواعظ. وأدركت الأم أن الحديث يروقه فيبتهج بسماع ما تنطق به شفتاه، فلم تزعجها كلماته على الإطلاق، لا بل لم تكن تبلغ منها سمعاً، أللهم إلا عندما قال: «انك، أنت نفسك، مسؤولة يا أم؛ لأنك لم تحسني تلقين ابنك الاحترام الواجب علينا تجاه الله والقيصر...». فأجابته في صوت خافت، من حيث كانت تقف قرب الباب ودون أن تنظر اليه:

ـ أبناؤنا هم قضاتنا، ولسوف يدينوننا كما نستحق لأننا انفضضنا من حولهم وهم يسلكون مثل هذه الدرب العسيرة.

فصاح الضابط:

ـ ماذا؟ تكلمي بصوت أعلى!

فأجابت الأم، وهي تتنهد:

ـ قلت إن أبناءنا هم قضاتنا.

فغمغم شيئاً في سرعة وغضب، لكن إعصار كلماته أخطأ الأم ولم ينل منها مأرباً.

استُدعيت ماريا كورزونوفا لتكون شاهدة على التفتيش، فوقفت إلى جانب الأم دون أن تنظر إليها. كانت تنحني متعجلة، كلما توجه الضابط إليها بسؤال ما، وتردد على الدوام ذات الجواب بذات اللهجة الرتيبة:

ـ لا أدري يا صاحب السعادة، فأنا امرأة جاهلة اكسب خبزي بتجارتي، وحمقاء حتى لا أعرف شيئاً على الاطلاق...

فيصيح الضابط بها في لهجة آمرة، وشارباه يتحركان:

ـ أمسكي لسانك عن الكلام!

فتنحني مرة أخرى، حتى إذا أدار ظهره، لوت له أنفها وهمست في أذن الأم:

ـ هذه من أجله!

عندما أُمرتْ أن تتحرى بيلاجيا راحت تطرف بعينيها، وتشخص في ذهول إلى الضابط وهي تقول في صوت مذعور:

ـ أواه! ولكنني لا أعلم كيف أقوم بمثل هذا العمل، يا صاحب السعادة!

فضرب الأرض بقدمه وصرخ في وجهها، فأسبلت ماريا جفنيها وقالت للأم خافضة الصوت:

ـ الأفضل أن تفكي أزرارك، يا بيلاجيا نيلوفنا...

اصطبغ وجهها باللون القرمزي، وهي تتحسس بيديها ملابس الأم وتهمس:

ـ تفو... يا لهم من كلاب أوغاد!

فصاح الضابط، وهو يختلس النظر إلى الزاوية حيث كانت تنجز المهمة الموكلة إليها:

ـ ماذا تقولين؟

فتمتمت ماريا مذعورة الصوت:

ـ تلك أمور نسائية، يا صاحب السعادة!

وأخيراً أمر الأم أن توقِّع الأوراق، فخطت يدها غير المجرّبة هذه الكلمات بأحرف مطبعية عريضة لمّاعة: «بيلاجيا فلاسوفا، أرملة رجل عامل».

فزمجر الضابط مكشراً:

ـ ما هذا الذي كتبتِ هنا؟ لماذا كتبتِ هذا؟

ثم أضاف، وهو يرسل ضحكة ازدراء قصيرة:

ـ يا لكم من متوحشين...

ذهبوا، فبقيت الأم قرب النافذة، وذراعاها متصالبتان فوق صدرها، تشخص في المدى البعيد أمامها دون أن تطرف عيناها، ودون أن ترى شيئاً على الاطلاق، وقد ارتفع حاجباها، وانضمت شفتاها، وانطبق فكاها بعزم وقوة حتى أحسَّت سريعاً الألم ينتابهما. وجفَّ المصباح الزيتي، فأخذت الفتيلة تنوص، والشعلة تتضاءل مرسلة هسيساً خافتاً، فأطفأته الأم وبقيت في الظلمة الحالكة. كان صدرها يطفح بشوق لا هدف له، يشدِّد الخناق عليها حتى يمنع قلبها عن الخفقان. لبثت واقفة على قدميها مدة طويلة حتى آلمتها عيناها وقدماها معاً. عندئذ سمعت ماريا ترِدُ النافذة وتناديها في صراخ ثمل:

ـ أنت نائمة، يا بيلاجيا؟ فنامي يا شهيدتي المنكودة الحظ!

فرقدت الأم دون أن تخلع ثيابها، وسرعان ما غرقت في نوم عميق غمرها مثل مياه بركة واسعة.

ورأت، فيما يرى النائم، أنها تجتاز هضبة رملية صفراء تقع وراء المستنقع، على الطريق المؤدية إلى المدينة. وكان بافل يقف على شفا

جرف يستخرج بعضُ العمال الرمال منه، وهو ينشد بصوت أندريه الهادىء الموسيقي:

إنهضوا إلى النضال، يا أيها العمال، انهضوا...

أخذت تمرُّ من أمام الهضبة، تتطلع إلى ابنها وهي تضغط جبينها بإحدى يديها. وكانت صورته تتجلى بوضوح وجلاء تامين على صفحة السماء الزرقاء، وهي لا تجسر على الدنوّ منه خجلاً لأنها كانت حاملاً، كما أنها تحمل في ذات الوقت طفلاً بين ذراعيها. وتابعت المسير حتى بلغت حقلاً يلعب فيه بعض الأولاد بطابة كبيرة. كانوا كثرة، وكانت الطابة حمراء اللون، فراح الطفل بين ذراعيها يتطاول طلباً للكرة وقد أجهش باكياً فأعطته ثديها وعادت أدراجها. لكن ثمة جنوداً كانوا يحتلون الهضبة هذه المرة، وقد صوبوا حرابهم نحوها، فأسرعت تعدو نحو كنيسة تنهض في وسط أحد الحقول، كنيسة بيضاء، أثرية، ترتفع عالياً جداً في الجو وتبدو كأنها شُيِّدت من السحب وحدها. وكان الناس يقيمون فيها مأتماً، والنعش كبيراً جداً، أسود اللون، مغلقاً بإحكام تام. وكان الكاهن والشماس يتجولان في أرجاء الكنيسة، مرتدين ثياباً بيضاء، وهما يرتلان:

هللويا، المسيح قام...

انحنى الشماس مبتسماً لها وهو يهز المبخرة في يده. كان أحمر الشعر برّاقه، ذا محيا مرح أشبه ما يكون بوجه صموئيلوف. وكانت أشعة عريضة من نور الشمس تسقط كأوشحة بيضاء من علٍ حيث الأبراج تضيع في السماء.

وفي كلا المنصّتين بعض الأطفال يرتلون:

هللويا، المسيح قام...

صاح الكاهن فجأة، وهو يقف في وسط الكنيسة:

ـ ألقوا القبض عليهم!

اختفت ثيابه البيضاء، وبدا شارب أشيب كثيف فوق شفته العليا،

فأطلق الجميع سيقانهم للريح، بمن فيهم الشماس الذي طرح المبخرة جانباً وولى الإدبار هارباً وقد أمسك رأسه بكلتا يديه على طريقة الأوكراني. وألقت الأم طفلها عند أقدام القوم الهاربين، لكنهم تجنبوه وهم يختلسون النظر بأعين مذعورة إلى جسده العاري؛ فيما جثت هي على ركبتيها وراحت تصيح بهم:

ـ لا تتركوا الطفل، خذوه معكم...

ورتل الأوكراني وهو يبتسم، مخفياً يديه وراء ظهره:

هللويا، المسيح قام...

فانحنت والتقطت الطفل ووضعته في عربة محملة بألواح من خشب، يسير فيزوفشيكوف بتماهل إلى جانبها وهو يضحك ويقول:

ـ وهكذا أعطوني عملاً ثقيلاً...

كانت الطرقات وسخة موحلة، ومن نوافذ البيوت يطلُّ بعض الناس وهم يصيحون، ويصفِّرون، ويلوِّحون بأيديهم. وكان الطقس صافياً، والشمس تشع ببهاء، وليس من أثر للظل في أي مكان.

صاح الأوكراني:

ـ رتلي، يا أميمتي! ما أروع الحياة!

وانطلق يرتل، فيعلو صوته الرنان على سائر الأصداء. وسارت الأم تتعقب خطواته. فتعثرت على حين غرة، وسقطت في هاوية سحيقة لا قرار لها هبٌّ فراغها يتجه لملاقاتها وهو يزمجر مرسلاً صفيراً حاداً مرعباً...

استيقظت وهي ترتعش، فكأن يداً ثقيلة قاسية تقبض على قلبها، وتتسلى باعتصاره في بطء وتماهل. كانت صفارة المعمل تدعو العمال في عنف وعناد، فعرفت الأم في جؤارها النداء الثاني المعتاد. وكانت الكتب والملابس مبعثرة على أرض الغرفة، والفوضى منتشرة في أرجائها، والبلاط يحمل آثار أحذية الدرك الموحلة.

نهضت، وشرعت ترتب الغرفة دون أن تعبأ بغسل وجهها أو تلاوة

صلواتها. وقعت عيناها في المطبخ على العصا، وقطعة القماش الأحمر ما برحت عالقة بها، فالتقطتها وهمّت بإلقائها تحت الموقد، ولكنها انتزعت منها وهي تتنهد بقايا القماش وطوتها بعناية وخبأتها في جيبها، وأخيراً كسرت العصا على ركبتها وطوّحت بها تحت المدفأة. ثم غسلت النوافذ والأرض بالماء البارد، وحشّت النار في السماور، وراحت ترتدي ثيابها. وعندما فرغت من ذلك جلست إلى النافذة في المطبخ تواجه السؤال من جديد:

«ما العمل الآن؟»

تذكرت أنها لم تتلُ بعد صلوات الصباح، فنهضت واقتربت من الأيقونات، وإذا هي تجلس من جديد بعد أن وقفت تجاهها بضع ثوان... لقد كان قلبها فارغاً.

كان سكون غريب حقاً يجثم في كل مكان، فكأن الناس الذين كانوا البارحة يزعقون بكل ذينك العنف والقوة في الشوارع اختبأوا اليوم في بيوتهم يفكرون بهدوء في حوادث الأمس غير المعهودة.

وفجأة، تذكرت مشهداً رأته مرة في أيام صباها... كان في الحديقة القديمة التي يملكها آل زوسايلوف حوض ماء كبير يغمره النيلوفر من سائر جهاته. ولقد لاحظت ذات يوم خريفي قاتم، وهي تمرّ إلى جانب ذلك الحوض، قارباً يتهادى في وسطه تماماً. كان الحوض أسود هادئاً، والقارب يبدو كأنه التصق بالمياه السوداء بحليتها الكئيبة المؤلفة من الأوراق الصفر. كانت رؤية هذا القارب الوحيد المجرّد عن المجاذيف، الخالي من كل كائن حي، المرتمي هناك دون حراك فوق منبسط المياه الأسوانة بين الأوراق الميتة، يبعث في النفس حزناً عميقاً غامضاً مجهول المنشأ والسبب. لقد وقفت بيلاجيا طويلاً عند حافة الحوض، تتساءل من عساه دفع بالقاربِ إلى وسط المياه، وما هي بغيته من وراء ذلك. وفي تلك العشية بلغها أن زوجة وكيل عمل في بيت زوسايلوف، وهي

امرأة صغيرة ذات شعر أسود متمرد مشعث أبداً، تمشي الأزَفَى دائماً في اضطراب، أغرقت نفسها في الحوض ذلك الصباح.

مرّت الأم بيدها على وجهها وأفكارها تسبح مرتعشة بين انطباعات الأمس المنصرم. غمرتها هذه الانطباعات واجتاحتها، فقبعت مدة طويلة تحت تأثيرها وعيناها شاخصتان أمامها إلى كأس الشاي البارد، بينما راحت تنمو في صدرها الرغبة في رؤية شخصٍ حكيمٍ بسيطٍ تتوجه إليه بالعديد من الأسئلة فيجيب عنها جميعاً.

زارها نيقولاي ايفانوفيتش بعد الغداء، وكأنه يحقق أمنيتها ومطالبها، ومع ذلك تملّكها الجزع والقلق لدن رؤيته، فأسرعت تقول في صوت خافت دون أن ترد تحيته:

ـ فيم مجيئك؟ ذلك عمل أحمق! سيقبضون عليك أنت الآخر بكل تأكيد إذا شاهدوك هنا...

شدّ على يدها بقوة وحرارة، وأصلح من وضع نظارتيه، ثم انحنى عليها حتى صاقب وجهه وجهها وقال موضحاً، والكلمات تنسال من فمه مسرعة:

ـ لقد اتفقنا، بافل وأندريه وأنا، أن آخذك إلى المدينة في اليوم التالي اذا ألقي القبض عليهما.

كان صوته لطيفاً، يطفح اهتماماً بها:

ـ هل تحرّوا البيت؟

فهتفت:

ـ نعم، لقد نبشوا كل شيء وتحروني أنا أيضاً دون خجل أو وجدان!

فسأل نيقولاي، وهو يهزُّ كتفيه:

ـ ولِمَ يخجلون؟

انهمر يشرح لها السبب في ضرورة انتقالها إلى المدينة، فأنصتت إلى صوته الرقيق الودود، وابتسامة ضئيلة تتوانى على شفتيها. لم تدرك من

حججه شيئاً، غير أنها دهشت لتلك الثقة وذلك الايمان الحنونين اللذين بعثهما في نفسها. قالت:

ـ إن كانت تلك مشيئة باشا، وكنت لا أسبب لك أي إزعاج...

فقاطعها قائلاً:

ـ لا تقلقي أبداً ولا تهتمي بهذا، فأنا أعيش وحيداً، وليس من يزورني سوى أختي من وقت لآخر.

قالت:

ـ لست أريد التهام خبزك مقابل لا شيء.

فأجاب:

ـ في وسعنا إيجاد عمل لك، إذا رغبت في ذلك!

كانت فكرة العمل عندها مرتبطة بصورة لا تنفصم عن ابنها وأندريه وبقية رفاقهما، فطفّت من نيقولاي أكثر من ذي قبل واستعلمت وهي تنظر إلى عينيه:

ـ أتستطيع ذلك حقاً؟

ـ ليس في منزلي كثير من العمل ما دمت أعزب...

فهمست في صوتٍ خافت:

ـ لم أكن أعني هذا النوع من العمل...

وأرسلت زفرة حرّى، متألمة لأنه لم يفهمها، فابتسم بعينيه القصيرتي الرؤية وقال متأملاً:

ـ إذا استطعت، يوم ترين بافل خلال زيارتك للسجن، أن تعرفي منه عنوان أولئك الفلاحين الذين طلبوا منا إصدار جريدة لهم...

فصاحت في بهجة:

ـ إني أعرفهم، ولسوف أجدهم وأفعل كل ما تريدون مني. ولن يرتاب أحد فقط في أني أزوّدهم بالمطبوعات غير المشروعة. بارك اللّه فيك، أفلم أحمل المنشورات إلى قلب المعمل؟

امتلكتها بغتة رغبة عنيفة في التطواف في أرجاء البلاد، تعبر الغابات وتجوب القرى، وعلى ظهرها خرج، وفي يدها عصا. قالت:

ـ أرجوك أن توكل إليَّ هذه المهمة، يا صديقي العزيز. سأمضي إلى سائر الأماكن. سأجد طريقي في سائر الولايات، وسأكون صيفاً وشتاءً ـ حتى الممات ـ حاجَّةً تضرب في طول الآفاق وعرضها. أهو نصيب سيىء بالنسبة إليَّ؟

اعتراها الغمُّ اذ تصورت نفسها هائمة على وجهها شريدة دون مأوى، تستجدي الناس باسم المسيح تحت نوافذ الأكواخ في القرى النائية.

أخذ نيقولاي بيدها في لطف، وربت عليها براحته الدافئة، ثم نظر إلى ساعته وقال:

ـ ستتحدث عن هذا فيما بعد!

فصاحت:

ـ يا صديقي الطبيب! اذا كان أبناؤنا، فلذات أكبادنا، يضحّون بحريتهم وحياتهم، ويموتون دونما تفكير بأنفسهم مطلقاً، فماذا يُنتظر مني إذن، أنا الأم؟

علا الشحوب وجه نيقولاي، وقال في صوت خفيض متفرساً في وجهها بانتباه حنون:

ـ إنها المرة الأولى، لو تعلمين، أسمع فيها مثل هذه الكلمات...

فاستفسرت، وهي تهزّ رأسها في أسىً، وتلوّح بيديها في حركة عاجزة:

ـ ماذا أستطيع أن أقول؟ لو كانت لديَّ الكلمات فقط كي أتحدث عما يخفق في قلبي، قلب الأم...

هبَّت على قدميها، ترفعها قوة عاتية تضجُّ في صدرها، وتجعل رأسها يدوّم في تيار من الكلمات الثائرة:

ـ إذن لبكى الكثيرون منهم عندئذ... حتى أكثرهم صفاقة وشراً...

ونهض نيقولاي أيضاً ونظر إلى الساعة مرة أخرى.

ـ إذن اتفقنا، وستنتقلين إلى بيتي في المدينة.

فأومأت بالايجاب.

وأضاف نيقولاي في لطف:

ـ متى؟ لا تتأخري بالانتقال! في الحقيقة سأظل قلقاً من أجلك ما دمت باقية هنا.

فنظرت إليه في دهشة وذهول: من هي بالنسبة إليه؟ ههنا يقف رجل في معطف أسود، مطأطأ الرأس، مقوس الظهر، قصير النظر، يبتسم في حياء... إن مظهره ليناقض طبيعته...

سأل، وهو يغضّ طرفه:

ـ ألديك نقود؟

ـ كلا!

فأسرع يدسّ يده في جيبه، ويتناول منها حافظة نقوده، ثم يدفع إليها يده ببعض النقود. قال:

ـ اليك هذا. أرجوك أن تقبليه...

فابتسمت الأم رغماً عنها، وقالت وهي تهزّ رأسها:

ـ إن كل شيء فيكم يختلف عنه في الآخرين! وحتى النقود تبدو عديمة القيمة بالنسبة إليكم! بعض الناس يبيعون حتى أرواحهم كي يحصلوا عليها؛ أما أنتم، فكأنه لا شيء عندكم. ولكأنكم لا تحتفظون بها إلا لمساعدة الآخرين فقط...

فقهقه نيقولاي في عذوبة:

ـ المال حاجة رديئة مقلقة، أخذه مزعج كثيراً، وكذلك إعطاؤه...

أمسك بيدها، وضغط عليها بشدة، ثم عاد يقول:

ـ إنتقلي في أسرع وقت ممكن!

وخرج في هدوء كعادته على الدوام.

وبعد أن شيّعته، راحت تفكر:

«يا له من رجل طيب، ولكنه لم يرث لي..»
لم تستطع أن تجزم إن كان ذلك أساء إليها، أم أنه أدهشها فقط.

2

انتقلت إلى بيته في اليوم الرابع لزيارته. عندما اجتازت العربة التي تقلُّها مع حقيبتيها الضاحية وبلغت الحقول الواقعة ما وراءها، استدارت الأم تلقي نظرة أخيرة إلى الوراء منها، فأدركت بغتة أنها تغادر إلى الأبد ذلك المكان حيث قضت أكثر مراحل حياتها صعوبة وظلاماً، وبدأت فيه مرحلة أخرى طافحة بأفراح وأتراح جديدة شرعت تلتهم الأيام سريعاً حتى لا يُشعر بمرورها.

كان المصنع، بمداخنه المتعالية في الفضاء، يستلقي على التربة المسودة بالهباب والدخان، أشبه بعنكبوت ضخم الجثة، أحمر اللون قانيه. ومن حوله تتأصص بيوت العمال الوحيدة الطبقة، غبراء اللون، قزمة الجثة، تحتشد على شفا المستنقع تماماً وهي تتراشق النظر، من خلال نوافذها الصغيرة الكئيبة، بصورة تبعث على الشفقة والرثاء. وإلى الأعلى منها كانت ترتفع الكنيسة، حمراء مسودة كالمصنع، لكن برج أجراسها ينخفض عن مداخنه فلا تستطيع أن تطاولها.

تنهّدت الأم وغيّرت وضع ياقة بلوزتها اذ أحستها تُضايقها وتُعيق تنفسها.

تمتم الحوذي، وهو يهزّ أعنة الحصان:

ـ هيا!

كان رجلاً صغيراً، مقوّس الساقين، غامض السن، ذا شعر قليل باهت اللون نما على رأسه ووجهه دون ترتيب، وعينين غاض اللون منهما تماماً، يسير إلى جانب العربة مترنحاً، وكان من الواضح أنه مبالٍ بهدف الرحلة كلها.

ـ هيا!

كان يزعق بهذه الكلمة، بين الفينة والفينة، بصوت عديم اللون، وهو ينقل رفساً، بصورة تبعث على الضحك، ساقيه المعوجتين بحذائيهما الثقيلين المغمورين بالأوحال. وحملقت الأم في ما حولها. كانت الحقول فارغة، مثل فراغ روحها تماماً...

كان الحصان يهزّ رأسه بصورة رتيبة، وهو يحرث في صعوبة بحوافره الرمل العميق المستدفىء بحرارة الشمس؛ والرمال ترسل حفيفاً؛ والعربة الكسيحة تبعث صريراً حاداً، فتتعلق هذه الأصداء بالفضاء وراءها ممتزجة بالغبار المثار بعجلاتها...

كان نيقولاي ايفانوفيتش يعيش في شارع هادىء في ضاحية المدينة، وقد استقرَّ في بيت صغير أخضر اللون ملتصق بدارة قاتمة اللون ذات طابقين تكاد أن تتداعى لقدمها... وكانت حديقة صغيرة تقوم أمام هذا البيت، بحيث كانت أغصان الليلك والأكاسيا، والأوراق الفضية لأشجار فتية من الحور، تُطلّ من خلال نوافذ غرف الشقة الثلاث. وكان كل شيء في الداخل نظيفاً ساكناً، وظلال عذبة تلقي على الأرض رسوماً مرتجفة، ورفوف الكتب تصطف على طول الجدران تحت صور أشخاص تطفح نظراتهم برزانة وجدّ عظيمين.

قاد نيقولاي الأم إلى غرفة صغيرة تشرف إحدى نافذتيها على الحديقة، وتكشف الأخرى عن فناء تطاول فيه عشب غزير، وقد امتلأت جدران هذه الغرفة برفوف الكتب أيضاً وكانت تقف عدة خزائن للكتب بالقرب منها، ثم قال:

ـ هل تكونين مرتاحة ههنا؟

فأجابت:

ـ أفضّل الإقامة في المطبخ، فهو نيِّر، ونظيف...

وتراءى لديها أنّ كلماتها ألقت الذعر في قلبه، حتى إذا رضخت أخيراً لجهوده العنيدة الممتزجة في ذات الوقت بالارتباك والحياء ـ في

إقناعها في العدول عن رأيها في العيش في المطبخ، عاد التألق في الحال يُبرِق في وجهه.

كانت الغرف الثلاث مليئة بجوّ خاص. إن المرء ليتنفس بسهولة وسرور ههنا، ولكنه يتردد في الكلام بصوت مرتفع، خوفاً أن يعكر صفو التأمل الخاشع الذي يستغرق فيه أولئك القوم الشاخصون إليه من أعلى الجدران بكل ذلك الانتباه المركز.

قالت الأم، وهي تتحسس التراب في أحواض الورد على النوافذ:

ـ يجب إرواء هذه النباتات!

فقال صاحب الورد بلهجة المذنب:

ـ أواه! نعم إني مغرم بها كثيراً. إنما لا أجد الوقت للاعتناء بها...

ولاحظت الأم، وهي تراقبه، أنه يسير في حذر وارتباك، حتى في شقته الأنيقة المستوفية لسائر أسباب الراحة، فكأن كل ما يكتنفه غريب عنه. وكان يدنو بوجهه من سائر الأشياء المختلفة في الغرفة حتى يلاصقها، وهو يصلح من وضع نظارتيه بأصابع يده اليمنى النحيلة، وينظر مضيقاً عينيه، وفي تساؤل أخرس، إلى كل ما يسترعي انتباه. وأحياناً كان يأخذ الشيء بين يديه، ويرفعه حتى يلامس وجهه، ويروح يتحسسه بعينيه بكل عناية. وشخص للأم أنه، مثلها، دخل الشقة للمرة الأولى، وأن كل شيء بالنسبة إليه، كما هو بالنسبة إليها، جديد غير مألوف، الأمر الذي طمأنها سريعاً وأراق في فؤادها الراحة والحرية في بيتها الجديد. وراحت تخبُّ في أعقاب نيقولاي، وهي تلاحظ أمكنة الأشياء ومواضعها، وتسأله عن نظام حياته فيجيبها بلهجة المذنب الذي يعلم أنه لا يتصرف كما يجدر به أن يفعل، ولكنه يدرك مع ذلك أنه لا يستطيع إلى غير ذلك سبيلاً.

سقت الورد، ورتبت أوراق الموسيقى المبعثرة على البيانو، ثم قالت، ملقية نظرة سريعة على السماور:

ـ إنه في حاجة إلى تنظيف...

فمرَّ بأصابعه على المعدن الوسخ، ثم رفعه إلى أنفه يتفحصه في جد. فلم تستطع الأم إلا أن تبتسم في عطف.

وعندما سعت إلى فراشها تلك الليلة، وطفقت تستعرض في ذاكرتها أحداث ذلك النهار، رفعت رأسها عن الوسادة، وراحت تجيل النظر فيما حولها في دهشة. كانت تقضي الليل تحت سقف غريب للمرة الأولى في حياتها، ومع ذلك فهي لا تحسُّ أدنى ضيق أو قلق. وفكرت بنيقولاي في عطف وقد امتلأت رغبة في أن تيسّر عليه الحياة، وتُبدي له من ضروب الحنان ما يضفي على وجوده الدفء والراحة. لقد تأثرت حتى أعماق قلبها من ارتباك مضيفها، وعجزه المضحك، وبعده عن مجرى حياة الناس المألوف، وأخيراً من ذلك التعبير الحكيم الصبياني في عينيه الصافيتين. ثم رجع بها فكرها إلى فتاها، فراحت حوادث أول أيار تتلاحق مرة أخرى أمام عينيها، ولكنها ملحقة بأصداء جديدة ومجنَّحة بمعنى جديد. إن ألم ذلك اليوم من نوع خاص، مثله في ذلك مثل اليوم نفسه ـ إنه لا يحني الهامة حتى الأرض كما تفعل لكمة عنيفة يدور الرأس لها، بل يحزُّ في القلب ويخزه بآلاف الإبر فيثير فيه غضباً هادئاً تنتصب به الهامة المنحنية.

«إن أبناءنا قد خرجوا قدماً إلى العالم» ـ راحت تفكر في ذلك، منصتة إلى الأصداء غير المألوفة التي تبعثها المدينة ليلاً فتتسرب مع حفيف الأوراق في الحديقة من خلال النافذة المفتوحة. كانت تلك الأصداء تأتي من بعيد جداً، متعبة باهتة، ثم تموت برفق وهدوء داخل الغرفة.

وفي بكور الغداة نظّفت السماور وأرّجت النار فيه وهيأت المائدة دونما إثارة ضوضاء.. ثم قصدت إلى المطبخ تنتظر يقظة نيقولاي. وأخيراً ظهر هذا الأخير وهو يسعل، ممسكاً بنظارتيه في يده الواحدة، وواضعاً يده الأخرى على حنجرته. وبعد أن تبادلا تحية الصباح حملت السماور إلى الغرفة المجاورة، بينما راح نيقولاي يتمسَّح بالماء وهو

يصبّه رذاذاً على الأرض ويفلت من يده الصابون أو فرشاة الأسنان، فيدمدم متأففاً من نفسه ساخطاً من خراقته.

قال لها أثناء الإفطار:

ـ عملي في إدارة الولاية كئيب للغاية، فأنا أراقب فلاحينا وهم يُفلسون...

وأضاف، وعلى شفتيه ابتسامة مذنبة:

ـ إن الجوع يقود فلاحينا إلى القبر في سن مبكرة، وأولادهم يولدون ضعفاء ثم يموتون كالذباب في الخريف. إننا نعرف هذا، ونعرف أسبابه أيضاً، لا بل نتناول أجوراً كي نراقب تلك العملية، وهذا كل ما نفعل في الحقيقة...

فسألته:

ـ أأنت طالب؟

ـ كلا، بل معلم مدرسة. أبي مدير معمل في فياتكا، أما أنا فاحترفت مهنة التدريس. ولقد رحت أعير الفلاحين في القرية كتباً، الأمر الذي ألقوا بي في السجن من أجله. وبعد ذلك عملت مستخدماً في إحدى المكتبات، ولكنهم أرسلوني إلى السجن مرة أخرى بسبب طيشي وعدم انتباهي، ثم نفيت إلى ارخانجلسك وهناك أيضاً أثرت سخط الحاكم، فأقصاني إلى قرية صغيرة على شاطىء البحر الأبيض حيث عشت طوال خمس سنوات.

كان صوته يسبح بعذوبة وتناسق في الغرفة النيّرة، المغمورة بأشعة الشمس. ولقد سمعت الأم حتى ذلك الحين كثيراً من أمثال هذه القصة، ولكنها لم تستطع أبداً أن تفهم سبباً لهدوء أولئك الذين يروونها، فكأنهم يتحدثون عن أشياء محتومة لا سبيل إلى الفرار منها.

قال:

ـ ستأتي أختي هذا اليوم.

ـ أهي متزوجة؟

ـ إنها أرملة. نفي زوجها إلى سيبيريا، ولكنه هرب منها، ومات قبل سنتين في أوروبا بداء السل...

ـ أهي أصغر منك سناً؟

فأجاب:

ـ بل تكبرني سنوات، وأنا مدين لها بالشيء الكثير. انتظري حتى تسمعي عزفها على البيانو. هذا البيانو ملكها، بل إن الكثير من هذه الأشياء تخصها على العموم، أما الكتب فملكي...

ـ وأين تقطن؟

فأجاب مبتسماً:

ـ أيّان يحتاجون إلى شخص مقدام، تكون هي هناك.

ـ أهي تشترك أيضاً في... هذا العمل؟

ـ بكل تأكيد!

وسرعان ما غادر الدار وذهب إلى ادارته، فراحت الأم تفكر في «هذا العمل»، الذي يقوم به هؤلاء الأشخاص يوماً بعد يوم في هدوء وعناد لا يتزعزعان. إنهم يثيرون فيها الإحساس بتفاهتها، فكأنها تجابه، في ظلمة الليل الدامسة، عظمة جبل هائل مهيب.

قدمت، حوالى منتصف النهار، امرأة رشيقة العود، طويلة القامة، ترتدي ثوباً أسود. وعندما فتحت الأم الباب لها، رمت حقيبتها الصغيرة الصفراء على الأرض، وأسرعت تقبض على يد الأم وتقول:

ـ أعتقد أنكِ أم بافل ميخائيلوفيتش؟

فأجابت الأم، مرتبكة تجاه ثيابها الثمينة:

ـ نعم.

فقالت المرأة، وهي تخلع قبعتها أمام المرآة:

ـ أنت مثلما تخيلتك تماماً. كتب إليَّ أخي يقول إنك ستأتين للسكن هنا. إني صديقة بافل ميخائيلوفيتش منذ زمن طويل، ولقد حدثني عنك.

كان صوتها أجش وحديثها بطيئاً، ولكن حركاتها سريعة قوية. وكانت

الخطوط الصغيرة الناعمة المرتسمة على صدغيها، والشعر الأبيض الملتمع فوق اطاري أذنيها الدقيقين، تتباين بصورة جلية مع تلك الفتوة ـ والصفاء الباديتين في عينيها الكبيرتين الرماديتين الضاحكتين.

أعلنت:

ـ إني جائعة، ونفسي تشتهي قدحاً من القهوة...

فردَّت الأم مجيبةً:

ـ سأهيئه لك في الحال!

ثم سألت بصوت خافت، وهي تتناول غلاية القهوة من خزانة الآنية:

ـ أحقاً أن بافل حدّثك عني؟

ـ كثيراً...

وتناولت المرأة علبة دخان جلدية صغيرة من جيبها، وأشعلت دخينة منها.

سألت، وهي تجوس الغرفة في غدوة ورواح:

ـ ألنت خائفة كثيراً من أجله؟

فراحت الأم تراقب شعلة المصباح الكحولي الزرقاء الصغيرة تحت غلاية القهوة وتبتسم، وقد ابتلع الفرح كل الارتباك الذي شعرت به في حضور هذه المرأة. فكرت في وليجة نفسها:

«وهكذا حدثها عني، ذلك الابن الحبيب!»

واستتلت في تماهل:

ـ بالطبع، فذلك ليس أمراً سهلاً... ولكنه كان من قبل أشدّ إيلاماً، أما الآن فإني أعلم على الأقل أنه ليس وحيداً...

سألت المرأة عن اسمها، وهي تحدق في وجهها، فأتاها الجواب:

ـ صوفيا.

فتمعنت بيلاجيا فيها ملياً. ثمة شيء فيها من الافراط فتفيض بالاندفاع والحيوية.

قالت صوفيا بلهجة التأكيد وهي تحتسي القهوة بسرعة:

ـ الأمر الرئيسي هو ألا يطول بقاؤهم في السجن، بل أن يعجلوا بمحاكمتهم ما أمكن. ولسوف نمهد لبافل ميخائيلوفيتش سبيل الفرار فور وصوله إلى المنفى. إننا لفي حاجة ماسة إليه ههنا.

نظرت الأم إلى صوفيا في تردد. كانت تفتش عن شيء تضع فيه عقب دخينتها. وعندما سحقته أخيراً في تراب أحد أحواض الورد قالت الأم بالرغم منها:

ـ هذا يضرّ الزهور ويتلفها!

فقالت صوفيا:

ـ أرجو المعذرة. إن نيقولاي يقول لي ذلك دائماً.

واستردت العقب من الحوض، ثم ألقت به من النافذة.

وفي ذات اللحظة أخذ الارتباك بمجامع الأم، فنظرت إلى وجهها نظرة المذنبة:

ـ أرجو عفوك، فأنا لم أفكر فيما قلت. كيف أجرؤ على تلقينك ما تفعلين؟

فأجابت صوفيا، وهي تهزُّ كتفيها:

ـ ولِمَ لا ما دمتُ مهملة؟ هل صارت القهوة؟ شكراً لك. ولكن لِمَ لم تصبي إلا قدحاً واحداً؟ أفلا تتناولين شيئاً بدورك؟

وعلى حين غرة أمسكت الأم من كتفيها، وجرتها إليها، وقالت مشدوهة وهي تنظر عميقاً في عينيها:

ـ هل أنت خجلى؟

فابتسمت الأم، وقالت:

ـ أتسألينني هذا بعدما صدر مني عن الدخينة بكل ذلك التسرُّع؟ ـ وأضافت، دون أن تحاول خفاء دهشتها، بلهجة فيها شيء من التساؤل:

ـ لقد جئت هذا المكان البارحة فقط، وها أنا أتصرف وكأنني في بيتي، لا أخاف شيئاً، وأقول كل ما يعنُّ على بالي...

فهتفت صوفيا:

ـ وذلك هو بالضبط ما يجب أن تفعليه!..

فتابعت الأم تقول:

ـ رأسي يدور ويدور، وأنا كالغريبة عن ذاتي. كان ينقضي زمن طويل فيما مضى قبل أن أقول لأي امرىء شيئاً من صميم قلبي، أما الآن فإن قلبي مفتوح على الدوام، وأنا أقول أشياء لم أحلم بالتفوُّه بها من قبل قط...

وأشعلت صوفيا دخينة أخرى، وصوبت بريق عينيها الرماديتين الناعمتين إلى وجه الأم.

استوضحت الأم، وهي تلقي عن قلبها عبء ذلك السؤال المقلق:

ـ قلت إنكم ستمهدون له سبيل الفرار، ولكن كيف يعيش من بعدها... هارباً؟

فأجابت صوفيا، وهي تصبُّ لنفسها قدحاً ثانياً من القهوة:

ـ ليس هذا بالأمر العسير. فلسوف يعيش مثلما يعيش عشرات سواه من الهاربين... لقد التقيت للتو بواحد منهم، وشيّعته. وهو رجل موقر جداً حكم عليه بالنفي خمس سنوات، ولكنه لم يقض هناك أكثر من ثلاثة أشهر ونصف شهر...

فحدجتها الأم بنظراتها بعض الوقت، وابتسمت، وهزت رأسها وهي تقول في نبرة خافتة:

ـ يبدو كأن أول أيار هذا فعل بي شيئاً، فلا أستطيع أن أجد نفسي الضائعة، وكأنني أسير على طريقين مختلفين في الوقت ذاته. يخيل إليَّ أحياناً أني أفهم كل شيء، ثم يضيع كل شيء في أحايين أخرى في ضباب كثيف. أنتِ مثلاً... امرأة بنت أكابر وتشتركين في هذا العمل... وأنت تعرفين بافل وتتحدثين خيراً عنه، وإني لأشكرك من أجل هذا...

فضحكت صوفيا:

ـ أنت التي تستأهلين الشكر.

فقالت الأم، وهي تتنهد:

ـ وماذا فعلت أنا؟ لست أنا التي علمته كل هذا.

سحقت صوفيا دخينتها في طبق قدح القهوة، وهزَّت رأسها فسقط شعرها الذهبي على ظهرها في كتل كثيفة، وقالت وهي تغادر الغرفة:

ـ آن لي أن أتخلص من هذه الثياب الفخمة كلها...

3

رجع نيقولاي في العشية، وفيما هم يتناولون طعام العشاء طفقت صوفيا تروي في مرح وحبور كيف التقت ذلك الفارّ من المنفى وخبأته، وكيف انتابتها المخاوف من الجواسيس فراحت تجدهم في كل من تصادفه، وكيف كان سلوك الهارب مثاراً للضحك. واكتشفت الأم في لهجتها شيئاً من التباهي والغرور، فكأنها عامل يروي قصة عمل شاق أنجزه على أكمل وجه ـ وهو سعيد بذلك.

هذه صوفيا ترتدي الآن فستاناً فضفاضاً خفيفاً رمادي اللون، يُظهرها أطول قامة، ويُضاعف من ظلمة عينيها، ويزيد حركاتها تناسقاً وهدوءاً.

أعلن نيقولاي بعد العشاء:

ـ إن مهمة جديدة تنتظرك، يا صوفيا، حدثتك أننا أخذنا على عاتقنا اصدار صحيفة خاصة بالفلاحين، فإذا نحن نفقد، بسبب الاعتقالات الأخيرة، كل احتكاك بالرجال من الريف. وبيلاجيا نيلوفنا هي الشخص الوحيد القادر على مساعدتنا في العثور على الرجل الذي سيقوم بتوزيعها، فعليك إذن أن تذهبي إلى الريف برفقتها، وإنجاز ذلك في أقرب وقت ممكن.

فقالت صوفيا، وهي لا تزال تدخن:

ـ حسناً، سنذهب... ما رأيك، يا بيلاجيا نيلوفنا؟

ـ أنا موافقة...

ـ هل المسافة طويلة؟

ـ حوالى الثمانين فرسخاً...

ـ عظيم!... والآن أودُّ أن أعزف قليلاً. أتؤمنين، يا بيلاجيا نيلوفنا، بقدرتك على احتمال عزفي بعض الوقت؟

فأجابت الأم، وهي تنسحب إلى زاوية الأريكة:

ـ لا تهتمي بي على الإطلاق. إفعلي ما يحلو لك ولا تأبهي لوجودي.

كانت ترى أن الأخ والأخت يتظاهران بأنهما لا يعيرانها انتباهاً، ولكنهما في واقع الأمر يجرّانها دائماً، في مهارة، إلى الاشتراك في الحديث.

ـ أصغ، يا نيقولاي. هذه قطعة من موسيقى غريغ، لقد جلبتها اليوم معي... أغلق النوافذ.

فتحت كناشة الموسيقى وضربت المفاتيح في رقة بيدها اليسرى، فتتالت الأوتار تغني في عمق وانسجام رائعين. ثم تلت الأصداء الأولى جملة أخرى من الأنغام، وهبَّ من تحت أصابع اليد اليمنى سرب شافّ من أصوات رنانة حلّقت في اضطراب وراحت، تدوم وتخفق بجناحيها، مثل جماعة من عصافير مذعورة، فوق قعر الأصوات الخفيضة القاتم.

لم تحرك الموسيقى أية خالجة في نفس الأم لأول وهلة، بل لم تكن تميّز في تيارها إلا تيهاً من الضجيج والأصوات. كانت أذنها عاجزة عن تمييز اللحن في بنية الأصوات المرتعشة المعقدة فإذا هي تحدّق، حالمةً، في نيقولاي القابع على الطرف الآخر من الأريكة طاوياً ساقيه تحته، يشخص إلى صورة صوفيا الجانبية القاسية المتوجة بكتلة من الشعر المذهب. وكانت الشمس تضيء بشعاعها الدافىء رأس صوفيا واحدى كتفيها، ثم تنزلق فوق صف المفاتيح لتداعب أصابعها وتلاطفها،

وتلاحق الأنغام يملأ جو الغرفة فيستيقظ قلب الأم لصوتها دون شعور واع منها.

ولسبب ما، أفاق فجأة من هاوية ماضيها السحيق ألم حاد طواه النسيان منذ زمن بعيد بعيد. ولكنه بُعث الآن إلى الحياة في وضوح مرير.

ذات ليلة، رجع زوجها إلى البيت متأخراً شديد السكر، فأمسك بها من ذراعها وجرَّها من فراشها حتى أوقعها على الأرض، ثم صاح بها وهو يرفسها في خاصرتها:

ـ هيا اخرجي من هنا، أيتها الكلبة! لقد مللت منك...

فأخذت متسارعة بين ذراعيها ابنها البالغ من العمر سنتين، ورفعته أمامها كالدرع، وهي جاثية على الأرض تدرأ عن نفسها لطمات زوجها ولكماته، وبافل يبكي يتخبط في ذراعيها، دافئاً، عارياً، مذعوراً...

زمجر ميخائيل:

ـ أخرجي من هنا!

فقفزت على قدميها واندفعت إلى المطبخ حيث ألقت بلوزة على كتفيها، ولفَّت الطفل بوشاحها، وخرجت إلى الشارع في صمت دون عبرة أو شكوى، حافية القدمين، لا يسترها إلا قميص النوم وتلك البلوزة. وكان ذلك في شهر أيار، والليل عليل عنيف الريح، وغبار الطريق يعلق بارداً بأخمص قدميها ويتغلغل بين أصابعها. وطفق الطفل بين ذراعيها يبكي ويتخبط، فضمته إلى جسدها تحت البلوزة، وهرعت عبر الشارع يلاحقها الخوف، وهي تهدهد الطفل أثناء ذلك:

ـ أو ـ أو، أو ـ أو...

انبلج الفجر فداخلها الحياء والخوف من أن يراها بعض الناس هكذا نصف عارية. فاتجهت نحو المستنقع وجلست على الأرض تحت أشجار الحور الصغيرة. جلست هناك زمناً طويلاً، تحدق في الظلام بعينين

متسعتين وهي لا تفتأ تهدهد في وجل الطفل النائم لتخفف من الألم المر الذي يحزّ في قلبها.

ـ أو ـ أو، أو ـ أو، أو ـ أو!

بينما هي جالسة هناك حلّق طائر أسود صامتاً في الفضاء فوق رأسها وابتعد في طيران سريع. لقد أيقظها الطائر من همودها ودفعها إلى النهوض على قدميها، فقفلت راجعة، مرتجفة الأوصال من البرد، نحو البيت حيث ينتظرها الخوف المألوف من الضرب والاهانة...

وتردّد رنين الوتر الأخير، وتلاشت الموسيقى وهي ترسل زفيراً بارداً لامبالياً...

استدارت صوفيا نحو أخيها، وسألته في هدوء:

ـ هل أحببتَ ذلك؟

فأجاب، وهو ينتفض كمن يُهَبُّ من النوم:

ـ كثيراً، كثيراً جداً...

وارتجف في صدر الأم ذكراها وثنّى، بينما انبثقت إلى جانبه من مكان ما الفكرة التالية:

«أنت ترين هؤلاء يعيشون معاً عيشة مسالمة ودية، لا يتخاصمون ولا يسكرون، ولا يتقاتلون لدى تناول كل كسرة من الخبز... كما يفعل أولئك في تلك الحياة المظلمة الأخرى...».

تناولت صوفيا دخينة. دخّنت كثيراً، بصورة متواصلة تقريباً. قالت:

ـ كانت هذه الموسيقى أحبّ قطعة إلى قلب كوستيا المرحوم!

وسحبت نفساً عميقاً بسرعة، وضربت وتراً أرسل نغمة ناعمة مفعمة بالكآبة:

ـ كم كنت أحبُّ أن أعزف له! ولكم كان رقيق الإحساس، تتجاوب نفسه مع كل الأشياء، ويطفح قلبه أبداً....

وفكرت الأم:

«لا ريب أنها تتحدث عن زوجها! وهي تبتسم مع ذلك...».

وتابعت صوفيا في صوت خافت، وهي تصاحب أفكارها بالعزف الرقيق:

ـ ما أكثر ما أسعدني! لكم كان يعرف كيف يعيش!

فوافق نيقولاي، وهو يلمس لحيته:

ـ بلى، ان روحاً تغني!

ألقت صوفيا بالدخينة التي أشعلتها لآونتها. واستدارت نحو الأم قائلة:

ـ آمل ألا تكون ضوضائي أزعجتك.

فلم تستطع الأم اخفاء امتعاضها:

ـ لا تعيريني التفاتاً، فأنا لا أفهم شيئاً في هذا الموضوع، بل أجلس ههنا، وأستمع اليك، وأجترُّ أفكاري الخاصة...

وقالت صوفيا:

ـ ولكنك قادرة على أن تفهمي، فمن الضروري للمرأة أن تفهم الموسيقى، ولا سيما حين تكون حزينة...

وضربت المفاتيح بقوة، فأرسل البيانو صياحاً حاداً، صياح إنسان تلقى أنباء رهيبة أصابته في صميم القلب فانتزعت منه هذه الصيحة المروعة التي ردَّت عليها أصوات فتية مذعورة وثبت متسارعة مذهولة. ومرة أخرى، ارتفعت صيحة عالية غاضبة أغرقت في ضجيجها كل شيء آخر. لا ريب أن كارثة كبرى وقعت. ولكنها تثير شعوراً إلى الغضب والنقمة أكثر منه إلى الشفقة والرثاء. وتلا ذلك صوت قوي لطيف ينشد لحناً جميلاً بسيطاً يُقنع ويُغري في وقت واحد.

امتلأ قلب الأم رغبة ملحة في التفوُّه بكلمات لطيفة توجهها إلى هذين الإنسانين. كانت سكرى بالموسيقى، فانشقت شفتاها عن ابتسامة عذبة، مقتنعة بقدرتها على أن تكون عوناً للأخ والأخت معاً.

وصعَّدت النظر فيما حولها... ماذا عساها تصنع؟ وتسللت في هدوء إلى المطهى تجمر النار في السماور.

لكنَّ ذلك لم يشبع لهفتها تجاههما. فقالت، وهي تصبُّ الشاي وترسل ضحكة مرتبكة، وكأنها تعزّي قلبها بكلمات حنون موجهة إلى نفسها مثلما هي موجهة اليهما:

ـ نحن أبناء تلك الحياة المظلمة نحسُّ كل شيء، لكنه يصعب علينا وضعه في كلمات فنخجل لكوننا، كما تريان، نفهم لكنْ نعجز عن التعبير عما نفهم. وكثيراً ما ننقم، بدافع الضمير، على ذات أفكارنا. إن الحياة لا تفتأ تنهال علينا ضرباً ولكماً من كل جانب، فنريد أن ننعم بشيء من الراحة، فتأبى أفكارنا علينا هذا النعيم.

كان نيقولاي ينظِّف نظارته وقد أذِنَ لها أحسن الأذن، بينما فتحت صوفيا عينيها الكبيرتين تحملق في الأم ناسية أن تدخن لفافتها التي كادت أن تنطفىء. كانت لا تزال تجلس إلى البيانو، وقد استدارت نحوه نصف استدارة، تداعب المفاتيح برقة من وقت لآخر بأصابع يدها اليمنى، فتختلط الأنغام في عذوبة جمة مع الكلمات البسيطة المنطلقة من أعماق القلب المعبِّر بها في عجلة عن مشاعره وإحساساته.

ـ أستطيع الآن أن أقول شيئاً عن نفسي وعن الناس الآخرين، فقد بدأت أفهم وأصبح في مقدوري أن أقارن بين الأشياء أيضاً. إن حياة الإنسان سواء في وجودنا نحن الآخرين، فليس لدينا شيء يستأهل المقارنة. أما الآن، حين أعرف كيف يعيش بقية البشر، وأتذكر كيف عشت أنا ـ فإن المرارة والآلام تتضاعف إذن.

وخفّضت صوتها، وتابعت:

ـ ربما لا أعبّر عن ذلك كما ينبغي، وربما لا معنى في التصريح بذلك على الإطلاق، فالكائنات التي مثلكم تعلم كل شيء...

غصّت كلماتها بالدموع، وابتسمت عيناها وقد حملقت فيهما قائلة:

ـ أريد أن أفتح لكما قلبي حتى تعلما كم أتمنى الخير لكما!

فقال نيقولاي بصوت رقيق:

ـ إننا نعرف ذلك جيداً!

كانت عاجزة كل العجز عن إرضاء رغبتها، فراحت تروي لهما مرة أخرى كل ما في حياتها من جديد، وما تجده عظيم الأهمية فوق كل حدود. وشرعت تتحدث عن حياتها المريرة وعن عذابها الذي صبرت عليه، تسرد ذلك كله دون غضب، ولكن في ظل من الأسف الساخر. راحت تنشر شريط تلك الأيام الرمادية القاتمة التي تؤلف حياتها السابقة، وتحصي ما أذاقها زوجها من لكمات، متعجبة هي نفسها من تفاهة الدوافع التي كانت تقود إليها، وفي الوقت ذاته من عجزها عن تفاديها . . .

كانا يصغيان إليها في صمت متأثرين بالمعنى العميق الكامن وراء هذه القصة البسيطة عن حياة كائن لم ترفعه نظرة الناس إليه عن مصاف الدَّواب، فطفق وهو يعتبر نفسه طويلاً، في خضوع ودون أدنى تذمر على الاطلاق، مثلما ينظرون إليه تماماً. وكان يبدو لهما أن آلاف الحيوانات تنطق بلسانها. إن كل ما عاشته بسيط مألوف مثل حياة الأغلبية الساحقة من الناس على وجه هذه الأرض، ولذلك تكسب قصتها معنى رمز عام شامل. وارتفق نيقولاي المائدة، واعتمد رأسه بين يديه، وقد أطمح بصره إليها يراقبها بلا حراك من وراء نظارتيه بعينين خزراوين. أما صوفيا فاعتمدت على ظهر مقعدها وهي ترتعش وتهزُّ رأسها نفياً من حين لآخر، يلوح وجهها وكأنه يزداد نحولاً وشحوباً. ولم تكن تدخن.

قالت في هدوء، وهي تطرق برأسها:

ـ لقد اعتقدت مرة أني بائسة، وخيل إليَّ أن حياتي عبارة عن هذيان ليس غير. وكان ذلك عندما كنت في المنفى في مدينة صغيرة في إحدى الولايات البعيدة، حيث لم يكن لديَّ ما أفعل أو أفكر فيه إلا شخصي وحده، فرحت لذلك أحصي كل مصائبي ما دمت لا أجد شيئاً أفضل أصنعه: لقد تشاجرت مع والدي الذي أحبه؛ وطُردت من المدرسة حيث جعلوا مني مثالاً مخجلاً، وسجنت؛ كما أن رفيقاً مقرباً إليَّ خانني. ولقد اعتُقِلَ زوجي، ثم كان السجن والمنفى مرة أخرى، ومن بَعدُ وفاة

زوجي. ولقد هُدِهِد لي أني أكثر الكائنات في العالم بؤساً وشقاء. ولكن كل مصائبي، مضروبة في عشرة أمثالها، لا تساوي شهراً واحداً من حياتك، يا بيلاجيا نيلوفنا... لقد كانت حياتك عذاباً سرمدياً يتتابع سنة بعد سنة... من أين يستقي الناس تلك القوى كي يتحملوا هذا العذاب الأليم؟

تجيب بيلاجيا، وهي تتنهد:

ـ إنهم يعتادون عليه!

وقال نيقولاي مفكراً:

ـ يخيل إليَّ أني أعرف الحياة كثيراً. عندما أطَّلع عليها عن كثب، لا في كتاب ولا في انطباعاتي المختلفة الخاصة عنها، بل حين تنتصب هي نفسها أمامي... إن ذلك لرهيبٌ إذن.. وإن التفاصيل رهيبة كذلك، وحتى التوافه أيضاً... كل تلك اللحظات التي تنسج السنوات...

استمر الحديث واتَّسع يتناول كل مظاهر هذه الحياة المظلمة. وراحت الأم تحفر عميقاً في ذكرياتها، وهي تنبش سلسلة الامتهانات والاهانات اليومية التي جعلت من صباها خوفاً صامتاً دائماً. وقالت أخيراً:

ـ ولكن ما بالي أثرثر وأثرثر، في حين آن لكما أن تذهبا إلى الفراش. لن يستطيع المرء أبداً البَوْحَ بكل ما عنده...

واستأذن الأخ والأخت منها في سكون فصوِّر لها أن نيقولاي انحنى أكثر من المعتاد، كما ضغط على يدها بقوة أكبر. أما صوفيا فرافقتها حتى غرفتها، وهمست وهي تتركها عند الباب:

ـ نوماً هنيئاً. طابت ليلتك!

كان صوتها مفعماً بالحرارة، وعيناها الرماديتان تداعبان وجه الأم في حلاوة...

تناولت الأم يد صوفيا وضغطت عليها بين كلتا يديها، وقالت:

ـ شكراً لك!...

4

بعد عدة أيام وقفت الأم وصوفيا أمام نيقولاي وهما ترتديان ثياب امرأتين فقيرتين من سكان المدن: فستانين قطنيين مهترئين وسترتين باليتين، وعلى ظهر كلتيهما خرج، وفي يديها عصا ثخينة. لقد بدت صوفيا في هذه الثياب أقصر من قامتها، ووجهها الشاحب أكثر رزانة وجداً أيضاً.

ضغط نيقولاي يد أخته بشدة وهو يودّعها، فلفت انتباه الأم مرة أخرى تلك البساطة الهادئة السائدة علاقاتهما. إنهما لا يتبادلان القبل ولا يتناديان بأسماء تحبُّبٍ، وإن كانا أبداً يُعنيان كلٌ بأمر الآخر في كثيرٍ من العطف والودّ. أما حيث عاشت الأم فقد كان الناس يتبادلون القبل وعبارات الإكرام أبداً، لكن يستمرون في الوقت ذاته يعضّون بعضهم بعضاً مثل الكلاب الجائعة.

خرجت المرأتان في صمت إلى شوارع المدينة، ومنها إلى الحقول، وهما تسيران كتفاً إلى كتف على طول طريق متّسعة عريضة، غير معبدة، تمتد بين صفين من أشجار البتولا العجوز.

سألت الأم رفيقتها:

ـ أفلن تتعبي؟

ـ أتظنين أني لم أمشِ كثيراً طوال حياتي؟ ذلك مألوف لديَّ...

وراحت صوفيا تتحدث في مرح عن نشاطها الثوري، وكأنها تروي نزوات طفولتها. لقد عاشت بأسماء مختلفة وأوراق مزوَّرة؛ وكثيراً ما تنكرت كي تفلت من الجواسيس؛ كما نقلت قناطير من الكتب غير المشروعة من مدينة لأخرى؛ ونظمت هرب كثير من الرفاق من المنفى؛ واجتازت بهم الحدود ورافقتهم إلى مدن أجنبية. أقامت مطبعة سرية في بيتها، وعندما بلغ خبرها الدرك وجاؤوا يفتشون الدار، استطاعت في لحظات معدودة قبل وصولهم أن تتنكر في زي خادمة وتولي الادبار،

ملتقية بزوارها عند بوابة المنزل. كان ذلك في الشتاء، والطقس شديد البرد، ومع ذلك عبرت المدينة بأسرها في ثوب رقيق، لا يسترها إلا وشاح من القطن ألقت به على رأسها، وفي يدها إناء البترول فكأنها تريد أن تبتاع شيئاً منه. وفي مرة أخرى قدمت إلى مدينة غريبة تزور بعض الأصدقاء، وبينا هي ترتقي السلم اكتشفت أن رجال الدرك يفتشون الجناح الذي تقصد. وكانت فرصة النكوص على أعقابها قد فاتت، فلم تتوانَ عن قرع جرس الطابق السفلي في جرأة وزرع نفسها هناك، بما لها وما عليها، عند أولئك القوم المجهولين. ولقد قالت لهم، بعد أن أوضحت حالتها بكل صراحة:

- إنكم تستطيعون تسليمي إلى الشرطة إن شئتم، ولكني لا أستطيع أبداً أن أفكر أنكم فاعلون ذلك.

ذُعروا كثيراً حتى لم يغمض لهم جفن طوال الليل، وهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يقرع بابهم. ولكنهم لم يسلموها، وفي صباح الغد ضحكوا وسخروا معها من رجال الدرك.

وفي مرة ثالثة أيضاً تنكرّت في زي راهبة، وسافرت في ذات العربة وفي المقعد المجاور لمقعد الجاسوس الموكل إليه مراقبتها. لا بل إنه راح يروي لها متباهياً مزهواً كيف يتتبع آثار تلك المرأة بكل مهارة وحنكة وكيف أنه واثق من ركوبها في قاطرة من الدرجة الثانية في القطار ذاته. وكان يغادر مقعده في كل محطة ليبحث عنها، ثم يقول للراهبة عندما يعود:

- إني لا أراها. فلا ريب أنها استسلمت للنوم. إنهم يتعبون كثيراً هم أيضاً، فحياتهم ليست أسهل من حياتنا على الاطلاق!

وضحكت الأم، وهي تختلس النظر بحنانٍ إلى صوفيا التي تروي هذه الأقاصيص. كانت الفتاة تنتقل، ممشوقة القد نحيلة القوام، بخفة وثبات على رجليها الرشيقتين، وفي مشيتها وفي حديثها، وفي رنين صوتها المرح الأجش قليلاً، وفي كل هيكلها المنتصب، شيء جريء مقدام

يطفح صحة روحية. كانت تنظر إلى كل الأشياء في فتوة، وتجدُ ما يحمل لها السرور في كل ما تقع عليه عيناها. هتفت مرة، وهي تشير إلى إحدى الأشجار:

ـ يا لها من صنوبرة رائعة!

فتوقفت الأم ونظرت إلى حيث تشير. لم يكن في الصنوبرة شيء يميزها عن مثيلاتها مطلقاً.

ضحكت، وهي ترى الريح تداعب خصلاً من الشعر الشائب فوق أذن المرأة المرافقة لها. وقالت:

ـ نعم إنها لشجرة رائعة حقاً!

ـ قُبَّرة!

التمعت عينا صوفيا الرماديتان حناناً، وخيّل إلى الأم كما لو أن جسدها ينفصل عن الأرض ويسبح نحو موسيقى القبّرة غير المنظورة، المترددة في السماء الصافية. ومن حين لآخر، كانت تنحني برشاقة لتلتقط زهرة برية تمسح أوراقها المرتعشة بأصابعها الرقيقة، السريعة الحركة، وهي تدندن لحناً فائق العذوبة.

كان هذا يجتذب الأم إلى الفتاة ذات العينين الرماديتين، وهي تسير إلى جانبها، ساعية ألا تتأخر عنها. ولكن صوفيا تتحدث في قسوة وحدة في بعض الأحيان، فترى الأم في ذلك افراطاً، وتفكر في قلق:

«ان ميخائيلو لن يحبها...»

ولكن صوفيا لا تلبث، في اللحظة التالية، أن تعود إلى الحديث في بساطة وحرارة، فتنحو الأم بصرها إليها وتبتسم.

تنهدت:

ـ يا لك من فتاة في ريعان الصبا!

فهتفت صوفيا:

ـ إني بلغت الثانية والثلاثين!

فابتسمت بيلاجيا، وقالت:

ـ ليس هذا ما أعني! مظهرك يوحي أنك أكبر سناً أيضاً. ولكنني عندما أصغي إليك، وأنظر في عينيك، تأخذني الدهشة دائماً... لتشبهين كل الشبه صبية صغيرة. لقد كانت حياة صعبة قاسية مضطربة، وخطرة أيضاً ومع ذلك فإن قلبك يبتسم أبداً.

ـ إني لا أحس بصعوبة الحياة، أعتقد أنه ليس ثمة إنسان حياته أفضل وأكثر متعة من حياتي... لسوف أناديك باسم أبيك... نيلوفنا. فاسم بيلاجيا لا يليق بك.

فقالت الأم مفكرة:

ـ ناديني كما تشائين، كما تشائين ما دام ذلك يروقك. إني لا أفتأ أنظر إليك وأصغي بسمعي وأفكر. وإنه ليسعدني أنك وجدت السبيل الذي يقود إلى القلب البشري، فليس من يمتنع عن الاعتراف لك بكل ما يجري في باطنه دون وجل أو خلجة خوف مطلقاً. إنه يفتح لك قلبه من تلقاء نفسه. وإني أتأمل فيكم جميعاً، فلا تفارقني هذه الفكرة لحظة: إنهم سينتصرون أخيراً على الشر في الحياة، لا بدَّ أنهم منتصرون!

فقالت صوفيا في صوت مرتفع، وبلهجة مَنْ يثق بما يقول:

ـ إننا سننتصر لأننا متحدون مع العمال! إن كل الامكانيات تكمن فيهم، وكل شيء يمكن تحقيقه معهم! ينبغي فقط أن نوقظ وعيهم حتى يكون حراً في تنمية...

أثارت كلماتها احساسات مختلفة في قلب الأم، ولسبب لم تدرِ له كنهاً أشفقت على صوفيا، وكان إشفاقها ودياً عطوفاً، لا أثر للإساءة فيه. وودَّت أن تسمعها تقول كلمات أخرى، كلمات تكون أبسط مما قالته.

سألت في هدوء وكآبة:

ـ ومن سيكافئكم على جهودكم؟

فأجابت صوفيا:

ـ لقد نلنا مكافأتنا!

وبدا للأم أن الكلمات ترنُّ في اعتزاز وفخر.

ـ لقد وجدنا طريقة في الحياة ترضينا. إننا نعيش بكل القوى الروحية التي فينا... ما عسانا نسأل الحياة غير هذا؟

نظرت الأم اليها وأطرقت بناظريها. وفكرت مرة أخرى:

«إن ميخائيلو لن يحبها...»

كانتا تسيران بخفة، ولكن دون عجلة، تعبّان الهواء الرقيق، فيؤتى للأم أنها تذهب في حج إلى بعض الأمكنة المقدسة. وتذكرت الفرح الذي كان يملأ قلبها في طفولتها، عندما كانت تغادر قريتها لتحضر بعض الخدمات الكنسية في بعض الأعياد في دير بعيد فيه أيقونة عجائبية.

وكانت صوفيا تُنشد في بعض الأحيان مقطوعات من الأغاني الجديدة عن السماء أو عن الحب بصوت ناعم حنون، أو تلقي بعض القصائد عن الحقول والغابات والفولغا، فتستمع الأم اليها وتبتسم، وهي تهزُّ رأسها، دون إرادة منها، بصورة موزونة مع الشعر الذي تغمرها موسيقاه وتسحرها.

كان كل شيء في داخلها دافئاً، هادئاً، مستغرقاً في التفكير، فكأنها في تلك الحديقة الصغيرة القديمة، ذات أمسية من الصيف الجميل.

5

بلغتا غايتهما في اليوم الثالث، فتوجهت الأم بالسؤال إلى فلاح يعمل في الحقول تستفهم منه عن موقع معمل القطران، وسرعان ما كانتا تنحدران على طول ممرّ مائل وعر أرومات الأشجار فيه أشبه بدرجات سلم حقيقي، أفضى بهما إلى ساحة مستديرة تغصُّ بالفحم ونشارة الخشب، وقد تلطّخت في كل أرجائها بالقطران الكثيف.

قالت الأم، وهي ترشق النظر فيما حولها بقلق:

ـ ها نحن أخيراً هنا!

وتبيَّنتا، تجاه كوخ مبني من الخشب وأغصان الأشجار، منضدة مصنوعة من ثلاثة ألواح من الخشب سُمِّرت إلى أوتاد طويلة غُرست عميقاً في الأرض، وقد جلس إليها ريبين، ملطخاً بالقطران من رأسه حتى قدميه، محلول أزرار القميص، بادي الصدر العاري، برفقته يفيم وشابان آخران يتناولون طعام الغداء. كان ريبين أول من لمح المرأتين، فاستكفَّ بيده وقبع ينتظر في سكون.

صاحت الأم به عن بعد:

ـ أسعدت نهاراً أيها الأخ ميخائيلو!

فنهض، وقَحَم إليهما على مهلَته. وعندما عرف الأم توقف مبتسماً، وهو يمشّط لحيته بيده السوداء. قالت الأم مقتربة منه:

ـ كنا في طريقنا إلى الحج، فقلت في نفسي: فلنمرَّ من هنا كي ألقي السلام على أخي. هذه صديقتي واسمها أنّا...

حشّفَتْ عينيها، فخوراً ببراعتها، ترنو إلى وجه صوفيا الرزين والوقور.

قال ريبين وهو يصافحها وينحني لصوفيا، مفترُّ الثغر عن ابتسامة كئيبة:

ـ نَعِمتِ نهاراً! لا تكذبي، فلسنا في المدينة الآن، وليس من حاجة إلى اختلاق الأكاذيب ههنا! الجميع ليسوا غرباء...

تفحّص يفيم الزائرتين ملياً من حيث يجلس إلى الطاولة، وقال شيئاً لصاحبيه بصوت خفيض عميق. وعندما أطفّت المرأتان من الطاولة نهض وانحنى لهما في صمت، أما رفيقاه فظلا دون حراك وكأنهما لم يلحظا الضيفتين.

أعلن ريبين، وهو يربت على كتف الأم في لطف:

ـ إننا نعيش ههنا كالرهبان، وليس من يأتي لرؤيتنا أبداً. لقد ذهب المدير من القرية، ودخلت زوجته إلى المستشفى، وأنا وحدي أتحمل

مسؤولية العمل. اجلسا. لا ريب أنكما بحاجة إلى الطعام. هلا أدركتهما بشيء من الحليب، يا يفيم!

ولج يفيم الكوخ متمهلاً، بينما تخلصت المسافرتان من حملهما. ونهض أحد الشابين يساعدهما، وهو فتى نحيل العود طويل القامة، في حين ظل رفيقه مربوع القامة أشعث الشعر، مستنداً إلى المنضدة بمرفقيه يراقبهما متأملاً، وهو يحكّ رأسه ويدندن لحناً في الوقت ذاته.

كانت رائحة القطران الحادة، الممتزجة برائحة أوراق الشجر المتعفنة الخانقة، تحاصر المرأتين وتجعل رأسيهما يدوران.

قال ريبين، مشيراً إلى الفتى الطويل:

ـ إنه يدعى ياكوف. أما الآخر فأغناطي. حسناً، كيف حال ابنك؟

فأجابت الأم، وهي تتنهد:

ـ إنه في السجن!

فهتف ريبين:

ـ مرة أخرى؟ لا ريب أن السجن راقه...

كفَّ أغناطي عن الغناء، أما ياكوف فتناول العصا من يد الأم قائلاً:

ـ إجلسي!...

وقال ريبين، موجهاً الكلام إلى صوفيا:

ـ ما بالك واقفة هكذا؟ إجلسي!

جلست صوفيا على جذع شجرة تتفحص ريبين بإمعان.

اتخذ ريبين مجلسه قبالة الأم، وهزَّ رأسه وقال:

ـ متى أوقفوه؟ أنت معدومة الحظ، يا نيلوفنا!

فردَّت:

ـ لا بأس في ذلك!

ـ لقد اعتدته؟

ـ كلا، لم أعتده... بل أرى جيداً أنه لا حيلة لي فيه.

ـ وَيْ! حسناً، هاتي حدثينا عن ذلك...

جاء ييفيم بإبريق من الحليب، وتناول قدحاً عن المائدة، وغسله، وملأه بالحليب ثم قدمه إلى صوفيا، مرهفاً السمع أثناء ذلك إلى رواية الأم. كان حريصاً على ألّا يثير ضوضاء، فيتحرك في هدوء وحذر فائقين. وعندما انتهت الأم من روايتها المقتضبة ساد الجميع صمت عميق لم يتبادلوا النظر أثناءه أبداً. كان أغناطي جالساً إلى المنضدة يحكُّ ألواحها الخشبية بأظافره، أما ييفيم فوقف خلف ريبين مرتفقاً كتفه، بينما استند ياكوف بظهره إلى جذع إحدى الأشجار متصالب الذراعين، مطأطأ الرأس. وجثمت صوفيا في صمت تتفحص شزراً وجوه الفلاحين...

همهم ريبين في نغمة متاقلة شرسة:

ـ همْ ـ مْ ـ مْ... هكذا إذن ـ على المكشوف!

وقال ييفيم، وعلى شفتيه ابتسامة مرَّة:

ـ لو أننا نظمنا يوماً مظاهرة كهذه هنا، لضَرَبنا الفلاحون حتى الموت! ـ فوافق أغناطي بحركة من رأسه:

ـ بكل تأكيد سوف يضربوننا. كلا، سأذهب والتحق بأحد المصانع. فالأمور هناك أفضل بكثير...

وسأل ريبين:

ـ تقولين إنهم سيقدِّمون بافل إلى المحكمة؟ ما نوع الحكم الذي سيصدرونه عليه؟ هل بلغك شيء عن هذا؟

فأجابت في هدوء:

ـ الأشغال الشاقة، أو النفي المؤبد في سيبيريا...

فاستدار إليها الفتيان الثلاثة في وقت واحد في حين خفَّض ريبين رأسه واستوضح في نغمة متماهلة:

ـ أكان يعرف ما ينتظره عندما ارتكب فعلته؟

فردَّت صوفيا بصوت مرتفع:

ـ أجل، كان يعرف!

فسكن الجميع حتى لا حراك بهم، وكأن فكرة واحدة باردة جمَّدتهم.

وتابع ريبين في قسوة وخطورة:

ـ هكذا إذن... وأنا أعتقد أيضاً أنه كان يعرف ذلك. فهو إنسان رزين ولا يقفز الا بعد أن يعرف ما ينتظره. هل سمعتم هذا، أيها الفتيان؟ لقد كان يعلم أنهم سيغمدون حرابهم في جسده، أو يرسلون به إلى الأشغال الشاقة، ولكن هذا لم يوقفه... ولو أن أمه نفسها اعترضت سبيله، لخطا من فوقها دون تردد. أما كان يفعل ذلك، يا نيلوفنا؟

فقالت الأم، وهي ترتعش:

ـ بلى، كان يفعل!

تنهدت بعمق، وتطلعت حولها، فربتت صوفيا بلطف على يدها، بينما راحت تحدج ريبين بقسوة وقد تغضن جبينها.

قال ريبين في هدوء، وهو يغمر الجميع بعينيه السوداوين:

ـ يا له من إنسان!

مرة أخرى لاذ الأشخاص الستة بالصمت. كانت شعاعات رائعة من الشمس تتعلق في الفضاء مثل أشرطة زاهية مذهبة، وفي مكان ما ينعق غراب بشع الصوت. وراحت الأم تحمّج عينيها في الأشياء المحتفّة بها، وقد أزعجتها ذكريات أول أيار، واشتياقها إلى بافل وأندريه معاً. وكانت براميل فارغة من القطران مبعثرة في الساحة الصغيرة، مختلطة هنا وهناك بجذوع أشجار مشذبة مقطوعة عن أرومتها. فيما التفت حول الساحة أشجار السنديان والبتولا منتصبة دون حراك يوحّد الصمت بينها، وهي تلقي على الأرض ظلالاً دافئة سوداء.

وعلى حين بغتة صدَر ياكوف عن الشجرة، وخطا جانباً ثم توقف واستفسر في جفوة وبصوت مرتفع، وهو يرمي رأسه إلى الخلف:

ـ أضدَّ فتيان مثله سيرسلون بنا، أنا وييفيم؟

فأجاب ريبين:

ـ وضدَّ من تظنهم سيرسلون بكما إذن؟ إنهم يستعملون ذات أيدينا ليخنقونا بها. ذلك هو سر اللعبة كلها!

أعلن ييفيم في عناد وبصوت خفيض:

ـ ولكنني سأكون جندياً على أية حال!

وصاح أغناطي:

ـ ومن يمنعك عن ذلك؟ هيا اذهب!

وأضاف، باعثاً ضحكة قصيرة وهو يحدج ييفيم بعينيه:

ـ لكن اعمل على تسديد المرمى إلى رأسي تماماً عندما تطلق النار عليَّ... لا تجعل مني مُقعداً، بل اقتلني رأساً، بطلقة واحدة!

فردَّ عليه ييفيم في حدة وجفوة:

ـ سمعت منك هذا قبلاً!

وقال ريبين، وهو يرفع يده متماهلاً:

ـ إنتظروا لحظة، أيها الفتيان. هذه امرأة (وأشار إلى الأم)، لا ريب أن الأمر انتهى بالنسبة إلى ابنها...

فسألته الأم في ألم وهدوء:

ـ فيمَ تقول هذا؟

فأجاب في وقار:

ـ ضروري! ضروري. إن شعرك لن يشيب عبثاً. هل تعتقدون أنهم قتلوها بما فعلوا بابنها؟ نيلوفنا، هل جئت بالمنشورات؟

فحدجته الأم بنظرها، ثم وافقت بعد صمت قصير:

ـ نعم...

فزمجر ريبين، وهو يضرب المائدة براحة يده:

ـ هل رأيتم؟ لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها فيها. وإلا فما الذي جاء بكِ حتى هذا المكان؟ هل أدركتم هذا؟ لقد انتزعوا ابنها من بين الصفوف... فأخذت أمه مكانه!

وأرسل يميناً مغلظة، وهو يهز قبضته في الفضاء مهدداً.

نظرت الأم في وجهه، وقد ذعرت لصياحه هذا، فألفته تبدل كثيراً: أصبح أكثر نحولاً، واضحت لحيته شعثاء، تبدو من تحتها عظام وجنتيه البارزة، وقد ظهرت في بياض عينيه المزرق أوردة حمراء دقيقة، فكأنه لم ينمْ منذ زمن طويل، وانقرس أنفه وتقوس فأضحى كمنقار عصفور مفترس. وكان قميصه المفتوح، الأحمر اللون فيما سبق من الزمان والمشرَّب الآن بالقطران الفاحم، يكشف عن عظام ترقوتيه الناتئتين، وشعر صدره الكثيف الأسود. وكان مظهره العام أكثر عبوساً واكتئاباً منه في أي وقت مضى، وفي عينيه الملتهبتين تتأجج نار غضبى تضيء وجهه القاتم.

كانت صوفيا تجلس في صمت، وازداد شحوبها، معلقة أنظارها أبداً بهؤلاء الفلاحين. أما أغناطي فيهزُّ رأسه وقد زوَّى ما بين عينيه؛ بينما راح ياكوف، وقد اتخذ مكانه من جديد بجانب الكوخ، ينزع بأصابعه القاتمة في عصبية بعض قشور الألواح القريبة منه، ويفيم يتمشى في بطء جيئة وغدوة على طول المنضدة، خلف ظهر الأم. واسترسل ريبين يقول:

ـ قبل فترة قصيرة دعاني مدير ناحيتنا إليه، وقال لي: «ما هذا الذي ترويه للكاهن، أيها الوغد؟». فقلت له: «إني أكسب خبزي بعرق جبيني، ولا أنال أحداً من الناس بأذى، فلماذا تقول إنني وغد؟» فأخذ يزعق في وجهي، ولطمني على أسناني، ثم ألقى بي في مخفر الشرطة طوال ثلاثة أيام. ولقد فكرت: «إذن فهكذا أنتم تخاطبون عامة الناس، أليس كذلك؟ إذن فلا تنتظر منا أن ننسى ذلك، يا أيها الشيطان! فإذا لم أثأر منك أنا، فان سواي سيفعل، ويثأر لإهانتي منك أو من أولادك ـ لا تنسَ هذا! لقد حرثتم صدور الناس بمخالبكم الفولاذية هنا، وزرعتم الحقد هناك، فلا تنتظروا إذن أية رحمة، أيها الأبالسة»! تلك هي القضية!

كان برمته يفيض بما يفور في صدره من غيظ عنيف، وفي صوته نبرات أثارت الذعر في قلب الأم.

وتابع في هدوء أعظم من ذي قبل:

ـ وما الذي قلته للكاهن؟ كان يجلس إلى بعض الفلاحين يتحدث إليهم بعد أن قام بجولته المعتادة في القرية، يتحدث إليهم قائلاً ما معناه إن عامة الناس قطيع من الغنم يحتاج أبداً إلى من يرعاه. حسناً، لقد قلت له في مزاح: «إذا أقاموا الثعلب مرة رئيساً في الغابة، فإن الأرياش هي التي ستطير بدل العصافير!» فألقى نظرة إلي شزراً، وراح يعظ كيف ينبغي للناس أن يصبروا طويلاً، وأن يصلوا إلى اللّه كي يهب لهم القوة لتحمل مصائبهم بصبر. فقلت له عندئذ: الناس لا ينقطعون عن الصلاة في حالهم الحاضرة، ولكن اللّه فيما يبدو مشغول جداً عن الاصغاء إليهم ما دام لا يستجيب لأية صلاة من صلواتهم. حسناً، سألني عندئذ عن الصلوات التي أتلوها، فأجبته: صلاة واحدة لم تتبدل طوال حياتي، مثلي في ذلك مثل عامة الناس. أيها الرب العزيز، أرجو أن تعلمني كيف آكل الحجارة، وكيف أبصق ألواح الخشب، وكيف أجر قطع القرميد إلى قصور الأسياد! ولكنه لم يعطني الفرصة كي أنهي كلامي.

وانقطع ريبين بغتة عن حديثه، وسأل صوفيا:

ـ أأنتِ سيدة من عائلة النبلاء؟

فسألت صوفيا بسرعة، وهي تنتفض دهشة:

ـ لِمَ من عائلة النبلاء؟

فقال ريبين ضاحكاً:

ـ لِمَ؟ لأنك ولدت هكذا! إنه نصيب كل إنسان أن يكون ما وُلِدَ. حسناً، أتظنين أنه في استطاعتك إخفاء خطايا الأسياد تحت هذا الوشاح القطني الذي تغطين رأسك به؟ إننا نعرف الكاهن ولو رأيناه محزوماً في كيس من الخيش. أنت ترتعشين وتكشرين إذا وقع مرفقك على سائل أهرق على المائدة. وإن ظهرك لكثير الاستقامة بالنسبة لامرأة عاملة...

فتدخَّلت الأم في الموضوع، وهي تخاف أن تؤذي كلماته القاسية وضحكة الساخر شعور صوفيا. قالت بسرعة وفي نغمة صارمة:

ـ إنها صديقتي، يا ميخائيلو إيفانوفيتش، وامرأة طيبة رائعة. لقد شاب شعرها وهي تعمل في سبيل قضيتنا. إنك تذهب إلى أبعد مما ينبغي...

فأطلق ريبين زفرة عميقة، وقال:

ـ ولكني لم أقل شيئاً يسيء إلى أي إنسان كان!

فعقّبت صوفيا في جفاء بعد أن ألقت نظرة سريعة إليه:

ـ أظنك كنت تريد أن تقول لي شيئاً!

ـ أنا؟ آه، نعم! لقد جاء إلى هنا، قبل زمن غير بعيد، رجل جديد هو ابن عم ياكوف. إنه مريض بالسل. هل أرسل في طلبه؟

فجزمت صوفيا:

ـ بكل تأكيد!

فحدجها ريبين من خلال عينيه المتضيقتين، ثم التفت إلى يفيم قائلاً في رنين خافت:

ـ إذهب واطلب إليه أن يأتينا هذا المساء.

فتناول يفيم قبعته، واختفى في الغابة متماهلاً دون أن يقول شيئاً أو ينظر إلى أحدٍ من الحاضرين. وأشار ريبين نحوه برأسه، ثم أعلن بصوت خافت:

ـ إنه يتألم كثيراً هذه الأيام! وسيُطلب قريباً مع ياكوف إلى خدمة العلم. وياكوف لا يهتم بذلك، بل يقول: «لست أستطيع الذهاب». وذلك لا يستطيع الذهاب أيضاً، ولكنه سيذهب مع ذلك... وهو يعتقد أن في مكنته تحريض الجنود. أما أنا فأظن أن المرء لا يستطيع تحطيم الجدار بضرب جبينه عليه... يكفي أن ينظر المرء إليهم... إذا وُضعت حربة في أيديهم مرة انطلقوا لا يلوون على أي شيء آخر. وقد تألم كثيراً بسبب ذلك، وأغناطي هذا يضرب دائماً على ذات الوتر. هذا عبث كله!

فقال أغناطي مكتئباً، من غير أن يتطلع إلى ريبين:

ـ بل على العكس! إنهم سيطبخونه هناك، لسوف يطلق الناس من أجلهم مثل الآخرين تماماً...

فأجاب ريبين متفكراً:

ـ لا أصدّق هذا وإن كان يفضل ألا يذهب مطلقاً. إن روسيا بلد واسع ـ فأين يمكنهم العثور عليه؟ عليه أن يحصِّل جوازاً مزيفاً ثم يتنقل من قرية إلى أخرى...

فأفاض أغناطي، وهو يلطم قدمه بقضيب رفيع:

ـ هذا ما سأفعل أنا! فإذا أنت قررت أن تكافحهم مرة فلا بدَّ لك من الذهاب قُدُماً باستمرار!

انقطع الحديث. كانت جموع النحل والزنابير تحوم في الفضاء في انهماك واضطراب، مالئة الهواء بدويِّها المزعج. وكانت العصافير تزقزق، وأغنية بعيدة تنسرق عبر الحقول على غير هدى.

قال ريبين بعد صمت قصير:

ـ حسناً، حان وقت العودة إلى العمل... لعلكما تودّان أن تنالا بعض الراحة. ثمة دكة في الكوخ. إذهب واجمع بعض الأوراق الجافة، يا ياكوف... أما أنت، يا أماه، فأعطيني المنشورات...

شرعت الأم وصوفيا تحلّان خرجيهما. قال ريبين مبتهجاً، وهو ينحني فوق الخرجين:

ـ ما أكثر ما جلبتما! ألأنت تشتركين في هذا العمل منذ زمن طويل، يا... ما اسمك؟

فأجابت صوفيا التي وجّه إليها السؤال الأخير:

ـ أنّا إيفانوفا. اثنتا عشرة سنة... لِمَ السؤال؟

ـ لا شيء تحديداً. لا ريب أنك دخلت السجن؟

ـ نعم...

فقالت الأم بلهجة عتاب وفي هدوء:

ـ هل ترى؟ ولقد كنتَ قاسياً في كلامك بحضورها...

فغمغم بعد فترة صمت تناول خلالها رزمة من الكتب:

ـ لا تغضبي! إن السادة والفلاحين يشبهون القطران والماء، لا يتمازجون!

فاعترضت صوفيا، وهي ترسل ضحكة قصيرة:

ـ ولكني لست من الأسياد. أنا كائن بشري!

فردّ ريبين:

ـ ربما! يقال إن الكلاب كانت ذئاباً فيما غبر من الزمن. أنا ذاهب أخبىء هذه الأشياء.

فاقترب منه أغناطي وياكوف وقد مدّا أيديهما. قال أغناطي:

ـ دعنا نطلع عليها!

فسأل ريبين صوفيا:

ـ أمحتوياتها واحدة؟

ـ كلا، بينها بعض الصحف...

ـ حقاً؟

وأسرع ثلاثتهم يدلفون إلى الكوخ. بينما راحت الأم تشيّع ريبين بنظرها، وهي تقول مفكرة متأملة:

ـ إن الفلاح يلتهب!

فردّت صوفيا، بصوت خافت:

ـ أجل، لم أرَ مثل وجهه من قبل ـ وجه شهيد. فلندخل نحن أيضاً. لفي نيّتي مراقبتهم...

فقالت الأم في وداعة ولطف:

ـ لا تغضبك قسوته...

فضحكت صوفيا، وقالت:

ـ ما أطيبك، يا نيلوفنا!

لما بلغتا العتبة رفع أغناطي رأسه، وجسّهما بنظرة سريعة، ثم أرسل

أصابعه في شعره المجعد، وانحنى فوق الصحيفة المنشورة على ركبتيه. كان ريبين يقف تحت شعاع من الشمس يتسلل من فرجة في السقف، وهو يقرأ صحيفته على نوره، ويحرك شفتيه أثناء ذلك. أما ياكوف فقد جثا أمام الدكة مستنداً إليها بصدره وراح يقرأ هو الآخر.

عبرت الأم الكوخ إلى إحدى زواياه وجلست، بينما وقفت صوفيا خلفها وقد وضعت إحدى يديها على كتفها تراقب الرجال في سكون.

قال ياكوف في هدوء، دون أن يرفع رأسه عن صحيفته:

ـ إنهم يشبعوننا شتماً، نحن الفلاحين، أيها العم ميخائيلو!

فأرْغَفَ اليه ريبين، وضحك ضحكة قصيرة قائلاً:

ـ ذلك لأنهم يحبوننا!

فنشق اغناطي الهواء عميقاً، ورفع رأسه ونبر مغمض العينين:

ـ الصحيفة تقول هنا: «لقد كفّ الفلاح عن أن يكون كائناً بشرياً». بالطبع هذا ما حدث!

ومرَّ على وجهه البسيط الصريح السيماء ظلٌّ إهانة وإذلال.

ـ تعال وتسلق مكاني نفسه، أيها الرجل الذكي، وابقَ ههنا مدة، ولسوف أرى ماذا تشبه عندئذ!

وقالت الأم لصوفيا في هدوء:

ـ سأضطجع قليلاً. فأنا متعبة نوعاً ما، هذه الرائحة تجعل رأسي يدور. وأنت؟

ـ لا أريد.

تمدَّدت الأم على دكة في الزاوية وشرعت ثقلة الكرى تدبُّ في أجفانها. وجلست صوفيا إلى جانبها تراقب القرَّاء، وهي تطرد في رفق وحنان كل نحلة أو زنبور يقترب من وجه الأم فيعكّر صفوَ راحتها. ولاحظت الأم، من خلال أهدابها المسبلة، هذا الرفق، وكانت راضية به.

زرفَ ريبين إليهما، وقال في همس أجش:

ـ نائمة؟

ـ نعم.

فوقف فترة يتطلع في وجه الأم في سكون، ثم تنهد وقال في صوت خفيض:

ـ إنها الأولى، كما أعتقد، التي تبعت ابنها في هذه الطريق. إنها الأولى!

ـ يجب ألا نزعجها. هيا بنا...

ـ نعم. يجب أن نعود إلى العمل. وبودّي أن أحادثك قليلاً، ولكن لا بدَّ من تأجيل ذلك حتى المساء! هيا بنا، أيها الفتيان...

وخرج الثلاثة مخلفين صوفيا وراءهم عند الكوخ. وجعلت الأم تفكر: «شكراً للَّه على أنهم تصادقوا...».

واستغرقت في النوم، ورائحة الغابات والقطران الحادة تملأ أنفها.

6

رجع العمال الأربعة مبتهجين بانصرام يوم العمل، فأيقظت ضوضاء أصواتهم الأم التي خرجت من الكوخ تتثاءب وتبتسم، وتلقي عليهم نظرة حنوناً وهي تقول:

ـ أنتم هناك تعملون، وأنا أنام ههنا مثل سيدة!

فأجاب ريبين:

ـ أنت معذورة في هذا!

كان أكثر هدوءاً بعد أن بعثر الإجهاد انفعاله وهياجـه.

تابع ريبين يقول:

ـ أغناطي، ما رأيك في قليل من الشاي؟ نحن نتناوب الدور هنا، واليوم دور أغناطي في الإشراف على الطعام والشراب!

وردّ أغناطي:

ـ لو وجدت من يبادلني نوبتي هذا اليوم!

شرع يجمع العيدان وبعض الأغصان اليابسة ليجمّر بها ناراً، وأصغى السمع إلى الحديث.

فقال ييفيم، وهو يجلس إلى جانب صوفيا:

ـ إننا كلنا نهتم بالضيفتين!

وقال ياكوف في هدوء:

ـ سأساعدك يا أغناطي!

هَدَفَ إلى الكوخ ورجع برغيف من الخبز قطَّعه أقساماً صغيرة وضعها على الطاولة.

قال ييفيم:

ـ أصغوا! أسمع صوت سعال...

فأصاخ ريبين بسمعه، وهزَّ رأسه موافقاً:

ـ أجل، إنه ذاهب...

ثم التفت إلى صوفيا موضحاً:

ـ هذا شاهد حي قادم. لو كان بوسعي لذهبت به من مدينة لأخرى أعرضه في الساحات العامة حتى يتمكن الناس من سماعه! إنه أبداً يعزف على الوتر نفسه، ولكن واجب كل إنسان أن يعيره أذنيه.

ازداد الظلام والسكون عمقاً، ورقّت أصوات الرجال وعمرت عذوبة، وراحت صوفيا والأم تراقبان هؤلاء الفلاحين: إنهم يتحركون في بطء وتثاقل، وفي شيء من الحذر أيضاً. ويراقبونهما بدورهم أيضاً في أناة وانتباه.

وبرز من الغابة شخص طويل القامة، محدودب الظهر، يعتمد في مسيره المتمهل على عصا غليظة، ويتنفس بصعوبة جمة لم تخفَ على أحد من الحاضرين.

قال:

ـ ها أنذا!

وراح في نوبة عنيفة من السعال.

كان يرتدي معطفاً مهترئاً يبلغ عقبيه، ومن تحت قبعته المستديرة المكرمشة تبدو خصل ناحلة من شعر أصفر مسبل تتدلى على صدغيه في إهمال وضعف. وكانت له لحية شقراء ووجهه الشاحب بارز الوجنتين، فيما لا تبرح شفتاه منفرجتين أبداً، وعيناه تبرقان في حمى شديدة وهما تغوصان في محجريهما الغائرين اللذين أشبها بكهفين قاتمين مغرقين في الظلمة. توجه إلى صوفيا قائلاً، بعد أن قدمها ريبين إليه:

ـ بلغني أنك جلبت كتباً معك؟

فأبانت:

ـ أجل.

ـ شكراً لك، بالنيابة عن الشعب بأسره... إنه نفسه لا يستطيع إدراك الحقيقة بعد. أما أنا الذي أعرفها فأشكرك... بالنيابة عنه.

وتسارع تنفسه، وهو يختطف الهواء بجرعات صغيرة نهمة. كان صوته متكسراً متقطعاً، وأصابعه الرقيقة تنزلق باستمرار على صدره بعصبية ظاهرة وهو يحاول أن يزرِّر معطفه.

قالت صوفيا:

ـ قدومك عبر الغاب في مثل هذه الساعة المتأخرة من المساء أمر لا يصلح لك، فالأشجار المورقة تجعل الهواء رطباً ثقيلاً!

فأجاب لاهثاً منقطع الأنفاس:

ـ لم يعد شيء يصلح لي اليوم. الموت وحده يصلح لي الآن...

كان الإنصات إلى صوته يؤلم كثيراً، ومجمل شخصه يثير في النفس تلك الشفقة الفائضة العديمة النفع، المدركة عجزها بحيث تبعث في الإنسان مزيجاً من الأسف والمرارة الشديدين. واقتعد القادم أحد البراميل، وهو يطوي ركبتيه في حذر وحيطة كثيرين، فكأنه يخاف أن تنكسرا؛ ثم شرع يمسح العرق عن جبهته حيث كان شعره جافاً عديم الحياة.

وحبجبت النار والتظت، فاضطرب كل ما يحيط بها وترنح، واندفعت الظلال التي لحسها اللهيب نحو الغابة في ذعر، بينما لاح وجه أغناطي المستدير بوجنتيه البارزتين فوق النار برهة من الزمن. ثم خبا اللهب فانتشرت في الفضاء رائحة دخان حادة. ومن جديد ساد الظلام والسكون الساحة، فكأنهما يتربصان لسماع كلمات الرجل المريض المبحوحة.

ـ أستطيع بَعْدُ أن أكون ذا نفع لعامة الناس... كشاهد حي على جريمة عظمى ـ أنظروا إليَّ ههنا... أموت في سن الثامنة والعشرين... قبل عشر سنوات كنت أرفع على كتفي دون أدنى عناء ما ينيف عن المائتين من الكيلوغرامات. وكنت أفكر أني أستطيع بكل سهولة، بتلك البنية المتينة التي أتمتع بها، أن أعيش حتى السبعين.. ولكني لم أعشْ أكثر من عشر سنوات... والآن... إنها النهاية. لقد سرقني رؤسائي... سرقوا مني أربعين سنة من حياتي... أربعين سنة!

وقال ريبين بصوت أجش:

ـ تلك هي الأغنية التي يغنيها أبداً!

وتأججت النار مرة أخرى، أكثر لمعاناً وقوة؛ ومرة أخرى هربت الظلال إلى الغابة، ثم اندفعت راجعة حتى اللهيب وشرعت ترتجف حوله في رقص عدائي أخرس. ورواحت العيدان الرطبة تئن وتصرصر، وأوراق الأشجار تخشخش ثائرة في تيار الهواء الدافىء. وتعانقت ألسنة مرحة من لهب أحمر وأصفر وهي تلعب في نشاط وحيوية، وتبعثر باقات من الشرر إذ تندلع متطاولة في الفضاء الواسع. وحلقت ورقة متفحمة في الهواء، وفي سماء الليل ابتسمت النجوم هاشة للشرر تناديه في إغراء أن يأتي إليها.

ـ ليست هي أغنيتي، بل النشيد الذي يغنيه ألوف البشر من غير أن يجول في إدراكهم أية أمثولة عظيمة للشعب هي حيواتهم البائسة الشقية. كم من الناس الذين أقعدهم العمل وشوَّههم يقضون جوعاً... دون من يدري بموتهم...

وانطوى على نفسه، مرتجفاً، وقد انتابته نوبة عنيفة من السعال.

وضع ياكوف جردلاً من الكفاس(*) وجرزة من البصل الأخضر على المائدة، وقال:

ـ تعال ههنا، يا سافيلي، لقد جئتك بقليل من الحليب...

فهزَّ سافيلي رأسه نفياً، ولكن ياكوف أخذه من ذراعه، وقاده حتى الطاولة.

قالت صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عتاب:

ـ لماذا تأتون به إلى هنا؟ قد يموت بين لحظة وأخرى...

فأجاب ريبين موافقاً:

ـ أعلم هذا، لكن فليتكلم ما استطاع إلى الكلام سبيلاً. لقد ذهبت حياته دون جدوى، فليتحمّل بعض الوقت من أجل عامة الناس. وليس هذا بالشيء الكثير عليه، تلك هي القضية.

فهتفت صوفيا:

ـ لكأنك تتلذذ بذلك!

فحدجها ريبين بنظره، وقال في اكتئاب:

ـ إنهم سادتكم الذين يتلذذون بالإعجاب بيسوع المسيح عندما ينظرون إليه يتأوه على الصليب ويتعذَّب. لكننا نريد أن نتلقى درساً من هذا الرجل، ونريدكم أن تأخذوا درساً أنتم أيضاً...

فرفعت الأم أحد حاجبيها في قلق، وقالت:

ـ يكفي هذا الآن!

ومرة أخرى، عاد الرجل المريض يقول من حيث جلس إلى المائدة:

ـ لماذا يقتلون الناس بالعمل؟ لماذا يسرقون الإنسان حياته؟ إن مديرنا

ـ لقد ضيعت حياتي في مصنع نيفدوف ـ إن مديرنا أهدى لإحدى المغنيات طستاً وإبريقاً من الذهب كي تغتسل بهما. لا بل أهدى لها قعّادة من الذهب تضعها تحت سريرها. قواي وحياتي ذهبت جميعاً في

(*) مشروب غير مسكر مصنوع من الخبز الأسود الجاف. الناشر.

هذه القعّادة! ذلك ما وهبت حياتي من أجله إذن! إن رجلاً أفناني في العمل حتى يستطيع تسلية عشيقته بدم حياتي! ابتاع لها قعّادة من الذهب بدم حياتي!

وقال يفيم باسماً في احتقار:

ـ لقد خُلق الإنسان على صورة اللّه ومثاله، وإليكم ما يفعلون به...

فزعق ريبين، وهو يضرب المائدة براحة يده:

ـ ولكن يجب ألا تصمت عن ذلك!

وأضاف ياكوف في صوت خافت الجرس:

ـ يجب ألا تتحمله خاضعاً!

وأرسل أغناطي ضحكة قصيرة. ولاحظت الأم أن هؤلاء الفتيان الثلاثة يصيخون السمع إلى ريبين بانتباه عظيم كلما فتح فاه بالحديث، يتلقفون الكلام منه في فضول النفوس الجائعة ولهفتها غير المرتوية. ولكن كلمات سافيلي حملت إلى وجوههم ابتسامة غريبة تحوي شيئاً من السخرية والتهكم، خالية من أية ذرة من الاشفاق والرثاء للرجل المريض.

همست الأم في صوت خافت، وهي تنحني نحو صوفيا:

ـ أهي الحقيقة ما يقول؟

فأجابت صوفيا في صوت مرتفع:

ـ ذلك صحيح طبعاً! لا بل إنهم كتبوا عن هذه الهدايا في الصحف، لقد حدث هذا في موسكو...

وقال ريبين بصوت أجش:

ـ ولكن المجرم لم يُعاقَب أبداً. وكان يجب أن يُعاقَب، كان يجب أن يُقاد إلى الساحة العامة، أمام سائر الناس، وأن يُقطَّع إرباً إرباً ثم يُطرح لحمه المتفسخ إلى الكلاب. إنه لقصاص عظيم ذلك الذي سينزله الشعب بهم عندما ينهض. سوف يُهرق الكثير من الدماء حتى يغسل

الآلام التي عاناها. وتلك الدماء هي دماؤه نفسها، قد امتُصّت من أوردته عينها، فهي إذن تخصه.

وقال الرجل المريض:

ـ الطقس بارد!

فساعده ياكوف على النهوض والدنو من النار.

كانت النار تتأجج في تألق عظيم، وظلال عديمة الهيئة ترتجف حولها، تراقب في دهشة وذهول ألاعيب اللهيب المرح. واقتعد سافيلي أرومة قرب النار، ومدَّ يديه الجافتين الشفافتين نحو مصدر الحرارة. أشار ريبين إليه بحركة من رأسه، وتوجه إلى صوفيا قائلاً:

ـ إنه يجعل الأمور أوضح منها في الكتب! عندما تقتل الآلة عاملاً أو تنتزع إحدى ذراعيه يقولون إنها خطيئته هو. أما عندما يمتصون كل الدم من فتى في مقتبل العمر، ثم يلقون به كالجيفة النتنة، فذلك أمر لا تفسير له. أستطيع أن أفهم القتل المباشر، ولكن تعذيب امرىء حتى الموت لمجرد ما في ذلك من تسلية ليس غير، هذا ما لا أستطيع له فهماً. لماذا هم يعذبون الشعب؟ لماذا هم يعذبوننا جميعاً؟ لمجرد ما في ذلك من تسلية لهم، من أجل لذتهم الخاصة، بحيث يمتعون أنفسهم على هذه الأرض، وبحيث يستطيعون شراء ما يشاؤون بالدم البشري ثمناً له... يشترون مغنيات، وجياد السباق، وسكاكين الفضة، وصحون الذهب، ودمى ثمينة من أجل أولادهم، أما أنت إشتغل، إشتغل أكثر حتى أجمع مالاً من عنائك أبتاع به لعشيقتي قَعّادة من الذهب.

كانت الأم تستمع إليه بأذنيها وتراقب بعينيها، وتلك الطريق اللامعة التي اختارها بافل ورفاقه تمتدُّ من جديد أمام عينيها في ظلمة الليل الأدجن.

عندما انتهى العشاء اقتربوا جميعاً من النار يحتفون بها. كانت ألسنة اللهيب تلعق الخشب في شرهٍ عظيم، وإلى الخلف منهم يرتفع ستار من

الظلمة يكتنف الغابة والسماء معاً. وقعد الرجل المريض يشخص إلى النار بعينين واسعتين وهو يسعل دون انقطاع، ويرتجف فكأن بقية الحياة فيه تناضل بفارغ الصبر كي تحرر نفسها من هذا الجسد الذي أرهقه المرض فناءً به. وكانت انعكاسات النار تتراقص على وجهه عاجزة عن إحياء جلده الميت. عيناه وحدهما كانتا تلتمعان بنار تخبو وتموت.

انحنى ياكوف عليه، وقال:

ـ ربما من الأفضل أن تدخل الكوخ، يا سافيلي.

فاستفهم الرجل المريض، وهو يبذل جهداً كبيراً:

ـ لِمَ؟ لمْ يبقَ لي وقت طويل أتمتع فيه بصحبة الناس!

ونظر حواليه، ثم قال بعد صمت قصير وارتسمت على شفتيه ابتسامة واهنة.

ـ ما أحسن أن أكون معكم. عندما أنظر إليكم أفكر: لربما ستنتقمون لأولئك الذين سُرقوا، ولأولئك الذين قُتلوا في سبيل الجشع...

لم يجبه أحد، وسرعان ما استغرق في النوم، وقد مال رأسه في ضعف على صدره، فنظر ريبين إليه ثم قال في هدوء:

ـ يأتي، ويجلس هنا ويتكلم دائماً عن الشيء نفسه: الهزء من الكائن البشري. إن نفسه كلها طافحة بهذه القصة، فكأنها ملصقة على عينيه فهو لا يرى شيئاً سواها على الاطلاق.

فقالت الأم متفكرة:

ـ وما عساه يرى سوى ذلك؟ إذا كان آلاف الناس يقتلهم العمل يوماً بعد يوم حتى يستطيع مدراؤهم أن يبعثروا المال ذات اليمين وذات اليسار على سائر أنواع السخافات والهراء، فما عساه يرى سوى ذلك؟

وقال أغناطي بصوت خافت:

ـ الاستماع إليه مضجر. فأنت إذا وعيت قصته مرة استحال عليك نسيانها بعد ذلك، وهو لا ينفكُّ يعزف اللحن ذاته دون انقطاع!

فأجاب ريبين في اكتئاب:

ـ وفي هذا اللحن حُشر كل شيء بالنسبة إليه، الحياة بأسرها... يجب أن نفهم ذلك! لقد سمعت قصته عشرات المرات، ومع ذلك ما برحت أحياناً أرعى بعض الشكوك. ثمة لحظات في الحياة يرفض المرء فيها أن يصدق أن الإنسان خسيس أبله هكذا، بل يُحبُّ سائر الناس ويشفق عليه، الأغنياء والفقراء على حد سواء... فالغني أيضاً ضلّ الدرب القويمة. تعمى عيون البعض من الجوع، وعيون البعض الآخر تعمى من الذهب. وعندئذ يفكر: أواه! أيها القوم الطيبون، إخوتي، هلا تتحركون وتفكرون بإخلاص! تفكرون دون رأفة بأنفسكم!

عَرَت الرجل المريض انتفاضة، ففتح عينيه، ثم استلقى على الأرض، فنهض ياكوف دون ضوضاء، ودلف إلى الكوخ، ثم رجع بسترة من فرو الغنم ألقى بها فوق ابن عمه، وجلس من جديد إلى جانب صوفيا.

كان اللهيب ذو الوجه القرمزي والابتسامة المتحدية ينير الأجساد السود التي تحيط به، وأصوات الناس تمتزج بلطف بطقطقة الأخشاب العذبة وهمس النيران الرقيق.

وشرعت صوفيا تتحدث عن نضال شعوب العالم في سبيل حقهم في الحياة، وثورات فلاحي ألمانيا القديمة، وكوارث الارلنديين ومصائبهم، وبطولات العمال الفرنسيين العظيمة وانتصاراتهم في معاركهم العديدة من أجل الحرية...

راحت تلك الحوادث التي زعزعت عالم المتخمين والجشعين تُبعث إلى الحياة في الغابة المكسوة برداء من المخمل الأسود يلقيه الليل على أكتافها، وفي الساحة الصغيرة المحدودة بالأشجار، المسقوفة بالسماء القاتمة، المضاءة بلهب النار الضاحكة، المحاطة بالظلال المدهوشة المعادية. وفي الوقت ذاته راحت شعوب العالم تمرُّ مترادفة، دامية أنهكتها المعارك، وأسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة تتردد، الواحد تلو الآخر.

كان صوت صوفيا الأجش قليلاً يرنُّ في رقة، مثل صوت يأتي من

الماضي السحيق، يوقظ الآمال ويوحي بالثقة. وكان الرجال يصغون في سكون إلى قصة إخوانهم في الروح في البلدان الأخرى؛ وبينما هم ينظرون في وجه المرأة النحيل الشاحب، راحت القضية المقدسة لسائر شعوب الأرض، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية، تزداد أمام أعينهم وضوحاً، وتصبح أقرب منالاً من مداركهم وأفهامهم. وكان كل من الموجودين يلقى مطامحه وأفكاره في ماض بعيد يغطيه ستار مظلم دامٍ، ويلقاها عند شعوب بعيدة أخرى لم يسمع عنها شيئاً حتى ذلك الحِين، فيروح يسهم، قلباً وفكراً، في حياة العالم حيث يجد أصدقاء وحَّدهم منذ زمن طويل العزم على تحقيق العدالة على الأرض، موطدين ذلك العزم بما عانوا من آلام لا تقاس ولا تحصى، وبما هدروا من دمائهم أنهاراً في سبيل تفتح حياة جديدة، نيِّرة، سعيدة. وكان الشعور بالقرابة الروحية مع سائر الناس يفيض وينمو، وقلب جديد يولد على الأرض، قلب يخفق بطموح ملتهب إلى معرفة كل شيء، والاطاحة بكل شيء.

كانت صوفيا تقول في صوت مفعم بالثقة والايمان:

ـ سوف يأتي ذلك اليوم الذي يرفع سائر شغّيلة العالم فيه رأسهم بشموخ ويقولون في عزم وتصميم: لقد اكتفينا! وإننا لنأبى المزيد من هذه الحياة الشائنة! وعندئذ تنهار تلك السلطة الوهمية التي يتمتع بها أولئك الذين ليسوا أقوياء إلا بنهمهم وجشعهم. وتهرب الأرض من تحت أقدامهم فلا يجدون بعد ذلك ما يتشبثون به. . .

وقال ريبين، وهو يطرق برأسه:

ـ لا مفرّ من هذا! سيتغلب المرء على كل شيء وينتصر إذا كان لا يبخل بجهوده في هذا السبيل!

كانت الأم تنصت وقد ارتفع حاجبها الواحد عالياً وجمدت على شفتيها ابتسامة ذهول فرحة. كانت ترى أن كل ما بدا لها في صوفيا من حدة ونزق ـ كل ما كانت تعتبره فيها غير ملائم لها ـ قد تلاشى الآن

وذاب في سيل حديثها الملتهب السوي. وأبهجها سكون الليل، وتلاعب النار، ومحيا صوفيا، وأكثر من كل شيء آخر ذلك الانتباه الفائق الذي يعيرها إياه الفلاحون. كانوا جموداً يبذلون قصارى جهدهم كيلا يعكروا مجرى روايتها الهادىء، خائفين أن يقطعوا ذلك الخيط النير الذي يربطهم بالعالم كله ويوحدهم معه. وبين الحين والحين كان أحدهم يضع في حذر شديد حطبة في النار حتى إذا ارتفعت باقات الشرر والدخان أبعدها عن المرأتين بحركاتٍ سريعة من يده.

ومرة نهض ياكوف على قدميه، ونبر في صوت خفيض:

ـ انتظروا لحظة....

هرول إلى الكوخ وعاد منه ببعض الثياب لفَّ بها، هو وأغناطي، أكتاف المرأتين وأقدامهما في سكون. وعادت صوفيا تتحدث من جديد فترسم لوحة عن يوم النصر، وتنفخ في الحضور الثقة بقواهم، وتوقظ فيهم شعوراً بوحدتهم مع سائر أولئك الذين يضحون بحياتهم في جهد ضائع يبذلونه في سبيل تسلية المتخمين الحمقى. ولم يضطرب قلب الأم لكلام صوفيا، ولكن ذلك الشعور العميق الذي أثارته روايتها في نفوس الجميع ملأ قلبها في الوقت ذاته رضى وإخلاصاً لسائر أولئك الذين يخوضون غمار الأخطار، واقفين حياتهم على إيصال منح المحبة والحقيقة والتفكير الشريف إلى الذين غللتهم أصفاد العمل الثقيلة.

كانت تفكر، وهي تسبل جفنيها على عينيها:

«كن لهم عوناً، يا ربّ!».

وعند الفجر، لجأت صوفيا، متعبة، إلى الصمت وهي ترمق بابتسامة لطيفة ما يحيط بها من وجوه نيِّرة، غارقة في التفكير:

قالت الأم:

ـ آن لنا أن نرحل!

فرددت صوفيا في إعياء:

ـ نعم، لقد آن لنا!

وصعَّد واحد من الفتيان زفرة عالية، بينما طفق ريبين يقول في عذوبة غير مألوفة عنده:

ـ من سوء الحظ أنكما ذاهبتان. أنت تتكلمين بصورة رائعة. وأنه لأمر عظيم حقاً أن نجعل الناس يعون وحدتهم وقرابتهم. وعندما يعرف المرء أن ملايين الكائنات تريد نفس الشيء الذي يسعى من أجله، فإن قلبه يزداد لطفاً، وطيبة القلب قوية عظيمة!

فقال يفيم وهو يطلق ضحكة قصيرة خافتة ثم نهض في عجلة وخفة:

ـ لو عاملتَ الناس في طيبة لانهالوا عليك بالمجرفة من وراء ظهرك! ينبغي عليهما الرحيل أيها العم ميخائيلو، قبل أن يراهما أحد. إذ لن نوزع الكراسات حتى تقوم السلطة بالتحقيق: من أين جاء هذا؟ ولسوف يوجد شخص ما يتذكر: شِهْ؛ إن امرأتين مرّتا من هنا...

فقاطعه ريبين:

ـ حسناً! شكراً أيتها الأم لهذا العناء. إني أفكر طوال الوقت في بافل عندما أراك، ما أروع ما فعلتِ اذ سرتِ في طريقه!

لانت طباعه الآن ورقَّت، فهو يبتسم ابتسامة عريضة دافئة. وكان الطقس إرزاً، ومع ذلك فهو يقف هناك في قميصه، مفتوح الياقة مكشوف الصدر. ورمقت الأم بنيته الضخمة، ثم أسدت إليه النصح في ودّ وصداقة:

ـ يفضل أن ترتدي شيئاً، فالطقس بارد!

فأجاب:

ـ الحرارة شديدة في داخلي!

كان الفتيان الثلاثة يتهامسون وهم وقوف قرب النار، بينما المريض عند أقدامهم يرقد مغموراً بالسترات من فرو الغنم. وكانت السماء تشحب، والظلال تذوب. وأوراق الشجر ترتجف في انتظار الشمس.

قال ريبين، وهو يشدُّ على يد صوفيا:

ـ حسناً! وداعاً إذن! كيف يمكن أن نلقاكِ في المدينة؟

فأجابت الأم:

ـ ليس لك إلا البحث عني!

دنا الفتيان الثلاثة في تماهل من صوفيا يصافحونها، الواحد تلو الآخر، في لطف أخرق وسكون مُطبق. كان من الواضح أن كلاً منهم مفعم، سراً، بالامتنان والصداقة نحوها، وأن ذلك الشعور يضايقهم بجدَّته دون أدنى ارتياب. كانوا ينظرون إليها صامتين، بأعين حنون أتعبها الأرق، وهم يتأرجحون يمنة ويسرة، يستندون إلى هذه القدم تارة، وإلى القدم الثانية تارة أخرى.

سأل ياكوف:

ـ ألا تشربان قليلاً من الحليب قبل أن ترحلا؟

فقال يفيم:

ـ ولكن، هل يوجد شيء منه؟

فأعلن أغناطي، وهو يمسح بيده على شعره في ارتباك:

ـ كلا... لقد قلبت الوعاء فاندلق...

وابتسم ثلاثتهم.

كانوا يتكلمون عن الحليب، ولكن الأم تشعر أنهم يفكرون في شيء آخر، يتمنون لصوفيا ولها الخير العميم والحظ السعيد دون أن يعرفوا كيف يضعون أمانيهم في كلمات. ولقد أثَّر هذا في صوفيا بشكل جلي، فأثار فيها شيئاً من الضيق، وتواضعاً حياً لم يسمح لها أن تقول شيئاً، اللَّهم إلا هذه الكلمات الثلاث التي ندَّت عنها بصوت ضعيف:

ـ شكراً، أيها الرفاق!

وتراشق الفتيان النظر، فكأن هذه الكلمات التي خاطبتهم بها دفعتهم بلطف.

وتردد سعال المريض الأجش، في حين خبا ضياء الجمر في النار حتى تلاشى.

قال الفلاحون بصوت خافت:

ـ وداعاً!

وظلت هذه الكلمة الحزينة تتردد بعد ذلك في آذان المرأتين زمناً طويلاً.

سلكتا، في غسق الصباح، دون تسرُّع، الطريق التي قدمتا منها تحفُّ الأشجار فيها، والأم تقول وهي تسير في أعقاب صوفيا:

ـ لشدَّ ما كان ذلك رائعاً، وكأنه في حلم جميل! الناس يريدون معرفة الحقيقة، يريدون ذلك، يا عزيزتي... وكل شيء يجري أشبه بما في الكنيسة، قبل قداس الصباح، في يوم عيد عظيم... إن الكاهن لم يأتِ بعد والجوّ لما يزل مظلماً، والسكون يخيم على كل شيء حتى ليلقي الذعر في قلب الإنسان، وهؤلاء الناس بدأوا يتوافدون... ههنا امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة، وهناك شمعة أخرى تضاء و... يطردون الظلمة شيئاً فشيئاً فتفسح المجال للنور في بيت اللّه.

فأجابت صوفيا في مرح:

ـ ما أصدق هذا! اللهم إلا أن بيت اللّه، ههنا، هو الأرض بأسرها.

فرددت الأم، وهي تهزُّ رأسها متفكرة:

ـ الأرض بأسرها، ذلك رائع جداً حتى ليصعب تصديقه... ولقد تكلمتِ جيداً يا عزيزتي، جيداً جداً؛ وأنا التي ظننت أنك لا تقعين منهم موقعاً مقبولاً...

لم ترد صوفيا إلا بعد فترة، وفي صوت خافت لا أثر للمرح فيه:

ـ ليصبح المرء، معهم، أكثر بساطة...

راحتا تتحدثان، وهما تسيران، عن ريبين، والرجل المريض، والفتيان الثلاثة الذين كانوا يُصغون بكل ذلك الانتباه، والذين عبروا عن صداقتهم وامتنانهم في ضيق، ولكن في وضوح كبير، بكل تلك العناية الحريصة التي بذلوها نحو المرأتين.

بلغتا أخيراً الحقول العارية. والشمس تشرق لملاقاتهما، ناشرة في السماء، وهي لما تزل غير مرئية، مروحة شافة من الأشعة الزهرية،

وقطرات الندى تشع في العشب بآلاف الشرر العديد الألوان في فرحة ربيعية فتية.

استيقظت العصافير تحيي الصباح بزقزقتها المرحة، وحلّقت غربان ضخمة في الفضاء باعثة نعيقاً مزعجاً، خافقة بأجنحتها في ثقل. وفي مكان ما كناريّ يصفِّر في قلق. وراح المدى يتكشف شيئاً فشيئاً يستقبل الشمس بالتخلص من ظلال الليل.

قالت الأم متفكرة:

- في بعض الأحيان يحدّثك إنسان ويحدّثك، ولكنك لا تفقهين لكلامه معنى حتى يقول لك أخيراً كلمة بسيطة، كلمة بسيطة واحدة، فإذا كل شيء يتضح على حين غرة! ذلك مثل هذا الرجل المريض. لقد سمعتُ كثيراً، وعرفت شخصياً كيف يرهقون العمال في المصانع وفي كل مكان، ولكني اعتدتُ هذا منذ كنتُ صغيرة فلم يعد يؤثر فيَّ كثيراً. ولكنه قال، بغتة، أشياء كثيرة الإذلال، قذرة مثيرة للدرجة القصوى... يا يسوع الحبيب! أيمكن أن يقضي الناس جلَّ عمرهم في الشغل كي يستطيع أصحاب العمل أن يهزؤوا منهم إلى هذا الحد؟ هو أمر لن يجد له تبريراً أبداً؟

واستقرت أفكار الأم عند القصة التي رواها سافيلي، والتي ألقت لمعان بلاهتها وقاحتها الكئيب على العديد من القصص التي عرفتها فيما خلا من الأيام ونسيتها.

- ليخال المرء أنهم أتخموا إلى درجة أمست كل الأشياء بعدها مملة بالنسبة اليهم. لقد كان هناك مدير ناحية يُجْبِرُ الفلاحين على تحية جواده حينما يخرج إلى النزهة في القرية، ومن لا يفعل ذلك ألقى به في السجن. بربك ما حاجته إلى ذلك؟ أنا لا أفهم هذا، كلا لا أستطيع فهمه!

وراحت صوفيا تدندن في هدوء أغنية مرحة في مثل مرح الصباح المشرق...

7

كانت حياة الأم تنساب في هدوء غريب حتى ليدهشها هذا الهدوء في بعض الأحيان. إن فتاها في السجن، وهي تعرف أن عقاباً صارماً ينتظره. ولكنَّ ذهنها يمتلىء غضباً، كلما فكَّرت فيه، بصورة أندريه، وفيدور، والعديد من الوجوه الأخرى. وكانت صورة بافل تنمو أمام عينيها حتى تضمَّ سائر أولئك الذين يقاسمونه مصيره، وتثير فيها حالة من التأمل تمنعها، دون شعور منها، عن تركيز أفكارها حول ابنها، بل تروح تبعثرها في كل الاتجاهات على غير هدى. كانت هذه الأفكار تتباعد في شعاعات رقيقة غير متساوية تمسُّ كل الأشياء، ساعية لإنارة سائر الحوادث وجمعها كلِّها في لوحة وحيدة. وكان هذا يمنعها عن تركيز ذهنها على شيء واحد، ويلهيها عن شوقها إلى فتاها ومخاوفها من أجله.

وسرعان ما رحلت صوفيا ثم ظهرت بعد خمسة أيام، مرحة طروباً لتختفي مجدداً بعد ساعات قليلة، فلا تعود إلا بعد أسبوعين ونيف. كان يخيل للأم إنها تذهب في الحياة بدوائر كبيرة كي تعبر في طريقها بيت أخيها فتملؤه حيوية وموسيقى.

وأصبحت هذه الموسيقى محببة لدى الأم، فيؤتى لها عند سماعها أن موجات حارة تتدفق في صدرها، بلهَ قلبها، فيروح هذا القلب يخفق في نظم أكثر اتساقاً. وكانت أفكار حية مقدامة تولد فيها، توقظها قوة الأصوات فكأنها بذور تتفتح في أرض جيدة الحراثة سخية الماء، وتزدهر في كلمات خفيفة الظل، جميلة الوقع.

وكان يصعب على الأم كثيراً اعتياد فوضى صوفيا التي ترمي حوائجها في كل الزوايا، وتُلقي بأعقاب السجائر ورمادها في كل مكان. ولم تعتد إلا بصعوبة أعظم أيضاً طريقتها النزقة في الحديث، المتناقضة للغاية مع رزانة نيقولاي وما في أحاديثه العذبة من وقار لا يتبدل. كانت صوفيا

تبدو لها مراهقة تتلهف إلى التظاهر بامرأة بالغة، فهي لا ترى الناس إلا دُمى تثير الفضول. وكانت تتحدث كثيراً عن قداسة العمل، فتزيد بإهمالها مشاغل الأم في حماقة كثيرة. وكانت تتكلم بطلاقة عن الحرية، فترى الأم أنها، في واقع الأمر، تُزعج كل ما يحيط بها بحدتها ونزقها ومناقشاتها التي لا تنتهي. كانت طافحة بالمتناقضات، فتعاملها الأم في حذر وتوتر ممزوج بانتباه يقظ، ولكنه مجرّد عن تلك الحرارة في القلب التي يستدعيها نيقولاي على الدوام.

كان هذا الأخير مشغول البال دائماً، يعيش يوماً بعد يوم نفس العيش الرتيب المنتظم، فيتناول إفطاره في الساعة الثامنة، ويقرأ الصحف التي ينقل اخبارها إلى الأم. وكانت الأم تدرك بكل وضوح، لدى سماعها تلك الأخبار كيف تسحق آلة الحياة الثقيلة البشر دون رحمة أو شفقة لتجعل منهم فضة ومالاً. وكانت تحسُّ أن بين نيقولاي وأندريه مزايا مشتركة، فهو كالأوكراني يتحدث عن الناس دون حقد ويعتبرهم جميعاً مسؤولين عن سوء تنظيم الحياة ولكن إيمانه بحياة جديدة مقبلة لم يكن ملتهباً نيراً كايمان الأوكراني. وكان يتكلم في هدوء، بصوت قاضٍ مستقيم شريف صارم، وابتسامة رثاء تعلو شفتيه أبداً، حتى عندما يتحدث عن أمور عظيمة الرهبة، ولكن عينيه تلتمعان ببريقٍ بارد قاسي اللمعان، فتدرك الأم حين تراه أن هذا الرجل لن يصفح أي شيء عن أي إنسان، وأنه لا يقوى على الصفح، وتحسُّ أن تلك القسوة تصعب عليه فترثي له، وهو الذي يزداد حبها له يوماً بعد يوم.

وفي التاسعة يمضي إلى مكتبه، فتُعنى الأم بترتيب الشقة، وتهيىء الغداء، وتغتسل وترتدي ثياباً نظيفة، ثم تجلس في غرفتها تتفرج على الرسوم المنشورة في الكتب المختلفة. كانت قد تعلمت القراءة ولكن هذه القراءة تتطلب منها كثيراً من الانتباه، فسرعان ما تتعب وتصير إلى عجز عن إدراك الصلة التي تربط بين الكلمات المتباينة. أما الرسوم فتبهجها بالمقابل، فكأنها طفلة صغيرة ليس غير، وتكشف لها عن عالم

جديد رائع تستطيع فهمه واستيعابه، لا بل تكاد تحسه أيضاً، فتنهض أمام ناظريها مدن عظيمة، وبنايات فائقة الجمال، وآلات، ومراكب، وآثار، وكل تلك الثروة العظيمة التي خلقتها أيدي البشر. ثم سائر منتجات الطبيعة التي يذهل فكرها ويحتار تجاه تباينها واختلافها. إن الحياة تتسع أبداً أمام عينيها وتفتّحهما على أشياء عظيمة رائعة كانت مجهولة منها حتى ذلك الحين، وهي أكثر فأكثر تثير بكنوزها الغزيرة، وجمالها اللامتناهي روح المرأة المستيقظة العطشى. كانت تحبُّ، بصورة خاصة، النظر في أطلس علم الحيوان الذي يوحي إليها، بالرغم من كونه مطبوعاً بلغة أجنبية، بمفهومٍ أكثر حيوية عن ثراء الأرض وجمالها واتساعها اللامتناهي.

قالت لنيقولاي ذات يوم:

ـ ما أوسع هذه الأرض!

كانت تبتهج أكثر ما تبتهج بالحشرات، والفراشات منها بصورة خاصة، فتنظر مندهشة إلى الرسوم التي تمثلها، وتقول:

ـ ما أجملها، يا نيقولاي إيفانوفيتش، أليس كذلك؟ كم يوجد من هذا الجمال الغالي في كل مكان خافياً عن عيوننا، ماراً بنا دون أن نراه! الناس يتسرعون أبداً دون أن يعرفوا شيئاً على الإطلاق، عمي عن رؤية الأشياء التي تستحق إعجابهم، يعوزهم لذلك الوقت والرغبة أيضاً. كم يستطيع الناس أن يحصلوا من الفرح لو عرفوا غنى الأرض، وكم من الأشياء الرائعة تعيش على سطحها، وهذه الأشياء جميعاً هي لسائر الناس، وكلٌ هو للجميع على حد سواء... أليس كذلك؟

فابتسم نيقولاي قائلاً:

ـ بالطبع هو كذلك!

ويحمل اليها كتباً أخرى مصورة.

كان كثيراً ما يستقبل عدداً من الضيوف في المساء، ومن بينهم الكسي فاسيليفيتش، وهو رجل جميل الطلعة، شاحب الوجه، أسود اللحية،

وقور، كثير الانطواء على النفس؛ وورمان بتروفيتش، وهو شخص مبثّر الوجه، مستدير الرأس، يطقطق بلسانه أبداً أسفاً على هذا الشيء أو ذاك؛ وايفان دانيلوفيتش وهو رجل قصير القامة، ضامر القد، مدبب اللحية، ذو صوت مرتفع سريع النبرات كثير الضوضاء، حاد مثل المخرز؛ وييجور الذي لا ينقطع عن السخرية من نفسه ومن رفاقه ومن تلك العلة التي تتفاقم في صدره أبداً. وكان ثمة قوم آخرون أيضاً، يأتون من مدن بعيدة ويتبادلون مع نيقولاي أحاديث طويلة هادئة موضوعها لا يتبدل قط: العمال في العالم أجمع. وكانوا يتناقشون، وينفعلون، ويلوّحون بأيديهم، ويشربون كميات كبيرة من الشاي. في بعض الأحايين، بينما هم يتجادلون، كان نيقولاي يكتب نداءات يقرأها بعد ذلك لرفاقه، فينسخونها مباشرة بأحرف مطبعية بينما تجمع الأم - في عناية عظيمة - بقايا المسوّدات الممزقة وتحرقها.

كانت تتعجب دائماً، وهي تصبُّ لهم الشاي، من تلك الحماسة المسيطرة على أحاديثهم عن مصير الشعب العامل وحياته وعن أفضل السبل وأسرعها في زرع أفكار الحقيقة بين الشغيلة ورفع معنوياتهم. وكثيراً ما كانوا يغضبون ويروحون يدافعون عن آراء مختلفة، وهم يتبادلون تهماً حادة قاسية، فيجرحون شعور بعضهم البعض كي يعودوا بعد قليل إلى نقاشهم الحادّ يبدأونه من جديد.

وكانت الأم تشعر بأنها تعرف حياة العمال أفضل من معرفتهم لها، فيخيل اليها أنها ترى بوضوح أكبر فداحة الواجب الذي أخذوه على عاتقهم، فتروح تشخص إليهم في شيء من التسامح وغير قليل من الأسف اللذين ينظر بهما أمرؤ بالغ إلى أطفال يلعبون لعبة الزوج والزوجة دون أن يفهموا ما في تلك العلاقة من مرارة درامية. وكانت تقارن، بالرغم منها، بين أحاديثهم وأحاديث ابنها وأندريه فتدرك فارقاً لم تفهمه بادىء الأمر. كان يخيل اليها أحياناً أنهم يصيحون ههنا بصوت أشد ارتفاعاً منه في الضاحية العمالية، فتفسّر ذلك على النحو التالي:

«إنهم يعرفون أكثر، ولذلك يتكلمون بصوت أعلى...».

وكثيراً ما كانت تخال أن هؤلاء الناس يستفزون بعضهم بعضاً عن قصد، متعمدين أن يظهروا حماستهم. فكأن كلاً منهم يريد أن يبرهن لرفاقه عن كون الحقيقة أقرب اليه وأعزُّ على قلبه منها على قلوبهم، بينما يغضب الآخرون ويسعون بدورهم كي يثبتوا أنهم أكثر قرباً من الحقيقة، فيبدأون النقاش الحاد القاسي من جديد. كانت تخال أن كلاً منهم يتلهف إلى القفز مسافة أعلى من الباقين، فيوقظ ذلك فيها كآبة قلقة، فتروح تنظر إليهم بعينين متوسلتين ويرتفع أحد حاجبيها ويهبط، وهي تفكر في وليجة نفسها:

«لقد نسوا كل شيء عن باشا ورفاقه...».

كانت تستمع إلى سائر مناقشاتهم بانتباه عظيم، وإن كانت لا تفهم منها شيئاً من دون ريب. ولكنها تسعى لإدراك المشاعر خلف الكلمات فتجد أن مفهوم الخير، عندما يدور النقاش حوله في الضاحية العمالية، كانَ يُقبل في مجموعه على اعتباره كُلاً واحداً لا يتجزأ، بينما هو ههنا يقسم إلى أجزاء صغيرة فيعود قليل النفع والقيمة. إن المشاعر هناك لأعمق وأقوى، أما هنا فإن أفكاراً حادة تسيطر عليها وتحلّل كل شيء. ههنا يكثرون من الحديث عن تهديم العالم القديم، أما هناك فيُكثرون من الأحلام عن العالم الجديد ولذلك كانت كلمات فتاها وأندريه أعزّ عليها وأدنى من فهمها وإدراكها...

ولاحظت أن نيقولاي، كلما جاء أحد العمال لمقابلته، يصبح أكثر حرية وانطلاقاً معه. فيبدو على وجهه تعبير رقيق حلو، ويروح يتحدث في لهجة غير مألوفة، تلاحظ فيها شيئاً كثيراً إما من الفظاظة أو من الاهمال. وعندئذ تفكر الأم:

«إنه يجرب التحدُّث بصورة يفهمونه معها!».

ولكن ذلك لم يرقها، فقد رأت أن العامل كان بدوره ضيّق الصدر فكأن شيئاً في داخله يحزُّ فيه، فيعجز عن مخاطبة نيقولاي بتينك الحرية

والطلاقة اللتين يتوجه بهما إليها، هي المرأة العاملة. وذات مرة قالت لشاب جاء لمواجهة نيقولاي، بعد أن خرج هذا من الغرفة:

ـ مِمَّ تخاف؟ أنت لست طفلاً صغيراً يمتحن في المدرسة...

فافترَّت شفتا الشاب عن ابتسامة عريضة، وقال:

ـ السرطان يحمرُّ عندما يخرج من عنصره... ليس هو على غرارنا في أية حال...

وكانت ساشنكا تأتي في بعض الأحيان، فلا تلبث طويلاً أبداً، بل تتحدث على الدوام بلهجة جد دون أن تضحك قط. وعندما تذهب تطرح على الأم ذات السؤال الذي لا يتبدل:

ـكيف حال بافل ميخائيلوفيتش؟

ـ إنه على أحسن حال، ومرح أبداً. شكراً لله.

ـ فتقول الفتاة قبل أن تختفي:

ـ بلّغيه تحياتي!

كانت الأم تشكو لها أحياناً ذلك التأخير في محاكمة بافل، فكانت ساشنكا تعبس ولا تقول شيئاً وإن تروح أصابعها ترتعش في عصبية. وأرادت الأم أن تقول لها:

«أعلم أنك تحبينه، يا عزيزتي...».

لكن الشجاعة خانتها. كان وجه الفتاة القاسي، وشفتاها المنضمتان أبداً، ولهجتها الجافة، تردُّ كل انطلاق نحو العاطفة والحنان. وشدَّت الأم متنهدة، في سكون، على اليد الممدودة إليها وفكرت:

«عزيزتي المسكينة...».

وجاءت ناتاشا في ذات يوم، فابتهجت كثيراً برؤية الأم هناك وقبّلتها، ثم أعلنت في صوت هادىء وبصورة غير منتظرة:

ـ لقد ماتت أمي. ماتت تلك الحبيبة المسكينة!..

هزّت رأسها، وفركت عينيها بحركة سريعة ثم تابعت:

ـ ما آلم ذلك! إنها لم تبلغ الخمسين. كان يمكن أن تعيش زمناً أطول، ولكني بالمقابل لا أستطيع الامتناع عن التفكير بأن الموت أفضل من الحياة التي تعيشها من دون ريب. لقد كانت وحيدة على الدوام، وليس من إنسان إلى جانبها، أو امرىء يحتاج إليها، مذعورة دائماً من صياح والدي. أتسمين هذا حياة؟ إن الناس الآخرين يعيشون في رجاء شيء أفضل، ولكن أمي لم يكن أمامها ما تأمل فيه إلا المزيد من الإهانات...

وقالت الأم بعد فترة تفكير:

ـ حق ما تقولين، يا ناتاشا. الناس يعيشون في رجاء شيء أفضل. فإن لم يكن ثمة ما يأملون به فأية حياة تلك التي يعيشون إذن؟

وربتت بلطف على يد الفتاة، وأضافت:

ـ وهكذا أصبحت الآن وحيدة؟

فأجابت ناتاشا في رقة:

ـ هو ما تقولين!

إلتزمت الأم بصمت قصير وقالت فجأة وهي تبتسم:

ـ لا بأس في ذلك! إن الناس الطيبين لا يعيشون وحدهم طويلاً، بل هناك دائماً من يتعلق بأذيالهم...

8

حصلت ناتاشا على وظيفة مدرّسة في قرية قريبة من مصنع للنسيج، وبدأت الأم تزودها بكراسات غير مشروعة ومنشورات وصحف.

أصبح ذلك عملها، فهي تتنكر كل شهر عدة مرات في ثياب راهبة، أو بائعة خردوات، أو امرأة ميسورة الحال، أو حاجّة تقية... ثم تضرب على وجهها عبر المقاطعة، وعلى ظهرها كيس أو في يدها حقيبة. وكانت دائماً، في القطار أو في المراكب، في الفنادق أو

الحانات، هي تلك المرأة الهادئة البسيطة التي تتوجه بالكلمة الأولى إلى الغرباء تجلب الانتباه اليها، غير هيّابة، بلطفها واجتماعيتها وتلك الثقة بالنفس التي يتحلى بها من خبر الحياة جيداً وعرك تجاربها.

كانت تحب التحدث إلى الناس، والسماع إلى أقاصيصهم وشكاواهم وما يزعجهم من أمور. وكانت تسعد أبداً كلما التقت بشخص ناقم جداً، بتلك النقمة التي تفتش في عناد، وهي تحتج على صفعات القدر، عن الأجوبة لأسئلة ناضجة واضحة جلية. وكانت لوحة الحياة البشرية، باضطرابها الدائب ونضالها المستمر في سبيل الشبع، تنبسط أمام عينيها بكل تنوعها. وفي كل مكان، كانت ترى بكل وضوح تلك المحاولات الوقحة الفظيعة السافرة المبذولة في سبيل خداع الناس وسرقتهم وجرع دمائهم وامتصاص آخر قطرة منهم في سبيل المصلحة الشخصية. ولقد رأت أيضاً أن ثمة خيراً عميماً من كل الأشياء على سطح الأرض، بينما جماهير الناس في الوقت ذاته في حاجة، يعيشون نصف جياع في ملء الغزارة الفائقة. إن كنائس المدن مليئة بالفضة والذهب اللذين لا حاجة للّه بهما، في حين يرتجف على أبواب الكنائس عدد لا يحصى من المتسولين ينتظرون، بفارغ صبر، هبات نحيلة تلقى في أيديهم المفتوحة. ولقد شاهدت فيما سبق هذا كله: الكنائس الغنية وثياب الكهنة المطرزة بالذهب، أكواخ الفقراء وأسمالهم المخجلة ولكنها قبلت به حينذاك على اعتباره أمراً طبيعياً، بينما هي تجده الآن لا يُعقل ولا يطاق، بل هو بالأحرى إهانة موجهة إلى الفقير الذي يُعتبر، فيما تعلم، أقرب إلى الكنيسة وأحوج إليها من الرجال الأثرياء.

ولقد عرفت من الصور التي رأتها عن المسيح، والقصص التي سمعتها عنه، أنه كان يرتدي ثياباً بسيطة، وأنه كان للفقير صديقاً قريباً. ولكنها رأت صورته في الكنيسة مصفَّدة في ذهب وقح وحرير يخشخش في ازدراء لدى رؤية الفُقراء الذين يأتونه، هو المسيح، يطلبون العزاء لديهم. وتذكرت بالرغم منها كلمات ريبين:

«لقد خدعونا حتى في ما يتعلق باللّه أيضاً!».

وشرعت، دون أن تلاحظ ذلك، تقلّل من صلواتها وإن راحت تفكر أكثر من ذي قبل في المسيح وفي أولئك الناس الذين، دون أن يذكروا اسمه أبداً، وحتى كأنهم لا يعرفون شيئاً عنه، يعيشون في ما يخيَّل إليها حسب مشيئته وعلى غراره، معتبرين الأرض مملكة الفقير، راغبين في تقسيم كل ثرواتها بين الناس بالعدل والقسطاس. كانت تُعمل فكرها في ذلك، فتنمو أفكارها في داخلها وتزداد عمقاً وهي تشمل كل ما تراه أو تسمعه. لقد ازدهرت تلك الأفكار واتخذت بريق صلاة تُضيء كل هذا العالم المظلم باشعاعاتها، كل الحياة وكل الناس. وبدا لها أن المسيح نفسه، هذا الذي أحبته دائماً بحنانٍ غامض ـ بعاطفة معقدة كان الخوف فيها يسير مع الرجاء جنباً إلى جنب، وكذلك الفرح مع الترح ـ قد أضحى عزيزاً على قلبها أكثر منه قبلاً. ولقد تبدل أيضاً فغدا أكثر ارتفاعاً وإدراكاً وأعظم بريقاً وبهجة فكأنه في واقع الأمر بُعِثَ إلى الحياة، وقد اغتسل وانتعش بتلك الدماء التي أهدرها باسمه، في سخاء، قومٌ يمتنعون بكل تواضع عن لفظ اسم صديق الإنسان هذا. وبعد كل سفرة من سفراتها كانت تعود إلى نيقولاي سعيدة متأثرة بكل ما شاهدت وسمعت في الطريق، راضية لأنها حقَّقت واجبها على الوجه الأكمل.

تحدثت معه في المساء قائلة له:

ـ ما أروع أن يضرب الإنسان في آفاق الأرض هذه، يُطمح بصره إلى الكثير من الأمورا ليجعلك ذلك تتفهَّم معنى الحياة. لقد ألقي الشعب على هامش الحياة حيث يدبُّ متذللاً في مكانه ولكنه لا يمتنع ـ دون الارادة منه ـ عن التساؤل فيم سبب هذه المعاملة التي يعاملونه بها. لِمَ يجب أن يُطرد الناس الفقراء بعيداً؟ لِمَ يجب أن يكونوا أغبياء جاهلين عندما يكون هنالك ينبوع فيّاض من الثقافة في كل مكان، وأين هو اللّه الكلي الرحمة الذي ليس في نظره غني أو فقير بل الكل أولاده

المحبوبون؟ إن الناس يثورون شيئاً فشيئاً حينما يفكرون بحيواتهم، وهم يحسون أن الظلم سيخنقهم إن لم يهتموا بأنفسهم!

وأصبحت تحسُّ، أكثر فأكثر، أن من واجبها مخاطبة الناس عن حياتهم المضطهدة حتى ليصعب عليها كثيراً، في بعض الأحيان، مقاومة هذا الدافع الطموح وصدّه.

وعندما كان نيقولاي يجدها تتمعن في رسوم الكتب، فهو يبتسم ويميل يحدثها عن بعض غرائب هذا العالم. فتستطلعه في ريبة، مذهولة لجرأة القضايا التي يأخذها الإنسان على عاتقه:

ـ أمثل هذا الشيء ممكن؟

فينبري يصوِّر لها المستقبل في صبر وإيمان لا يتزعزع بحقيقة تنبؤاته، شاخصاً إليها بعينيه اللطيفتين من خلف نظارتيه:

ـ إن رغبات الإنسان لا حدود لها، وقوته لا ينضب لها معين! ومع ذلك فالعالم لا يغتني فكرياً بعدُ إلا ببطء شديد، لأن كل من يريد الآن أن يُمسي مستقلاً لا بدَّ له من تجميع المال بدلاً من المعرفة. وعندما يتحرَّر الناس من الجشع، ويحرّرون أنفسهم من عبودية العمل الاجباري. . .

لم تكن تفقه معنى كلماته إلا نادراً، لكن الإيمان الهادىء الذي يملؤها ويحييها كان يصبح شيئاً فشيئاً أقرب منالاً منها. قال:

ـ ثمة عدد قليلٌ من الناس الأحرار على هذه الأرض، تلك هي مصيبتها!

وكانت تفهم هذا، فهي تعرف قوماً تحرروا من الجشع والخبث، وتعلم أنه لو وُجد عدد أكبر من مثل هؤلاء الناس لكفّت الحياة عن أن تكون مظلمة مخيفة لتغدو أبسط وأكثر بشاشة وطيباً وضوءاً.

وكان نيقولاي يهتف بكآبة:

ـ إن الناس مجبورون على أن يكونوا قساة!

فتهزُّ رأسها إشارة الموافقة، وهي تستعيد ذكر كلمات الأوكراني.

9

ذات يوم آب نيقولاي، وهو الدقيق أبداً في مواعيده حتى الدرجة القصوى، من عمله متأخراً أكثر من المعتاد، وأذاع في عجلة دون أن يخلع معطفه، وهو يفرك يديه بعصبية ظاهرة:

ـ لقد فرَّ أحد رفاقنا من السجن هذا النهار، يا نيلوفنا. من عساه يكون؟ هذا ما لم أستطع معرفته..

ترنحت الأم، وقد طغى الاضطراب عليها، فاقتعدت كرسياً وهي تهمس:

ـ أيمكن أن يكون بافل؟

فهز نيقولاي كتفيه، مجيباً:

ـ يمكن! ولكن كيف نساعده على الاختفاء؟ وأين تُرانا نعثر عليه؟ لقد رحت الآن أتجول في الشوارع ذهاباً وإياباً آملاً في لقياه. تلك بلاهة بالطبع، ولكن ينبغي أن نفعل شيئاً. وإني لذاهب من جديد....

فصاحت الأم:

ـ وأنا أيضاً!

فاقترح نيقولاي، وهو ينطلق مسرعاً:

ـ الأحرى بك أن تذهبي إلى ييجور وتري إن كان يعرف شيئاً.

فألقت وشاحاً على رأسها، واندفعت خلفه في الشارع والأمل يملأ الصدر منها. وراحت لطخٌ سود تتراقص أمام عينيها وتترجّح، وقلبها يخفق بسرعة وعنف فيدفعها إلى العَدوِ تقريباً. كانت تسير نحو لقاء هذا الاحتمال، مطأطأة الرأس، ذاهلة عن كل ما يُحدق بها.

«ماذا لو وصلتُ ورأيته هناك!».

وتنخسها بارقة الرجاء هذه، فتروح تحثُّ الخطو دون شعور منها.

كان الحر شديداً، وهي تلهث من الإجهاد، حتى إذا بلغت السلم الموصِل إلى الشقة التي يقطنها ييجور توقفت عاجزة عن الذهاب قدماً،

والتفتت تتطلع حواليها، وإذا هي ترسل صيحة دهشة قصيرة هادئة وتغمض عينيها لحظة. هُدهِدَ لها أنها بصرت بنيقولاي فيزوفشيكوف واقفاً قرب بوابة المنزل، ويداه في جيبيه. ولكنها ما إن نظرت من جديد حتى لم يقع بصرها على أي شخص كان.

راحت تفكر، وهي تتسلق درجات السلم وتصيخ بسمعها جيداً:

«لقد تخيّلت ذلك ليس غير!».

وبلغ سمعها من الفناء صدى خطوات بطيئة، فتوقفت برهة على باحة السلم ونظرت إلى الأسفل، فشاهدت مرة أخرى الوجه المجدور، وهو يبتسم لها هذه المرة.

صاحت، وهي تهبط لملاقاته، وقلبها منقبض من خيبة الأمل:

ـ نيقولاي! نيقولاي...

فهمس في صوت هادىء، وهو يلوّح بيده:

ـ إرجعي! إرجعي!

فارتقت الدرج بسرعة، ودخلت غرفة ييجور، فألفته مضطجعاً على الأريكة.

غمغمت لاهثة:

ـ نيقولاي... لقد هرب... من السجن!

فسأل ييجور بصوته الأجش، وهو يرفع رأسه عن الوسادة:

ـ أي نيقولاي؟ ثمة اثنان يحملان هذا الاسم...

ـ فيزوفشيكوف... وهو آت إلى هنا!

ـ عظيم!

وفي هذه اللحظة زَهَفَ نيقولاي نفسه إلى الغرفة، وأوصد الباب خلفه بالمزلاج، وخلع قبعته، ووقف هناك يضحك في رقة وخفوت وهو يسرح شعره بيده. وتحامل ييجور على مرفقيه، وحمحم، وهزَّ رأسه قائلاً:

ـ أهلاً بك...

فاقترب نيقولاي من الأم، تداعب شفتيه ابتسامة عريضة، وتناول يدها كاشفاً:

ـ لو لم ألقك، لما بقي أمامي سوى العودة إلى السجن! فلست أعرف أحداً في المدينة، ولو عدت إلى الضاحية لما تأخروا في العثور عليَّ. وهكذا رحت أدور وأدور وأنا أفكر طوال الوقت في مدى جنوني وحماقتي عندما أقدمت على الفرار. وفجأة، رأيت نيلوفنا تركض في الشارع، فانطلقت أعدو وراءها...

فاستقصت الأم:

ـ وكيف استطعت الفرار؟

جلس متململاً على حافة الأريكة، وهزَّ كتفيه في ارتباك قائلاً:

ـ إنه الحظ وحده. كنت في الفناء أتمتع بفرصة التهوية، فإذا المجرمون العاديون ينهالون على أحد المراقبين ضرباً. وكان هذا المراقب دركياً سابقاً طرد من الخدمة لأنه أقدم مرة على السرقة، ثم أصبح يتجسس على الجميع، ويشي بهم، وينغِّص عليهم الحياة بمضايقاته المستمرة. وهكذا انثالوا يكيلون له اللكمات دون حساب، فعمَّت الفوضى كل شيء، وراح المراقبون يتراكضون مذعورين وهم ينفخون في صفاراتهم. نظرت فرأيت البوابات مفتوحة، والى الوراء منها الساحة الكبرى والمدينة، فسرت نحوها متباطئاً، وكأنني في حلم، حتى اذا مَثَلْتُ في الشارع وقطعت فيه مسافة كبيرة ثُبتُ إلى رشدي وفكرت: إلى أين أذهب الآن؟ تطلعت إلى الخلف، فرأيت البوابات أغلقت...

وقال ييجور:

ـ هِمْ! ولِمَ لم ترجع، أيها السيد العزيز، وتقرع الباب في أدب، وتسألهم السماح لك بالدخول؟ إني أسألكم العفو، أيها السادة، ولكني ارتكبت خطأ صغيراً، وسهوت قليلاً...

فابتسم نيقولاي:

ـ تلك بلاهة بكل تأكيد. غير أني أسأتُ التصرف، مع ذلك، تجاه

رفاقي إذ خرجت هكذا دون أن أقول شيئاً لأيّ منهم... وهكذا مشيت إذن، فرأيت جنازة ـ كانوا يدفنون طفلاً ـ فانضممت إليها وسرت خلف النعش مطرق الرأس لا أتطلع في وجه أحد على الاطلاق. ثم جلست فترة هناك في المقبرة أعبُّ شيئاً من الهواء، واذا فكرة تلمع في خاطري على غير انتظار...

فاستطلع ييجور:

ـ فكرة واحدة فقط؟

ثم أضاف، وهو يتنهد:

ـ لست أعتقد أنها أحسَّت الضيق في رأسك هذا...

فضحك فيزوفشيكوف منشرح الصدر، وهز رأسه قائلاً:

ـ أوه! رأسي لم يعد اليوم فارغاً كما كان في سالف الأيام. أما زلت عليلاً، يا ييجور إيفانوفيتش؟

فأجاب ييجور، وهو يسعل سعالاً رطباً:

ـ إن كلاً يعمل ما في وسعه. هيّا، تابع قصتك!

ـ ثم ذهبت إلى المتحف المحلي، ورحت أدور فيه وأتفرج وأنا لا أفتأ أفكر: إلى أين اذهب الآن؟ لا بل إني نقمت على نفسي أيضاً، وكنت جائعاً بالاضافة إلى ذلك. خرجت إلى الشارع من جديد وتركت قدميَّ تتدافعان الخطو فيه مضطرب البال مبلبل الفكر. لاحظت أن رجال الشرطة يراقبون سائر الناس في انتباه. هجست نفسي: حسناً لن تتأخر سحنتي هذه عن إلقائي بين قوائم القاضي. فجأة، جاءت نيلوفنا تركض نحوي، فابتعدت جانباً ورحت أتبعها، هذا كل شيء!

فقالت الأم في نغمة مذنبة:

ـ أنا لم ألحظك!

وتفحصت فيزوفشيكوف بعناية ودقة فبدا لها أنحل منه فيما غبر من الزمن. وقال فيزوفشيكوف، وهو يحكُّ رأسه:

ـ الرفاق سيقلقون كما أظن....

فلاحظ ييجور:

ـ وماذا عن السلطات؟ يبدو أنك لا تشفق عليهم، فلا ريب أنهم سيقلقون بدورهم أيضاً!

وفتح فمه، وشرع يحرك شفتيه وكأنه يمضغ الهواء، وأضاف:

ـ فلندع الهزل جانباً. ينبغي علينا أن نخفيك في مكان ما، وهذا ليس بالأمر اليسير وإن كان مبهجاً. لو أستطيع النهوض وحسب...

لهث، ورفع يده إلى صدره يفركه في ضعف وتكاسل.

جهر نيقولاي، وهو يطرق برأسه:

ـ يبدو أن مرضك شديد الوطأة، يا ييجور إيفانوفيتش!

وتنهدت الأم، واختلست النظر في قلق إلى الغرفة الصغيرة المزدحمة.

وأجاب ييجور:

ـ ذلك من شأني أنا. هيا اسأليه عن بافل، يا أم. ودعي التواضع جانباً!

فارتسمت على شفتي فيزوفشيكوف ابتسامة عريضة، وأعلن:

ـ بافل على أحسن حال، وصحته جيدة للغاية، وهو هناك رئيسنا نوعاً ما. فهو الذي يتكلم مع الرؤساء، ويصدر الأوامر بصورة عامة. والجميع يحترمونه...

كانت نيلوفنا تهزُّ رأسها وهي تنصت إلى فيزوفشيكوف وتختلس النظر من زاوية عينيها إلى وجه ييجور المنتفخ والمزرق في الوقت ذاته. كان هذا الوجه يبدو مسترخياً بشكل غريب، جامداً مجـرداً عن كل تعبير، اللّهم إلا عيناه اللتان تبرقان وحدهما في مرح وحيوية.

هتف نيقولاي بغتة:

ـ لو أعطيتماني شيئاً أسد به رمقي! ما أشد جوعي!

فقال ييجور:

ـ ثمة قطع من الخبز على الرف، يا أم. ثم أخرجي إلى الرواق

واقرعي الباب الثاني على اليسار، فتفتح لك امرأة، فاطلبي منها القدوم إلى هنا، وستجلب معها كل ما تجده ملائماً للأكل.

فقال نيقولاي معترضاً:

ـ ما حاجتي إلى كل شيء!

ـ لا تقلق، فلن يكون هناك كثير منه...

خرجت الأم وقرعت الباب الذي عيّنه لها. وبينما هي تصغي إلى السكون وراء الباب فكرت في ييجور بكآبة:

«إنه يموت...».

واستوضح صوت من داخل الغرفة:

ـ من هناك؟

فردت الأم في صوت خافت:

ـ جئت من لدن ييجور إيفانوفيتش... إنه يرجوك أن تأتي إلى غرفته...

فأجابت المرأة دون أن تفتح الباب:

ـ إني قادمة في الحال!

وانتظرت الأم لحظة ثم طرقت الباب من جديد، ففتح سريعاً وبدت على عتبته امرأة مديدة القامة ذات نظارتين، دلفت إلى الرواق، وسألت الأم في برود، وهي تسوي في عجلة ما تغضّن من كم بلوزتها:

ـ ماذا تريدين؟

ـ لقد أرسلني ييجور إيفانوفيتش...

ـ هيا بنا!

ثم هتفت في صوت خافت:

ـ إني أعرفك... مرحباً! هذه العتمة...

تطلعت الأم اليها، فتذكرت أنها شاهدتها عدة مرات عند نيقولاي.

وخطر في بالها:

«إنهم جميعاً من جماعتنا!».

أفسحت المرأة الطريق لبيلاجيا كي تسير أمامها، واستفهمت:

ـ أساءت حالته؟

ـ نعم. هو راقد في فراشه. وهو يرجوك أن تحملي بعض الطعام...

ـ هذا ليس ضرورياً...

وبينما هما تدخلان غرفة ييجور، قال هذا بصوته الأجش:

ـ إني ذاهب للقاء أجدادي، يا صديقتي. لودميلا فاسيليفينا، أن هذا الفتى تجرأ على الخروج من السجن دون إذن من السلطات. أعطيه قبل كل شيء ما يأكله ـ ومن ثم أدركيه بمكان يختبىء فيه.

فأشارت المرأة برأسها إيجاباً. وألقت على وجه الرجل المريض نظرة متفحصة، ونبرت بلهجة قاسية:

ـ كان يجب أن ترسل في طلبي منذ اللحظة التي قدم فيها، يا ييجور. وأني لأرى أنك لا تتناول دواءك مرتين متواليتين. يا للعار! تعال إلى غرفتي أيها الرفيق، فسوف يأتون بعد قليل ليأخذوا ييجور إلى المستشفى!

ـ وهكذا أنت. عازمة حقاً على إدخالي المستشفى؟

ـ نعم، ولسوف أبقى هناك بجانبك.

ـ وهناك أيضاً؟ يا لله!

ـ كفاك هذراً...

وبينما هي منهمرة في الحديث، أصلحت من وضع الغطاء فوق ييجور، وتفحصت نيقولاي بامعان، ونظرت إلى الزجاجات كي تقدّر مبلغ ما بقي فيها من الأدوية. كانت تتكلم بصوت خفيض، متساوي النبرات، وتنتقل في أرجاء الغرفة برشاقة ولطف عظيمين. وكانت شاحبة الوجه، وحاجباها السوداوان يلتقيان تقريباً فوق جذر أنفها. ولم يُرق وجهها للأم، بل وجدت فيه كثيراً من تكبّر وعجرفة، أما عيناها فلم تعرفا أبداً معنى الابتسامة أو البريق. وكانت تخاطب الناس دائماً بلهجة الآمر المعتاد أن يطاع. تابعت تقول:

ـ سوف نترككما الآن، ولكن سأعود سريعاً. أعطي ييجور ملعقة من هذا الدواء، ولا تسمحي له بالحديث أبداً...

وخرجت مصطحبة نيقولاي، فقال ييجور متنهداً:

ـ امرأة رائعة، مدهشة بكل بساطة. بودّي أن تقيمي معها يا أم، فهي تجهد نفسها كثيراً...

فردّت الأم في لطف:

ـ كفاك كلاماً، خذ هذا الدواء!

فجرع الدواء وأغمض إحدى عينيه، واستأنف:

ـ سوف أموت على أية حال، وإن احتفظت بفمي مغلقاً...

راح يراقب الأم بعينه الثانية، في حين انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة. أما الأم فأطرقت برأسها، وتملّكتها موجة من الرثاء رجرجت الدموع في عينيها. قال:

ـ لا بأس في ذلك. إنه في حكم الطبيعة. فلذّة الحياة تستدعي ضرورة الموت...

فوضعت الأم يدها على رأسه، وقالت مرة أخرى في لطف عظيم:

ـ أفلا تستطيع حقاً أن تكفَّ عن الكلام؟

فأغلق عينيه وكأنه يصيخ السمع إلى خرخرة صدره، ثم عاود في عناد:

ـ ليس في الصمت أي معنى، يا أم. ماذا عساني أربح به؟ بضع ثوان أخرى من عذاب النزع الأخير، وأنا أضيّع لذة تبادل بعض الكلمات مع امرأة طيبة مثلك. إني لعلى يقين أن البشر في العالم الآخر ليسوا على طيب هؤلاء الناس...

فقاطعته الأم في قلق:

ـ ستعود الآن هذه السيدة وتعنفني لأني تركتك تتكلم...

ـ ليست سيدة، بل هي ثورية رفيقة، امرأة مدهشة حقاً. ولا ريب أنها ستعنّفك، فهي تعنّف الجميع على الدوام...

وشرع ييجور في بطء، وهو يبذل جهداً واضحاً كي يحرك شفتيه، يروي لها قصة حياة جارته. كانت عيناه تبتسمان فتدرك الأم تعمُّده مضايقتها، فتنظر في وجهه النديّ المزرق وتفكر مذعورة:

«سوف يموت...».

رجعت لودميلا، ولم تكد تغلق الباب في عناية وحذر حتى استدارت إلى الأم:

ـ ينبغي لصديقك أن يبدل ثيابه ويغادر غرفتي في أسرع وقت ممكن، وهكذا عليك أن تذهبي حالاً وتأتيه بما يرتديه. إحملي الثياب إلى هنا. من سوء الحظ أن صوفيا ليست موجودة... فذلك من شأنها وحدها ـ إخفاء الناس!

فقالت الأم، وهي تلقي بوشاحها على كتفيها:

ـ إنها عائدة غداً!

كانت كلما أعطيت مهمة تمتلىء رغبة شديدة في تنفيذها سريعاً على أكمل وجه حتى لتعجز عن التفكير في شيء آخر... سألت في صوت جدي، وهي تسبل حاجبيها في اهتمام:

ـ أي زي تفضلين له؟

ـ لا فارق، إذ سيترك المدينة ليلاً...

ـ ذلك أسوأ منه في النهار، حين لا يكون في الشوارع غير قليل من الناس، ويكون رجال الشرطة أشد حذراً وأكثر عناية وتزمُّتاً في المراقبة. وهو ليس على كثير من المهارة...

وأطلق ييجور ضحكة مبحوحة.

سألته الأم:

ـ هل أستطيع زيارتك في المستشفى؟

فأشار برأسه، وهو يسعل. واستفهمت لودميلا، وهي ترمق الأم بعينيها السوداوين:

ـ هل تحبين أن نتبادل العناية به؟ أنت تريدين؟ عظيم. أما الآن فاذهبي بأقصى سرعة ممكنة...

تأبطت ذراع الأم في حنان، ولكن في حزم، وقادتها نحو الباب، حتى اذا خرجتا منه توقفت لتقول بصوت خافت:

ـ لا تغضبي من طردي إياك هكذا، فالكلام يؤذيه كثيراً، وأنا ما زلت أرعى آمالاً...

وشدَّت على يديها حتى فرقعت عظام أصابعها، ثم أسبلت جفنيها المتعبين في إعياء...

واضطربت الأم لذلك الاعتراف، فغمغمت:

ـ ما هذه الأقوال...

فقالت المرأة في صوت هامس:

ـ انتبهي من الجواسيس حولك!

ورفعت يديها إلى وجهها تفرك صدغيها، وارتعشت شفتاها، في حين رقّت سيماؤها كثيراً.

قالت الأم بخيلاء:

ـ إني أعلم!

وبينما هي تعبر البوابة وقفت برهة، وراحت تصلح وضع وشاحها وهي تختلس النظر فيما حولها بعينين حادتين يقظتين. لقد أصبحت تعرف كيف يميز الجاسوس من بين حشد كبير من الناس دون خطأ تقريباً. إنها تعلم جيداً تلك اللامبالاة المبالغ بها في خطوهم، وتلك الطلاقة غير الطبيعية في إشاراتهم، وتلك السيماء من الملل والضجر التي لا تفلح في إخفاء البريق الملتاع الآلم الذي يطلُّ من عيونهم الحادة البغيضة.

ولكنها لم تستطع هذه المرة أن تميز مثل هذه الوجوه. فتماهلت الخطوَ على طول الشارع، ونادت عربة وأمرت سائقها أن يقلّها إلى السوق، حيث راحت تشتري ثياباً لنيقولاي وهي تساوم في عناد، وتكيل الشتائم دون حساب لذلك الزوج السكير الذي تجبرها عربدته الدائمة

على أن تشتري له طقماً كاملاً من الملابس كل شهر تقريباً. ولم تؤثر خرافتها هذه في البائعين كثيراً، ولكن نفسها ارتاحت لها كل الارتياح، على أية حال، وابتهجت بها، لأنها تصورت في الطريق أن رجال الشرطة سيدركون ضرورة شراء ثياب جديدة لنيقولاي، فيرسلون بالتالي جواسيسهم إلى السوق. وقفلت إلى مسكن ييجور وهي تتخذ نفس الحيطة الساذجة، ومن ثم رافقت نيقولاي حتى حدود المدينة، وهما يسيران كلٌّ على جانب من الطريق، والأم تتسلى طوال الوقت، مسرورة برؤية نيقولاي يخب معها في تثاقل، مطرق الرأس، وهو يتعثر بأذيال معطفه الكستاني الطويل، ويدفع إلى الخلف بقبعته التي لا تنفك تنزلق فوق جبينه حتى تبلغ أنفه. والتقيا بساشنكا في زقاق جانبي مقفر، فأشارت الأم إلى فيزوفشيكوف برأسها، ثم هرولت راجعة إلى الدار. وفكرت في كآبة:

«ولكن باشا ما برح في السجن... وكذلك اندريوشا...».

10

هتف نيقولاي إيفانوفيتش بها لما رآها في نبرة الاضطراب والقلق:

- ييجور في حالة سيئة، سيئة للغاية! نقلوه إلى المستشفى، ومرت لودميلا بنا، وهي تريدك أن تذهب...

- إلى المستشفى؟

أصلح نيقولاي من وضع نظارتيه بحركة عصبية، وساعد الأم على ارتداء سترتها. قال في صوت مرتعش، وهو يضغط أصابعها في يده الجافة الدافئة:

- أنظري، خذي هذه الرزمة معك. هل دبرت أمر فيزوفشيكوف؟

- نعم...

ـ سأذهب، أنا أيضاً، لرؤية ييجور...

كانت الأم متعبة جداً حتى تشعر بدوران في رأسها فراح اضطراب نيقولاي يثير فيها توقُّعاً أليماً لكارثة قريبة. وكانت هذه الفكرة القاتلة «إنه يموت» لا تفتأ تنهال على رأسها ضرباً مثل مطرقة ثقيلة.

ولكنها عندما دخلت الغرفة الصغيرة النظيفة المشرقة، حيث كان ييجور يضحك بصوت مبحوح وقد جلس على السرير غارقاً في أكمة من الوسائد البيض، هَدَأ روعها في الحال، فوقفت برهة مبتسمة على عتبة الباب تنصت إلى ما يحدّث الرجل المريض الطبيب به:

ـ إن مداواة المريض مثل الاصلاحات...

فهتف الطبيب والقلق يسيطر على صوته العالي النبرة:

ـ كفاك هذراً، يا ييجور!

ـ ولكني ثوري، وأمقت الاصلاحات...

فوضع الطبيب، في لطف، يد ييجور على ركبته ونهض وهو يعبث بلحيته مفكراً، ويجسُّ ما في وجه المريض من انتفاخ. وكانت الأم تعرف هذا الطبيب جيداً فهو من أعز أصدقاء نيقولاي واسمه إيفان دانيلوفيتش. اقتربت متمهلة من ييجور الذي حياها بمدٍّ لسانه، فاستدار الطبيب إليها وقال:

ـ آه، هذا أنت، يا نيلوفنا! مرحباً بك! ما هذا الذي تحملين في يدك؟

ـ كتب، فيما أعتقد!

فأمر الطبيب قصير القامة:

ـ القراءة ممنوعة عليه.

فقال المريض شاكياً:

ـ في نيّته أن يجعلني أبله غبياً.

ندَّت عن صدره زفرة قصيرة مؤلمة، مصحوبة بخرخرة رطبة، واكتسى وجهه بقطرات دقيقة من العرق، ولم يستطع رفع يده حتى مسح جبينه إلا

في جهد عظيم للغاية. وكان ذلك الجمود الغريب في خديه المنتفخين يشوّه وجهه العريض الدمث، إذ يشلُّ سيماءه في قناع ميت لا حياة فيه. عيناه وحدهما، الغارقتان عميقاً في الانتفاخ الذي يعمّ وجهه بأسره، كانتا تشعان في صفاء، وتبتسمان في تسامح وحنان.

ـ هِيْ! يا أبا علم الطب، إني متعب. أفلا أستطيع الاستلقاء؟

فأجاب الطبيب في اقتضاب:

ـ كلا!

ـ حسناً، سوف أستلقي في اللحظة التي تغادر الغرفة فيها...

ـ لا تسمحي له بذلك، يا نيلوفنا. رتبي وسائده وأرجوك ألّا تتحدثي معه ـ ذلك ضار له...

فأشارت الأم برأسها، أما الطبيب فخرج وهو يكردح بخطوات سريعة قصيرة. وألقى ييجور برأسه إلى الخلف، وأغمض عينيه، وجمد دون حراك أللهم إلا أصابعه التي ما فتئت تضطرب في لطف. كانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء ترشح برداً جافاً، وضيقاً ضابّاً ثقيل الوطأة. وكانت قمم أشجار الزيزفون الشعثاء ترى من خلال النافذة الواسعة، ولطخ صفر تلمع من خلال أوراقها المغبرة كما لو أن الخريف الوشيك ترك لمساته الباردة.

قال ييجور، دون أن يتحرك أو يفتح عينيه:

ـ الموت يقترب مني في بطء،... وبالرغم منه... إنه يشفق عليَّ نوعاً ما على ما أظن... فلقد كنت دائماً على استعداد للتآلف معه...

رجته الأم، وهي تربت على يده في لطف:

ـ هلا كففت عن الكلام، يا ييجور إيفانوفيتش؟

ـ انتظري لحظة... سوف أكفُّ...

وتابع، وهو يلهث ويبذل صعوبة كبرى كي يلفظ الكلمات، ويستريح من عناء الحديث كلما أعوزته القوة للاستمرار فيه:

ـ ما أروع أن تكوني بيننا، وما أبهج رؤية وجهك! لأسأل نفسي

أحياناً كيف ستكون نهايتها؟ ومما يرثى له حقاً أن يدرك المرء أن ما ينتظرك ـ مثل الباقين جميعاً ـ هو السجن وكل ألوان التعاسات. أخائفة أنت من المضيّ إلى السجن؟

فأجابت بكل بساطة:

ـ كلا!

ـ بالطبع لا، ومع ذلك فالسجن أمر فظيع! والسجن مَن صنع بي هذا! وإذا أردت الحقيقة، فأنا لا أريد أن أموت.

وكادت الأم تقول: «ربما لن تموت بعد!»، ولكن نظرة وحيدة إلى وجهه ردَّت الكلمات عن شفتيها.

ـ كنت أستطيع إذن متابعة النشاط... ولكن إذا كنت عاجزاً عن العمل... فلا معنى لحياتي إذن... فهي تكون سخيفة عندئذ...

وتنهدت الأم بعمق وهي تتذكر مرغمة تعبير أندريه: «ذلك عدل... ولكنه لا يعزي!». لقد قضت يوماً متعباً، وهي إلى ذلك جائعة. وكان همس الرجل المريض المبحوح، المتردّد على وتيرة واحدة، يملأ الغرفة وينزلق على الجدران الملساء عاجزاً مقهوراً. وكانت قمم أشجار الزيزفون خارج النافذة أشبه بسحب واطئة قاتمة حتى لتثير أوراقها المسودة المكتئبة الذهول والعجب في نفس الناظر اليها. لقد أضحى كل شيء هادئاً بشكل غريب، غارقاً في جمود القيلولة المظلمة، ينتظر معذباً قدوم الليل.

قال ييجور، وهو يغمض عينيه ويلوذ بالصمت:

ـ حالتي سيئة وأي سوء!

فنصحته الأم:

ـ هلا رقدت! لعلك إذن تتحسن حالاً.

أنصتت فترة إلى تنفسه، وصعّدت النظر في ما حولها، وعادت إلى الجلوس دون حراك بعض الوقت، ونير حزن بارد يجثم عليها بوطأته. وأخيراً هَجَدَ النعاس في عينيها.

أيقظتها حركة حريصة عند الباب. فانتفضت ورأت عيني ييجور مفتوحتين.

قالت في صوت خافت:

ـ إني غفوت، فاصفح عني!

فأعلن في مثل خفوت صوتها:

ـ أنت مَنْ يجب أن يصفح عني...

أطلت دجنَّة الليل الأغبش من خلال النافذة، وانسل برد عجيب يملأ عيني الأم، والظل يغمر كل شيء بصورة غريبة. وكان وجه الرجل المريض مظلماً فاحم اللون.

وسُمع حفيف، ثم صوت لودميلا يقول:

ـ ما بالكما تجلسان هكذا في العتمة البهماء تتهامسان؟ أين مفتاح النور؟

وفجأة، غمر نور أبيض بارد قلب الغرفة التي وقفت لودميلا في وسطها كظل أسود بقامتها المديدة وظهرها المستقيم.

مرت رعشة شديدة في جسد ييجور برمّته، فرفع يده إلى صدره.

صاحت لودميلا، وهي تركض إليه:

ـ ماذا دهاك؟

فرمق الأم بعينين جامدتين بدتا الآن متسعتين كثيراً، براقتين بشدة غريبة، وفغر فاه، ورفع رأسه ومدَّ يده إلى الأمام، فتناولتها الأم بلطف وأدقَّت النظر في وجهه وهي تحبس أنفاسها. غير أنه ألقى برأسه إلى الخلف بحدة وقد أطبق على عنقه اختلاج شديد، وقال في صوت مرتفع النبرة:

ـ لا أستطيع... إنها النهاية!

ملكت جسده رعشة سريعة وسقط رأسه خائراً على كتفه، وانعكس نور المصباح المعلَّق فوق سريره، ميتاً، في عينيه البجّاوين.

تمتمت الأم:

ـ أواه، يا عزيزي!

ابتعدت لودميلا في بطء عن السرير حتى صاقبت النافذة، ووقفت تشخص إلى الخارج. قالت في صوت مرتفع غير مألوف لم تسمعه الأم من قبل:

ـ لقد مات...

انحنت فوق النافذة، وقد اعتمدت حفافها بمرفقيها، ثم سقطت فجأة خائرة القوى على ركبتيها، وكأنها تلقت ضربة شديدة على أمِّ رأسها، وغطت وجهها بيديها وانثالت تئن بصوت مخنوق.

صلّبت الأم يدي ييجور الثقيلتين فوق صدره، وأحسنت من وضع رأسه على الوسادة، ثم خطت مقتربة من لودميلا، وهي تمسح دموعها، ومالت عليها تلمس شعرها الكثيف. فحوَّلت المرأة الثانية إليها عينين باهتتين متوسعتين، وناضلت كي تنهض على قدميها، وهي تهمس بصوت راعش النبرات:

ـ لقد عشنا معاً في المنفى. ذهبنا إلى هناك معاً، وقضينا مدة في السجون... ذلك لا يطاق في الأحايين. ذلك يبعث على النفور، وكثيرون هم الذين تخونهم الشجاعة.

اعتصرتها نوبة من بكاء مرتفع جاف تغلّبت عليها في جهد عظيم، ثم أطفت من الأم بوجهها الذي رقّت سيماؤه بما انطبع عليه من حنان وكآبة حتى بدت صاحبته أصغر سناً مما هي عليه، وتابعت في همس سريع وهي تبكي دون عبرات:

ـ أما هو فلم يكن ينضب لمرحه معين. يضحك أبداً ويمزح، مخفياً آلامه الخاصة ليسكب الشجاعة في قلوب الضعفاء منا. لقد كان أبداً طيب القلب، لطيفاً، رقيق الشعور وهناك... في سيبيريا... كثيراً ما تفسد البطالة الناس وتقودهم إلى إطلاق العنان لغرائزهم الدنيئة... لكم كان يعرف كيف يحارب هذا كله!... آه لو تعلمين أي رفيق مدهش رائع كان... لقد كانت حياته الخاصة مؤلمة تعسة كل التعاسة، لكن

أحداً لم يسمع قط كلمة شكوى أو تبرُّم من شفتيه... أبداً! ولقد كنت صديقة عزيزة عليه، وأدين للطفه بالشيء الكثير، ولقد أعطاني كل ما في مقدوره من ثراء فكره... ومع ذلك لم يسأل أبداً ثواباً، بالرغم من إعيائه ووحدته، ولم يطلب أدنى عطف أو أية عناية شخصية...

واقتربت من ييجور، وانحت عليه تقبِّل يده. ثم قالت هامسة باكتئاب:

ـ أيها الرفيق، يا رفيقي العزيز الطيب، شكراً لك... شكراً لك من صميم قلبي. وداعاً! لسوف أتابع العمل كما فعلتَ أنت دائماً... دون كلل، وبأيمان لا يتزعزع، طوال حياتي! وداعاً!

راح جسدها ينتفض وهي تجهش بالبكاء، ثم ارتمت عند قدميّ ييجور، وكانت الأم تبكي في سكون وغزارة وهي تحاول، لسبب ما، أن تحبس عبراتها. إنها تريد أن تعزي لودميلا بحنان عميق وعطف عظيم، تريد أن تقول كلمات رائعة عن ييجور تطفح حباً وحزناً. ومن خلال دموعها نظرت إلى وجهه الغائر وعينيه نصف المغمضتين بجفنيه المسبلين فكأنه يغفو وشفتاه القاتمتان الطافرة عليهما ابتسامة خفيفة... لقد كانت جميع الأشياء ساكنة برّاقة حتى درجة الإيلام...

دخل إيفان دانيلوفيتش بخطواته السريعة المعهودة، وتوقف بغتة في وسط الغرفة، ثم دفع يديه في جيبيه بقسوة، واستقصى بصوت مرتفع عصبي:

ـ متى؟..

فلم يتلقَّ جواباً. اتجه صوب ييجور وهو يترنح قليلاً، ويمسح جبينه، وبعد أن ضغط على يده ابتعد جانباً.

ـ لم يكن ذلك مفاجأة. كان يجب أن يحدث، بمثل قلبه، قبل ستة أشهر... على الأقل...

وفجأة انكسر صوته الحاد، المرتفع كثيراً، والهادىء في الوقت ذاته

عن تعمد، فاستند إلى الحائط وراح يعبث بلحيته في عصبية، وهو يراقب المرأتين قرب السرير. وكانت عيناه تطرفان بسرعة. همس قائلاً:

ـ واحد آخر يتلاشى!

نهضت لودميلا وذهبت تفتح النافذة، وبعد لحظة كانوا يقفون جميعاً بالقرب منها كتفاً لكتف يشخصون في وجه ليل الخريف الأدعج. وكانت مصابيح الدجى تتلألأ، فوق قمم الأشجار القاتمة، فتزيد فراغ السماء اللامتناهي عمقاً وبعداً...

تأبطت لودميلا ذراع الأم، ضمت نفسها إلى كتفها في سكون؛ ووقف الطبيب مطرق الرأس، يمسح نظارتيه بالمنديل؛ ومن خلال النافذة أتت أصداء ليل المدينة المتعبة. داعب البرد وجوههم وحرَّك شعورهم في لطف، فارتجفت لودميلا، في حين راحت دمعة ملتهبة تترقرق على خدها. ومن الرواق تناهت أصداء متكسرة مذعورة، ووقع أقدام سريعة مضطربة، وأنّات، وهمس مكتوم حزين، غير أن الثلاثة ظلوا ساكنين لا حراك بهم عند النافذة يشخصون في الليل البهيم.

وأحست الأم أن وجودها لم يعد مستحباً في الغرفة، فتخلصت من لودميلا في أناة، وانحنت لييجور، واتخذت طريقها إلى الباب.

استجلى الطبيب بصوت خفيض، ودون أن يلتفت إليها:

ـ أتذهبين؟

ـ نعم...

ولما بلغت الشارع روَّأت تفكر بلودميلا وعبراتها المكتومة:

«إنها لا تعرف كيف تبكي...»

وتنهدت وقد تذكرت آخر ما تفوه به ييجور من كلمات قبل وفاته. وراحت تتذكر وهي تخطو في تماهل عينيه الطافحتين بالحيوية، ومرحه الدائب، والقصص التي رواها عن الحياة. هجست في نفسها:

«إن الحياة عسيرة على الإنسان الطيب، أما الموت فسهل للغاية... كيف سأموت أنا، يا تُرى؟...».

ورأت بعيني فكرها لودميلا والطبيب واقفين إلى نافذة تلك الغرفة البيضاء المشعشعة بالضياء، وعيني ييجور إلى الخلف منهما. تنهدت بعمق وقد غمرها رثاء عظيم للجنس البشري، فأسرعت خطاها، يحرّضها شعور غامض غير محدود.

فكرت، وهي تخضع لقوة داخلية تمتزج بكثير من الكآبة والاقدام: «يجب أن أسرع!».

11

قضت الأم اليوم التالي كله منهمكة في تدبير أمور المأتم. وفي المساء، بينما هي وصوفيا ونيقولاي يرتشفون الشاي، هبطت ساشنكا عليهم كثيرة المرح والحيوية حتى درجة غريبة. كانت وجنتاها متوقدتين، وعيناها تلمعان فرحاً، حتى بدا للأم أن صدرها يطفح برجاء بهيج للغاية. كان مزاجها متناقضاً بحدة وعنف مع جو الكآبة الذي راحوا يستعيدون فيه الذكريات عن ييجور. ولم يمتزج مع ذلك الجو، بل حيّر الجميع وأعمى عيونهم مثل نار تتأجج، دون انتظار، في الظلمة العابسة.

قال نيقولاي، وهو يضرب على الطاولة بأصابعه متفكراً:

ـ ما دهاك اليوم، يا ساشا؟ لستِ على طبيعتك ومزاجك...

فأجابت ساشا، مرسلة ضحكة سعيدة:

ـ حقاً؟ ربما!

تطلعت الأم إليها في عتاب أخرس، بينما همهمت صوفيا تذكرها:

ـ لقد كنا نتكلم عن ييجور إيفانوفيتش بالضبط...

فهتفت ساشا:

ـ أي إنسان رائع كان! أليس كذلك؟ لم ألقه أبداً إلا والابتسام يموج على شفتيه، والمزاح يتراقص في فمه. وكيف كان يعمل! لقد كان فناناً

في الثورة، أستاذاً كبيراً في التفكير الثوري. بأية قوة وبساطة كان يرسم لوحاته عن الكذب، والخداع، والظلم!

كانت تتكلم بصوت خافت، وفي عينيها ابتسامة مفكرة، لكنها أعجز عن إطفاء نار الغبطة التي استطاع ثلاثتهم تمييزها، وإن لم يستطع أحد منهم فهمها.

أبوا أن يستبدلوا ذلك المرح الذي تحمله ساشا بالكآبة الناشئة عن موت رفيقهم فطفقوا يدافعون، دون وعي منهم، عن حقهم في الانغماس في الحزن ساعين أن يردوا الفتاة إلى مشاركتهم أتراحهم...

قالت صوفيا في إصرار، وهي ترمق ساشا بنظرة مدققة:

ـ وها هو الآن قد مات!

شملتهم ساشا بنظرة سريعة مستفهمة وعبست، ثم أطرقت برأسها وهي تلمس شعرها بحركة يد بطيئة. قالت بصوت مرتفع بعد فترة من الصمت المتوتر وهي تحدج الحاضرين بنظرات التحدي:

ـ لقد مات؟ ماذا يعني هذا... مات؟ ما الذي مات؟ هل مات احترامي لييجور، أو حبي له كرفيق، أو ذكرياتي عن آرائه وأفكاره؟ هل ماتت تلك الأفكار، هل اختفى ذلك الشعور الذي يثيره في قلبي، أو معرفتي به كإنسان شريف مقدام؟ هل مات كلُّ هذا؟ أعلم أن ذلك لا يمكن أن يموت أبداً بالنسبة إليَّ. يؤتى لي أننا نتسرّع كثيراً حينما نقول عن شخص ما... إنه مات. «لقد ماتت شفتاه، وأما كلماته فستظلُّ حية إلى الأبد في قلوب الأحياء!».

وفي انفعالها جلست إلى المائدة من جديد، واعتمدت عليها بمرفقيها، وتابعت وهي أكثر هدوءاً وتأملاً مبتسمة لرفاقها بعينين مكفهرتين:

ـ لعل ما أقول يبدو لكم حماقة، أيها الرفاق. ولكني أؤمن بخلود الناس الشرفاء، خلود أولئك الذين منحوني السعادة حتى أعيش هذه الحياة الرائعة التي أحياها، هذه الحياة التي تسكرني بتعقدها المدهش،

وغناها بالحوادث، ونموّ الأفكار العزيزة عليَّ معزّة قلبي نفسه. لعلنا نبخل كثيراً بعواطفنا، فنحن نعيش كثيراً مع أفكارنا، وهذا يشوهنا نوعاً ما. نحن نقدّر جميع الأشياء دون عاطفة...

فاستفهمت صوفيا، وشفتاها تفترّان عن ابتسامة صغيرة:

ـ هل وقع لك حادث سعيد؟

أجابت ساشا وهي تهز رأسها:

ـ نعم، حادث جميل جداً على ما يخيّل إليَّ. لقد قضيت الليل بطوله أحادث فيزوفشيكوف. أنا لم أحبه من قبل أبداً. كنت أخاله فظاً جاهلاً، ومما لا ريب فيه أنه كان فظاً جاهلاً. كان أبداً مفعماً بنقمة سوداء جامدة ضد سائر الناس، وهو يضع نفسه بخراقة في قلب جميع الأشياء فكأنه مركز الثقل، ويروح يقول في جفوة وخبث دون انقطاع: أنا، أنا أنا! لقد كان في ذلك شيء من ضيق التفكير مما يثير أعصاب المرء...

وابتسمت، ثم راحت تحدجهم من جديد بعينين لامعتين:

ـ أما الآن فهو يقول: أيها الرفاق. ويجب أن تسمعوه كيف يقول هذه الكلمة... إنه يلفظها بنوع من المحبة اللطيفة الخجول التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. لقد أضحى بسيطاً مخلصاً، مليئاً بالرغبة في العمل. لقد وجد نفسه. إنه واعٍ تماماً لقواه ولمساوئه على حدّ سواء. الأمر الرئيسي هو ذلك الشعور الحقيقي بالرفقة الذي ولد فيه...

وكانت الأم سعيدة وهي تنصت إلى ساشا، إذ تكتشف أن مثل هذه الإنسانة الصارمة النفس يمكن أن تصبح لطيفة فرحة. ولكنها في الوقت ذاته كانت تفكر، في مكان ما من أعماق قلبها، في غيرة:

«وماذا عن باقل؟».

وتابعت ساشا تقول:

ـ إنه يفكر في رفاقه فحسب، وهل تعلمون بماذا حاول إقناعي؟

بضرورة تدبير أمر فرارهم. هذا ما يقول! إنه يدَّعي أن ذلك بسيط سهل للغاية...

فرفعت صوفيا رأسها، وقالت في لهفة:

ـ تلك فكرة رائعة، يا ساشا! ما رأيك؟

ارتجف قدح الشاي في يد الأم، أما ساشا فعقدت حاجبيها وهي تحاول كبت عواطفها وانفعالاتها. وبعد فترة من الصمت قالت في صوت رزين، لكن بابتسامة سعيدة:

ـ إن كان ما يقوله حقاً، فعلينا إذن أن نحاول! واجبنا أن نحاول!..

واحمرّ وجهها بغتة، وسقطت في مقعد دون أن تقول شيئاً.

وفكرت الأم، وهي تبتسم:

«يا حبيبتي!».

وكذلك ابتسمت صوفيا، بينما اختلس نيقولاي النظر إلى ساشا وضحك في رقة، فرفعت الفتاة رأسها إليهم، كانت شاحبة الوجه، وعيناها تبرقان، وصوتها جافاً جريحاً. قالت:

ـ إنيّ أفهم سبب ضحككم... أنتم تظنون أن لديَّ دافعاً شخصياً إلى تحقيق ذلك؟

فقالت صوفيا في خبث، وهي تنهض وتقترب منها:

ـ لماذا، يا ساشا؟

وبدا للأم أن ذلك آلم ساشا، وأن صوفيا غير محقة في ذلك القول، فتنهدت، وارتفع أحد حاجبيها، ونظرت إليها في عتاب. هتفت ساشا:

ـ إذن فأنا أرفض التدخل في هذه القضية! لست أقوى على المساهمة في تقرير ذلك ما دمتم تعتقدون أنه...

فقال نيقولاي في هدوء:

ـ كفى، يا ساشا!

ذهبت الأم إليها أيضاً وراحت تمسح على شعرها في لطف فأمسكت الفتاة بيدها ورفعت محياها الخجول المورَّد نحو وجه الأم، فابتسمت

هذه وتنهدت في كآبة وقد أعوزتها الكلمات بينما جلست صوفيا على المقعد بجانب ساشا وأحاطت كتفها بذراعها، وقالت وهي تتطلع في عينيها بابتسامة مستفهمة:

ـ لأنت غريبة!..

ـ ربما كان من البلاهة أن...

فتابعت صوفيا:

ـ كيف يمكن أن تفكري...

ولكن نيقولاي قاطعها بلهجة رزينة:

ـ يجب تدبير هربهم، إن كان هذا الهرب ممكناً. هذا أمر لا ريب فيه. ولكن يجب أن نعرف قبل كل شيء إن كان رفاقنا في السجن يريدوننا أن نفعل هذا...

فأطرقت ساشا برأسها.

أشعلت صوفيا لفافة، وألقت بعود الثقاب في إحدى الزوايا باهمال وهي ترنو إلى أخيها. أما الأم فتنهدت، وقالت:

ـ كيف يمكن ألا يريدوا ذلك؟ ولكني لا أعتقد بإمكانه..

كانت تتلهف أن تسمعهم يؤكدون احتمال الفرار، بيد أنهم ظلوا سكوتاً.

قالت صوفيا:

ـ يجب أن أرى فيزوفشيكوف!

فأجابت ساشا خافتة الصوت:

ـ سأقول لك غداً متى يمكن ذلك، وفي أي مكان.

استوضحت صوفيا، وهي تذرع أرض الغرفة في ذهاب وإياب:

ـ ماذا سيعمل؟

ـ ينوون أن يسندوا إليه عمل منضّد حروف في المطبعة الجديدة، وفي انتظار ذلك سيعيش مع أحد حراس الغابات.

كانت ساشا عابسة، وقد استردّ وجهها تعبيره الكالح المألوف. وكانت تتكلم بجفاء واقتضاب.

قال نيقولاي، وهو يتجه إلى حيث الأم تغسل الأقداح:

ـ يجب أن تسلمي بافل رسالة صغيرة حين تنطلقين لزيارته بعد غد. أنت تفهمين... يجب أن نعرف...

فأسرعت الأم تؤكّد له:

ـ إني أفهم، إني أفهم! سأتدبر الأمر كي أسلمه إياها...

ـ إني ذاهبة الآن!

أعلنت ساشا ذلك، وبعد أن صافحت كلاً منهم بسرعة اختفت منتصبة القامة بشدة، وبخطوات ثابتة حازمة أكثر من المعتاد.

بعد ذهابها وضعت صوفيا يديها على كتفي الأم وطفقت تهزُّها إلى الأمام والخلف. سألت مبتسمة:

ـ أفي استطاعتك أن تحبي مثل هذه الابنة، يا نيلوفنا؟

فصاحت الأم، وهي على شفا البكاء:

ـ آه، يا إلّهي! لو أستطيع رؤيتهما معاً ليوم واحد فقط!

فغمغم نيقولاي في صوت رقيق:

ـ نعم، إن قليلاً من السعادة لا يؤذي أحداً. ولكن أحداً لا يقنع بالقليل من السعادة، فإذا كثرتْ جداً... أصبحت رخيصة...

واتجهت صوفيا إلى البيانو، وراحت تعزف لحناً حزيناً.

12

في صباح اليوم التالي كان حشد من الرجال والنساء يقف عند بوابة المستشفى ينتظرون خروج نعش رفيقهم المتوفى في الغشية، وقد دار حولهم بعض الجواسيس في حذر واحتراس يصغون إلى هتافاتهم، ويسجلون في أذهانهم الوجوه والحركات والكلمات، بينما راقبهم عبر

الشارع فريق من رجال الشرطة، والمسدسات في أحزمتهم. وثارت ثائرة الحشد من وقاحة الجواسيس، والابتسامات الساخرة التي تعلو شفاه رجال الشرطة المستعدين في كل لحظة للبرهنة على قوتهم. وراح بعضهم يُخفون ضجرهم وراء الهزل والمزاح، في حين استمر البعض الآخر يشخصون في عناد إلى الأرض حتى يتجنبوا الاهانات الموجهة إليهم، وفريق ثالث، وقد عجزوا عن إخفاء سخطهم، يلقون بملاحظات جارحة عن السلطات المذعورة من قوم لم يتسلّحوا إلا بالكلمات. وكانت سماء الخريف الزرقاء الشاحبة تلتمع ببريق فوق حجارة الطريق الرمادية المزروعة بأوراق صفر تساقطت عن الأشجار، فراح الهواء يعصف بها عند أقدام القوم المحتشدين ويذروها.

وقفت الأم بين الحشد تفكر في كآبة، وهي تحدج الوجوه المألوفة المحيطة بها:

«ليس عددكم كبيراً... ليس كبيراً... وليس بينكم عمال تقريباً...».

فُتحت البوابة، وخرج منها بعض الرجال يحملون غطاء النعش الذي تُوِّج ببعض أكاليل من الأزهار أحاطت بها أشرطة حمر، فأسرع المتجمهرون يرفعون قبعاتهم، فكأن سرباً من العصافير السود ينطلق فوق رؤوسهم. واندفع في الحشد ضابط شرطة طويل القامة، أحمر الوجه، كث الشارب الأسود، يتبعه الجنود وهم يدفعون الوقوف في فظاظة، ويضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة في شدة وعنف. قال الضابط في صوت أجش آمر اللهجة:

ـ إرفعوا هذه الأشرطة!

فاستكفَّ الرجال والنساء حوله يتكلمون بانفعال وهياج شديدين يلوّحون بأذرعتهم ويتدافعون بالأكتاف. وتراقصت أمام عيني الأم وجوه شاحبة، منفعلة، ترتجف شفاهها في عصبية، وانحدرت دموع الهوان واليأس على وجنتي إحدى النساء غزيرة مدرارة...

وعلا صوت فتى يقول:

ـ فليسقط العنف!

غير أن هتافه ضاع فوراً في حمأة الجدال وضجيجه.

كانت المرارة تملأ قلب الأم أيضاً، فالتفتت إلى فتى رث الثياب يقف إلى جانبها وقالت ساخطة مغيظة:

ـ إنهم لا يسمحون لرفاقه حتى بالاحتفال بمأتم ميت كما يحلو لهم... ذلك مخزٍ حقاً!

ونما شعور العداء بين المجتمعين، بينما راح غطاء النعش يترنح فوق رؤوس القوم، وأشرطته الحمر تخفق في الفضاء فتنال الرؤوس والوجوه تحتها بحفيف جاف ثائر من الحرير الناعم.

اجتاح الأم الخوف من حدوث اصطدام بين الفريقين، فراحت تقول بسرعة ذات اليمين وذات اليسار في صوت خافت:

ـ فلننزع الأشرطة اذا كانوا يريدون ذلك! فلنحقق ما يسعون اليه، وخلاص!

وتردد صوت مرتفع حاد النبرات طاغياً على الضوضاء:

ـ إننا نطلب ألا تمنعونا عن تشييع رفيقنا إلى مثواه الأخير، هذا الرفيق الذي عذبتموه...

وبدأ صوت عال ينشد:

لقد سقطتم ضحايا نبيلة...

ـ الرجاء نزع الأشرطة! اقطعها، يا ياكوفليف!

علا صليل سيف يُستل من غمده، فأغلقت الأم عينيها تتوقع صراخاً ولكن الضوضاء أصبحت أقل بينما استمر القوم في الغمغمة والتكشير عن الأنياب مثل ذئاب وقعت في حصار ومن ثم ساروا في سكون، مطرقي الرؤوس، يملأون الشارع بوقع خطاهم.

كان غطاء النعش الذي دُنس واعتدي عليه يسبح في المقدمة فوق رؤوس الناس بأكاليله المهشمة، وإلى جانبه يترنح فرسان الشرطة على

متون جيادهم. وكانت الأم تمشي على الرصيف فلا تستطيع سبيلاً إلى رؤية النعش الذي تكلّله الناس من كل حدب وصوب، وهم يتكاثرون باستمرار بصورة غير محسوسة، حتى أصبحوا حشداً كبيراً يغمر الشارع برمته. وإلى الخلف من الحشد كانت أشباح فرسان الشرطة الرمادية تنتصب أيضاً، وثمة آخرون يسيرون راجلين على جانبي الموكب وأيديهم على مقابض سيوفهم. وفي كل مكان كانت الأم تستطيع تمييز أعين الجواسيس الحادة تتفحص بإمعان وجوه الناس.

وأنشد صوتان عميقان كئيبان:

وداعاً، أيها الرفيق وداعاً...

فصاح صوت ثالث:

ـ كفى! ينبغي السير في صمت أيها السادة!

كان في هذه الصيحة شيء صارم كثير الجد حتى أن النشيد انقطع للحال، وسكن لغط الحديث بين المشيعين فلم يعد يُسمع سوى وقع الأقدام الثابت المتسق. كانت هذه الأصداء ترتفع فوق رؤوس الناس وتحلق عالياً في السماء الشافة، وهي تهزُّ الفضاء مثل هزيم الرعد الأول المبشِّر بعاصفة لما تزل بعيدة. وكانت ريح قارسة تشتد شيئاً فشيئاً تلفح بعداءٍ وجوه القوم بغبار شوارع المدينة وأوساخها، وتتشبث بشعورهم وثيابهم، وتعمي أعينهم، وتضربهم في صدورهم، ثم تدور حول أقدامهم في حمية وجنون...

كان ذلك المأتم الصامت، الغني عن الكهنة والترتيل المؤثر، وهذه الوجوه المغرقة في التفكير، والحواجب العابسة المقطبة، تملأ الأم باحساس من غم وهلع. فتروح أفكار متماهلة تدوّم في ذهنها... فتكسوها في كلمات كئيبة قليلة:

«لستم كثراً، أنتم الذين تقفون للدفاع عن الحقيقة...».

مشت مطأطأة الرأس، يبدو لها أنهم لا يدفنون ييجور بل شيئاً آخر مألوفاً عزيزاً عليها، شيئاً تحتاج اليه كل الحاجة. كانت تشعر بالوحشة

والحيرة. وتحس قلبها يمتلىء قلقاً ونفوراً من الناس المشيّعين ليجور. فكرت:

«بالطبع، إن ييجوروشكا لا يؤمن باللّه، وليس أحد بين هؤلاء الناس...».

ولم تشأ أن تسترسل في فكرة فتنهدت وهي تجرب تحرير نفسها من عبء حمل ثقيل:

«أواه، يا إلّهي. أواه، يا يسوع الحبيب! أيمكن أني أنا أيضاً...».

بلغوا المقبرة، وظلوا طويلاً يدورون حول القبور خلال دروب ضيقة حتى أهدفوا أخيراً إلى فسحة طليقة من أرض مزروعة بصلبان صغيرة بيضاء كثيرة العدد، فتحلقوا في صمت حول القبر المفتوح. كان سكون الأحياء هذا بين القبور يحمل في طياته شيئاً مخيفاً كثير الرهبة حمل قلب الأم على الارتعاش في توقيع أليم. وعوت الريح وصفرت بين الصلبان، وهي تخفق في كآبة بين الأزهار المهشمة فوق غطاء النعش...

وقف رجال الشرطة على أهبة العمل، وعيونهم مثبتة في رئيسهم. وانتصب بجانب اللحد شاب حاسر الرأس طويل القامة شاحب الوجه ذو حاجبين سوداوين وشعر باسق الطول مسترسل... وفي ذات اللحظة صاح ضابط الشرطة بصوته الأجش:

ـ أيها السادة...

ويدأ الشاب ذو الحاجبين السوداوين يقول في صوت مرتفع واضح النبرات:

ـ أيها الرفاق!

فزعق الضابط:

ـ لحظة واحدة! لا أستطيع السماح بأية خطبة على الاطلاق...

فأجاب الفتى في هدوء:

ـ أريد أن أقول كلمات قليلة ليس غير! أيها الرفاق، فلنقسم على قبر

صديقنا ومعلمنا أننا لن ننسى قط وصاياه، وأن كلاً منا سيحفر دون كلل، طوال حياته، قبر تلك السلطة التي هي مصدر سائر آلام وطننا الأم، تلك السلطة الشريرة التي تضطهده: المَلَكية!

فصاح الضابط:

ـ اعتقلوه!

ولكن صوته ضاع في عاصفة من الهتافات:

ـ فلتسقط المَلَكية!

شق رجال الشرطة طريقهم، بين المحتشدين، نحو الخطيب، ولكنه لوَّح بذراعيه من حيث ازدحم أصدقاؤه لحمايته، وصاح:

ـ عاشت الحرية!

دُفعت الأم جانباً فاعتمدت، مذعورة، أحد الصلبان وأغمضت عينيها تنتظر أن تُصفع وتلطم. وأصمَّت أذنيها زمجرة أصداء متنافرة، ومادت الأرض تحت قدميها وغدا التقاط أنفاسها عسيراً عليها، بسبب من الريح والذعر جميعاً. وراحت صفارات الشرطة تمزّق الفضاء في لوعة، وتردد صوت قاسٍ يصدر الأوامر بعنف، وطفقت النساء يصحن مخبولات، وعيدان السور تتكسر، وأحذية ثقيلة تضرب الأرض الجافة بثقل وقوة. استمر ذلك زمناً طويلاً، حتى لم تعد تستطيع احتمال الوقوف هناك مغلقة العينين أكثر مما فعلت.

فتحت عينيها، فأطلقت صيحة ثم وثبت إلى الأمام ممدودة الذراعين. كان رجال الشرطة، غير بعيد عنها، في الدرب الضيقة بين القبور، قد أحاطوا بالشاب المسترسل الشعر، وهم يبعدون الجماهير المندفعة من كل صوب ومنحنى لحمايته. ولمعت السيوف العارية بيضاء باردة في الفضاء، تسطع تارة فوق رؤوس الناس وتهوي بينهم تارة أخرى. وارتفعت العصي وقضبان الحواجز المهشمة أسلحة للدفاع، واختلطت أصوات الناس المتصارعين في رقص مجنون، ويشرف عليهم الوجه

الشاحب للفتى الطويل من عل. وجاء صوته القوي خلال هذه العاصفة من العواصف المجنونة الصاخبة:

ـ أيها الرفاق، لِمَ تبددون قواكم؟

أخذ يبتعد راكضاً، فألقى القوم عصيهم، وولوا الإدبار الواحد تلو الآخر. ولكن الأم ظلت تتابع الطريق قدماً تدفعها قوة لا تقاوم، فرأت نيقولاي وقبعته فوق مؤخرة رأسه وهو يدفع جانباً الناس المستثارين بالحقد والغيظ. كان يصيح معاتباً:

ـ هل جننتم؟ ثوبوا إلى رشدكم!

شخص لها أن إحدى يديه حمراء. صاحت، وهي تندفع نحوه:

ـ نيقولاي إيفانوفيتش! إذهب من هنا!

ـ إلى أين تذهبين؟ سوف يضربونك هناك...

أحست يداً على كتفها، ورأت صوفيا تقف إلى جانبها عارية الرأس، شعثاء الشعر، ممسكة بصبي من يده. وكان الصبي، وهو يكاد أن يكون ولداً صغيراً، يمسح الدم عن وجهه المحطَّم ويغمغم بشفتين مرتعشتين:

ـ اتركيني... ليس هذا بذي بال...

قالت صوفيا في عجلة:

ـ اعتني به... خذيه إلى بيتنا! إليك هذا المنديل كي تضمدي وجهه!..

وحين وضعت يد الصبي في يد الأم، ذهبت عَدْواً وهي تقول:

ـ إذهبي سريعاً وإلا اعتقلوك!

كان القوم يتشتتون في المقبرة في سائر الاتجاهات، ورجال الشرطة يتبعونهم في تثاقل بين القبور وهم يتعثرون في أذيال معاطفهم، ويقسمون الايمان المغلّظة، ويلوّحون بسيوفهم بينما راح الصبي يراقبهم بعيني ذئب جريح.

صاحت الأم به بصوت خافت، وهي تمسح وجهه بالمنديل:

ـ أسرع بنا!

فتمتم، وهو يبصق من فمه دماً:

ـ لا تقلقي من أجلي... ذلك لا يؤذي... لقد ضربني بقبضة سيفه، إلا أني ناولته بالمقابل ما يستحق... لقد ناولته ضربة من عصاي أرسلته يعوي...

وصاح في صوت متكسر، وهو يهزُّ قبضته الدامية في الهواء:

ـ ولكن انتظروا... هذا ليس شيئاً بالنسبة لما سيكون... لسوف نسحقهم دون قتال إذا ما نهضنا يوماً ـ جميعنا العمال!

فحثّته الأم، وهي تتخذ طريقها نحو الباب الصغير في سور المقبرة:

ـ أسرع!

كانت تخال أن أفراد الشرطة ينتظرونهما في الحقل العاري ما وراء سور المقبرة، ولن يكادا يطلان على الخارج حتى يهاجموهما ويشبعوهما ضرباً. ولما بلغت الباب أخيراً وفتحته في حذر واختلست النظر إلى الحقل المكسو بنسيج رمادي من قيلولة الخريف، طمأنها السكون والخلاء وهدّآ من روعها في الحال. قالت:

ـ تعال ههنا، دعني أضمد وجهك.

ـ لا تزعجي نفسك، فلست خجلاً منه. لقد كان ذلك قتالاً شريفاً، أعطاني نصيبي وأعطيته نصيبه...

ضمدت الأم الجرح بسرعة. كانت رؤية ذلك الدم تملؤها شفقة، فتزحف على طول ظهرها قشعريرة باردة عندما تحتك أصابعها بلزوجته الدافئة. ومشت مع الصبي سريعاً، دون أن تتفوه ببنت شفة، عبر الحقل، وهي تمسك به من ذراعه. ولكنه حرَّر فمه من الضماد، وقال لها ساخراً:

ـ إلى أين تذهبين بي، أيتها الرفيقة؟ أستطيع الذهاب دون معونتك!..

أحست أن يده ترتعش، وأنه يترنح على قدميه وأن مشيته غير ثابتة.

واستمر يتكلم ويطرح الأسئلة في صوت ضعيف، دون أن ينتظر من رفيقته جواباً:

ـ من أنت؟ أنا سنكري واسمي إيفان. لقد كنا ثلاثة في حلقة ييجور إيفانوفيتش الدراسية. ثلاثة من السنكريين، وكان المجموع أحد عشر. لقد كنا مغرمين به بصورة فظيعة. أسكن اللّه نفسه جنان فردوسه! وبالرغم من أني لا أؤمن باللّه فإني...

في أحد الأزقة نادت الأم عربة. وبعد أن أجلست إيفان فيها، همست:

ـ والآن، أطبق شفتيك!

ضمدت فمه بالمنديل في عناية فرفع يده إلى وجهه ثم تركها تسقط في حجره عاجزاً، أضعف من أن يناضل ضد الضماد. غير أنه استمرَّ مع ذلك يغمغم من خلال المنديل:

ـ لا تظنوا أني أنسى هذه الضربات، يا أعزائي... قبل أن يأتي كان ثمة طالب يدعى تيتوفيتش يدرسنا... الاقتصاد السياسي... ثم اعتقلوه...

فأحاطت الأم إيفان بذراعها، وألقت برأسه على صدرها. وفجأة ثقل رأسه وأخلد إلى السكون، أما هي فراحت مشلولة رعباً، تتطلع في جميع الاتجاهات، تخال أن الشرطة ستأتي لملاقاتها ركضاً من وراء زاوية ما، فإذا ما رأت ضماد إيفان أمسكت به وقتلته.

سأل السائق، وهو يلتفت نحوها، ويبتسم منشرح الصدر:

ـ أهو سكران؟

فقالت، وهي تتنهد:

ـ لقد شرب كثيراً... حتى فقد الوعي...

ـ أهو ابنك؟

ـ نعم، وهو إسكافي، أما أنا فطاهية...

ـ ما أصعب حياتك...

هزَّ السوط فوق ظهر جواده ثم استدار اليها من جديد، وتابع في هدوء:

ـ إسمعي... لقد جرى قتال قبل لحظات في المقبرة! كانوا يدفنون واحداً من أولئك السياسيين... واحداً من أولئك الذين يعملون ضد السلطات... والذين يختلفون معها أبداً... ويبدو أن المشيعين كانوا جميعاً من مثل طينته، أريد أن أقول إنهم أصدقاء له... وقد راحوا يصيحون: فلتسقط السلطات لأنها تجعل الشعب فقيراً!... وهجمت الشرطة عليهم تكيل لهم الضربات... ويقال إن بعضهم جرحوا حتى الموت. ولقد تلقّت الشرطة نصيبها أيضاً...

صمت لحظة، ثم أضاف في صوت غريب، وهو يهزُّ رأسه ارتياباً وإنكاراً:

ـ يوقظون الأموات هكذا، ولا يعطونهم فرصة للراحة!

راح رأس إيفان يتدحرج في هدوء فوق صدر الأم والعربة تقفز في فرقعة على حجارة الشارع، واستمر الحوذي يتمتم متأملاً، وهو ما برح مستديراً نصف استدارة نحو الأم:

ـ إن الاضطراب قد دخل الشعب... والفوضى تنبثق من الأرض انبثاقاً. في الليلة الفائتة جاء الدرك إلى بيت أحد جيراننا، وظلوا ينبشون وينبشون حتى الصباح، ثم اقتادوا معهم واحداً من الحدادين عندما ذهبوا. والناس يقولون إنهم سيأخذونه في إحدى تلك الليالي إلى ضفة النهر ويغرقونه هناك في سكون. لقد كان الحداد رجلاً طيباً للغاية...

فسألت الأم:

ـ وما اسمه؟

ـ الحداد؟ سافل، سافل ييفشنكو. وهو ما برح صغير السن، ولكنه يعرف أشياء كثيرة. يبدو كأن المعرفة ممنوعة! كان يأتي الينا عادة ويقول لنا: ما هذه الحياة التي تعيشون أيها الحوذيون؟ فكنا نقول: أسوأ من حياة الكلاب، اذا أردت الحقيقة...

قالت الأم:

ـ قف!

أيقظ وقوف العربة إيفان، فأرسل أنيناً خافتاً.

قال الحوذي:

ـ إن الفتى فاقد القوى تماماً! تلك هي نتيجة الفودكا الملعونة...

عبر إيفان الساحة مترنحاً في صعوبة جمة، وهو يحتجّ طوال الوقت:

ـ إني على أحسن حال... أني أستطيع السير...

13

كانت صوفيا قد سبقتهما إلى الدار، فاستقبلتهما في قلق وانفعال وبين أسنانها لفافة مشتعلة. وبعد أن مددت الصبي على الأريكة، حلت ضماده في حذق ومهارة، وبدأت تلقي الأوامر، وهي تضيق عينيها تفادياً من دخان لفافتها:

ـ لقد أتيا، يا إيفان دانيلوفيتش! متعبة، يا نيلوفنا؟ ولقد ذعرت أيضاً، أليس كذلك؟ حسناً، استريحي الآن... أعطِ نيلوفنا كأساً من النبيذ، يا نيقولاي!

كانت الأم مذهولة بالصدمة التي تلقتها قبل قليل، وهي تجد صعوبة في التنفس وتحس في الصدر ألماً حاداً جارحاً. غمغمت:

ـ لا تقلقوا من أجلي...

ولكن كائنها بمجموعه كان يسترعي الانتباه ويسأل عطفاً حنوناً ورعاية مواسية.

جاء نيقولاي من الغرفة المجاورة مضمد اليد، وبصحبته الطبيب إيفان دانيلوفيتش، مشعث الهندام منتصب الشعر كالقنفذ. وأسرع هذا الأخير يعبر الغرفة حتى الأريكة التي اضطجع إيفان عليها، ومال عليه قائلاً:

ـ ماءً، كثيراً من الماء. وقطناً وقطعة قماش نظيفة!

فاتجهت الأم نحو المطهى. لكن نيقولاي تأبط ذراعها بيده اليسرى وقادها إلى غرفة الطعام، قائلاً في لطف:

ـ طلب من صوفيا، وليس منك. أخاف أن تكوني لقيت كثيراً من الازعاج، أليس كذلك، يا عزيزتي؟

عندما لاقت الأم عينيه القلقتين الرقيقتين لم تستطع ضبط عبراتها. صاحت:

ـ أواه! ما أفظع ما حدث يا صديقي العزيز! لقد ذبحوا الناس، وقطعوهم بسيوفهم!

فقال نيقولاي وهو يهزُّ رأسه، ويناولها كأساً من النبيذ:

ـ لقد رأيت ذلك! أن كلا الجانبين أضاع رشده قليلاً، ولكن لا تقلقي من أجل ذلك. لقد ضربوا بجوانب السيوف، ويبدو أن ثمة شخصاً واحداً جراحه خطيرة. لقد فعلوا ذلك به أمام ذات عينيَّ، وتدبرت الأمر كي أجره بعيداً عن الحشد...

هدأ صوت نيقولاي ووجهه ونور الغرفة وحرارتها من روع الأم، فنظرت إليه في امتنان قائلة:

ـ هل ضربوك أيضاً؟

ـ الظاهر أني فعلت ذلك بنفسي... اصطدَمتْ يدي على غير انتباه مني بشيء فسحجت البشرة عنها. اليك قليلاً من الشاي، البرد شديد في الخارج وأنت لا ترتدين إلا ثياباً خفيفة...

أرادت أن تتناول الكأس، فإذا هي تلاحظ دماً جافاً يغطي أصابعها الممدودة، فألقت يدها من دون وعي في حرجها... كانت تنورتها رطبة أيضاً... رفعت حاجبها، وفتحت عينيها واسعتين وهي ترمق أناملها شزراً... وخفق قلبها، وأحست دواراً في رأسها:

«بافل أيضاً... لعلهم يفعلون به الشيء نفسه!».

دخل إيفان دانيلوفيتش الغرفة وقد شمّر ردني قميصه. وأجاب عن استفهام نيقولاي الأخرس بصوته المرتفع:

ـ الجرح في وجهه ليس بذي بال، ولكن في جمجمته كسراً ليس خطراً أيضاً، فالفتى ذو بنية متينة. سوى أنه أضاع كمية كبيرة من الدم على أية حال. هل نرسله إلى المستشفى؟

فقال نيقولاي:

ـ لِمَ؟ فليبقَ ههنا.

ـ هذا اليوم، ولربما الغد أيضاً. أما فيما بعد، فمن الأفضل بالنسبة إليّ أن يكون في المستشفى، إذ ليس لديَّ الوقت الكافي لزيارة المرضى في منازلهم. هل ستكتب منشوراً عن هذا الحادث في المقبرة؟

فجزم نيقولاي:

ـ بكل تأكيد!

نهضت الأم في هدوء، وأخذت سمتها صوب المطهى، فاستجلى نيقولاي معترضاً والقلق مرتسم على محياه:

ـ أين تذهبين، يا نيلوفنا؟ ستدبر صوفيا كل شيء وحدها!

حدجته بناظريها، سرت الرعشة في جسدها. قالت، وهي ترسل ضحكة غريبة:

ـ أنا ملطخة بالدم...

وبينما هي تبدّل ثيابها في غرفتها الخاصة راحت تفكر، من جديد، في هدوء هؤلاء الناس ومهارتهم في التغلُّب على مثل تلك الأشياء المرعبة بكل هذه السهولة الفائقة، فأسبغت هذه الأفكار على روعها شيئاً من طمأنينة، وطردت المخاوف من قلبها. ولما دلفت إلى الغرفة حيث اضطجع الصبي الجريح وجدت صوفيا منحنية عليه وهي تقول:

ـ هراء، أيها الرفيق!

فاعترض في صوت واهن:

ـ سوف أزعجكم!

ـ كف عن الكلام... ذلك خير لك...

وقفت الأم خلف صوفيا ويدها على كتفها، وراحت تبتسم في وجه الصبي الشاحب وهي تقصُّ عليه كيف أرعبها في العربة بما تمتم من كلمات الهذيان الخطرة، فإذا عينا إيفان تلتهبان في حمية، ثم طقطق بلسانه وقال في حياء وخفَر:

ـ يا لي من أحمق!

فقالت صوفيا، وهي تصلح من وضع غطائه:

ـ سوف نتركك الآن. هلا رقدت!

دخلتا غرفة المائدة حيث جلسوا طويلاً يناقشون حوادث النهار؛ وراحوا، وهم ينظرون إلى تلك المأساة وكأنها شيء أمسى من الماضي البعيد، يتطلعون في ثقة نحو المستقبل ويضعون الخطط لتنظيم أعمال الغد. كانت وجوههم متعبة، ولكن أفكارهم جريئة مقدامة. وبينما كل يتحدث عن العمل الذي أنجز، لم يكن يخفي عدم رضاه عن نفسه. وكان الطبيب يتململ في عصبية بمقعده وهو يقول، مجرّباً أن يخفف من حدة صوته وارتفاعه:

ـ الدعاية! الدعاية ليست كافية في هذه الأيام. والعمال الشباب على حق، فعلينا توسيع نطاق فعالياتنا. أقول لكم إن العمال على حق...

فقال نيقولاي بكآبة وبذات النغمة التي تحدث بها الطبيب:

ـ إننا نسمع شكاوى من كل جانب عن عدم كفاية المطبوعات، ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من تأمين مطبعة حسنة. ولودميلا تنهك نفسها للغاية، ولسوف تذوب إن لم نقدم لها بعض المعونة...

فسألت صوفيا:

ـ وماذا عن فيزوفشيكوف؟

ـ إنه لا يستطيع العيش في المدينة، ولن يبدأ العمل إلا في المطبعة الجديدة، ولكننا ما زلنا نحتاج إلى شخص آخر قبل أن نفعل ذلك.

فاستوضحت الأم في صوت خفيض:

ـ أفلا أصلح أنا لذلك؟

فاشرأبت أنظار الثلاثة إليها في صمت عدة ثوانٍ، ثم هتفت صوفيا:

ـ تلك فكرة رائعة!

فقال نيقولاي بجفاء:

ـ ذلك شاق عليك جداً، يا نيلوفنا، إذ ستضطرين إلى العيش خارج المدينة، وهذا يعني أنك لن تستطيعي رؤية بافل بعد ذلك. وعلى العموم...

فردّت، وهي تتنهد:

ـ ذلك لن يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى بافل، أما أنا فتلك الزيارات تقطع نياط القلب في الواقع. لا يحقُّ لنا أن نقول شيئاً، بل أقف هناك أواجه ولدي مثل الحمقاء، بينما هم يشخصون إلى فمي ليبصروا إن كنت لن أجمجم شيئاً لا يجوز لي فتح فمي به...

كانت متعبة من حوادث الأيام القليلة الأخيرة، حتى إذا سنحت لها الآن فرصة العيش بعيداً عن مأساة المدينة، تشبثت بها في لهفة وجشع.

لكن نيقولاي بدّل موضوع الحديث، فقال وهو يلتفت إلى الطبيب:

ـ ماذا يشغل بالك، يا إيفان؟

فرفع الطبيب رأسه المطرق، وأجاب بكآبة:

ـ أفكّر في قلّتنا! علينا أن نعمل بعزم أكثر من ذي قبل، وأن نقنع بافل وأندريه بضرورة هربهما... فهما أثمن من أن يجلسا هناك دون أن يأتيا عملاً...

قطّب نيقولاي حاجبيه، وهزّ رأسه في ارتياب، وتطلع جهة الأم، فأدركت أنهم يجدون الحديث عن ابنها في حضورها من الصعوبة بمكان، فنهضت وبرحت الغرفة جريحة الكبرياء لأن هؤلاء القوم تجاوزوا رغبتها ولم يعيروها التفاتاً. وبينما هي تستلقي في سريرها متسعة العينين تنصتُ إلى همس الأصوات الرقيق، شرع إحساس بالجزع والقلق يطغى عليها شيئاً فشيئاً، وهي تستسلم إليه دون مقاومة.

لقد انقضى النهار مظلماً ممتنعاً عن الادراك، مليئاً بالاحساسات المنذرة بالويل، ولكنها تأبى التفكير في ذلك فتروح، وهي تطرد تلك الانطباعات المقلقة من ذهنها، تركز كل انتباهها حول بافل. كانت تتلهف إلى رؤيته حراً طليقاً. وفي الوقت ذاته تستشعر الخوف من حريته، فهي تحس أن الحوادث التي تجري حولها ستقود حتماً إلى جو شديد التوتر يُنذر بصدام قاسٍ وخيم العاقبة. إن تحمل الناس الساكن الأخرس ليفسح المجال الآن لتوقُّع كثير من القلق، وسخطهم يزداد بصورة محسوسة يوماً بعد يوم، وهي تسمع من كل لفتة وصوب كلمات حادة ناقمة، وتجد كل ما يحيط بها يتنفس القلق والاضطراب... كانت كل منشورة تثير مناقشات حادة في الأسواق والحوانيت، وبين الخدم والحرفيين؛ وكانت تعليقات مذعورة متبلبلة، بَلْهَ ساخطة في الأحايين، تتبع كل اعتقال مهما كان سببه. وإنها لتسمع أكثر فأكثر أناساً بسطاء يتفوَّهون بتلك الكلمات التي طالما أهرقت الذعر في قلبها والثورة في أفكارها: التمرد، الاشتراكيون، السياسة... واذا كانوا يرددونها في سخرية فقد كان يمكن تمييز الفضول وراء السخرية؛ واذا كانوا يقولونها في خبث فقد كان يمكن اكتشاف الخوف وراء الخبث؛ واذا كانوا يتلفظون بها في تفكُّر فقد كان الرجاء والوعيد يجثمان وراء التفكير... كانت أمواج الاضطرابات تنتشر في تباطؤ ولكن في حلقات واسعة فوق المياه الآسنة لهذه الحياة الراكدة، وقد أخذت الأفكار الناعسة تستيقظ، والخضوع المألوف الهادىء للحوادث اليومية يفقد ثباته ويترنح. كانت تستطيع رؤية كل هذا بوضوح أكثر من الناس الآخرين لأنها أعرف منهم بسيماء الحياة العابثة. وهي إذ ترى الآن غضون التفكير والسخط تتلامح على هذا السيماء، لا تستطيع لقاء ذلك إلا أن تفرح وتقلق في وقت واحد... تفرح لأنها ترى في كل ذلك عمل فتاها، وتقلق لأنها تعلم حق العلم أنه إذا هرب من السجن فسيأخذ مكانه في الطليعة وفي المركز، الأكثر خطراً، وسيفنى.

وفي بعض الأحيان كانت صورة ابنها تتخذ في عينيها أبعاد أحد أبطال الأساطير، فتوحّد فيها سائر الكلمات الباسلة الشريفة التي رنّت في سمعها دائماً، وجميع أولئك الناس الذين أعجبت بهم يوماً، ومختلف تلك الأشياء البراقة البطولية التي عرفتها فيما سبق من الأزمان. وفي مثل هذه الحالات يملأها الخيلاء والحنان، فتروح تتأمل فيه في إشراق حنون، وهي تفكر طافحة رجاءً وأملاً:

«كل شيء سينتهي على خير ما يرام... كل شيء!».

وكان حبها، حبها الأمومي، يلتهب عندئذ ويجعل قلبها ينقبض بصورة مؤلمة. وبعدئذ كان الأمومي فيها يعوق نموّ ما هو إنساني خالص ويحرقه في لهيب عظيم، فيحلّ مكان ذلك الشعور العظيم رماد خوف وقلق تضرب فيه فكرة وجلة واحدة فقط، ألا وهي:

«لسوف يموت... لسوف يُقضى عليه!..».

14

كانت تجلس، ظهراً، مقابل بافل في مكتب السجن تراقب وجهه الملتحي بعينين غشاهما ضباب الفكر، وهي تفتش عن فرصة مؤاتية كي تدسّ في يده الرسالة المنسحقة بين أصابعها.

قال في همس خافت:

ـ إني لعلى أحسن حال، وكذلك سائر الباقين. كيف حالك أنت؟

فأجابت إجابة آلية:

ـ على أحسن حال. مات ييجور إيفانوفيتش.

فهتف بافل:

ـ حقاً؟

وأطرق رأسه ببطء.

وتابعت الأم في بساطة ودون حذق:

ـ ولقد دبّر رجال الشرطة معركة أثناء المأتم واعتقلوا أحد الفتيان.

فطقطق معاون مدير السجن بشفتيه الرقيقتين سخطاً وقفز ناهضاً على قدميه، وهو يغمغم:

ـ أفلست تعلمين أن الحديث عن هذه الأمور ممنوع؟ الحديث عن السياسة غير مسموح به!

ونهضت الأم بدورها وقالت في سذاجة، وفي رنين صوتها ظل من الاعتراف بالجرم:

ـ لم أكن أتكلم عن السياسة، بل عن معركة. والحقيقة أنهم تقاتلوا، لا بل حطموا رأس أحد الفتيان أيضاً...

ـ لا فرق بين هذا وذاك. ينبغي لي أن أسألك الصمت، يعني أن تسكتي عن كل شيء ليس له بك علاقة شخصية... يعني عائلتك وبيتك بصورة عامة!

واذ أدرك أنه يتلعثم، جلس إلى مكتبه من جديد، وشرع ينبش في بعض الأوراق، وهو يضيف في إعياء:

ـ إني مسؤول عن مثل هذه الأمور....

أسرعت الأم تلقي الورقة الصغيرة في يدي بافل بعد أن ألقت نظرة إلى معاون المدير، ثم تنهدت وقد رفعت عن قلبها عبئاً ثقيلاً قائلة:

ـ أنا لا أفهم ما المسموح بالحديث عنه...

فضحك بافل، وهمهم:

ـ ولا أنا أيضاً...

فنبر معاون المدير مغتاظاً:

ـ إذن فلا فائدة من المجيء إلى هنا! ما معنى عدم وجود موضوع يمكن الحديث عنه، والاستمرار في القدوم إلى هنا... وازعاج الناس...

وسألت الأم بعد برهة صمت:

ـ هل ستجري المحاكمة سريعاً؟

ـ لقد كان النائب العام هنا قبل عدة أيام مضت، وقال إن ذلك سيتم عما قريب...

تبادلا بعض الملاحظات التافهة الأخرى التي لا يحتاج أحدهما اليها. لاحظت الأم أن بافل ينظر اليها بعينين رقيقتين طافحتين بالمحبة. كان هادئاً صارماً مثله أبداً، لم يتبدل فيه شيء، أللهم إلا بياض يديه ولحيته التي جعلته يبدو أكبر سناً منه في واقع الأمر. أرادت أن تقول له شيئاً جميلاً... أن تُعلمه شيئاً عن نيقولاي، فاسترسلت دون أن تغير اللهجة التي بادلته بها الملاحظات السابقة:

ـ رأيت فليونك قبل أيام...

فبحث بافل عن عينيها في استفهام صامت، فشرعت تضرب على خدها باصبعها كي تذكره بعلامات الجدري على وجه فيزوفشيكوف، وهي تقول:

ـ الصبي على أحسن حال... ولسوف يُعطى عملاً في وقت قريب...

وفهم فتاها ما تريد، فأشار لها برأسه بعينين ضاحكتين. قال:

ـ هذا رائع!

فاختتمت حديثها، راضية عن نفسها، متأثرة بسعادته:

ـ هذه هي الأمور!

وضغط على يدها بشدة مودّعاً:

ـ شكراً، يا أمّ!

اجتاحها شعور بهيج بتقارب قلبيهما، وصعد إلى رأسها مثل خمرة قوية، فضغطت على يده في سكون، وقد أعوزتها الكلمات كي تردَّ عليه.

وجدت ساشا تنتظرها في الدار عند عودتها. كانت الفتاة تزورها عادة في الأيام التي ترى بافل فيها، ولكنها لا تسأل عنه قط، فإذا لم تذكره

الأم من تلقاء ذاتها، كانت ترضي فضولها بالتطلُّع طويلاً في وجهها. أما هذه المرة فقد لاقتها في استفهام قلق:

ـ كيف حاله؟

ـ جيدة.

ـ هل أعطيته الرسالة؟

ـ بالطبع، وبصورة رائعة جداً...

ـ هل قرأها؟

ـ وكيف يستطيع ذلك؟

فقالت الفتاة في تماهل:

ـ طبعاً. لقد نسيت. علينا أن ننتظر أسبوعاً آخر... أسبوعاً كاملاً. أتعتقدين أنه سيقبل؟

قطبت ساشا حاجبيها، ونظرت إلى الأم ملياً. كانت هذه تفكر:

ـ لا أدري! ولِمَ لا يقبل، إن لم تكن ثمة خطورة في الأمر؟

وهزت ساشا رأسها، وسألت في جفاء:

ـ أتعلمين ماذا يستطيع المريض أن يأكل؟ إنه جائع.

ـ يستطيع أن يأكل أي شيء كان، لحظة واحدة وسوف...

زحفت إلى المطهى حيث لحقت بها ساشا في بطء.

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ شكراً لك، ليس من حاجة!

انحنت الأم فوق الموقد وتناولت منه قدراً. قالت الفتاة في صوت خافت:

ـ انتظري...

شحب وجهها، واتسعت عيناها في ألم في حين راحت شفتاها المرتعشتان تهمسان بسرعة وفي لهفة:

ـ كنت أريد أن أسألك. إني على يقين من أنه سيرفض ولذلك أرجو أن تقنعيه بذلك. قولي له إن وجوده هنا ضروري من أجل القضية. قولي

له إني خائفة من أجل صحته. وأنت ترين بنفسك أن يوم المحاكمة لم يعيّن بعد...

كانت تتكلم بصعوبة، وهي تنظر في ثبات إلى إحدى الزوايا، وقد انتصبت قامتها كل الانتصاب، وراح صوتها يتموج ويضطرب. وأسبلت جفنيها في إعياء، وعضت شفتيها في عذاب وقهر، واستطاعت الأم أن تسمع طقطقة قبضتيها المنضمتين.

هزّ هذا الانطلاق العاطفي نفس الأم، غير أنها فهمت ساشا تماماً، فضمتها إليها في انفعال حزين، وأجابت في كآبة:

ـ آه، يا عزيزتي! إنه لن يعير أحداً آذاناً صاغية، سوى نفسه وحدها... لن يصغي إلى أحد على الاطلاق!

بقيتا صامتتين فترة، وقد التصقت كلتاهما بالأخرى، ثم تحررت ساشا بلطف من ذراعي الأم المحيطتين بكتفيها وقالت مرتعشة:

ـ أجل، أنت على حق... كل هذا هراء... إن أعصابي...

وفجأة قالت في هدوء وبساطة:

ـ حسناً، هلا أطعمنا مريضنا؟

جلست إلى جانب سرير إيفان وسألته في حنان هل يؤلمه رأسه؛ فأجاب وهو يجرُّ الغطاء حتى ذقنه مرتبكاً، ويرفُّ بعينيه فكأن النور أشد من أن يُحتمل:

ـ ليس كثيراً، فكل شيء ما ينفكُّ عكراً نوعاً ما، وإني لأحسُّ ضعفاً.

أدركت ساشا أنه يخجل من تناول الطعام في حضورها، فنهضت وغادرت الغرفة، فجلس إيفان في فراشه يتبعها بنظرته، وغمغم مطرفاً بعينيه:

ـ ما أجملها!

كانت عيناه الرماديتان مرحتين، وأسنانه بيضاء منتظمة، وصوته متبدل الجرس.

استعلمت الأم مفكرة:

ـ كم هو عمرك؟

ـ سبعة عشر عاماً....

ـ وأين والدك؟

ـ في القرية. أما أنا فهنا منذ كنت في العاشرة من سني، إذ لم أكد أنهي دراستي حتى هربت إلى المدينة. ما اسمك، أيتها الرفيقة؟

كانت الأم تبتهج كلما توجه الناس إليها بهذه الكلمة التي كانت تثير فيها مشاعر الحنان. سألت، وهي تبتسم:

ـ ولِمَ تريد أن تعرف ذلك؟

فصمت الصبي فترة في ارتباك ثم أوضح:

ـ ذلك أن واحداً من الطلاب في حلقتنا الدراسية... يعني واحداً من الذين يدرّسوننا، قد حدثنا عن والدة بافل فلاسوف والعامل. هل تذكرين مظاهرة أول أيار؟

فأشارت الأم برأسها، وأصاخت بسمعها.

وأعلن الفتى في خيلاء وجد صداها في قلب الأم:

ـ لقد كان أول من رفع راية حزبنا على رؤوس الاشهاد. ولم أكن، أنا، هناك يوم ذاك. كنا نريد تنظيم مظاهرتنا الخاصة، ولكننا لم ننجح لأن عددنا قليل جداً. ولكننا سننظمها في العام المقبل... ولسوف ترين ذلك!

كان يتنفس بصعوبة لشدة ما يثير فيه تصور حوادث المستقبل من انفعال. ثم تابع، وهو يلوّح بملعقته:

ـ إذن فقد كنت أتكلم عن أم فلاسوف هذا. لقد انضمت إلى الحزب بدورها بعد ذلك. يقال إنها أعجوبة مدهشة!

فافترّت شفتا الأم عن ابتسامة عريضة، وقد أبهجها الإصغاء إلى مديح الصبي، أبهجها وأربكها في الوقت ذاته. أرادت أن تقول: «إني أم فلاسوف ذاك!...». ولكنها ردّت الكلمات عن شفتيها، وقالت تحدث

نفسها بحزن وفي قليل من السخرية اللطيفة: «يا لك من حمقاء عجوز!».

انحنت عليه بغتة، وراحت تقول في انفعال:

ـ كُل شيئاً آخر، ينبغي أن تتحسن حالك سريعاً في سبيل القضية الطيبة...

فُتح باب الغرفة مفسحاً السبيل لأنفاس الخريف الباردة الرطبة. وإذ رفعت الأم عينيها رأت صوفيا واقفة هناك مشرقة الوجه ابتساماً، مضرجة الخدين فرحاً.

ـ قسماً بشرفي أن الجواسيس يتعقبونني مثلما يلاحق الخطّاب وريثة كثيرة الثراء! لقد آن لي أن أرحل من هنا... حسناً، كيف حالك، يا إيفان؟ أتشعر بتحسن؟ ما هي الأخبار عن بافل، يا نيلوفنا؟ هل ساشا هنا؟

داعبت صوفيا الصبي والأم بعينيها الرماديتين وهي تشعل لفافة ولا تنقطع عن طرح أسئلة دون أن تتوقع أجوبة لها، فيما ابتسمت الأم بينها وبين نفسها وهي تراقبها، وفكرت:

«ها إني أنا أيضاً أعتبر واحدة من هؤلاء القوم الطيبين!».

ومالت على إيفان مرة أخرى، وقالت:

ـ هيا عجّل بالشفاء، يا بنيّ!

ثم دلفت إلى غرفة الطعام حيث وجدت صوفيا تتحدث إلى ساشا:

ـ جهّزت حتى الآن ثلاثمائة نسخة، ولسوف تقتل نفسها بهذه السرعة التي تسير بها! هذه هي بطولة! إنها لسعادة أن يعيش المرء بين هؤلاء القوم، يا ساشا، وأن يكون لهم رفيقاً ويشاركهم العمل...

فأجابت الفتاة في صوت رقيق:

ـ بلى!

وبينما هم يتناولون الشاي ذلك المساء، قالت صوفيا للأم:

ـ يجب أن تقومي بزيارة أخرى في الريف، يا نيلوفنا!

ـ حسناً، متى؟

ـ أتظنين أنك تستطيعين بعد ثلاثة أيام؟

ـ بالطبع...

فقال نيقولاي ناصحاً بصوت خافت:

ـ يفضل هذه المرة أن تستأجري أحصنة البريد وتسلكي طريقاً أخرى، عبر مقاطعة نيقولسكويه...

لاذ بالصمت. كان عابساً مكتئباً، الأمر الذي لا يلائمه إذ يفسد سكينته الهادئة المعتادة.

لاحظت الأم:

ـ إن الطريق ستطول جداً عبر نيقولسكويه، أما استئجار الأحصنة فتكاليفه غالية...

فقال نيقولاي:

ـ الحقيقة أني ضد مثل هذه الزيارة، فالأمور ليست هادئة هناك ـ بل جرت بعض الاعتقالات ـ ويبدو أنهم ألقوا القبض على أحد المدرِّسين. علينا أن نكون أكثر حذراً، وأن ننتظر قليلاً أيضاً...

فلاحظت صوفيا، وهي تنقر على المنضدة بأصابعها:

ـ المهم بالنسبة الينا أن يستمرّ نشر المطبوعات دون انقطاع.

ثم سألت الأم على حين غرة:

ـ هل أنت خائفة من الذهاب، يا نيلوفنا؟

فتأذت الأم من ذلك. قالت:

ـ وهل كنت خائفة في أي وقت كان؟ عندما ذهبت للمرة الأولى لم أستشعر خوفاً.... والآن... على حين فجأة...

أطرقت برأسها دون أن تنهي حديثها. كانت تحسُّ، كلما سألوها إن كانت خائفة، أو إن كانت تجد هذا الشيء أو ذاك ملائماً، أو إذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الأمر أو ذاك، أنهم يتوجهون إليها برجاء خاص،

فتخال أنهم يضعونها جانباً ويعاملونها على خلاف ما يعاملون بعضهم بعضاً.

قالت بتنهيدة قصيرة:

ـ لِمَ تسألونني إن كنت خائفة أم لا؟ إنكم لا تطرحون على بعضكم البعض مثل هذه الأسئلة.

فرفع نيقولاي نظارتيه عن عينيه ثم أعادهما من جديد في عصبية وهو ينظر ملياً إلى أخته. وأحست الأم انزعاجاً من السكون المتوتر، فنهضت عن المائدة في ارتباك، وأرادت أن تقول شيئاً، لكن صوفيا تناولت يدها في لطف وقالت في نبرة رقيقة:

ـ إصفحي عني، لن أفعل ذلك بعد الآن أبداً!

حمل هذا ابتسامة إلى وجه الأم، وبعد عدة دقائق كان الثلاثة يناقشون، في حمية ونشاط، الرحلة المقبلة إلى القرية.

15

عند الفجر كانت الأم تتلكأ في إحدى عربات البريد على طول درب غسلته أمطار الخريف. وكانت ريح رطبة تعصف في الفضاء، ورذاذ الوحل يتطاير في كل حدب وصوب. استدار الحوذي نحوها في مقعده كي يشتكي إليها في صوت أخن:

ـ وهكذا قلت له، أعني لأخي، فلنتقاسم ذلك... هذا ما قلته وعندئذ ابتدأنا نتقاسم...

وبغتة انهال بسوطه على الحصان الأيسر، وصاح غاضباً:

ـ هيا! إمش، يا ابن الساحرة!

كانت غربان الخريف السمينة تنتقل في رصانة فوق أخاديد الأرض العارية، وريح باردة تصفر في عنف، فتشد الغربان أعطافها كي تلاقي

هجمات الريح التي تنفش أرياشها في محاولة إيقاعها على الأرض، وتضطرها إلى الانتقال في تكاسل إلى بقعة أخرى من الحقل الشاسع الأبعاد.

وتابع الحوذي حديثه قائلاً:

ـ وهكذا راح يجردني من حصتي، فاذا بي أجد نفسي خاوي الوفاض...

أصغت الأم إليه وكأنها في حلم، وحوادث كثيرة وقعت في السنين القليلة الأخيرة تتدفق في ذاكرتها. فتجد نفسها تساهم فيها جميعاً بفعالية ونشاط. فيما سبق كانت الحياة تُخلق في مكان ما بعيداً جداً، دون أن يعرف أي إنسان من خلقَها والغاية الحقيقية من وراء ذلك. أما الآن فإن قسماً كبيراً منها يُخلق أمام ذات عينيها وبمساهمتها الشخصية. وأيقظ ذلك فيها مشاعر مختلفة من الرضى، والارتياب في ذاتها، والبلبلة، وشيئاً من الغم الهادىء...

كان كل ما حولها يترنح في حركة بطيئة، وغيوم رمادية كثيفة تسبح في السماء متثاقلة يلاحق بعضها بعضاً، وعلى قارعتي الطريق تلوح الأشجار الرطبة بأغصانها العارية وهي تفر إلى الوراء، والحقول تفسح مكانها لهضبات واطئة تتلاشى بدورها أيضاً.

اختلط صوت الحوذي الأخن وقرع أجراس العربة، وصفير الريح الرطبة وحفيفها، وامتزجت جميعاً في تيار رنان واحد يتدفق تدفقاً رتيباً فوق الحقول...

تابع الحوذي، وهو يتأرجح فوق مقعده:

ـ الفردوس نفسه يضيق عن الإنسان الثري. وهكذا فقد شرع يضايقني... وكانت السلطات كلها تقف بجانبه، فهم أصدقاء له...

عندما بلغ المحطة حلَّ أعنة الحصانين وقال للأم في نغمة شاكية:

ـ هلا أعطيتني خمسة كوبيكات أشرب بها كأساً...

أعطته قطعة النقود، فقلبها في راحته وتابع بالنغمة ذاتها:

ـ سأشرب الفودكا بثلاثة منها، أما الاثنان الباقيان فمن أجل الخبز. . .

بعد الظهيرة بلغت الأم، منهوكة القوى باردة الأطراف قرية نيقولسكويه الكبيرة، واتجهت إلى بناء المحطة كي تتناول قدحاً من الشاي، وجلست إلى إحدى النوافذ، وقد وضعت حقيبتها الثقيلة تحت دكة. كانت تستطيع أن ترى من النافذة ساحة صغيرة مكسوة بعشب أصفر معفر، وبناء رمادياً أسود ذا سقف مقوس هو مقرّ رئاسة المقاطعة. وكان فلاح أصلع ذو لحية طويلة يجلس على العتبة يدخن الغليون وهو لا يرتدي من الثياب شيئاً فوق قميصه. وكان خنزير يرعى العشب في الساحة، وهو يهزّ أذنيه في استياء ويدسّ أنفه في الأرض، ويلوّح برأسه يمنة ويسرة دون انقطاع.

تسلقت السحب بعضها فوق بعض في كتل كثيفة مظلمة، وكان كل شيء هادئاً، قاتماً، كئيباً، فكأن الحياة نفسها اختفت في مكان ما، منقطعة الأنفاس.

فجأة بدأ أحد رقباء الشرطة يعدو بجواده الأصهب عبر الساحة حتى بلغ عتبة بناء المحافظة حيث لوح بسوطه في الهواء وصاح بالفلاح الأصلع، فقرعت صيحاته زجاج النوافذ قرعاً شديداً. لكن الأم لم تستطع تمييز الكلمات فيها. ونهض الفلاح على قدميه، وأشار بيده إلى المدى البعيد، فقفز الفارس عن صهوة جواده، وترنح قليلاً على قدميه، وألقى عنان الحصان إلى الفلاح، واتجه نحو درجات البناء يتسلقها في تثاقل معتمداً الدرابزون، ثم اختفى وراء باب البناية. . .

وخيم السكون على كل شيء مرة أخرى، أللهم إلا الحصان الذي ضرب الأرض الرخوة بحافره مرتين. ودخلت الغرفة بنيّة صغيرة تتدلى جديلة قصيرة من الشعر صفراء اللون على قمة رأسها، وتشع عينان لطيفتان في وجهها المستدير، وهي تحمل بين ذراعيها الممدودتين

صفيحة كبيرة مهترئة الحفافي، مثقلة بالآنية، ولا تفتأ تعض شفتيها، وتلقي السلام بإشارات متتابعة من رأسها.

قالت الأم في لطف:

ـ نهارك سعيد، يا عزيزتي!

ـ نهارك سعيد!

عندما وضعت الفتاة الصحون وأدوات الشاي على المائدة أعلنت فجأة في انفعال شديد:

ـ لقد اعتقلوا لصاً قبل قليل... ولسوف يأتون به إلى هنا!

ـ من هو هذا اللص؟

ـ لا أدري...

ـ وماذا فعل؟

فرددت البنيَّة:

ـ لا أدري! سمعت أنهم أمسكوا به. وقد ذهب حارس المحافظة يدعو رئيس الشرطة.

تطلعت الأم من خلال النافذة، فرأت الساحة تغص شيئاً فشيئاً بالفلاحين.

كان بعضهم يأتون في وقار وتماهل، والآخرون يندفعون إلى الساحة في عنف وهم يزرّرون أثناء ذلك معاطفهم القصيرة. احتشدوا عند عتبة البناء وهم ينظرون إلى مكان ما ناحية اليسار.

نظرت البنيَّة من النافذة، وأسرعت تعدو إلى الخارج صافقة الباب خلفها، فانتفضت الأم ودفعت بحقيبتها تحت الدكة إلى أبعد من ذي قبل، ثم ألقت بوشاح على رأسها، وأسرعت نحو الباب وهي تكبت رغبة في الركض غير مفهومة السبب...

عندما بلغت عتبة بناء المحطة عضَّ البرد عينيها وصدرها جميعاً، فوجدت صعوبة جمة في تدارك أنفاسها، وتحجرت رجلاها. كان ريبين آتياً عبر الساحة مقيد اليدين خلف ظهره ـ يسير شرطيان إلى جانبيه وهما

يضربان الأرض بعصاهما دون انقطاع، فيما الحشد يقف ساكناً عند عتبة بناية المحافظة ينتظر.

انتصبت الأم، مصعوقةً، لا تستطيع أن تحيد بعينيها عن هذا المشهد. وكان ريبين يقول شيئاً تسمع صوته، ولكن كلماته تلاشت في فراغ قلبها القاتم دون أن تدركها.

أرسلت نفساً عميقاً، واستردت زمام نفسها من جديد. كان يقف قرب العتبة فلاح أزرق العينين، أشقر اللحية عريضها، يشخص اليها ملياً في اهتمام. سعلت، وفركت حلقها بيدين ترتعشان فَرَقاً، ثم سألته وهي تبذل جهداً كبيراً:

ـ ما الذي حدث؟

فأجاب، وهو يستدير عنها:

ـ تحققي من ذلك بنفسك!

ودنا فلاح آخر، ووقف بالقرب منه.

توقف الشرطيان اللذان يقودان ريبين أمام الحشد المتوافر دون انقطاع، وإن ظل ساكناً لا تصدر عنه أية ضوضاء. وارتفع صوت ريبين العميق بغتة فوق رؤوسهم يقول:

ـ أيها المؤمنون الحقيقيون، هل سمعتم شيئاً عن الكتابات التي تشرح بوضوح الحقيقة السافرة عن حياتنا نحن الفلاحين؟ حسناً، أنا أتعذب الآن من أجل هذه الكتابات، فأنا الذي وزعتها على الناس!

فالتفّ الحشد حول ريبين أكثر فأكثر. كان صوته هادئاً غير متسرع، الأمر الذي بعث القوة والنشاط في قلب الأم.

قال الفلاح الثاني في صوت خافت، وهو يلكز بمرفقه جنب ذي العينين الزرقاوين:

ـ أسمعت هذا؟

فرفع الأخير رأسه، وحدج الأم بناظريه مرة أخرى دون أن يحري

جواباً. وتطلع الآخر اليها أيضاً، وكان أصغر سناً من رفيقه، ذا لحية سوداء قليلة الشعر، ووجهه ناحل تغطيه بقع من النمش، ثم ابتعد كلاهما عن العتبة.

وفكرت الأم بالرغم منها:

«إنهما خائفان!».

أضحت أشد انتباهاً. كانت تستطيع أن تبصر بكل وضوح، من العتبة حيث تقف، وجه ميخائيلو إيفانوفيتش القاتم المضروب، وبريق عينيه الملتهب. وأرادت أن يراها هو الآخر، فتطاولت على رؤوس أصابعها ومدت عنقها في اتجاهه.

نظر القوم اليه في ارتياب كئيب وظلوا بالصمت معتصمين، أللهم إلا في الصفوف الأخيرة من الحشد حيث كانت بعض أصوات مكتومة تتلاحق في خفوت.

نبر ريبين بصوت مرتفع ثابت النبرات:

ـ أيها الفلاحون! صدقوا ما كُتِبَ في تلك الأوراق. قد أضحّي من أجلها بذات حياتي... فقد ضربوني وعذبوني، يريدونني على الجُهر بالمكان الذي حصلت عليها منه، ولسوف يضربونني من جديد أيضاً. ولكني على استعداد لتحمل كل شيء لأن ما ترويه تلك المنشورات هو الحقيقة بعينها، والحقيقة يجب أن تكون أعز علينا من خبزنا اليومي نفسه... تلك هي القضية!

وهتف أحد الفلاحين الواقفين قرب العتبة في همس:

ـ لمَ يقول هذا؟

فقال ذو العينين الزرقاوين في تماهل:

ـ سواء بالنسبة إليه الآن، فالمرء لا يموت إلا مرة واحدة...

استمر الناس وقوفاً هناك مصغين لا ينبسون بحرف، شاخصين في اكتئاب من تحت حواجبهم، يلوح أن عبئاً غير منظور يثقل عليهم ويضنيهم.

وخرج الرقيب مترنحاً من بوابة المحافظة، وصاح في قحة ثملة:

ـ من ذا الذي يتكلم هنا؟

وتدحرج بغتة على درجات السلم وأطبق على ريبين من شعره، وراح يهزُّ رأسه إلى الأمام والخلف صائحاً:

ـ ألأنت من كنت تتكلم، يا ابن الكلبة؟

ترنح الحشد وانتشرت فيه موجة من الغمغمة، بينما أطرقت الأم برأسها في عجز يائس، ولكن صوت ريبين تردد مرة أخرى في رنين مرتفع:

ـ أنظروا، أيها القوم الطيبون...

فصاح الرقيب، وهو يلطمه على أذنه:

ـ صمتاً!

فترنح ريبين ورفع كتفيه:

ـ إنهم يوثقون أيديكم، ثم يفعلون بكم ما يحلو لهم...

ـ قوداه، أيها الشرطيان! أما أنتم، أيها الناس، فتفرّقوا جميعاً!

وجعل الرقيب يقفز أمام ريبين مثل كلب بسلسلة أمام قطعة من اللحم، وهو يضرب وجهه وصدره وبطنه بقبضته.

صاح بعضهم من وسط الحشد:

ـ كفاك تضربه!

وجاء صوت آخر يدعمه:

ـ لماذا تضربه؟

وقال الفلاح الأزرق العينين، وهو يشير إلى رفيقه:

ـ فلنذهب!

اقتربا من بناء المحافظة في تماهل بينما الأم تشيعهما بنظرة عطوف وصعّدت زفرة ارتياح حينما رأت رقيب الشرطة يتسلق سلّم البناية من جديد متثاقلاً حيث صرخ من هناك بصوت مجنون وهو يلوح بقبضته مهدداً:

ـ اجلباه هنا، قلت لكما...

وعلا صوت قوى بين المحتشدين أدركت الأم تواً أنه صوت الفتى ذي العينين الزرقاوين:

ـ لا تفعلوا ذلك! لا تتركوهم، أيها الشباب! إن أخذوه هناك فسوف يضربونه حتى الموت، ثم يقولون إننا نحن الذين فعلنا ذلك. لا تتركوهم يأخذونه...

وصاح ميخائيلو:

ـ أيها الفلاحون! أفلا تستطيعون أن تروا ما أشبهت حياتكم؟ أفلا تستطيعون أن تدركوا كيف يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم؟ كلٌّ شيء يأتي منكم... أنتم أعظم قوةٍ على وجه الأرض... وأية حقوق تملكون؟ حق الموت جوعاً ليس غير!

وفجأة راح الفلاحون يصيحون، وهم يقاطعون بعضهم بعضاً:

ـ إنه يقول الحقيقة!

ـ أدعوا رئيس الشرطة. أين هو رئيس الشرطة؟..

ـ لقد ذهب رقيب الشرطة يدعوه...

ـ هو سكيرا..

ـ ليس من شأننا أن ندعو السلطات...

وانهمرت الأصوات تتزايد وتعلو:

ـ هيا تكلم! فلن ندعهم يضربونك...

ـ حلوا وثاق يديه!

ـ حذارِ لئلا يرتكب خطيئة الفرار!

قال ريبين في هدوء، وصوته الرنان يعلو فوق سائر الأصوات:

ـ الحبال تؤذي يديَّ، وأنا لن أهرب، أيها الفلاحون! لست أقوى على الاختفاء من الحقيقة... إنها تعيش في داخلي...

انفصل بعض الرجال عن الحشد غير مسرعين وهم يتبادلون الملاحظات ويهزّون رؤوسهم متجهين في مختلف الجهات، ولكن أناساً

مهتاجين، يرتدون الأسمال البالية في إهمال، كانوا يأتون باستمرار وينضمون إلى المتجمهرين، تغلي مراجلهم حول ريبين الذي ينتصب بينهم مثل حرم في الغابة، يلوّح بذراعيه فوق رأسه ويصيح:

ـ شكراً لكم، أيها القوم الطيبون، شكراً لكم! إن لم نحل أيدي بعضنا البعض، فمن يفعل ذلك إذن؟

ومسح لحيته، ورفع مرة أخرى يداً ملطخة بالدم:

ـ هذا هو دمي، أهرق في سبيل الحقيقة!

هبطت الأم عن العتبة، ولكنها لم تستطع رؤية ميخائيلو بين الحشد، فتسلّقت الدرجات مرة أخرى، وفي صدرها شيء حار يشبه فرحاً غامضاً خفاقاً.

ـ أيها الفلاحون! افتحوا أعينكم جيداً من أجل تلك الأوراق، واقرأوها في أناة! لا تصدقوا الكهنة والسلطات عندما يعالنونكم أن المبشرين بالحقيقة كفرة متمردون. الحقيقة تضرب في أرجاء الأرض خفية تفتش لها عن أعشاش بين الشعب، هي مثل النار والسيف بالنسبة إلى السلطات. إنهم لا يستطيعون الركون اليها فهي تذبحهم إذن وتحرقهم. الحقيقة صديق طيب عندكم، أما عندهم فعدوّ لدود! هذا هو السبب في أنها تضرب خفية في أرجاء الأرض!

وارتفعت الهتافات مرة أخرى بين المحتشدين:

ـ أصغوا، أيها المؤمنون الحقيقيون!

ـ آه، أيها الأخ، لسوف ينالونك من أجل هذا..

ـ من الذي خانك؟

فأجاب أحد الشرطيين:

ـ الكاهن!

فأرسل اثنان من الفلاحين أيماناً مغلّظة.

وارتفع صوت محذر:

ـ انتبهوا، أيها الأخوان!

16

كان رئيس الشرطة يقترب متمهلاً، وهو رجل طويل القامة متين البنيّة مدور الوجه، انعطفت قبعته كثيراً فوق أذنه الواحدة وانحرف أحد شاربيه إلى الأعلى، أما الآخر فمال نحو الأرض حتى بدا وجهه وكأنه التوى وتشوَّه بابتسامة بلهاء ميتة. كان يحمل سيفاً بيده اليسرى، ويؤرجح اليد اليمنى في عنف وقوة، ويتقدم بخطى ثقيلة ثابتة استطاع سائر الحضور سماع وقعها الأصم على الأرض. وتباعد المحتشدون يُفسحون له الطريق، وقد اعتلى وجوههم الاعياء والكآبة، وذابت ضوضاؤهم فكأن الأرض امتصتها. وأحست الأم عينيها تلتهبان، وبشرة جبهتها ترتجف، وقد انتابتها الرغبة في الانضمام إلى الحشد من جديد، فانحنت إلى الأمام وجمدت متوترة الأعضاء متيبسة الأطراف دون حراك.

سأل رئيس الشرطة، وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بعينيه:

ـ ماذا؟ لِمَ يداه غير مربوطتين؟ أيها الشرطيان، قيِّداه!

كان صوته مرتفعاً رناناً، لكن لا حياة فيه.

أجاب أحد الشرطيين:

ـ كانتا مقيدتين فحلَّ الشعب وثاقه!

ـ ما هذا؟ الشعب؟ أي شعب هذا؟

رمق رئيس الشرطة الحشد الملتفَّ حوله في نصف دائرة، واستفسر دون أن يرفع أو يخفض صوته الرتيب:

ـ مَنْ هو الشعب؟

ولمس صدر الفلاح ذي العينين الزرقاوين بصفحة قبضة سيفه، وقال:

ـ أأنت هو الشعب، يا شوماكوف؟ حسناً، ومن أيضاً؟ أنت، يا ميشين؟

وسحب لحية أحدهم بيده اليمنى.

ـ تفرقوا من هنا، أيها الأوغاد، وإلا . . . وإلا أريتكم من أكون!

لم يكن في صوته أو وجهه أثر للغضب أو الوعيد، فهو يتكلم في هدوء، ويضرب الناس بحركة مألوفة منتظمة من ذراعيه الطويلتين القويتين. وتراجع القوم أمامه يطرقون برؤوسهم ويشيحون بوجوههم.

توجه إلى الشرطيين قائلاً:

ـ لمَ أنتما هنا؟ اربطاه، قلت لكما...

وأطلق سيلاً من الشتائم، ثم حملق في ريبين مرة أخرى وأمره بصوت مرتفع:

ـ ضع يديك وراء ظهرك، أنت...

فقال ريبين:

ـ لا أريدهما على ربط يديّ، فلست أفكر في الفرار كما أني لن أقاوم، فما معنى تقييدهما إذن؟

فسأل رئيس الشرطة، وهو يخطو في اتجاهه:

ـ ما هذا؟

فتابع ريبين، وهو يرفع صوته:

ـ كفاكم تعذيباً للشعب، أيها المتوحشون! لسوف تدق ساعتكم عن قريب...

وقف رئيس الشرطة ينظر في وجهه مرتعش الشارب، ثم تراجع إلى الخلف خطوة، وصاح مندهشاً في صوت مجنون:

ـ أنت، يا ابن الكلبة! ما هذا الذي تقول؟

وجه إلى ريبين، بغتة، صفعة رنانة على وجهه، فصاح هذا متقدماً نحوه:

ـ لن تستطيع قتل الحقيقة بقبضتك، وليس لك الحق في ضربي، أيها الكلب القذر!

فعوى رئيس الشرطة، وهو ينبر الكلمات بقوة:

ـ أنا، ليس لي الحق؟ أنا؟

رفع يده مرة أخرى يهدف رأس ريبين، ولكن هذا انحنى فأخطأته

اللكمة، وكادت أن ترمي رئيس الشرطة أرضاً. قهقه أحد الواقفين وهو ينفخ من منخريه بضوضاء، في حين ارتفع صوت ريبين الغاضب مرة أخرى:

ـ أمنعك من ضربي، يا أيها الشيطان القذر!

أسفَّ رئيس الشرطة النظر حوله، فوجد الناس العابسين الصامتين قد تألّفوا في حلقة كثيفة قاتمة. صاح مستديراً حوله:

ـ نيكيتا! هِيْ نيكيتا!

فبرز من قلب الحشد فلاح قصير القامة، متين البنية، مفتول العضلات، يرتدي معطفاً قصيراً من فرو الخراف. كان رأسه العريض الشاعث مطرقاً إلى الأرض.

قال رئيس الشرطة، وهو يفتل شاربيه في هدوء:

ـ نيكيتا! أعطه لكمة على أذنه.. لكمة قوية!

فتقدم الفلاح، ووقف أمام ريبين، ورفع رأسه نحوه، فأطلق عليه ريبين سيلاً من الكلمات العنيفة المثقلة بالحقيقة:

ـ أنظروا فقط، أيها الشعب، كيف يخنقكم هؤلاء الوحوش بذات أيديكم! أنظروا، وفكروا في ذلك جيداً!

رفع الفلاح ذراعه في بطء، ووجّه مضطراً إلى ريبين لطمة على رأسه.

فصاح رئيس الشرطة في زعيق:

ـ أهكذا قلت لك، يا ابن الكلبة؟

وارتفع صوت من الحشد يقول في هدوء:

ـ هِيْ نيكيتا! لا تنسَ الله!

فصاح رئيس الشرطة، وهو يدفعه من رقبته:

ـ إضرب، قلتُ لك!

فطأطأ الفلاح رأسه، ثم ابتعد جانباً، وهو يقول بنبرة عبّاسة:

ـ لن أفعل ذلك...

ـ ماذا؟

مرّت رعشة على وجه رئيس الشرطة، فضرب الأرض بقدمه، ثم انطلق نحو ريبين وهو لا يني عن شتمه. وتردد صدى صفعة ترنح ريبين لها، فرفع ذراعه، ولكن صفعة ثانية عاجلته ورمته أرضاً، وإذا رئيس الشرطة يهجم عليه وهو يزمجر ويروح يرفسه في صدره وعطفه ورأسه.

ارتفعت غمغمة عدائية من المحتشدين، وبدأوا يتحركون صوب رئيس الشرطة. ولكنه لاحظ ذلك منهم فتراجع إلى الوراء، وهو يستلّ سيفه من غمده.

ـ ما هذا؟ عصيان؟... هكذا. إذن!

ارتجف صوته، وارتفع إلى الدرجة القصوى، ثم انقطع وهو يرسل زعيقاً أجش. وخارت قواه بغتة مع صوته، فانحنى وأدخل رأسه بين كتفيه، وراح يتطلع حوله بعينين فارغتين وهو يتقهقر متحسساً الأرض إلى الوراء منه بقدميه. صاح في صوت أجش وبقلق:

ـ حسناً جداً! خذاه من هنا، أنا ذاهب. والآن؟ أفلستم تعرفون، أيها الأوغاد، أنه مجرم سياسي؟ أفلا تعلمون أنه يحرض الشعب ضد القيصر؟ ثم أنتم تدافعون عنه؟ إذن فأنتم ثائرون أيضاً، أليس كذلك؟ هكذا إذن!

كانت الأم تقف دون حراك، دون أن يرفّ لها جفن واحد، مجردة عن القوة، خالية من القدرة على التفكير، يعتلج فيها الرعب والرثاء فكأنها ترزح تحت نير كابوس ثقيل. وكان صراخ الناس المكتئب، الغاضب، الثائر، يختلط في ذهنها بصوت رئيس الشرطة المرتجف وبعض همس مكبوت ينطلق من هنا وهناك، ويتحوّل إلى دويّ أشبه بطنين سرب مغيظ من الزنابير...

ـ إن كان مذنباً، فقدموه إلى المحكمة...

ـ إرفق به، يا صاحب السعادة...

ـ الحقيقة أنه لا يوجد قانون يسمح بهذه المعاملة...

ـ هل هذا ممكن؟ سائر الناس يلجأون إلى الضرب. . . فماذا سيكون الحال؟

انفصل الحشد إلى فريقين أحاط أحدهما برئيس الشرطة يصيح معه ويلتمسه بينما التف الفريق الآخر، الأقل عدداً، حول الرجل المطروح وأفراده يغمغمون مهددين متوعدين. وأنهض عدد من هؤلاء ريبين عن الأرض، وعندما حاول الشرطيان تقييد يديه من جديد صاحوا بهما:

ـ لِمَ كل هذه العجلة، أيها الشيطانان؟

مسح ميخائيلو الطين والدم عن وجهه ولحيته، وتطلع حوله في سكون فوقعت نظرته على الأم التي انتفضت وانحنت في اتجاهه وهي تلوّح بذراعها بالرغم منها. لكنه استدار عنها، ولم تكد تمضي عدة دقائق حتى كانت عيناه تثبتان على وجهها من جديد. وخيل إليها أنه انتصب ورفع رأسه، وأن وجنتيه الملطختين بالدماء ترتعشان. . .

«لقد عرفني. . . أيمكن حقاً أن يكون عرفني؟. . ».

أشارت إليه برأسها، وهي ترتعش بلهفة مؤلمة مخيفة. وفي اللحظة التالية لاحظت أن الفلاح الأزرق العينين يقف إلى جواره ويرنو إليها بدوره. وأثارت نظرته في الأم إحساساً بالخطر لم يدم أكثر من لحظة قصيرة. . .

«ماذا أفعل؟ لسوف يأخذونني أنا أيضاً!».

قال الفلاح لريبين شيئاً، فأجاب عليه هذا بإشارة من رأسه، ثم قال في صوت واضح النبرات جريء بالرغم من ارتعاشه:

ـ حسناً! لست الوحيد على وجه الأرض! ولن يستطيعوا قط أن يسجنوا الحقيقة بأسرها. إن ذكراي ستبقى في كل مكان مررت به، وإن أتلفوا العشّ وساقوا سائر الرفاق والأصدقاء. . .

خمَّنت الأم في الحال:

«إنه يتوجه بهذا إليَّ!»

ـ ولكنّ يوماً سيأتي تحلّق النسور فيه حرة، ويحطم الشعب فيه أصفاده!

أتت امرأة بسطل من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تئن وتتأوه طوال الوقت، فيختلط صوتها المرتفع الشاكي بكلمات ريبين حتى تعجز الأم عن تمييزها. وقحَمَ فريق الفلاحين الثاني يتقدمهم رئيس الشرطة، وصاح البعض من بينهم:

ـ هاتوا عربة تأخذ السجين من هنا! نَوبَة مَنْ هذه المرة؟

وارتفع صوت رئيس الشرطة متبدلاً، أقرب إلى الشكوى:

ـ أستطيع أن أضربك، أما أنت فلا تستطيع أن تضربني. لست تجرؤ على ذلك، أيها الأبله!

فصاح ريبين:

حقاً؟ ومن تحسب نفسك... اللّه؟

وغطى انفجار من الهتافات المكتومة صوته وطغى عليه:

ـ لا تناقشه، أيها الأخ... إنها السلطة!

ـ لا تنقم عليه، يا صاحب السعادة، فهو لا يملك زمام نفسه...

ـ هدىء روعك، أيها الساذج!

ـ سيأخذونك إلى المدينة الآن...

ـ في المدينة عدالة أكثر!

كانت صيحات القوم مترجية مصالحة، تختلط في دويّ شاكٍ غامض يعبر عن نضاضة من الأمل. وأمسك الشرطيان بريبين من ذراعيه وقاداه إلى بوابة بناء المحافظة حيث اختفيا به. وأخذ الفلاحون يتفرقون في تماهل، ولكن الأم شاهدت ذا العينين الزرقاوين يأتي صوبها، وهو يحدجها من تحت حاجبه، فارتجفت ركبتاها وانثال اليأس يمسك قلبها بقبضة حديدية، ويثير فيها إحساساً شديداً بالغثيان. فكرت:

«يجب ألا أذهب، كلا!».

وأمسكت الدرابزون بقوة، وانتظرت.

كان رئيس الشرطة يقف على وصيد بناء المحافظة، يحرك ذراعيه ويتحدث إلى الفلاحين معاتباً بصوت عاد من جديد أبيض لا روح فيه:

ـ مجانين أنتم، يا أبناء الكلبة، إذ تدسون أنوفكم في أمور لا تفهمون منها شيئاً. هذه قضية تتعلق بالدولة، أيها الدواب، واجبكم أن تشكروني، واجبكم أن تجثوا على ركبكم امتناناً لي لطيبة قلبي تجاهكم. لو أردت لأرسلت بكم جميعاً إلى الأشغال الشاقة.

كان عشرون فلاحاً تقريباً يقفون عراة الرؤوس ينصتون إليه. وتكاثف الظلام، بينما السحب تنخفض نحو الأرض أكثر فأكثر. واقترب ذو العينين الزرقاوين من العتبة حيث تقف الأم وقال متنهداً:

ـ هذه هي الأمور هنا...

فأجابت الأم في صوت خافت:

ـ نعم...

فسأل، وهو ينظر في عينيها باستقامة وجرأة:

ـ ما هي أشغالك ههنا؟

ـ إني أشتري مطرزات من الفلاحات، وبعض القماش أيضاً...

فمشط الفلاح لحيته في تباطؤ، ثم قال في ضجر وهدوء وهو ينظر إلى بناء المحافظة:

ـ إن هذه الأشياء ليست موجودة هنا...

حدجته الأم بناظريها فترة من الوقت، وهي تنتظر الفرصة الملائمة للرجوع إلى داخل الغرفة. كان وجه الفلاح جميلاً متأملاً، وعيناه حزينتين. وكان طويل القامة عريض المنكبين، يرتدي قفطاناً مرقعاً، وقميصاً قطنياً نظيفاً، وسروالاً أسمر اللون من الجوخ المحلي، وحذاءين في قدميه العاريتين...

أرسلت الأم، لسبب ما، زفرة ارتياح، ثم قالت فجأة وهي تستسلم لحدس كان أسبق من أفكارها المضطربة:

ـ أيمكن أن أقضي الليل عندك؟

كان السؤال مفاجئاً بالنسبة إليها، ولم تكد تطرحه حتى أصبح كل ما فيها من عضلات وعظام شديد التوتر، فانتصبت ونظرت إلى الرجل في ثبات، وأفكار حادة تتراقص في ذهنها:

«لسوف أدمر نيقولاي إيفانوفيتش، ولن أرى بافل زمناً طويلاً، طويلاً جداً، ولسوف يضربونني!».

أجاب الفلاح دون تسرُّع، وعيناه مثبتتان في الأرض، بينما هو يضم طرفي قفطانه على صدره:

ـ تبيتين الليل عندي؟ لمَ لا، إلا أن كوخي حقير جداً...

فقالت الأم دون تفكير:

ـ لم أعتد ما هو أفضل!

فوافق الفلاح، وهو يقيسها بناظريه المتفحصتين مرة أخرى:

ـ حسناً، إذن!

كان الظلام قد اشتد، فراحت عيناه تلمعان باردتين، وقد بدا وجهه شاحباً في ضوء القيلولة.

قالت الأم في صوت خفيض، وهي تشعر كأنها تتدحرج في هاوية:

ـ إذن فسوف أذهب وإياك مباشرة، ولعلك تحمل الحقيبة عني؟

ـ حسناً جداً.

رفع كتفيه، وهو يصلح من قفطانه مرة أخرى، قال في هدوء:

ـ هذه العربة جاءت...

ظهر ريبين على عتبة بناء المحافظة، مقيد اليدين من جديد، مغمور الرأس والوجه في قماش رمادي، وارتفع صوته في ضوء القيلولة البارد:

ـ وداعاً، أيها القوم الطيبون! فتشوا عن الحقيقة، واكنزوها! ثقوا بالإنسان الذي يحمل اليكم الكلمة الحقة، ولا توفروا أنفسكم في الدفاع عن الحقيقة!

فصاح رئيس الشرطة:

ـ سدَّ حلقك! حثّ الجياد، أنت، أيها الشرطي الأبله...

ـ ما الذي تخافون من خسرانه؟ أنظروا إلى حيواناتكم فقط!

وانطلقت العربة، فصاح ريبين بصوت أجش من حيث كان جالساً بين اثنين من رجال الشرطة:

ـ ما الذي يدفعكم إلى الاستمرار في الجوع حتى الموت؟ إذا نلتم حريتكم مرة، فسوف تحصلون على الخبز والعدالة. الوداع، أيها القوم الطيبون!

وطغت زمجرة العجلات على صوته، وابتلعه عدو الجياد وصياح رئيس الشرطة.

قال الفلاح، وهو يهزّ رأسه:

ـ انتهى كل شيء!

واستدار نحو الأم، وتابع في صوت خفيض:

ـ انتظريني ههنا في المحطة، فسوف أعود بعد هنيهة...

دلفت الأم إلى الغرفة، وجلست إلى المائدة تجاه السماور، وتناولت كسرة من الخبز نظرت اليها لحظة، ثم ردتها متثاقلة إلى مكانها من الصحن: إن موجة الغثيان تجتاحها مرة أخرى، فلا تستطيع إلى الطعام سبيلاً. وأحست حرارة مزعجة تنهكها تمتص كل الدم من قلبها وترميها بدوار شديد لا تقدر له على مقاومة. وكانت ترى إلى الأمام منها وجه الفلاح الأزرق العينين، منقوصاً بصورة غريبة، موحياً بالارتياب والتشكك. ولسببٍ ما لم تشأ أن تفكر في إمكان وشايته بها، ولكن هذه الفكرة كانت قد سبقت واخترقت ذهنها واستقرت ثقيلة لا حراك بها فوق قلبها. هجست في ضعف وإعياء:

«لقد لاحظني، لقد لاحظني... وخمّن كل شيء...».

لم تتطور تلك الفكرة أو تكبر على الاطلاق، لشدة ما كانت غارقة فيه من كآبة يائسة يرافقها إحساس لزج بالغثيان المرهق.

وكان صمت مطبق حل محلَّ الضوضاء ما وراء النافذة يكشف عن إحساس الخوف والاضطهاد المسيطر على القرية. واحتدّ الشعور بالوحدة يملأ النفس بظلمات قاتمة ناعمة مثل الرماد.

وظهرت البنيّة مرة أخرى على عتبة الباب. قالت:

ـ أأجيئك ببعض البيض المقلي؟

ـ لا تزعجي نفسك، فلست أرغب في الطعام. لقد أخافوني بصياحهم وصراخهم!

فاقتربت الصغيرة من المائدة، وهي تقول في صوت منفعل مكتوم:

ـ كيف ضربه رئيس الشرطة! لقد كنت أقف بالقرب منه... لقد اقتلع أسنانه، وأنا رأيته يبصقها بأمّ عينيّ ـ وكان الدم ثخيناً، أسود وأحمر معاً... أما عيناه فقد انتفختا كثيراً جداً. إنه فحام، ورقيب الشرطة يرقد هنا ـ ثملاً للغاية، ومع ذلك يطلب الخمرة باستمرار. وهو يقول إن ثمة عصابة كاملة منهم، وإن ذلك الملتحي هو رئيسهم. لقد اعتقلوا ثلاثة منهم، ولكن واحداً استطاع الفرار، وكذلك اعتقلوا معلم مدرسة ينتمي إلى عصابتهم... إنهم لا يؤمنون بالله ويحاولون باستمرار أن يقنعوا الناس الآخرين بالكفر به حتى يسرقوا الكنائس... ذلك هو جوهرهم! إن بعض فلاحينا يأسفون من أجله، ولكن الآخرين يقولون إنه من الضروري وضع حد له... ثمة كثير من الفلاحين الأشرار عندنا... يا لطيف!

أنصتت الأم بانتباه إلى رواية البنيّة المتقطعة السريعة، جاهدة أن تتغلب على مخاوفها وتنصرف عن الانتظار الكئيب. وكانت الصغيرة سعيدة فيما يبدو بأن تجد من يصغي إليها فاستمرت تتحدث في هياج وانفعال، ولكن في صوت خفيض دائماً:

ـ أبي يقول إن سبب كل ذلك الموسم السيىء، فالأرض لم تنتج شيئاً طوال سنتين... لقد تعذبنا... ولذلك أصبح فلاحونا أشراراً حتى هذه الدرجة. إنهم يتصايحون ويتقاتلون في اجتماعات القرية. وفي ذات يوم،

بينما كانوا يبيعون ممتلكات فاسكوف كي يفوا ديونه بها، ضرب المختار على وجهه بعنف وهو يقول: اليك ديونك مني فخذها...

سُمع وقع أقدام ثقيلة عند الباب، فأمسكت الأم بالمائدة وتحاملت على نفسها ناهضة...

رَعَفَ الباب بالفلاح الأزرق العينين الذي قال دون أن يخلع قبعته:

ـ أين حقيبتك؟

ورفع الحقيبة بكل يسر وهزها:

ـ فارغة. دلي هذه المرأة على الطريق إلى كوخي، يا ماركا.

وخرج دون أن ينظر إلى الخلف أبداً.

سألت البنيّة:

ـ أتقضين الليل هنا؟

ـ نعم. لقد جئت طلباً للمطرزات... إني أشتري المطرزات..

ـ إنهم لا يشتغلون بها ههنا، يشتغلون بها في تنكوفا ودارينا، أما هنا فلا.

ـ سأذهب إلى هناك في الغداة...

وعندما دفعت الأم ثمن الشاي، منحت الصغيرة ثلاثة كوبيكات كان لها في نفسها وقع بهيج للغاية. ثم غادرتا المحطة، والفتاة تسير بخطوات سريعة فوق الأرض الندية بقدميها الحافيتين. قالت:

ـ إن شئت ذهبت إلى دارينا وقلت للنساء أن يحملن مطرزاتهن إلى هنا. ولسوف يأتين ههنا فلا تحتاجين إلى ركوبٍ حتى هناك. إن المسافة تبلغ الاثني عشر فرسخاً على أية حال...

فقالت الأم، وهي تسير إلى جانبها:

ـ لا تزعجي نفسك، يا عزيزتي!

أنعشها الهواء البارد، وراح عزم غامض ينمو فيها شيئاً فشيئاً. كان ينمو في بطء واضطراب، فشرعت تسأل نفسها في إلحاح، راغبة في أن تعجل ذلك النمو:

«ماذا ينبغي أن أفعل؟ إذا قلت كل الحقيقة بصراحة...».

كان الطقس بارداً، مظلماً، رطباً. كانت نوافذ الأكواخ تلمع بنور أحمر واهن، وفي ذلك السكون تتردد صيحات خافتة ويرتفع خوار الأبقار الناعس في مزاربها. والتفَّت القرية بكآبة ثقيلة العبء...

قالت الصغيرة:

ـ هنا، لقد وقعتِ على مكان حقير تقضين الليل فيه. إنه فلاح فقير للغاية...

وتحسست الباب. وعندما فتحته مدت رأسها من خلاله، وصاحت في حيوية:

ـ أيتها العمة تاتيانا!

ثم ولت الإدبار. وجاء صوتها عبر الظلمة:

ـ إلى اللقاء!

17

وقفت الأم على العتبة، واستكفّت حتى يحسن استطلاعها للكوخ. كان الكوخ ضيقاً، ولكنه سرعان ما لفت أنظارها بنظافته. ورنت إليها امرأة شابة بعينيها من وراء الموقد، وأشارت برأسها مسلّمة دون كلام، ثم انسحبت. وكان مصباح يلتهب على مائدة تقع في زاوية الأيقونات، جلس إليها صاحب الكوخ ينقر عوارضها بأصابعه، باحثاً بناظريه عن عيني الأم. قال بعد برهة من الصمت:

ـ تفضلي! تاتيانا، هلا ناديت بيوتر، وأسرعت في ذلك!

لفظ البابُ المرأة، دون أن تنظر إلى الأم التي قبعت على دكة مقابل الرجل وراحت تبصر حواليها، فلا تقع أنظارها على حقيبتها في أي مكان. كان الكوخ يعجّ بسكون ثقيل، لا يعكر صفوه إلا طقطقة

المصباح من وقت لآخر. وراح وجه الفلاح العابس القلق يتموّج أمام عيني الأم موقظاً في فؤادها اضطراباً كئيباً.

استوضحت، فجأة، في صوت دُهشت هي نفسها لارتفاعه:

ـ أين حقيبتي؟

فأجاب الفلاح في بطء، وهو يهز كتفيه:

ـ إنها لن تضيع...

ثم أضاف في صوت خفيض:

ـ لقد قلت عمداً في المحطة إنها فارغة حتى تسمع البنيَّة ذلك. ولكنها ليست فارغة، بل على العكس ثقيلة جداً!

فسألت الأم:

ـ حسناً، وما في ذلك؟

فنهض ورسم نحوها، ثم انحنى عليها كثيراً، وهو يهمس في صوت خافت:

ـ أنت تعرفين ذلك الرجل؟

فردّت الأم في لكنة ثابتة، رغم أن السؤال دهمها على غير انتظار:

ـ نعم.

بدا أن الكلمة أضاءت كل شيء من الداخل، فأوضحت الأمور وأجلتها. فتنهدت الأم بارتياح، واستقرت على الدكة في ثبات أكثر...

استطالت في شفتي الفلاح ابتسامة عريضة شبعى، وقال:

ـ لاحظتكِ أشرتِ إليه هناك فردَّ على إشارتك. ولقد همستُ في أذنه إن كان يعرف المرأة الواقفة على العتبة هناك.

فاستجلت الأم في اندفاع:

ـ وبِمَ أجاب؟

ـ هو؟ لقد أجاب: ثمة كثيرون منا. أجل! ثمة الكثيرون. هذا ما قال...

ونظر الفلاح مستفهماً إلى عينيّ ضيفته، وتخايلت على شفتيه ابتسامة أخرى وهو يتابع حديثه قائلاً:

ـ إنه لرجل قوي حقاً! وشجاع أيضاً. لقد قال دون لفّ أو دوران: أنا من فعل ذلك. واستمرّ يقول ما يريد أن يقول غير آبه لما ينزلون به من تنكيل...

ارتاحت الأم أكثر فأكثر إلى صوته الضعيف المتردد وهدّأت من روعها رؤية عينيه الصريحتين في وجه يبدو كأنما يعوزه شيء ما. وراح القلق والإعياء في صدرها يفسحان المجال شيئاً فشيئاً لرثاء حاد عنيف من أجل ريبين. صاحت فجأة في غيظ مرير:

ـ يا للأوغاد! يا للوحوش!

وانخرطت تبكي. فصدَرَ الفلاح عنها، وهو يهزُّ رأسه ساخطاً. قال:

ـ السلطات تجعل الناس أعداءها... هذه هي الحال! واستدار إلى الأم مرة أخرى، وقال في هدوء:

ـ يخيل إليَّ... أعتقد أن في الحقيبة صحفاً. ألست على حق؟

فأجابت الأم ببساطة، وهي تمسح عبراتها:

ـ بلى! كنت أحملها إليه.

فقطب الفلاح حاجبيه. وأخذ لحيته في قبضته، وراح يشخص إلى إحدى الزوايا في صمت. قال أخيراً:

ـ لقد جاؤونا بتلك الصحف إلى هنا، وببعض الكتب أيضاً. ونحن نعرف هذا الرجل... لقد كنا نراه في بعض الأحايين!

وسكت مستغرقاً في التفكير ثانية قصيرة، ثم سأل:

ـ ماذا تنوين الآن أن تفعلي بها؟... بالحقيبة؟

فرمقته الأم وقالت في تحدّ:

ـ سأتركها معكم!

فلم يرفض ولم يبدُ عليه أي أثر للدهشة... ردّد باقتضاب:

ـ معنا...

وهو يشير برأسه موافقاً، ويمشّط لحيته بأصابعه ويجلس إلى المائدة.

كان مشهد المعاملة الوحشية التي لاقاها ريبين يثقل على الأم ويقتحم مخيلتها في عناد لا يعرف الرحمة. وطردت صورته كل الأفكار من ذهنها، كما أن ما أحست به من ألم ومذلة تجاه الجنس البشري طرد سائر العواطف الأخرى حتى أمست عاجزة عن التفكير في الحقيبة أو في أي شيء آخر. وتحسست عبراتها متدفقة، وإن ظلت سيماؤها قاسية، وصوتها ثابتاً غير مرتعش، وهي تقول:

ـ ألا فلتحلّ اللعنة عليهم إلى الأبد لطريقتهم في سرقة الكائنات البشرية، والتنكيل بهم، وتعفيرهم في الوحل هكذا!

فهمهم الفلاح في صوت رقيق:

ـ إنهم أقوياء، أقوياء جداً!

فهتفت الأم في يأس:

ـ ومن أين يجيئون بقوتهم؟ إنهم يأتون بها منّا، نحن عامة الشعب... إن سائر الأشياء تؤخذ منا!

كان وجه الفلاح الصريح الغامض التعبير في الوقت ذاته، يثيرها.

قال في تثاقل:

ـ أجل، إن العجلة...

وانتفض فجأة، وأصاخ بأذنيه في اتجاه الباب، وقال في همس:

ـ إنهم آتون...

ـ من؟

ـ ليس غرباء، فيما يبدو...

دخلت زوجته يصحبها فلاح آخر ألقى بقبعته في إحدى الزوايا، واقترب سريعاً من صاحب الكوخ. سأل

ـ حسناً؟

فأشار الآخر برأسه في الايجاب. وقالت زوجته من حيث وقفت أمام الموقد:

ـ ستيبان، لعلَّ الضيفة تريد أن تأكل شيئاً؟

فقالت الأم:

ـ كلا، شكراً لك، يا عزيزتي!

دنا الفلاح الآخر من الأم، وقال في صوت سريع متكسر:

ـ اسمحي لي أن أقدِّم نفسي. إسمي بيوتر ييجورروف ريابينين وألقَّب بالمخرز؛ وإني أفهم شيئاً أو شيئين عن عملك، وأعرف القراءة والكتابة، ولست أبله إن صح التعبير...

وهزّ اليد التي مدتها الأم له واستدار نحو المضيف، وقال:

ـ انظر بنفسك، يا ستيبان. الحقيقة إن بربارا نيقولايفنا سيدة كثيرة اللطف. ولكنها تدَّعي أن كل هذه الأعمال من التوافه والهراء! فكأنه من صنع أولاد وطلاب أغبياء يثيرون عامة الناس. ولكن أنت وأنا قد رأينا أنهم اعتقلوا اليوم رجلاً طيباً، فلاحاً مائة في المائة. والآن، أنظر، ههنا امرأة نَصَفٌ لا تمتُّ إلى الأسياد بصلة كما تدلّ كل المظاهر. ما هو أصلك، إذا غفرتِ السؤال؟

كان يتكلم في تسرع ووضوح دون أن يستريح لتدارك أنفاسه، ولحيته ترتجف بعصبية، وعيناه لا تفتآن تتمعنان في وجه الأم وجسدها. وكانت ثيابه ممزقة مهترئة، وشعره مشعثاً فكأنه خارج تواً من قتال يملؤه الفرح إذ انتصر فيه على خصمه. أحبته الأم مباشرة لاندفاعه وحديثه البسيط الصريح، المجرد من اللف والدوران. وتطلعت مبتسمة في وجهه وهي تردُّ على سؤاله، حتى إذا انتهت منه صافحها من جديد وأطلق ضحكة جافة قصيرة، قائلاً:

ـ وإنه عمل عادل يا ستيبان، إنه عمل رائع! ألم أقل لك إنه يصدر عن الشعب نفسه؟ أما تلك السيدة العظيمة فهي لا تقول لك الحقيقة. فهي تؤذي نفسها إن روت لك الحقيقة بعينها. أواهِ، أنا أحترمها ـ هذا أمر ليس فيه خلجة من شك. فهي طيبة كثيراً وتريد أن تمدَّ لنا يد المساعدة ـ قليلاً جداً ـ دون أن يسبب ذلك لها أي أذى على

الإطلاق. أما عامة الناس فإنهم يريدون الخير دون لف أو دوران، وهم لا يخافون من الأذى والمضرة. هل فهمت الفارق؟ إنهم يتأذون طوال حياتهم، يصيبهم الأذى مهما فعلوا، ولا مكان لهم يلجأون إليه، والكلمة الوحيدة التي يسمعونها هي «قف» مهما تكن الطريق التي يسلكون.

وقال ستيبان وهو يشير برأسه:

ـ إني أرى!

وأضاف مباشرة:

ـ إنها قلقة من أجل حقيبتها.

فغمز بيوتر الأم في خبث وقال، وهو يلوّح بيده مطمَئِناً:

ـ لا تقلقي. فكل شيء سيجري على ما يرام، يا أمي العزيزة. حقيبتك في منزلي. عندما حدثني اليوم عنك فكأنك أنت أيضاً تشتركين في هذا العمل وتعرفين ذلك الشخص قلت له: راقبها جيداً لأن القضية كثيرة الخطورة وعلينا ألّا نضيع الفرصة. ويبدو أنك اشتممت شيئاً بدورك عندما كنا واقفين إلى جانبك. فالمرء لا يخطئ وجه الشريف إذ رآه، ما دام ليس في العالم كثرة من أمثاله، وتلك حقيقة لا مراء فيها. لا تقلقي من أجل حقيبتك فهي في منزلي....

جلس إلى جانبها، وتطلع إليها مستفهماً:

ـ إن كنت تحبين التخلُّص مما فيها كنا سعيدين بمساعدتك... نحن بحاجة إلى تلك الكتب...

فقال ستيبان:

ـ هي تريد أن تتركها كلها معنا!

ـ هذا رائع، يا أمي العزيزة! ولسوف نجد مكاناً من أجل كل شيء!..

قفز ناهضاً على قدميه وهو يضحك، وشرع يجوس أرض الغرفة روحة غدوة في عجلة واندفاع:

ـ هذا حظ نادر، وإن لم يكن غريباً جداً. الحبل ينقطع في هذا الموضع فيعاد ربطه في موضع آخر، وهذا حسن جداً. إن الصحيفة عظيمة، يا أمي العزيزة وهي كثيرة الفائدة ترفع العصائب عن العيون، ولكنها تزعج الأسياد. أنا أشتغل عند سيدة تبعد سبعة فراسخ من هنا أنجّر لها... وهي امرأة شهمة تعيرنا كتباً من كل الأنواع، نقرأها أحياناً فتفتح عيوننا على أشياء كثيرة. ونحن ممتنُّون لها بصورة عامة. ولكني أريتها مرة هذه الجريدة، فاغتاظت قليلاً بسببها وقالت لا تقرأ هذه البضاعة، يا بيوتر. إنهم جماعة من التلاميذ الخبثاء الذين يكتبون مثل هذه الأشياء، ولن تستفيد من قراءتها سوى الوقوع في المشاكل ـ السجن وسيبيريا ـ هذا ما قالت...

ولجأ إلى الصمت من جديد، ثم سأل بعد برهة تفكير:

ـ هذا الرجل، يا أمي العزيزة... أهو قريب لك؟ فأجابت الأم:

ـ كلا!

فضحك بيوتر دون ضوضاء، وهزَّ رأسه فكأنه مسرور جداً من شيء ما. وشخص للأم بعد فترة قصيرة أنها نالت من كرامتها بإنكارها كل صلة لها بريبين الذي لا يستحق هذا فأضافت:

ـ ليس هو قريبي، ولكني أعرفه منذ زمن طويل، وأحترمه مثل أخ لي... أخ يكبرني سناً...

لم تكن تستطيع إيجاد الكلمات الملائمة للتعبير عن شعورها، وكان ذلك كثير الإيلام حتى أنها انخرطت تبكي في هدوء مرة أخرى. وساد الكوخ سكون متحفز ثقيل الوطأة، وقد انتصب بيوتر مطرق الرأس كمن يصيخ السمع إلى شيء ما بينما جلس ستيبان مرتفقاً المائدة وهو لا يبرح ينقر عليها في بطء وزوجته تستند إلى الموقد، والأم تدرك أن نظرتها مثبتة في وجهها. وكانت الأم تختلس النظر بين الآونة والآونة إلى المرأة الشابة التي كان وجهها المسمر البيضوي الشكل ذا أنف مستقيم، وذقن مدببة حادة وعينين خضراوين يقظتين.

قال بيوتر في صوت خافت:

ـ لقد كان إذن صديقاً لك. إنه لذو شكيمة في الحقيقة، يعتدُّ بنفسه كثيراً كما يستحق ذلك! إنه لفتى رائع حقاً. أليس كذلك، يا تاتيانا؟ أنت تقولين...

فقاطعته تاتيانا، وهي تضمُّ شفتي فمها الصغير:

ـ أمتزوج هو؟

فردَّت الأم في كآبة:

ـ بل أرمل.

فقالت تاتيانا في صوت عميق غني النبرات:

ـ هذا هو السبب في شجاعته. إن رجلاً متزوجاً لا يختار هذا الدرب، بل سيخاف...

فصاح بيوتر:

ـ وأنا؟ ألست متزوجاً؟

والتوت شفتا المرأة فقالت وهي تتجنب النظر إليه:

ـ ماذا تقول، أيها الجار! وما شأنك في هذا! لا تفعل سوى الكلام! ومن وقت لآخر تقرأ كتاباً أو ما شابه. إن قعودك وستيبان تتهامسان في إحدى الزوايا المظلمة على طريقتكما هذه لا يفيد الشعب كثيراً.

فاحتجَّ الفلاح في صوت خافت، وقد آذاه كلامها:

ـ كثيرون يصغون إلى كلماتي. وأنا، إن صح التعبير، أشبه الخميرة في عملي هنا. لا يحقُّ لك أن تقولي إن...

فسما ستيبان ببصره إلى امرأته في سكون، وأطرق برأسه من جديد.

سألت تاتيانا:

ـ لِمَ يتزوج الفلاح؟ يدَّعي أنه في حاجة إلى امرأة تعمل من أجله. أي عمل هذا!

فاستفسر ستيبان في صوت أجشّ:

ـ أهو لا يكفيك؟

ـ أي معنى في هذا العمل؟ أن تعيش نصف جائع يوماً بعد يوم. وإن كان لديك أولاد فليس لديك الوقت للعناية بهم بسببٍ من العمل الذي لا يؤمن لك حتى خبزك اليومي.

ذهبت إلى الأم وجلست قربها، وهي تتكلم في عناد، لكن دون شكاية أو كآبة:

ـ رزقت طفلين أهرق أحدهما ماء مغلياً على نفسه وهو في الثانية من عمره. أما الآخر فوُلد ميتاً ـ قبل أن يحين موعد ولادته ـ وكل ذلك بسبب ذلك العمل اللعين. هل حمل إليَّ شيئاً من السعادة؟ أقول لكم إن زواج الفلاحين عبث، فهم لا يفعلون إلا ربط أيديهم، في حين ينبغي لهم أن يعيشوا دون من يعترض سبيلهم، يناضلون من أجل حياة أفضل. عندئذ يستطيعون الذهاب وراء الحقيقة باستقامة مثل ذلك الرجل. ألست على حق، يا أماه؟

فقالت الأم:

ـ أنت على حق، أنت على حق، يا عزيزتي... وإلا فلا سبيل إلى تبديل هذه الحياة...

ـ ألم يكن لك رجل؟

ـ لقد مات. إن لي ابناً...

ـ وهو يعيش معك؟

ـ إنه في السجن!

قالت الأم هذه الكلمات وأحست شيئاً من الخيلاء يرافق الألم المألوف الذي تثيره في صدرها.

ـ هذه هي المرة الثانية التي يطرحونه هناك ـ ومردُّ ذلك أنه يزرع حقيقة اللّه بين الشعب دون خفاء... إنه في ريعان الصبا، جميل وذكي. وهو الذي اقترح إصدار صحيفتكم، وهو الذي دلَّ ميخائيلو إيفانوفيتش على الصراط المستقيم مع أن ميخائيلو يكبره سناً بمرتين.

وعما قريب سوف يحاكمون ابني بسبب ذلك، ويصدرون حكمهم الصارم. ولكنه سيهرب من سيبيريا، ويعود إلى هنا ليتابع العمل...

وبينما هي تتكلم، كان إحساس الخيلاء ينمو باستمرار في صدرها، خالقاً صورة بطل تتطلب التعبير عنها في عزم وعناد وكان هذا الاحساس يغص في حلقها. كان من الضروري بالنسبة إليها أن ترسم لوحة من النور والعقل تعيض عن ظلمة ذلك النهار الذي كانت شاهدة عليه، تلك الظلمة التي ما برحت فظاعتها السخيفة ووحشيتها الوقحة تسحقانها تحت نيرهما الثقيل. ولذلك راحت، وهي تخضع دون وعي منها إلى حاجة طبيعتها السليمة، تكتّل كل ما رأت من نيّر وطاهر في لهب واحد يعميها بريقه الخلاب...

ـ ثمة كثيرٌ من الناس الآن على شاكلته.. وكل يوم يولد منهم عدد جديد. ولسوف يكافحون حتى نهاية حياتهم في سبيل حرية البشر والحقيقة...

وراحت، وقد نسيت كل حيطة وحذر، وإن لم تذكر مع ذلك أية أسماء على الإطلاق، تروي كل ما تعرف عن ذلك العمل السري الجاري في سبيل تحرير الجماهير من أصفاد الجشع. وبينما هي تصف أناساً أعزاء على قلبها، طفقت تسكب في كلماتها تلك القوة العظيمة، وذلك الفيض من المحبة التي أيقظتها فيها السنين الطويلة من آلام الحياة ومصائبها. وكانت، هي نفسها، تنظر في بهجة إلى أولئك القوم الذين يهبّون أمام عيني مخيلتها يضيئهم نور عاطفتها ويجددهم.

ـ وهذا العمل يجري في سائر أنحاء الأرض، في سائر المدن يقوم به أناس طيبون في كل مكان... لا حدود لقواهم، ولا مقاييس، وهي تنمو أبداً، ولن تبرح تنمو حتى تحلّ ساعة انتصارنا...

كان صوتها يسبح بثبات، وهي لا تجد صعوبة في العثور على الكلمات، فتجمعها مثل حبات من اللؤلؤ المتعدد الألوان في خيط متين من الرغبة اللاهبة في تطهير قلبها من دم ذلك النهار وطينه. كانت ترى

أن هؤلاء الفلاحين يبدون وكأنهم قد رسوا في أماكنهم بفعل ما ترويه لهم، فهم يشخصون اليها بثبات حتى لا حراك بهم. وكانت تسمع تنفس المرأة المتقطع إلى جانبها فيقوي ذلك كله إيمانها بما تقول وبما تَعِدُ به هؤلاء الناس...

- جميع أولئك الذين يحيون حياة شاقة، جميع أولئك الذين أتلفهم العنف والحاجة، جميع أولئك الذين يضغط عليهم الأغنياء وأعوانهم، جميع أولئك سيذهبون قدُماً وينضمون إلى الذين يفنون في السجن من أجلهم ويواجهون العذاب والموت في سبيل الشعب.... إنهم يدلون، دون أن يفكروا بأنفسهم مطلقاً، على طريق السعادة للشعب بأسره. ودون أية محاولة للخداع والكذب يقولون: صعبة وشاقة هي الطريق. ولا يجبرون أحداً على سلوكها... ولكن المرء حينما يأخذ مكانه مرة إلى جانبهم لن يتركهم بعد ذلك قط، إذ يدرك أن ذلك هو الحق، وتلك هي الطريق، وليس من سبيل آخر!

كانت سعيدة بأن تصنع أخيراً ما تمنَّت دائماً صنعه: إنها هي نفسها تروي الحقيقة للشعب!

- إن بسطاء الناس ليسوا في حاجة للقلق والتردد قبل أن يرافقوا هؤلاء القوم. هؤلاء لن يرضوا بالشيء اليسير، ولن يقفوا قبل القضاء على كل خداع، وكل جشع، وكل شر... ولن يكتِّفوا أيديهم حتى يصبح الشعب بأسره روحاً واحدة، ويصيح بصوت واحد: أنا هو السيد، ولسوف أصنع أنا قوانين تكون سواء بالنسبة إلى الجميع!...

أحست بالتعب فتوقفت عن الكلام، وتطلعت فيما حولها، وثقتها ثابتة في أن كلماتها لن تذهب عبثاً. وظل الفلاحون يرمقونها بأنظارهم، منتظرين شيئاً آخر. وصلَّب بيوتر ذراعيه فوق صدره، وضيَّق فرجة عينيه، بينما شع وجهه الأنمش بابتسامة بهيجة. أما ستيبان فكان يستند إلى المائدة بأحد مرفقيه وإن كان جسده كله منعطفاً إلى الأمام مشرئباً فكأنه لما يزل منصتاً. وكان وجهه يختبىء في الظل فيبدو لذلك وقد اكتمل

نوعاً ما. أما زوجته الجالسة إلى جانب الأم، فكانت تعتمد ركبتها بالمرفقين، وهي تمعن النظر إلى أرض الكوخ. وتمتم بيوتر، وهو يجلس متماهلاً على الدكة ويهز رأسه:

ـ كذلك هي الأمور!

وانتصب ستيبان في بطء، وأقنع بصره نحو زوجته، فتح ذراعيه فكأنه يريد ضمَّ شيء ما...

قال متفكراً وفي همس:

ـ إذا بدأ المرء مرة هذا النوع من العمل، فلا ريب أنه سيهب له نفسه كلها...

فقال بيوتر في حياء:

ـ نعم، الحقيقة! فليس من مجال للتطلّع إلى الخلف!

وتابع ستيبان:

ـ يبدو أن العمل يسير على نطاق واسع!

فأضاف بيوتر من جديد:

ـ على نطاق عالمي!

18

استندت الأم إلى الجدار، وألقت برأسها خلفاً، مصغية إلى كلماتهم الهادئة الثقيلة. ونهضت تاتيانا واقفة، وأشخصت البصر فيما حولها، ثم عاودت الجلوس، وفي عينيها الخضراوين بريق بارد ترمق به الفلاحين في ازدراء واستياء.

التفتت صوب الأم بغتة، وقالت:

ـ يخال لي أنك عرفتِ آلاماً كثيرة في حياتك؟

فأجابت الأم:

ـ صدقت.

ـ ما أروع حديثك، فكلماتك تضرب على أوتار القلب مباشرة. عندما أصغي إليك أفكر: أواه، يا إلّهي، أي شيء لا أعطي كي ألقي ولو نظرة خاطفة على مثل هؤلاء الناس الذين عنهم تتحدثين! وعلى مثل تلك الحياة أيضاً! كيف نعيش ههنا؟ مثل قطيع من الغنم! أنا مثلاً، أنا أعرف كيف أقرأ وأكتب، وكثيراً ما أطالع وأفكر أيضاً... وإني لا أنام الليالي في بعض الأحيان لكثرة التفكير. لكن ما جدوى ذلك؟ اذا توقفتُ عن التفكير، ذبلتُ وفنيتُ في سبيل لا شيء على الإطلاق. وإذا تابعت التفكير، فمن أجل لا شيء أيضاً.

كانت تتكلم وفي عينيها هزء وسخرية يبدو أحياناً أنها تعضُّ الكلمات عضاً كما تفعل بخيط بين أسنانها. ولم ينبس الفلاحان ببنت شفة. كانت الريح تداعب زجاج النوافذ، وتهمس بعذوبة في المدخنة، وتنفخ القش الملقى على السطح وتخشخش فيه. وكان كلب يعوي في مكان ما، ومن حين لآخر تقع قطرة من المطر، مرغمة، على النافذة فتقرع زجاجها قرعاً لطيفاً. وارتعش نور المصباح، وقد خبا حتى كاد ينطفىء، كي يعود فيستعيد الحياة منتعشاً، ويستمر في اللهيب متألقاً ثابت الشعلة.

ـ عندما سمعتك تتكلمين أخذت أفكر وأفكر: هذا شيء جديرة الحياة في سبيله! وإنه لغريب حقاً... إني أدرك، وأنا أصغي، أني أعرف هذا كله! ولكني لم أسمع شيئاً مثيلاً له من قبل قط... كما أن مثل تلك الأفكار لم تراودني أبداً...

فقال ستيبان متثاقلاً، وهو يعقد ما بين حاجبيه:

ـ الأفضل أن نتناول شيئاً نمسك به رمقنا. وينبغي أن نطفىء المصباح، يا تاتيانا... فقد يلاحظ الناس أن النور في بيت آل شوماكوف يضيء أكثر من المعتاد هذه الليلة، وذلك سواء بالنسبة إلينا، ولكنه قد يؤذي ضيفتنا...

فنهضت تاتيانا وسعت إلى الموقد. وابتسم بيوتر، وقال خافِت الصوت:

ـ أجل، فلا بدَّ لنا من مراقبة خطواتنا هذه الأيام، أيها الجار! وعندما تظهر الصحيفة بين الناس، فسرعان...

ـ لست أفكر في نفسي. فإذا اعتقلوني لن تكون الخسارة كبيرة.

فاقتربت زوجته من المائدة، وقالت:

ـ ابتعد...

فنهض، وفَصلَ جانباً، وراح يراقبها تهيىء المائدة. قال، وابتسامة ساخرة تتحايل على شفتيه:

ـ لا تساوي الباقة من أمثالي أكثر من خمسة كوبيكات وذلك عندما يكون مائة منا في كل باقة أيضاً...

شعرت الأم فجأة بالرثاء له. كانت محبتها له تزداد بمقدار ازدياد معرفتها به. وأحسّت أنها تخلصت من عبء ذلك النهار القذر بعد حديثها، وكانت راضية عن نفسها، تريد الخير العميم لسائر الناس على الإطلاق. قالت:

ـ إنك لعلى ضلال، يا صاحبي! ينبغي ألا تقبل الثمن الذي يسعّرك به أولئك الذين لا يفعلون سوى امتصاص دمائك. يجب أن تدرك قيمتك جيداً، وأن تضع بنفسك ثمن ما في باطنك، ثمن أصدقائك لا ثمن أعدائك...

فهتف الفلاح في صوت خافت:

ـ أي أصدقاء لنا؟ إنهم أصدقاء ـ حتى نتناول أول كسرة خبز حقيرة...

ـ أؤكد لك أن لعامة الناس أصدقاءهم...

أجاب ستيبان مفكراً:

ـ ربما، ولكن ليس هنا. وتلك هي المشكلة!

ـ ولِمَ لا تفتشون عن أصدقاء هنا؟

فروّأ ستيبان لحظة قبل أن يجيب:

ـ بلى، ذلك ما يجب أن نفعل...

وقالت تاتيانا تدعوهم:

ـ إجلسوا، فالعشاء جاهز!

استعاد بيوتر مرحه، أثناء العشاء، بعد أن ارتبك على ما يظهر، بفعل ما روت له الأم. قال بسرعة كعادته:

ـ عليك الانطلاق باكراً في الصباح، يا أُماه، حتى لا تلفتي انتباه أحد. فتركبين مباشرة حتى المحطة الثانية دون أن تمري بالمدينة. خذي عربة البريد.

فقال ستيبان:

ـ ولِمَ ذلك؟ سأوصلها بنفسي.

ـ كلا! ينبغي ألا تفعل. ماذا لو سألوك: هل قضت الليل عندك؟.. نعم، لقد فعلت... وأين هي الآن؟.. لقد أوصلتها إلى المحطة... ها ها! إذن فأنت من رافقها؟ أدخل السجن إذن! أتفهم ما أقول؟ ولكن لا حاجة تدعو إلى الاسراع في الذهاب إليه، بل كل شيء يأتي في موعده المحدد، وحتى القيصر نفسه يموت عندما تدقُّ ساعته، كما يقول المثل. أما الآن، فهي قد قضت الليل هنا، ثم استأجرت بعض الجياد ورحلت! شيء بسيط. كثيرون هم الذين يقضون الليل هنا باعتبار أن قريتنا تقع على الطريق الرئيسية...

فاستقصت تاتيانا في سخرية:

ـ ومن أين تعلمت أن تخاف هكذا، يا بيوتر؟

فهتف بيوتر، وهو يلطم ركبته:

ـ علينا إتقان الأمور، أيتها الجارة؛ علينا معرفة متى نخاف ومتى نتشجع! تذكري كيف أساؤوا معاملة فاجانوف بسبب تلك الصحيفة. أنت لن تقنعيه بتناول كوب بين يديه مرة أخرى، لا محبة ولا اغراء بالمال.

ولكنك تستطيعين الثقة بي، يا أُماه، فأنا محتال ماكر كما يعترف الجميع بذلك، وسأوزّع تلك الصحف والمنشورات التي حملتِ، مهما تَكُ كثيرة، في الأماكن التي يجب أن توزّع فيها. صحيح أن قومنا أمِّيون في الغالب وجبناء، ولكن هذه الأيام تجبر المرء على أن يفتح عينيه واسعتين، ويتساءل عن الأسباب والنتائج. وهذه المنشورات تقول الجواب ببساطة عظيمة، والمشكلة كلها تتطلب قليلاً من التفكير! ويحدث أحياناً أن الأميين يفهمون أكثر من المتعلمين، وخاصة إذا كان المتعلمون غير جائعين. لقد سافرت كثيراً حول هذه الأماكن ورأيت أموراً عديدة. لا بأس! نحن نستطيع أن نتدبر الأمور على أفضل وجه، ولكن ينبغي لنا من أجل ذلك أن نعمل فكرنا، وأن نكون يقظين حتى لا نتعثر منذ البداية. والسلطات، فيما يبدو، تشتمُّ أن الفلاح تبدل، ولم يعد كما يجب أن يكون. لقد كفَّ عن الابتسامة، ولم يعد لطيفاً تجاههم، فكأنه بصورة عامة يريد التخلص من السلطات. منذ أيام جاؤوا يجمعون الضرائب في سمولياكوفو ـ وهي قرية قريبة من هنا ـ ولكن الفلاحين هبوا ثائرين والأوتاد في أيديهم، فقال لهم رئيس الشرطة دون لفّ أو دوران: «وهكذا فإنكم تثورون ضد القيصر، يا أبناء الكلاب!». فقام واحد من الفلاحين واسمه سبيفاكين، وقال رداً عليه: «فلتذهب إلى الجحيم أنت وقيصرك جميعاً. ما هذا القيصر الذي يختطف منا آخر قميص نكسو به أجسادنا؟». أترين إلى أي حد وصلت الأمور، يا أُماه؟ ولقد قبضوا بالطبع على سبيفاكين ورموا به في السجن، ولكن كلماته بقيت، بل الأولاد أنفسهم يتذكرون ما قال ويرددونه. إن كلماته تعيش وتصرخ!

لم يأكل شيئاً، بل تابع يتكلم في همس سريع، محملقاً بجرأة فيما حوله بعينيه السوداوين الخبيثتين، ناشراً أمام الأم بسخاء كثير ملحوظاته عن حياة الفلاحين، فكأنه يفرغ كيساً من قطع النقود النحاسية الصغيرة.

وقاطعه ستبيان مرتين ليقول:

ـ هلا أكلت شيئاً؟

وفي كلتا المرتين تناول بيوتر كسرة من الخبز وملعقته، ثم استمر يروي قصصه بطلاقة بلبل ينشد إحدى الأغنيات. وعندما انتهى العشاء قفز على قدميه فجأة، ونبر:

ـ حسناً، لقد آن لي أن أعود إلى البيت!

وتوقف أمام الأم وهز رأسه وهو يصافحها:

ـ وداعاً، يا أماه! ربما لن نلتقي مرة أخرى، ولكني أريدك أن تعلمي أني اعتبر كل هذا رائعاً للغاية... رائعاً أن ألقاك وأستمع إليك! أثمة شيء آخر في حقيبتك تلك إلى جانب الصحيفة؟ وشاح من الصوف؟ حسناً، وشاح من الصوف، تذكر ذلك، يا ستيبان. لسوف يعود إليك بحقيبتك في لحظة واحدة فقط. هيا بنا، يا ستيبان إلى اللقاء، وحظاً سعيداً!...

أصبح ضجيج الصراصير مسموعاً بوضوح بعد رحيلهما... وكذلك عصف الريح فوق السطح... وزمجرتها في المدخنة... وقرع المطر الرتيب على زجاج النافذة... وهيأت تاتيانا سريراً للأم من أغطية تناولتها من سطح الموقد وألواح خشبية قائمة بين الموقد والسقف، ونشرتها على الدكة.

قالت الأم:

ـ إنه رجل اجتماعي!

ألقت تاتيانا نظرة إليها من تحت حاجبيها وأجابت:

ـ إنه يثير كثيراً من الضوضاء، ولكنه لا يذهب أبعد من ذلك!

ـ وماذا عن زوجك؟

ـ إنه رجل طيب. لا يشرب الخمرة أبداً. ونحن سعيدان معاً. ولكنه ضعيف الشخصية...

وانتصبت، ثم قالت بعد صمت قصير:

ـ ماذا ينبغي أن يفعل الشعب الآن؟ أفلن يثور؟ بالطبع سيثور. هذا ما يفكر فيه كل إنسان، ولكن كل إنسان يفكرِ فيه بينه وبين نفسه، في حين يجب أن يفكر فيه على رؤوس الاشهاد.. بيد أنه لا بدَّ من شخص يخطو الخطوة الأولى...

وجلست على الدكة، وسألت فجأة:

ـ لقد قلت إن فتيات من عائلات النبلاء يشتركن في هذا العمل. يختلطن بالعمال ويقرأن لهم... أفلا يضقن بذلك ذرعاً؟ أفلا يخفن؟

وأرسلت زفرة عميقة بعدما أصغت بانتباه إلى جواب الأم، ثم أطرقت بعينيها وطأطأة رأسها، وهي تتابع:

ـ لقد وقعت في أحد الكتب على هذا التعبير: حياة عديمة المعنى! أوه، لقد فهمت ما يعني ذلك تماماً، منذ الوهلة الأولى، إذ إني أعرف تلك الحياة حق المعرفة. إن المعاني موجودة هناك، لكنها غير مترابطة... مثل الخراف دون راع، ودون من يجمعها إلى بعضها البعض. تلك هي الحياة العديمة المعنى. بودي أن أهرب منها دون أن ألتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة لو أستطيع... كل شيء مؤلم لا يطاق عندما تدركين شيئاً من الحقيقة!

استطاعت الأم رؤية ذلك الألم في البريق الجاف الذي تشع به عينا المرأة الخضراوان، وفي وجهها الناحل، وفي جرس صوتها. وأرادت أن تلاطفها وتعزيها:

ـ إنك تفهمين، أنت، ما يجب عمله، يا عزيزتي...

فقاطعتها تاتيانا في صوت رقيق:

ـ ولكن ينبغي للمرء أن يعرف كيف يعمله. سريرك جاهز الآن فاستريحي!

ذهبت حتى الموقد حيث وقفت منتصبة القامة، ساكنة الحركات،

غارقة في لجة من التفكير. استلقت الأم في فراشها دون أن تخلع ثيابها، وعظامها تشكو الاعياء فتئن بصوت خافت. أطفأت تاتيانا المصباح، حتى إذا غمرت الظلمة الكوخ راحت تتحدث بنغمة خفيضة ثابتة، فيتردد صوتها كأنه يمحو شيئاً ثقيلاً عن وجه العتمة العريض.

ـ أرى أنك لم تصلي. أنا أيضاً لا أؤمن بالله، ولا بالعجائب.

تقلَّبت الأم في اضطراب على الدكة. كانت هاوية الليل العديمة القرار تشخص إليها من خلال النافذة، بينما تزحف في الديجور أصداء خافتة ضئيلة حتى أذنيها. وتكلمت في خوف، في شبه همس تقريباً:

ـ أما فيما يتعلق بالله... فلا أعلم. ولكني أؤمن بالمسيح، وإني أؤمن بكلماته: أحبب قريبك كنفسك. إني أؤمن بهذا!...

لم تحر تاتيانا جواباً. كانت الأم تميز حدود جسدها الغامضة المرتسمة رمادية اللون على جدار الموقد الأسود وراءها، وهي جامدة لا تأتي نأمة على الاطلاق. وأغلقت الأم عينيها في أسف. ولكنها سمعت المرأة تقول فجأة بصوت بارد:

ـ لن أستطيع أبداً الصفح عن الله أو الإنسان من أجل موت ولديَّ... أبداً!..

فأنهضت بيلاجيا نفسها بقلق، وروحها مدركة ذلك الأذى الفائق الذي يرنّ بمثل هذه الكلمات. قالت في لطف:

ـ أنت ما برحت صبية، ولسوف ترزقين أولاداً آخرين.

لم تردّ المرأة مباشرة، وعندما أجابت كان حديثها همساً:

ـ أبداً. لم أعد أنفع لذلك، والطبيب يقول إني لن أستطيع بعد الآن أن أحمل...

عدت فأرة عبر الغرفة.. ورنَّ صوت مرتفع حطم السكون مثل برق خاطف... وعلا مرة أخرى صدى سقوط المطر على السطح... والريح تعبث بالقش كما تفعل أصابع نحيلة رهيبة. وكانت قطرات الماء

تتساقط على الأرض في وجوم، تحصي دقائق بطيئة في تلك الليلة الخريفية...

وسمعت الأم، وهي تغفو، صدى وقع أقدام ثقيلة في الطريق، اقتربت حتى بلغت عتبة الباب، ثم فُتح هذا بحذر وتردد صوت هامس من خلاله:

ـ أنت نائمة، يا تاتيانا؟

ـ كلا.

ـ أهي نائمة؟

ـ فيما يبدو.

وانبثق نور تأرجح لحظة ثم اختنق في الظلمة. وأطفّ الفلاح من فراش الأم وأصلح من وضع الغطاء الملقى على قدميها. فتأثرت الأم من بساطة عنايته وأغلقت عينيها مرة أخرى وهي تبتسم. وخلع ستيبان ثيابه دون أن يقول شيئاً، ثم زحف إلى الموقد. وخيم الهدوء مطلقاً.

استلقت الأم دون حراك، تنصت في انتباه إلى تموجات السكون الحالمة، وأمام عينيها يتراقص في الظلمة وجه ريبين الدامي...

وجاءها من الموقد صدى وشوشة خافتة:

ـ هل ترى أي قوم يساهمون في هذا العمل؟ شيوخ عملوا طوال حياتهم وشربوا كأس الآلام حتى الثمالة. وقد آن لهم أن يرتاحوا أخيراً. ولكن إليك ما يفعلون بدلاً من ذلك. أنت فتى بعد، وذكي بالإضافة إلى ذلك... أواه، يا ستيبان...

فأجاب صوت الرجل، عميقاً ثرياً.

ـ يجب أن أفكر في ذلك جيداً قبل أن أساهم...

ـ لقد سمعت هذا منك فيما سبق...

وانقطع الصوتان برهة، ثم تابع ستيبان:

ـ إليك كيف يجب أن نبدأ... أولاً نتحدث إلى الفلاحين، كلّ على

انفراد ـ ألكسي ماكوف مثلاً ـ إنه متعلم عاقل، وناقم على السلطات. وسيرجي شورين فلاح ذكي أيضاً. أما كينيازيف فشريف غير هياب. وهذا يكفي من أجل البداية. ولا بدَّ لنا من إلقاء نظرة على القوم الذين تحدثت عنهم. سوف آخذ فاسي وأذهب إلى المدينة، فكأني أريد أن أربح بعض المال الاضافي بتكسير الحطب... علينا أن نكون حذرين. لقد كانت على حق عندما قالت إن المرء يجب أن يدرك قيمته، مثل ذلك الفلاح اليوم، فهو لن يخضع حتى ولا للإلّه ذاته... لقد صمد. ولكن ما رأيك بنيكيتا ذاك؟ لقد خجل من نفسه... يا لها من دهشة!

ـ لقد ضربوا رجلاً أمامكم وتحت أنوفكم، وأنتم لم تفعلوا شيئاً سوى التطلع إلى ذلك بأفواه فاغرة...

ـ مهلاً، مهلاً! يجب أن تفرحي إذ لم نقم نحن أنفسنا بالتنكيل به، ذلك الرجل!

واستمر يهمس فترة طويلة، وهو يخفض صوته أحياناً فلا تستطيع الأم التقاط كلماته، ويتحدث في أحيان أخرى في صوت عميق واضح النبرات. وعندئذ توقفه زوجته عند حده:

ـ صَهْ، سوف توقظها...

استغرقت الأم في نوم ثقيل هبط عليها مثل سحابة شاسعة الأبعاد غمرتها وجرفتها في تيارها.

أيقظتها تاتيانا والفجر الرمادي يطلُّ من النوافذ وهو ما برح أعمى العينين. وكان ناقوس الكنيسة يقرع إيذاناً بانتهاء حراسة الليل. خيم على القرية سكون بارد يذوب فيه في تكاسل صدى أصواته.

ـ لقد أضرمت نار السماور، فتناولي قبلاً قدحاً من الشاي يدفئك، وإلّا جمدت أطرافك من البرد إذا رحلت إثر نهوضك من النوم مباشرة...

وبينما كان ستبيان يمشط لحيته الشعثاء سأل الأم عن عنوانها في

المدينة. خيل إليها أن وجه الفلاح نضج خلال الليل، وأصبح أكمل نوعاً ما.

قال ضاحكاً، وهم يحتسون الشاي:

ـ ما أغرب أن يتمَّ ذلك على هذا الغرار!

فسألت تاتيانا:

ـ ماذا؟

ـ تعارفُنا بمثل هذه البساطة...

فقالت الأم متفكرة لكن في ثقة ثابتة:

ـ ثمة بساطة مدهشة في كل ما يتعلق بعملنا.

ودّعاها في هدوء، دون إسراف في الكلام أو العواطف، وإن أظهرا اهتماماً كلياً براحتها تجلى بألف عناية صغيرة، أو تحذير رقيق، أو توصية عابرة.

عندما اقتعدت كرسي عربة البريد راحت تفكر في كيف سيبدأ ستيبان عمله بحذر ودون ضوضاء مثل خلد أرضي، ولكن دون أن يكلَّ أو يتعب أبداً، بل سيرن صوت زوجته الساخط في أذنيه دون انقطاع، وستلتمع عيناها الخضراوان على الدوام بذلك اللهب الحاد، ولن تتحرر قط من ذلك الحزن المتعطش إلى الانتقام، الذئبي الشرس، حزن أُم على أولادها الذين ماتوا.

وتذكرت ريبين... تذكرت دماءه، ووجهه، وعينيه الملتهبتين، وكلماته فانقبض قلبها بإحساس مرير من العجز تجاه الوحشية. ولم تبرح صورة ميخائيلو منتصبة أمام عينيها طوال طريق العودة إلى المدينة، مرتسمة على قرار ذلك النهار الأسود القاتم: إنها ترى لحيته السوداء، وقامته المتينة في قميصه الممزق، ورأسه أشعث الشعر، ويديه المعقودتين خلف ظهره... تراه رجلاً طافحاً غضباً، مفعماً إيماناً بالحقيقة التي يذود عنها. وفكرت الأم في القرى التي لا يحصى عددها، الرابضة في

تواضع جم على وجه البسيطة، وفي الناس الذين ينتظرون سراً حصول العدالة، وفي آلاف البشر الذين يقضون حياتهم كلها صامتين لا يفكرون في شيء دون أن يأملوا بما هو أفضل.

وتصورت الحياة حقلاً صخرياً صلداً غير محروث، ينتظر في سكون، ولكن في لهفة، الحارث الذي يقلب أحشاءه، وهو يقول فيما يبدو للناس الأحرار الشرفاء:

«إزرعوني ببذور الحقيقة والعقل، وسأردُّ لكم أتعابكم مائة ضعف!».

وإذ تذكرت النجاح الذي تُوِّجَ به عملها الخاص، غمرها خفقان من الفرح كبتته في كثير من الحياء والخجل.

19

فتح نيقولاي الباب عليها، مشعث الشعر، يحمل كتاباً في إحدى يديه، وصاح مبتهجاً:

ـ عدتِ؟ إنك لسريعة حقاً!

راحت عيناه تطرفان باستمرار في لطف وراء نظارتيه، وهو يساعدها على خلع معطفها ويحدج وجهها بابتسامة مغرمة. قال:

ـ لقد فتشوا بيتنا الليلة الفائتة فراودتني الشكوك فيما هو سبب ذلك، وخفت أن يكون أصابك مكروه. ولكنهم لم يعتقلوني. لو كنت اعتُقلتِ لأخذوني أنا الآخر بكل تأكيدا

قادها إلى غرفة المائدة، وهو يتابع حديثه باندفاع:

ـ مما لا ريب فيه أني سأفقد وظيفتي، ولكن ذلك لا يزعجني على الاطلاق. لقد أملّني الجلوس إلى مكتب أحصي عدد الفلاحين الذين لا يملكون جواداً!

كانت الغرفة تبدو وكأن عملاقاً جباراً، أخذه جنون مفاجىء، هزَّ جدران البيت حتى انقلب عاليه سافله، فالصور ملقاة على الأرض، وأوراق الحيطان منزوعة في بعض الأماكن ومتدلية مثل الأشرطة في الهواء، وفي إحدى الزوايا من أرض الغرفة عارضة مقتلعة، وإطار النافذة مخلوع من مكانه، ورماد كثير منتشر بالقرب من الموقد. هزّت الأم رأسها لدى رؤية هذا المشهد المألوف، ونظرت إلى نيقولاي ملياً وهي تحسُّ شيئاً جديداً فيه.

كان السماور البارد يقبع على المنضدة وبجانبه أقداح كثيرة وسخة وقليل من الجبن واللحم المقدّد الذي ما برح جاثماً في الأوراق التي اشتُري فيها. وكان غطاء المائدة مغطى بالكتب وفتات الخبز والرماد المتساقط من السماور. حملقت الأم في هذه الأشياء كلها، وأرسلت ضحكة قصيرة. وكذلك ابتسم نيقولاي مرتبكاً، وقال:

ـ بالطبع أضفتُ حصتي إلى الفوضى الشاملة، ولكن لا بأس في ذلك، يا نيلوفنا. لقد فكرت أنهم سيعودون من جديد، ولذلك لم أرفع شيئاً من كل هذا. حسناً، حدثيني عن رحلتك.

وقع السؤال ثقيل الوطأة على قلبها، وهبّت من جديد صورة ريبين أمام عينيها، فاستاءت من نفسها إذ لم تتحدث عنه فوراً. انحنت نحو نيقولاي وبدأت تقدم له تقريرها، محاولة الاحتفاظ بهدوئها، وعدم حذف شيء من روايتها مطلقاً.

ـ لقد اعتقلوه...

ـ حقاً؟

قال نيقولاي ذلك وقد اختلج وجهه، فأوقفته الأم بإشارة من يدها، وتابعت الحديث فكأنها في حضرة العدالة نفسها تحتجُّ إليها على ذلك التعذيب الذي شاهدت كائناً بشرياً يُسامه. واستلقى نيقولاي إلى الخلف في مقعده يصغي شاحب الوجه، وهو يعضّ شفته طوال الوقت. ورفع

نظارتيه في تماهل، ووضعهما على المائدة وأمرَّ يده على وجهه، فكأنه يمسح عنه شبكة عنكبوت غير منظورة. واحتدت سيماؤه بغتة وقست، وبرز عظما وجنتيه بشكل غريب وراح خيشوماه يرتعشان دون انقطاع. إن الأم لم تره قط على مثل تلك الحال... ولقد ذعرت منه..

ولما انتهت من قصتها، نهض وراح يجوب أرض الغرفة رائحاً غادياً في صمت وقد دفع قبضتيه عميقاً في جيبيه. غمغم من خلال أسنانه المنطبقة:

ـ إنه شخص عظيم كما أعتقد، ولسوف يصعب السجن عليه، فالناس الذين على شاكلته يجدون ذلك قاسياً!

ولم ينِ عن دفع قبضتيه أكثر فأكثر في جيبيه كي يلطّف من حدة هياجه، ولحظت الأم حالته وأدركتها. وراحت عدوى انفعاله تنتقل إليها شيئاً فشيئاً. زرَّ عينيه حتى أصبحتا أشبه بحد الموسى، وقال مرة أخرى في غضب بارد، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً:

ـ تصوري فظاعة ذلك! ثمة قبضة من الأفراد الحمقى تملكهم الجنون في سبيل الاحتفاظ بسيطرتهم على الشعب، فأخذوا يضربون كل الناس، ويخنقونهم ويسحقونهم. إن البربرية تسيطر، والوحشية تصبح قانون الحياة. فكري في ذلك فقط! بعضهم ينكّلون بالناس، ويتصرفون فكأنهم حيوانات مفترسة، إذ يعرفون أنهم وراء القانون يتجاوزون حدوده هم مرضى بعطش دنيء إلى التعذيب... هذا الداء المنفّر الكريه يُغني العبيد الناعمين بحرية إطلاق العنان لأهوائهم العبودية وعاداتهم الحيوانية. وآخرون قد تسمموا برغبة الانتقام، وثمة آخرون أيضاً قد صُمَّت آذانهم وأُعميت عيونهم وتوحشت نفوسهم لكثرة ما نالوا من جلد وضرب. لقد فسد البشر جميعاً!

وتوقف برهة، ومال إلى الصمت مطبق الاسنان.

قال في صوت خافت:

ـ المرء يصبح متوحشاً رغم أنفه في هذه الحياة المتوحشة.

إلا أنه انتصر على انفعاله، حدج وجه الأم الباكية هادئاً كل الهدوء تقريباً، وفي عينيه بريق ثابت:

ـ يجب ألا نضيع الوقت، يا نيلوفنا! هلا تمالكنا أنفسنا، أيتها الرفيقة العزيزة..

ذهب إليها متربعة على شفتيه ابتسامة كئيبة، واستوضح وهو ينحني عليها ويضغط على يدها:

ـ أين حقيبتك؟

ـ في المطبخ.

ـ ثمة جواسيس اتخذوا مراكزهم عند بوابتنا، فلا نستطيع أن نحمل من الدار شيئاً كثيراً من غير أن يلاحظوا ذلك، كما ليس لدينا مكان نخفي البضاعة فيه. وأعتقد أنهم سيأتون هذه الليلة أيضاً ليتحروا البيت مرة أخرى، ولذلك لا بدَّ لنا، مهما يكن من مدعاةٍ للأسف، أن نحرق كل شيء.

ـ أي شيء؟

ـ ما في الحقيبة.

فهمت الأم. فلم تقدر، رغم كآبتها العظيمة، أن تمنع شفتيها عن ابتسامة اعتزاز بما حققت. قالت، وهي تنتعش رويداً رويداً إذ تروي له لقاءها مع شوماكوف:

ـ ليس في الحقيبة شيء على الاطلاق. حتى ولا قصاصة ورق واحدة!

عبس نيقولاي في البدء وهو يصغي في شيء من القلق؛ وسرعان ما علت وجهه، بدل العبوس، سيماء الدهشة والذهول حتى قاطعها أخيراً، وهو يصيح في انفعال:

ـ هذا بديع بكل بساطة! إنك لسعيدة الحظ بصورة تفوق التصور...

أمسك بيدها يضغط عليها، وهو يهتف بصوت رقيق:

ـ إيمانك في الناس يهزّني... وإني أحبّك مثل أمي عينها!

فابتسمت وهي تراقبه في فضول، متعجبة من انقلابه هكذا نشيطاً منفعلاً حتى هذه الدرجة. فرك يديه، وضحك بعذوبة، وقال:

ـ هذا، على العموم، شيء ممتاز! لقد قضيت وقتاً رائعاً في هذه الأيام القليلة الأخيرة... بين العمال طوال الوقت.. أقرأ لهم وأتحدث إليهم وأراقبهم. ولقد امتلأ قلبي بشيء طاهر وسليم بصورة مدهشة للغاية. إنهم لقوم رائعون جداً، يا نيلوفنا! أنا أتحدث عن العمال الشباب... هم أقوياء، مرهفو الشعور، متعطشون إلى فهم كل شيء. وعندما أنظر إليهم، أشعر أن روسيا ستصبح يوماً ما أكثر البلدان ديموقراطية في العالم أجمع!

ورفع يده تأكيداً لذلك، فكأنه يقطع على ذلك عهداً، ثم تابع بعد صمت قصير:

ـ كنت أعيش سجيناً ههنا بين هذه الكتب والأرقام. سنة كاملة قضيتها في مثل هذه الحياة منهمكاً بالكتابة... يا للهول! لقد نَموتُ على العيش بين العمال، وأحسُّ نفسي ضائعاً عندما أكون بعيداً عنهم ـ أكون إذن متوتر النفس، مجهد الروح. أما الآن فلسوف أعيش مثل رجلٍ حرّ طليق مرة أخرى، لسوف أراهم طوال الوقت وسأعمل معهم دون انقطاع. هل تفهمين؟ سوف أكون عند مهد أفكار جديدة، في حضور طاقة فنية خلاقة. إن ذلك لبسيط رائع بصورة مدهشة، وهو دافع عظيم للعمل في الوقت ذاته. إنه يبعث في الإنسان الفتوة والقوة. إنه لأسلوب في الحياة كثير الثراء!

ضحك سعيداً، وهو لا يخلو من بعض الارتباك في الوقت ذاته. وفهمت الأم فرحته وشاركته فيها.

هتف:

ـ وبالاضافة إلى ذلك ـ أنت نفسك امرأة رائعة... بأية حيوية تصفين الناس، وما أكثر ما تجيدين فهمهم وإدراكهم!

جلس بقربها، وقد أدار أول وهلة وجهه المتألق جانباً وراح يمسح شعره، كي يخفي ارتباكه، وسرعان ما استدار إليها يرمقها بأنظاره ويستمع إليها في انتباه وهي تروي قصتها في كلمات بسيطة حية مؤثرة. هتف:

ـ يا له من حظ سعيد! كان ثمة إمكانية كبرى كي تنتهي إلى السجن أيضاً، ولكن بدلاً من ذلك... بلى، إن بعض الظواهر تشير إلى أن الفلاحين بدأوا يستيقظون... وإن ذلك لطبيعي جداً. تلك المرأة ـ أستطيع رؤيتها بوضوح مدهش... يجب أن نعيِّن أناساً خاصين بالعمل في القرية. الناس! ليس لدينا كثرة منهم... فالعمل يحتاج إلى المئات...

قالت الأم في صوت خافت:

ـ آه لو كان بافل طليقاً!... وأندريوشا أيضاً!

فاختلس النظر إليها، وخفض عينيه:

ـ قد يصعب عليك أن تسمعيني أقول ذلك، يا نيلوفنا، ولكني أعرف بافل جيداً، وأنا على يقين من أنه لن يفرّ من السجن أبداً. إنه يريد أن يقدّم إلى المحاكمة، يريد فرصة كي يبلغ شأوه كاملاً، وهو لن يأبى مثل هذه الفرصة أبداً. ولِمَ يرفضها؟ لسوف يهرب من سيبيريا.

تنهدت الأم، وأجابت في صوت خفيض:

ـ حسناً. إنه يعرف أفضل...

قال نيقولاي بعد لحظة، وهو يرمقها من خلال نظارتيه:

ـ هه! أود أن يأتي فلاحك هذا سريعاً وينضم إلينا. لمن الضروري أن نكتب منشوراً عن ريبين إلى الفلاحين، وذلك لن يؤذيه ما دام هو نفسه أعلن عن كل شيء بمثل تلك الجرأة. سوف أكتبه اليوم، وستطبعه لودميلا على الفور... ولكن كيف نوصل إليهم المنشورات؟

ـ سأحملها إليهم...

فهتف نيقولاي سريعاً:

ـ كلا! لأتساءل إن كان فيزوفشيكوف يستطيع ذلك.

ـ هل أحدِّثه بالأمر؟

ـ يمكنك أن تجرّبي، وأن تعلّميه كيف يفعل ذلك.

ـ وما عساي أفعل أنا؟

ـ لا تقلقي، فسوف نجد لك عملاً!

جلس ليكتب، فاسترقت النظر إليه وهي تنظف المائدة، ترى الريشة كيف ترتجف في يده وهو يملأ الورقة بصفوف من الكلمات السود. وكانت عضلات عنقه تختلج أحياناً، فإذا ألقى رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه استطاعت مشاهدة ارتعاش ذقنه. ولقد أثارها ذلك.

قال أخيراً، وهو ينهض:

ـ لقد انتهيت منه! خذي هذه الورقة واخفيها في مكان ما من ثيابك... ولكن... إذا جاء الدرك فسوف يفتشونك أيضاً.

فأجابت في هدوء:

ـ فليأخذهم الشيطان!

جاء الطبيب إيفان دانيلوفيتش ذلك المساء. سأل، وهو يتنقل بخطوات سريعة على طول الغرفة:

ـ ما الذي يقلق السلطات حتى هذه الدرجة على حين بغتة؟ لقد فتشوا سبعة من المنازل في الليلة الماضية. أين مريضي؟

فأجاب نيقولاي:

ـ لقد غادرني البارحة. فاليوم السبت، وهو لا يستطيع التغيب عن حلقته الدراسية...

ـ ذلك جنون... أن يَجلس في حلقة دراسية بقحف مكسور...

ـ لقد بذلت ما في وسعي لإقناعه، فذهبت جهودي أدراج الرياح...

فقالت الأم:

ـ لا ريب أنه يريد التباهي على رفاقه... أنظروا إليَّ... لقد هدرت دمي منذ الآن...

فتطلع الطبيب إليها، وتظاهر بأنه مغتاظ جداً، وقال من خلال أسنانه المطبقة:

ـ بر ـ ر ـ ر... يا لك من مخلوق قاسي القلب!

ـ حسناً، يا إيفان، ليس ما يدعوك للبقاء ههنا. نحن نتوقع ضيوفاً، فهيا اذهب. نيلوفنا، أعطيه الورقة...

وصاح الطبيب:

ـ ورقة أخرى؟

ـ خُذْ، خُذْ هذه الورقة أوصلها إلى المطبعة.

ـ لقد أخذتها، وسأوصلها إلى حيث يلزم. أثمة شيء آخر؟

ـ لا شيء أبداً. إن جاسوساً يقف هناك عند الباب.

ـ لقد رأيته. وثمة آخر عند بابي أيضاً. إلى اللقاء! إلى اللقاء، أيتها المرأة الشريرة. وثقا، أيها الصديقان، أن القتال في المقبرة قد أحسن الإثمار رغم كل شيء. فالمدينة بأسرها تتحدث عنه، والمنشور الذي كتبته عنه رائع جداً، وجاء في وقته تماماً. رأيي على الدوام أن قتالاً حسناً أفضل من سلم رديء...

ـ حسناً، هيا أخرج من هنا...

ـ لا أستطيع القول إنك مضياف، يا صاحبي. يَدَكِ، يا نيلوفنا. ذلك الصبي ارتكب عملاً أحمق في الحقيقة! هل تعرف أين يقطن؟

فأعطاه نيقولاي عنوانه.

ـ سوف أزوره غداً. فهو فتي طيب، أليس كذلك؟

ـ كثيراً...

وتابع الطبيب، وهو في طريقه إلى الباب:

ـ يجب العناية به، فإن له رأساً طيباً فوق كتفيه! إن شباناً مثله سوف يؤلفون الانتيليجينسيا البروليتارية الحقة التي ستأخذ مكاننا عندما نغادر نحن إلى تلك الشطآن حيث لا يوجد، فيما يخال لي، أية تناقضات طبقية...

ـ لقد أمسيت كثير الثرثرة في هذه الأيام الأخيرة، يا إيفان...

ـ ذلك أنني مرتاح. وهكذا فأنت تنتظر الذهاب إلى السجن؟ أتمنى لك راحة جيدة!

ـ شكراً، فأنا لا أشعر بالاعياء.

أصغت الأم إلى حديثهما، وكانت مبتهجة باهتمامهما بذلك العامل الشاب.

عندما غاب الطبيب جلست الأم ونيقولاي يتناولان الشاي ويتحدثان في هدوء بانتظار زوّارهما في الليل. حدثها نيقولاي عن رفاقه في المنفى، وعن أولئك الذين فروا منه وهم يتابعون العمل الآن تحت أسماء مستعارة. وكانت الجدران العارية تُرجِّع كلماته الهادئة، فكأن أقاصيصه عن هؤلاء الأبطال المتواضعين المخلصين الذين يبذلون قصارى جهودهم لبناء عالم جديد تتجاوز التصديق فلا يُقبل أو يعترف بحقيقتها. وعانق الأم ظلٌّ رقيق شملها في عطف، يدفىء قلبها تجاه هؤلاء الناس المجهولين، المنصهرين في مخيلتها في فرد واحد عظيم غير هيّاب يتحرك في تمهل على الأرض، ولكنه يتحرك في ثبات ويقين، يكنس عنها بيديه عفن الأكاذيب القديمة قِدَم التاريخ كي يبين للشعب حقيقة الحياة الواضحة البسيطة. وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتولدة أبداً دون انقطاع تدعو الجميع دون تمييز، وتَعِدُ كلاً منهم بالتحرر من الجشع والحقد والكذب، هؤلاء الأبالسة الثلاثة المرهوبين الذين يستعبدون العالم أجمع بقوتهم الدنيئة ويزرعون فيه المخاوف... كانت تلك الصورة تثير فيها شعوراً أشبه بذلك الشعور الذي كانت تجثو به أمام

الأيقونة كي تختتم في صلاة الشكر والامتنان نهاراً خالته أسهل من سواه. أما الآن فقد نسيت تلك الأيام، سوى أن الإحساس الذي كانت تثيره اتسع وانتشر، وأصبح أكثر لمعاناً وفرحة، يستقر أعمق فأعمق في روحها، ويحترق بلهب أشدّ قوة وروعة.

وهتف نيقولاي بغتة وهو يقاطع حديثه:

ـ هلا يأتي الدرك؟

فأجابت الأم في زعل بعد برهة صمت، وهي ترشقه بنظرة سريعة:

ـ فليأخذهم الشيطان!

ـ صدقت ولكن حقَّ لك الآن نيْلُ بعض الراحة، يا نيلوفنا. أنت متعبة فوق كل حدود إن صدق حدْسي، وليس من ينكر أن لك بنية متينة بصورة تذهل الألباب. كل هذه الأخطار والانفعالات، وأنت لا تأبهين لها... ولكن شعرك يشيب بسرعة كبيرة. حسناً، أسرعي واستريحي!

20

استيقظت الأم على قرع شديد ينهال على باب المطبخ. كان شخص يقرع الباب باستمرار في صبر وعناد، وكانت الظلمة والهدوء ما برحا يسودان كل شيء، فإذا ذلك القرع العنيد يملأ العتمة الغبشاء بقلق شديد. وطرحت الأم سريعاً على كتفيها أول شيء نالته يدها، ودلفت إلى المطبخ ووقفت عند الباب. سألت:

ـ من هناك؟

فأجاب صوت غير مألوف:

ـ أنا!

مَنْ؟

فتوسل الطارق بصوت خفيض:

ـ افتحي الباب!

فرفعت الأم المزلاج، ودفعت الباب بقدمها، فدخل أغناطي من خلاله وصاح في مرح:

ـ وهكذا فأنا لم أخطىء!

كان ملطخاً بالوحل حتى خاصرتيه، ووجهه رمادي اللون، وعيناه غائصتين في محجريهما، وشعره الجعد منبوشاً ينطلق من تحت قبعته في سائر الجهات.

همس، وهو يغلق الباب:

ـ لقد وقعنا في مصيبة!

ـ أعلم هذا...

فدهش الفتى لسماعه ذلك. سأل، وهو يطرف بعينيه:

ـ كيف عرفته؟

فأوضحت له كل شيء باختصار وسرعة:

ـ هل أخذوا أيضاً ذينك الاثنين الآخرين... رفيقيك؟

ـ لقد كانا غائبين، فهما مدعوان لمركز الخدمة العسكرية. وقد ذهبا لتسجيل اسميهما. لقد اعتُقل خمسة، بمن فيهم العم ميخائيلو...

واستنشق الهواء في ضجيج، وأضاف وهو يطلق ضحكة قصيرة:

ـ وبقيت أنا، ولا ريب أنهم يفتشون الآن عني.

ـ وكيف تدبرت أمر الهرب؟

فُتح باب الغرفة المجاورة قليلاً.

هتف أغناطي، وهو يجلس على دكة ويتطلع حواليه:

ـ أنا؟ دقيقة أو دقيقتان قبل مجيئهم فقط؛ فقد ركض حارس الغاب وقرع نافذتي صائحاً: إنتبهوا، أيها الأخوان، فهم يلاحقونكم...

وضحك بصوت خافت، وهو يمسح وجهه بمعطفه:

ـ حسناً. ليستحيل أن ينذهل العم ميخائيلو في حال من الأحوال، قال: «يا أغناطي، إنطلق إلى المدينة بأقصى سرعة. أتذكر تلك المرأة العجوز؟» وتابع، وهو يكتب ورقة صغيرة أثناء حديثه: «إليك، خذها إليها!..». وهكذا زحفت في الحوش، وسمعتهم بكل وضوح يقتربون. كانوا كثرة، يزحفون في كل الجهات، أولئك الشياطين! ويحيطون بمكان عملنا من كل حدب وصوب. انبطحت في الحوش فمروا بجانبي دون أن ينتبهوا اليّ، وعندئذ نهضت وطفقت أمشي وأمشي ما في وسعي. ولقد مضى عليّ في الطريق ليلتان ويوم كامل دون أن أقف أو أستريح.

كان يبدو أنه مسرور بنفسه، فتضيء ابتسامة عينيه العسليتين كل وجهه، بينما ترتجف شفتاه العارمتان الحمراوان دون انقطاع.

قالت الأم متعجلة، وهي تتناول السماور:

ـ سأهيىء لك بعض الشاي في لحظة واحدة!

ـ إليك، خذي الرسالة...

رفع قدمه بصعوبة جمة، وهو يدمدم ويكشر، ووضعها على الدكة. وفي تلك اللحظة ظهر نيقولاي في فرجة الباب. قال، وهو يزوّي ما بين عينيه:

ـ عِمْ مساء، أيها الرفيق! اسمح لي أن أساعدك.

وانحنى فوق رجل أغناطي، وشرع يرفع بسرعة قماطاتها الوسخة التي تعيض عن الجوارب. صاح الفتى في همس، وهو يبعد رجله ويتطلع دهشاً إلى الأم، ويطرف بعينيه:

ـ لا!

فقالت دون أن تلاحظ نظرته:

ـ يجب أن ندلك له قدميه بالفودكا...

فأجاب نيقولاي:

ـ بالطبع!

وشخر أغناطي مرتبكاً حائراً.

التقط نيقولاي الرسالة، وسوّى ما أصاب الورقة الرمادية من غضون، ثم رفعها إلى قرب عينيه وهو يقرأها. «لا تهملوا قضيتنا، يا أماه. قولي لتلك السيدة الطويلة ألا تنسى أن تكتب عن قضيتنا أكثر من قبل. أرجو ذلك. إلى اللقاء. ريبين». وأسبل نيقولاي ببطء يده الممسكة بالرسالة. وغمغم:

ـ ما أروع هذا!

قعد أغناطي يراقبهما، وهو يحرك في حذر وعناية أصابع رجله العارية الوسخة. وجربت الأم إخفاء الدموع في وجهها... وهي تحمل وعاء من الماء وتجثو أمامه وتمد يدها إلى قدمه... ولكنه صاح فزعاً، وهو يدفع بقدمه تحت الدكة:

ـ ماذا أنت فاعلة؟

ـ أعطني قدمك، وأسرع في ذلك...

وقال نيقولاي:

ـ سأجلب بعض الكحول.

ولكن الفتى دفع قدمه أكثر فأكثر تحت الدكة، وتمتم:

ـ ماذا تحسبان؟ أأنا في مستشفى؟

طفقت الأم ترفع الخروق عن قدمه الأخرى. فشخر أغناطي بصوت مرتفع، وهو يلوي عنقه مضطرباً ويتطلع إلى الأم من فوق إلى أسفل، وارتخت شفتاه بشكل مضحك. قالت هذه بصوت مرتجف:

ـ لقد ضربوا ميخائيلو إيفانوفيتش....

فهتف الفتى في هدوء وذعر:

ـ حقاً؟

ـ أجل! لقد كان في حالة سيئة عندما جاؤوا به إلى نيقولسكويه وهناك ضربه رقيب الشرطة ورئيسها... على وجهه. وانهالا عليه رفساً... حتى غمر الدم وجهه كله!

فقال الفتى وقطب ما بين الحاجبين، وكتفاه يرتعشان:

ـ إنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك! أنا أخاف منهم كما أخاف من ألف شيطان. هل ضربه الفلاحون أيضاً؟

ـ لطمه واحد منهم عندما أمره رئيس الشرطة بذلك. ولكن موقف الباقين كان رائعاً، لا بل وقفوا إلى جانبه أيضاً، وصاحوا بهم أن لا حقّ لهم في ضربه...

ـ لقد بدأ الفلاحون يدركون من هم الذين يدافعون عنهم، ولماذا يدافعون.

ـ ثمة أناس عاقلون بين الفلاحين أيضاً...

ـ ثمة أناس عاقلون في كل مكان. هي الحاجة تجعلهم على ما هم عليه. لكن الصعوبة هي في العثور عليهم.

وحمل نيقولاي زجاجة من الكحول، ودسّ قليلاً من الفحم في السماور، ثم خرج دون أن يقول شيئاً. وكان أغناطي يراقبه في فضول. سأل الأم في همس عندما أصبح نيقولاي خارج الغرفة:

ـ من هو السيد؟... طبيب؟

ـ ليس سادة بين هؤلاء الذين يشتركون في هذا العمل. كلنا رفاق...

فقال أغناطي، وابتسامة تشير إلى الارتباك والارتياب تتراقص على شفتيه:

ـ يبدو لي ذلك مضحكاً!

ـ ما الذي يبدو مضحكاً؟

ـ الأمور بصورة عامة. فمن جهة يُدمون لك أنفك، ومن جهة أخرى يغسلون لك قدميك؛ وفي الوسط، ماذا يوجد؟

فُتح الباب، وقال نيقولاي من خلاله:

ـ في الوسط يوجد أولئك الناس الذين يلحسون أيدي من يدمي أنوفكم، ويمتصون دماء من تدمى أنوفهم. ذلك ما في الوسط!

أسامَ أغناطي نظره اليه في احترام، ثم قال بعد صمت قصير:

ـ ما أقرب ذلك إلى الحقيقة!

ونهض، وخطا بضع خطوات ثابتة، ثم قال:

ـ لكأنهما قدمان جديدتان. شكراً لكم...

زرفوا إلى غرفة الطعام كي يحتسوا الشاي، فراح أغناطي يحدثهما عن حياته وهو يتكلم في صوت عميق:

ـ لقد اعتدت أن أوزع صحيفتنا. إني مشّاء عظيم.

فسأل نيقولاي:

ـ أيقرأها كثيرون في الريف؟

ـ جميع المتعلمين، وحتى الأغنياء منهم. ولا يأخذها الأغنياء منا نحن طبعاً... إنهم يدركون تماماً أن الفلاحين سوف يغسلون الأرض بدمائهم ويطهرونها من الملاكين. فإذا فعلوا ذلك مرة اقتسموها فيما بينهم، فلا يبقى بعد ذلك ملاكون ورجال بالأجرة... ذلك واضح جداً، وإلا فلمَ نبدأ القتال؟

وبدا كأنه غضب، وراح يرمق نيقولاي مستفهماً مرتاباً، فابتسم هذا ولم يقل شيئاً.

ـ واذا رحنا جميعنا اليوم نقاتل وننتصر كي يكون في الغد أغنياء وفقراء مرة أخرى... فأي معنى في ذلك؟ لا، شكراً! إننا لن نُخدع! فالثراء مثل الرمال الجافة... لا تقبع في مكانها هادئة قط، بل تعود فتتبعثر في كل حدب وصوب. أوه، كلا... نحن لن نقبل بهذا أبداً.

فمزحت الأم، وقالت:

ـ حسناً، لا حاجة لك لأن تغضب بسبب ذلك.

وقال نيقولاي متفكراً:

ـ ما يشغل بالي هو كيف يمكننا أن نسرع ونوصل ذلك المنشور عن اعتقال ريبين إلى قريتك!

فتيقظ أغناطي، وأصاخ بأذنيه، سأل:

ـ أهناك مثل هذا المنشور؟

ـ نعم.

فاقترح، وهو يفرك يديه:

ـ أعطني إياه، وسأحمله أنا.

ضحكت الأم بصوت خافت دون أن تنظر إليه. قالت:

ـ ولكنك متعب، وقد قلت إنك خائف.

فسرّح أغناطي شعره الجعد إلى الوراء براحته العريضة، قائلاً بلهجة جدية:

ـ الخوف شيء والعمل شيء آخر. لِمَ تضحكين؟ لغريبة حقاً، أنت أيضاً!

فهتفت الأم بالرغم منها، مستسلمة للسعادة التي أثارها فيها:

ـ آه، يا طفلي الصغير!

فابتسم خجلاً، وقال:

ـ بخ، أنا طفل؟

فقال نيقولاي، وهو يرمقه بنظرة عطوف من عينيه المضيّقتين:

ـ إنك لن تعود إلى هناك...

فسأل أغناطي، وقد ساوره القلق:

ـ ولم لا؟ إلى أين أذهب إذن؟

ـ سيأخذ المنشور شخص آخر، أما أنت فما عليك إلا إعطاءه التعليمات المفصّلة عما يجب أن يفعل وكيف... أتوافق؟

فقال أغناطي، أخيراً، بلهجة من خاب أمله:

ـ حسناً!

ـ وسوف نؤمن لك أوراقاً جديدة مضمونة، ونسند اليك عمل غفير في الغابات.

رفع أغناطي رأسه بسرعة وسأل في قلق:

ـ وماذا أفعل اذا جاء الفلاحون يقطعون حطباً أو يأخذون أي شيء آخر؟... هل أمسكهم وأقيّدهم؟ كلا! هذا العمل لا يلائمني...

ضحكت الأم، وضحك نيقولاي كذلك، الأمر الذي آلم الفتى وضايقه مرة أخرى، فقال له نيقولاي معزياً:

ـ لا تقلق، فلن تحتاج إلى تقييد أي فلاح كان. أعطيك عهداً بذلك.

فقال أغناطي، وابتسامة سعيدة تشرق على شفتيه:

ـ حسناً. ولكني أفضل الحصول على عمل في مصنع. يقال إن فتيان المصانع أذكى من سواهم.

فنهضت الأم عن المائدة، واقتربت من النافذة. فكّرت:

ـ يا للحياة من شيء غريب! يضحك المرء خمس مرات في اليوم ويبكي مثلها. حسناً، هل انتهيت، يا أغناطي؟ هيا، وارقدْ قليلاً...

ـ ليس بي حاجة إلى النوم...

ـ هيا، هيا...

ـ أنت دقيقة وصارمة جداً! حسناً، إني ذاهب... شكراً من أجل الشاي... ومن أجل لطفكما...

وبينما هو يتسلق سرير الأم، حكَّ رأسه وتمتم:

ـ كل هذه الأشياء ستفوح هنا برائحة القطران... لا معنى في كل هذا... فلست ناعساً... لشدَّ ما كان سريعاً في كلامه عن أولئك الذين في الوسط... يا للشياطين...

شخر فجأة بضوضاء، واستغرق في النوم، فمه نصف مفتوح، وحاجباه مرتفعان.

21

كان يجلس، في ذلك المساء عينه، على الكرسي قبالة فيزوفشيكوف في غرفة صغيرة في أحد الأقبية، يقول له بصوت خافت مقطباً حاجبيه:

ـ أربع مرات على النافذة الوسطى....

فسأل نيقولاي في قلق:

ـ أربع؟

ـ في البدء ثلاث، هكذا...

وقرع بأصبعه المرات الثلاث على المائدة.

ـ واحدة، اثنتان، ثلاث. انتظر ثانية، ثم مرة رابعة.

ـ فهمت.

ـ وسيفتح لك الباب فلاح أحمر الرأس، ويسأل: «أجئت من أجل القابلة؟» فتقول: «نعم، من قِبَلِ زوج صاحب المصنع». هذا كل شيء، ولسوف يفهم.

جلسا متقاربي الرأس، كلاهما فتى قوي البنية مفتول العضلات، يتكلمان بأصوات خافتة بينما الأم تراقبهما وذراعاها متصالبتان على صدرها، وهي واقفة قرب المائدة، مبتسمة بينها وبين نفسها من كل تلك الضربات وكلمات السر. هجست في خاطرها:

«لمّا يزالا ولدين...».

كان مصباح معلق على الحائط ينير سطولاً عتيقة وقطعاً من حديد السقوف مبعثرة هنا وهناك على أرض الغرفة الممتلىء جوّها برائحة العفونة ودهان الزيت والصدأ.

كان أغناطي يرتدي معطفاً ثقيلاً مصنوعاً من نسيج وبري يروقه كثيراً فيما يظهر. بينما الأم تنظر اليه يمسح على كمه في حنان، ويمد في جهد عنقه الضخمة كي يتفرج على نفسه. فكّرت، وحنان دافىء يغمر قلبها:

«يا ولديّ العزيزين...».

قال أغناطي، وهو ينهض:

ـ حسناً، لا تنسَ أن تذهب إلى موراتوف أولاً، وتسأل عن الجد...

فأجاب فيزوفشيكوف:

ـ لن أنسى!

ولكن أغناطي لم يقنع بذلك كما يبدو، فأعاد كل الضربات والاشارات وكلمات السر قبل أن يمدَّ يده أخيراً، ويقول:

ـ بلِّغهم أشواقي، ولسوف ترى أنهم قوم طيبون...

ورشق نفسه بنظرة راضية، ومسح على ذيل معطفه، وسأل الأم:

ـ هل آن لي الذهاب؟

ـ أتستطيع أن تجد الطريق؟

ـ سأجدها... إلى اللقاء، أيها الرفاق!

خرج منتصب القامة، عريض المنكبين، مرفوع الصدر، وقبعته الجديدة مائلة فوق إحدى أذنيه، ويداه مدفوعتان عميقاً في جيبيه، وخصل من شعر جعد أشقر تموج على صدغيه.

قال فيزوفشيكوف، مقترباً من الأم في تماهل:

ـ وهكذا فقد مُنِحتُ الآن عملاً. لقد بدأت أضجر وأتساءل لِمَ هربت من السجن، فأنا لا أفعل هنا شيئاً إلا الاختباء ليلاً ونهاراً، بينما كنت أستطيع هناك أن أتعلم شيئاً. لقد كانت طريقة بافل التي تجعلنا نستفيد من عقولنا رائعة حقاً. ماذا تمّ في شأن فرارهم، يا نيلوفنا؟

فقالت، وهي ترسل زفرة بالرغم منها:

ـ لا أدري!

فوضع نيقولاي يداً ثقيلة على كتفها واقترب بوجهه منها، وقال:

ـ أقنعيهم أنت، فسوف يصغون اليك. ذلك بسيط للغاية. أنظري بنفسك، ههنا يقوم جدار السجن، والى جانبه عمود أحد مصابيح

الشارع، يقابله تماماً ميدان خال، والى اليسار المقبرة، والى اليمين شوارع وبنايات... ولسوف يأتي أحد بشعلة المصابيح لينظف ذلك الفانوس في وضح النهار، فيلقي سلماً على الحائط ويتسلق عليه ويثبّت طرف سلم من الحبال بإحدى القرميدات في قمة الجدار، ثم يلقي به إلى فناء السجن و... هذا كل شيء! وهم يعرفون، داخل السجن، متى سيحدث ذلك، ويقنعون المجرمين العاديين بأن يثيروا بعض الاضطراب، أو يثيرونه هم أنفسهم حتى يعطوا الحرس شيئاً يفكرون فيه، في حين يتسلق الفارون السلم ويولون الإدبار... واحد، اثنان، وينتهي كل شيء... ما أبسط ذلك!

كان يلوّح بيديه أمام وجه الأم وهو يشرح خطته البادية كثيرة الوضوح والبساطة والفطنة. لقد عرفت نيقولاي ثقيلاً متجهماً دائماً، ولقد كان فيما سبق ينظر إلى سائر الأشياء في ارتياب وحقد خبيث. أما الآن، فالمرء يخاله ولد من جديد. فيشع منه نور دافىء ثابت اكتسب قلب الأم وأثار مشاعرها...

ـ فكري أنهم سوف يفعلون ذلك في وضح النهار، وفي وضح النهار تماماً. لن يرتاب إنسان في أنَّ سجيناً يجرّب الهرب في وضح النهار والسجن كله مفتوح العينين يقظٌ، حذرا

فاستجلت الأم، وأرسلت زفرة عميقة:

ـ أفلا يمكن أن يطلقوا الرصاص؟

ـ من؟ ليس ثمة جنود، والحرس يستعملون مسدساتهم ليدقوا المسامير بها...

ـ ذلك يلوح بسيطاً جداً...

ـ ولكن ستتحققين من ذلك بنفسك. اقنعيهم به. ولقد أعددت أنا كل شيء: السلم الحبلي، والكلاليب. وصاحب بيتي هذا سيكون موقد المصباح...

وسعل شخص ما في الجهة الثانية من الباب، وأثار بعض الضجيج بين قطع من الحديد.

ـ هذا هو!

برز في فرجة الباب مغسل من القصدير... وغمغم صوت أجش في الوقت نفسه:

ـ اعْبُر من هنا، أيها الشيطان...

وقعت أبصارهما إلى الأعلى من المغسل على وجه رقيق السيماء ذي عينين جاحظتين، وشعر وشارب أشيبين.

ساعده نيقولاي في نقل حمله، فزرف إلى الغرفة رجل طويل القامة، محدودب الظهر، سعل وهو ينفخ وجنتيه الحليقتين، ويبصق على الأرض، ثم حياهما بصوت أجش:

ـ السلام عليكما...

فهتف نيقولاي:

ـ إليك، فاستوضحيه.

ـ تستوضحني ماذا؟

ـ عن موضوع الفرار...

فقال السمكري، وهو يمسح شاربيه بأصابع سود ملوثة:

ـ آه! آه!

ـ إنها لا تؤمن بسهولة ذلك، يا ياكوف فاسيليفيتش.

ـ لا تؤمن بذلك؟ إذن فأنا أعتقد أنها لا تريده. أما أنت وأنا فنريده، ولذلك نؤمن به!

قال السمكري ذلك في هدوء، ثم تقوّس فجأة، وانطوى على نفسه وهو يسعل بشدة حتى اذا انتهت نوبة السعال وقف فترة طويلة في وسط الغرفة، يفرك صدره ويتمعن في الأم بعينيه الجاحظتين ويشخر. قالت الأم:

ـ سيقرر بافل ورفاقه هذه الأمور.

فأطرق نيقولاي برأسه مفكراً، فيما سأل السمكري وهو يقتعد كرسياً:

ـ من هذا، بافل؟

ـ ولدي.

ـ وكنيته؟

ـ فلاسوف.

فأشار برأسه، وتناول كيس تبغه، وطفق يحشو غليونه. قال باقتضاب:

ـ سمعت عنه. وابن أخي يعرفه. ابن أخي في السجن أيضاً ـ اسمه يفشينكو. أسمعت عنه؟ أما اسمي فجوبون. عن قريب سيلقون بكل الفتيان وراء القضبان، وبذلك يخلو الجو لنا، نحن الشيوخ! لقد قال لي رئيس الدرك إنه سيرسل ابن أخي إلى سيبيريا، وإنه لقادر على ذلك، هذا الكلب!

واستدار إلى نيقولاي، وشرع يدخن غليونه وهو يبصق على الأرض من وقت لآخر. قال:

ـ وهكذا، فهي لا تريد هذا؟ ذلك من شأنها. عندما يكون المرء طليقاً فهو حرّ أن يمشي إن كان متعباً من القعود، أو يقعد أن كان متعباً من المسير. إن سرقوك فأغلق عينيك... وإن ضربوك فلا تصرخ... وإن قتلوك فإنك تضطجع هناك... كل إنسان يعرف هذا. ولكني سأنتزع سافكا ابن أخي من هناك، سأنتزعه بكل تأكيد.

ذهلت الأم لجمله القصيرة المتلاحقة في شبه عواء. ولكن كلماته الأخيرة أثارت الحسد في قلبها.

كانت تفكر في نيقولاي وهي تسير على طول الشارع، تتلقى الريح الباردة ورذاذ المطر في وجهها:

«الشدّ ما تبدل! أصبح رجلاً حقيقياً!».

وتذكرت جوبون، فومض في خاطرها في شبه صلاة تقريباً:

«مما لا شك فيه أني لست الوحيدة التي عادت إلى الحياة، وبدأتها من جديد!..».

وفي اللحظة نفسها، طفح قلبها بالأفكار عن ولدها:

«لو أنه يقبل!».

22

بينما هي تودع بافل في الأحد التالي في مكتب السجن، أحست به يدفع في راحتها كرة صغيرة من الورق، فانتفضت كأن الكرة أحرقت يدها، ونظرت إلى وجه فتاها في تساؤل صامت، ولكنها لم تجد في محياه أي جواب عن تساؤلها. كانت عيناه الزرقاوان تفتران عن ابتسامتهما المألوفة، الهادئة والحازمة في وقت واحد. قالت، وهي تتنهد:

ـ إلى اللقاء!

مدّ فتاها يده مرة أخرى، واكتسى وجهه، لحظة عابرة، بظل من حنان:

ـ إلى اللقاء، يا أماه!

فانتظرت دون أن تفلت يده. قال:

ـ لا تقلقي، ولا تغضبي أيضاً!

كانت هذه الكلمات، وذلك الخط العنيد المرتسم على جبهته، الجواب المنتظر.

غمغمت، وهي تطرق برأسها:

ـ يا إلّهي! ما هذا الذي تقول؟...

أسرعت في الخروج دون أن تنظر إليه مجدَّداً حتى لا يرى الدموع في عينيها، والارتعاش في شفتيها. وبدا لها طوال الطريق إلى الدار أن اليد التي تحمل الورقة تؤلمها، وأن ذراعها برمتها تتدلى ثقيلة فكأنها تلقت لكمة على كتفها. ولم تكد تبلغ الدار حتى أعطت الرسالة إلى نيقولاي ووقفت تنتظره وهو يسوي غضون الورقة، وفي قلبها خفقان من رجاء. ولم يبرر نيقولاي ذلك الخفقان، قال:

ـ بالطبع! إليك ما يكتب: «لن نحاول الفرار، أيها الرفاق. إننا لا نستطيع، ليس أحد منا يستطيع. فنحن سنخسر احترامنا لأنفسنا إن فعلنا ذلك. ولكن جربوا أن تساعدوا ذلك الفلاح الذي اعتُقل حديثاً. إنه في حاجة إلى عنايتكم، وهو جدير بكل ما تستطيعون من أجله. إنه يتعذب كثيراً ههنا، وفي كل يوم يتقاتل مع السلطات. وقد قضى حتى الآن أربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة الانفرادية، ولسوف يعذبونه حتى الموت. إننا جميعاً نشفع له، عزُّوا والدتي ولاطفوها، وأوضحوا لها كل شيء، وهي ستفهم».

رفعت الأم رأسها، وقالت في صوت خفيض يتخلله الارتعاش:

ـ ماذا هناك للايضاح؟ إني أفهم!

واستدار نيقولاي جانباً بسرعة، تناول المنديل، وتمخط بشدة وضجيج.

غمغم:

ـ يبدو أني أصبت بزكام...

رفع يديه يصلح من وضع نظارتيه، ثم قال وهو يتمشى جيئة وذهاباً في الغرفة:

ـ الحقيقة أنه ليس لدينا على أية حال متسع من الوقت...

فقالت الأم عابسة، بينما الكآبة تُثقل على قلبها وتغمره مثل ضباب كثيف:

ـ لا بأس في ذلك، فليقدموه إلى المحكمة!

ـ إليك، لقد تلقيت قبل هنيهة رسالة من أحد الرفاق في بطرسبرج...

ـ وعلى أية حال، فهو يستطيع الفرار من سيبيريا، أفليس كذلك؟

ـ طبعاً! ذلك يقول إن المحاكمة ستجري عما قريب، وإن الحكم قد اتفق عليه منذ الآن... النفي لهم جميعاً. هل تفهمين؟ هؤلاء الأشقياء التافهون يجعلون من قضائهم أضحوكة دنيئة. تصوري ذلك... الادانة قُرِّرت في بطرسبرج حتى قبل انعقاد المحكمة.

فقالت الأم في ثبات:

ـ لا تبالِ بهذا، يا نيقولاي إيفانوفيتش، فلا حاجة بك إلى إيضاح الأمور لي أو تعزيتي. بافل لا يرتكب الخطل قط، ولن يرضى بأن يتألم هو وجميع رفاقه من أجل لا شيء. وهو يحبني... أجل! وأنت تستطيع أن ترى من تلقاء نفسك كيف يفكر فيّ على الدوام. إنه يقول: أوضحوا لها الأمور، عزّوها. أليس كذلك؟..

وراح قلبها يخفق بعنف، فيدور رأسها لشدة انفعالها. هتف نيقولاي بصوت مرتفع غير معهود منه:

ـ ابنك شخص رائع، وأنا أكنّ له عظيم الاجلال!

فاقترحت الأم:

ـ فلنبحث عن طريقة لمساعدة ريبين.

كانت تودّ أن تصنع شيئاً في التوّ واللحظة... أن تذهب إلى مكان ما... أن تمشي حتى تسقط إعياء...

قال نيقولاي، وهو يدبُّ على أرض الغرفة:

ـ حسناً، إننا نحتاج إلى ساشنكا...

ـ لسوف تأتي، فهي تأتي دائماً في الأيام التي أزور بافل فيها...

جلس نيقولاي على الأريكة إلى جانب الأم، وأطرق برأسه مفكراً وهو يعضُّ شفته ويعبث بلحيته:

ـ لمما يؤسف له أن أختي بعيدة...

ـ ما أروع أن نحقق ذلك وبافل لما يبرح هناك... ذلك سيسعده كثيراً!

سكتا فترة من الوقت قالت الأم بعدها فجأة في همس وتماهل:

ـ لا أفهم لماذا لا يريد ذلك...

فهبَّ نيقولاي ناهضاً، ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة بالذات، فتبادلا نظرات سريعة. قال نيقولاي في صوت خافت:

ـ هذه ساشا دون ريب.

فسألت الأم بمثل خفوت صوته:

ـ كيف سنقول لها ذلك؟

ـ آه... بلى...

ـ إني آسف كثيراً من أجلها...

تردد القرع من جديد، لكن أقل حزماً هذه المرة، فكأن الشخص الواقف إلى الباب يتردد في الدخول. واندفع نيقولاي والأم كلاهما نحو الباب معاً، ولكن نيقولاي وقف جانباً عندما بلغ باب المطهى، وقال:

ـ الأفضل أن تذهبي وحدك...

ولم تكد الأم تفتح الباب حتى سألتها الفتاة في شجاعة وثبات:

ـ هل رفض؟

ـ نعم.

ـ كنت أعرف ذلك.

قالت ساشا هذا بكل بساطة، ولكن وجهها شحب حتى أضحى أبيض اللون. فكّت أزرار معطفها ثم زرَّرت بعضاً منها، وحاولت عبثاً أن تخلع المعطف عن كتفيها... قالت:

ـ رياح ومطر... يا للطقس الفظيع! أهو في صحة جيدة؟

ـ نعم.

فقالت في صوت خفيض، وهي تتفحص يدها:

ـ مرِحٌ وفي صحة جيدة.

فردّت الأم، دون أن تنظر إليها:

ـ لقد كتب يقول: علينا أن نجرب إنقاذ ريبين.

فأجابت الفتاة في تماهل:

ـ حقاً؟ يتراءى لي أن علينا الاستفادة من مشروعنا. وهتف نيقولاي، وهو يبدو بغتة في فرجة الباب:

ـ وهذا ما أفكر فيه أنا أيضاً. مرحباً، يا ساشا! فمدت الفتاة يدها اليه. سألت:

ـ ولِمَ ننتظر؟ الجميع يعترفون بأنه مشروع حسن؟

ـ ولكن مَنْ يطبقه؟ الجميع مشغولون...

فقالت ساشا بسرعة، وهي تنهض واقفة:

ـ سأفعل ذلك، فلديّ الوقت الملائم له.

ـ حسناً، عليك أن تسألي الآخرين إذن...

ـ سوف أسألهم، سأذهب اليهم حالاً.

وشرعت تبكّل أزرار معطفها مرة أخرى بحركات ثابتة من أصابعها النحيلة.

قالت الأم:

ـ يجب أن تنالي بعض الراحة قبلاً!

فأجابت الفتاة بابتسامة هادئة وبصوت ألطف مما قبل:

ـ لست متعبة. لا تقلقي من أجلي...

صافحتهما في سكون وخرجت، صارمة الوجه باردة التقاطيع كعادتها.

ذهب نيقولاي والأم إلى النافذة يراقبانها وهي تعبر الفناء وتختفي وراء البوابة، ثم أرسل نيقولاي من بين شفتيه صفيراً رقيقاً، وجلس إلى المائدة وشرع في الكتابة. قالت الأم بصوت خافت متفكر:

ـ لسوف يخفّف هذا العمل عنها كثيراً!

ـ بالطبع!

قال نيقولاي ذلك، واستدار إلى الأم وعلى وجهه اللطيف ابتسامة حلوة.

تابع:

ـ يبدو أن تلك الكأس وفّرت عنك، يا نيلوفنا، وأخال أنك لم تعرفي قط معنى اللهفة والشوق إلى رجل تحبينه.

فأجابت الأم، ملوّحة بيدها:

ـ إيه! العاطفة الوحيدة التي أحسست بها هي الخوف من أن يزوّجوني هذا الرجل أو ذاك.

ـ ألم تغرمي بأحد قط؟

فكّرت برهة ثم أجابت:

ـ لست أذكر يا عزيزي. واعتقد أني أغرمت، لا بدّ أني أغرمت بأحد ما، ولكني لا أذكر.

حدجته بأنظارها، ثم تابعت في لهجة حزينة وبكل بساطة:

ـ لقد ضربني زوجي كثيراً حتى انتزع من رأسي كل ما حدث لي قبل زواجي منه.

واستدار نيقولاي إلى المائدة، بينما خرجت الأم من الغرفة برهة قصيرة. وعندما عادت، نظر نيقولاي اليها في عطف، وبدأ يقول كأنه يلمس ذكرياته بكلمات اللطف والحب:

ـ أما بالنسبة اليّ، فقد مررت في تجربة أشبه ما تكون بتجربة ساشا. كنت أحب إحدى الفتيات. وكانت فتاة رائعة! كنت في العشرين من عمري تقريباً عندما التقيت بها، ولقد أحببتها منذ ذلك الحين. وأقول بصراحة إنني لأحبها الآن مثلما أحببتها يومذاك تماماً... من كل قلبي، وفي امتنان، والى الأبد...

ورأت الأم، من حيث كانت تقف إلى جواره، النور البراق الدافىء المشع من عينيه، وقد وضع يديه على مسند أحد المقاعد، وأراح رأسه عليهما وراح ينظر إلى مكان ما بعيد بعيد، وكل جسده، النحيل والمتين البنية في الوقت ذاته، ينجذب نحو رؤيا جميلة، مثلما تنجذب الزهرة نحو الشمس النيرة.

نصحت الأم:

ـ لتتزوجها إذن. ما معنى في الانتظار!

ـ أوه! لقد تزوجت منذ أربعة أعوام. . .

ـ ولِمَ لم تسبق وتتزوجها؟

فاستغرق في التفكير برهة، ثم قال:

ـ لم تسنح لنا الفرصة، إن صح التعبير: عندما أكون أنا حراً، فهي في السجن والمنفى؛ وعندما تكون هي طليقة، فأنا سجين. وذلك يشبه وضع ساشا إلى حدّ بعيد، أقول والحق! وأخيراً نفوها إلى سيبيريا لمدة عشرة أعوام. نفوها إلى إحدى المناطق الأبعد. وأردت الذهاب معها ولكني خجلت، وكذلك خجلت هي أيضاً. وهناك التقت برجل آخر، فتى رائع للغاية ـ وأحد رفاقي. وقد هربا معاً، وهما الآن يعيشان خارج الحدود. . . هم ـ م. . .

رفع نيقولاي نظارتيه ومسحهما، ثم عرضهما على النور يتحقق من نظافتهما. وعاد يمسحهما مرة أخرى.

وهتفت الأم في حنان، وهي تهز رأسها:

ـ أواه، يا صديقي العزيز!

رثت له من صميم قلبها، ولكن شيئاً فيه كان يدفعها في الوقت نفسه إلى الابتسام بحرارة، بعاطفة الأم الرؤوم. وأحسن نيقولاي من جلسته وتناول الريشة من جديد، وراح يلوّح بها في تناسق مع كلماته، وهو يقول:

ـ الحياة العائلية تنقص طاقة الثوري... إنها تفعل ذلك دائماً. الأطفال، والحرمان، وضرورة العمل لإطعام العائلة... ينبغي للثوري أن يضاعف طاقته باستمرار، بحيث تستطيع فعاليته أن تتسع وتتعمق أكثر فأكثر. الأيام تتطلب ذلك، فمن واجبنا أن نسير دائماً في مقدمة الجميع، لأننا نحن العمال الذين اختارهم التاريخ لتدمير العالم القديم وبناء عالم جديد، اذا تقاعسنا في المؤخرة، مستسلمين للاعياء أو تخدير فوز حقير، فإننا مسؤولون إذن عن أذى يقارب خيانة القضية. ليس هناك من نستطيع السير معه جنباً إلى جنب دون أن نلحق الضرر بإيماننا، ونحن يجب ألّا ننسى قط أن واجبنا ليس فوزاً صغيراً عارضاً... بل الانتصار التام الأخير...

أصبح صوته ثابتاً، ووجهه شاحب اللون، وعيناه تبرقان بتلك القوة الهادئة المتماسكة المألوفة عنده.

قرع الجرس مرة أخرى وقاطع حديث نيقولاي. دلفت لودميلا من الباب مضرجة الخدين بفعل الصقيع، في معطف أرقّ من أن يدفع عنها زمهرير الفصل البارد.

قالت في غضب، وهي تخلع جزمتيها المطاط المهترئتين:

ـ ستجري المحاكمة في الأسبوع المقبل!

فصاح نيقولاي من الغرفة المجاورة:

ـ أمتأكدة أنت من هذا؟

انطلقت الأم نحوه، لا تدري على وجه التحقيق إن كان الخوف أو الفرح هو الذي يثير كل ذلك الضجيج في صدرها. ولحقت لودميلا بها، تقول وفي صوتها العميق ظل من سخرية:

ـ إني متأكدة!... وهم لا يخفون في المحكمة حقيقة اصدار الإدانة سلفاً... كيف تستطيع أن تفسر مثل هذا الأمر؟ هل تخاف ألا يكون أجراؤها أوغاداً آخر الأمر، بالرغم من كل الزمن والطاقة اللذين صرفتهما في إفسادهم؟

جلست لودميلا على الأريكة تفرك خديها الناحلين بيديها. وعيناها تعبران عن ازدراء لا حدود له، وصوتها يلتهب غضباً أكثر فأكثر.

قال نيقولاي، ساعياً إلى تهدئتها:

ـ لا تضيعي طاقتك، يا لودميلا. إنهم لا يسمعونك، كما تعلمين...

أصغت الأم في انتباه عميق إلى كلماتها، ولكنها لم تفقه منها شيئاً، لأن فكرة واحدة فقط لم تكف عن الضجيج في ذهنها:

«المحاكمة... في الأسبوع المقبل!».

وفجأة أحست باقتراب قوة لا إنسانية، قوة لا تعرف معنى للرحمة والشفقة مطلقاً.

23

هكذا عاشت الأم في سحابة من البلبلة والكآبة والانتظار القلق طوال يومين آخرين، وفي اليوم الثالث جاءت ساشا وتوجهت إلى نيقولاي بالخطاب قائلة:

ـ كل شيء جاهز... اليوم في الساعة الواحدة...

فسأل دهشاً:

ـ بكل هذه السرعة؟

ـ ولِمَ لا؟ ما كان عليّ سوى تأمين الثياب لريبين، وتدبير مكان يلجأ إليه. وقد أخذ جوبون على عاتقه القيام بكل شيء آخر، وليس على ريبين سوى الذهاب بضع مئات من الأمتار فقط، وسيلقاه فيزوفشيكوف، متنكراً طبعاً، ويلقي معطفاً على كتفيه وقبعة على رأسه، ويدله على الطريق. وسأكون في انتظاره بلباس كامل له، وأقوده بقية الطريق.

فسأل نيقولاي:

ـ لا غبار على ذلك، ولكن من هو جوبون هذا؟

ـ أنت تعرفه، ففي غرفته كنت تعقد حلقتك الدراسية مع الميكانيكيين.

ـ آه، تذكرت. عجوز غريب الأطوار...

فقالت ساشا متفكرة، وقد أنفذت بصرها من النافذة:

ـ إنه جندي متقاعد، سمكري، قليل الثقافة، ولكنه يرعى حقداً هائلاً ضد العنف مهما كان ظاهره. وهو إلى ذلك فيلسوف إلى درجة ما.

أنصتت الأم في سكون، وفي ذهنها تنمو فكرة غامضة غير محدودة.

ـ إن جوبون يريد إنقاذ ابن أخيه، أتذكر ييفشنكو ذاك؟ كنت تحبه إذ كان رشيقاً دائماً، ونظيفاً إلى الدرجة القصوى.

فأشار نيقولاي برأسه.

ـ لقد هيأ كل شيء على الوجه الأكمل، ولكني بدأت أرتاب في أن المحاولة ستكلل بالنجاح لأنها ستجري ساعة النزهة، وأنا أخاف أن يرغب عدد كبير من المساجين في الهرب ساعة يرون السلم فوق الجدار...

أغلقت عينيها وسكتت، فاقتربت الأم منها.

ـ ولسوف يضايق بعضهم بعضاً بالطبع...

كان ثلاثتهم وقوفاً إلى النافذة، والأم وراء نيقولاي وساشا، يثير حديثهما السريع عواطف مختلفة في صدرها. قالت فجأة:

ـ سأذهب أنا أيضاً!

فسألت ساشا:

ـ لماذا؟

ونصحها نيقولاي:

ـ لا تذهبي، يا عزيزتي، فقد يصيبك مكروه. لا تذهبي.

رمقته الأم طويلاً، وقالت في صوت رقيق، لكن في ثبات وعزم:

ـ كلا، إني ذاهبة...

وتبادلا نظرات سريعة، ثم قالت ساشا وهي تهزّ كتفيها:

ـ لقد فهمت...

استدارت نحو الأم تأبطت ذراعها، وتمايلت نحوها وقالت بلهجة بسيطة رقيقة خفق قلب الأم لها:

ـ أريد أن أقول لك إن ما تتوقعينه عبث...

فصاحت الأم، وهي تقرِّبها منها بيد مرتعشة:

ـ يا حبيبتي، خذيني معك، ولن أضايقكم أبداً! يجب أن أذهب، فلست أعتقد أن... الهرب ممكن حقاً!

وقالت الفتاة لنيقولاي:

ـ إنها آتية معنا.

فأجاب، وهو يطرق برأسه:

ـ ذلك من شأنك وحدك.

ـ ولكن يجب ألا نكون معاً. أنت تذهبين إلى حقول الخضروات، ومن هناك تستطيعين رؤية جدار السجن... لكن، كيف تفسرين وجودك هناك إذا استجوبوك؟

فنبرت الأم مسرورة بلهفة:

ـ سوف أجد ما أقول.

فحذَّرتها ساشا بقولها:

ـ لا تنسي أن حراس السجن يعرفونك، فإن رأوك هناك...

ـ لن يروني...

كان الرجاء المتولد في صدرها دون وعي منها يلتهب الآن في بريق عظيم وينعشها، فتروح تفكر وهي ترتدي ثيابها في سرعة: «ربما هو أيضاً...».

وبعد ساعة، كانت الأم قد بلغت الحقل الممتد خلف السجن، وريح

صرصر تهب فتتعلق بثيابها، وتلطم الأرض المتجلدة، وتهزّ سور حديقة تمرُّ بجوارها، ثم ترمي بنفسها بكل ما فيها من عزم على جدار السجن القليل الارتفاع، وتسقط في فنائه فتلتقط من هناك صيحات بشرية، وترسلها في اعصار نحو السماء حيث السحب المتلاحقة السريعة تنشق من وقت لآخر فتشكل ثغرات صغيرة الأبعاد في الجَلَد الأزرق.

كانت الحدائق تستلقي وراء الأم بينما المقبرة تقوم إلى الأمام منها، والسجن ينتصب على بعد سبعين قدماً تقريباً ناحية اليمين. وكان جندي يسوق جواده المربوط بالحبل حوله بالقرب من المقبرة، وجندي آخر يقف دانياً منه وهو يضرب الأرض بحذائه صائحاً، ضاحكاً، ومصفّراً. ولم يكن ثمة إنسان آخر في جوار السجن.

مرَّت بالقرب من الجنديين في تمهل حتى بلغت السور المحيط بالمقبرة وهي تختلس النظر إلى الوراء وإلى اليمين منها. وفجأة، أحست ركبتيها ترتخيان، وقدميها يثقلان فكأن الجليد لصقهما بالأرض لصقاً. هذا موقد المصابيح المقوّس الظهر يبرز من وراء زاوية السجن، وعلى كتفه سلم طويل، سريع الخطى كما ينتظر من موقدي المصابيح أن يفعلوا. وتطلعت الأم إلى الجنديين وعيناها تطرفان هلعاً، فرأتهما ثابتين في مكانهما والجواد يحوم حولهما... وشخصت إلى الرجل ذي السلم، فوجدته أسند سلمه إلى الجدار وراح يتسلقه في هدوء، ثم لوَّح بيده نحو فناء السجن، وعاد يهبط بنشاط ليختفي وراء زاوية الجدار. وخفق قلب الأم في تسارع، وراحت الثواني تتباطأ. وكان السلم لا يكاد يُرى إلا بصعوبة مسنداً إلى جدار السجن القاتم الملطخ بالأوحال حتى غاض اللون منه، المبقَّع هنا وهناك بالقرميد الأحمر الظاهر من وراء الجص المتساقط. وبغتة، ظهر رأس أسود فوق الحائط، ثم جسد تدحرج فوق قمة الجدار وهرول يهبط الجهة المقابلة، ثم ظهر رأس آخر مغطى بقبعة شعثاء، وقفزت على الأرض كرة سوداء ضخمة اختفت سريعاً وراء زاوية السجن. وانتصب ميخائيلو بقامته، وحملق حواليه، وراح يهزُّ رأسه...

همست الأم، وهي تضرب الأرض بقدمها:

ـ إهرب، إهرب!

كان طنين يدوّي في أذنيها، وصيحات عالية تبلغ سمعها من وراء جدار السجن. وظهر فوق الجدار رأس ثالث، فأطبقت الأم بيديها منقبضتين على صدرها، وأنشأت تراقب ما يجري منقطعة الأنفاس. واندفع الرأس الأشقر الفتي، الحليق الذقن، في الفضاء كأنه أراد أن ينفصل عن الجسد، لكنه اختفى فجأة خلف الجدار من جديد. وأصبحت الصيحات أكثر ارتفاعاً وهياجاً، فيما طفقت الريح تحمل ارتعاش الصفارات الحاد عبر الفضاء. سار ميخائيلو على طول الجدار حتى تجاوزها، واخترق الحقل الخالي المرتمي بين السجن ودور المدينة. خيل إليها أنه يسير في بطء شديد، وأنه يرفع رأسه في الهواء كثيراً، وأن كل من رأى وجهه مرة فلن ينساه. همست:

ـ أسرع... أسرع...

وعلا رنين في الجهة الثانية من جدار السجن، وبلغ سمعها صوت زجاج يتحطم. وكان أحد الجنديين يقف وقدماه مغروستان في الأرض، وهو يشدُّ عنان الحصان؛ بينما رفع الآخر قبضته إلى فمه، وجعل يصيح بشيء ما في اتجاه السجن، حتى اذا انتهى من صياحه أدار أذنه نحو الريح كي يلتقط الجواب.

وقفت الأم متوترة الأعصاب، تدور برأسها في كل الاتجاهات، ترى عيناها كل شيء، ولكنهما لا تصدقان مما تريان شيئاً. إن ما تخيلته معقَّداً مثقلاً بالمخاطر قد تمَّ الآن في سرعة وبساطة أذهلتها عن نفسها وأضعفتها الوعي. وقد اختفى ريبين الآن، ولكن رجلاً مديد القامة، يرتدي معطفاً طويلاً فضفاضاً، يسير الآن على طول الطريق، تعدو أمامه فتاة في ميعة الصبا. وانطلق من وراء زاوية السجن ثلاثة حراس يركضون متلاصقين، وأذرعتهم اليمنى ممدودة إلى الأمام، فذهب أحد الجنديين

لملاقاتهم، بينما استمر الآخر يكردح حول الحصان محاولاً امتطاء صهوته، فيحرن الحيوان ويروح يقفز في الهواء باستمرار، فيتراءى للأم أن كل شيء آخر حولها يقفز معه. وجاء صدى الصفير يقتطع الفضاء في عناد مجنون فيثير صياحه اليائس في المرأة شعوراً بالخطر، فترتجف وتسير على طول سور المقبرة، دون أن تحيد بناظريها عن الحرس حتى اختفوا مع الجنديين وراء زاوية أخرى من زوايا السجن. وسرعان ما لحق بهم شبح يرتدي معطفاً غير مزرَّر، عرفت فيه معاون المدير... ومن مكان ما ظهر بعض رجال الشرطة وبدأ الناس يحتشدون.

وعصفت الريح في رقص إعصاري فكأنها تبتهج وتفرح، وهي تحمل حتى أذني الأم فتاتاً من صيحات مختلطة، وصفيراً متقطعاً. أبهجها الاضطراب فحثت خطاها، وهي تفكر:

«كان في إمكانه أن يفعل ذلك!».

وعلى غير انتظار... اندفع من وراء زاوية سور المقبرة شرطيان، صاح أحدهما منقطع الأنفاس:

- قفي! هل رأيت... رجلاً... ذا لحية؟

فأشارت نحو الجنائن، وقالت في هدوء:

- انطلق في ذلك الاتجاه. لماذا؟

- يجورروف، أنفخ في صفارتك!

رجعت الأم أدراجها إلى الدار وهي تحسُّ الأسف على شيء ما، وفي قلبها شعور بالمرارة والألم. ومرت عربة من أمامها، وهي تجتاز الشارع بعد أن قطعت الحقل، فاختلست النظر إلى داخلها لترى رجلاً فتياً أشقر الشارب، شاحب الوجه متعبه. ولقد رآها هو أيضاً، وكان يجلس منكمشاً على نفسه بحيث ارتفعت كتفه اليمنى على الكتف اليسرى.

استقبلها نيقولاي فرحاً:

ـ حسناً. ماذا حدث؟

ـ يبدو أن كل شيء انتهى على ما يرام...

شرعت تقدم له تقريراً عن الهرب، محاولة أن تتذكر التفصيلات. ولكنها تحدثت كمن تروي قصة سمعتها من سواها ترتاب في صدقها وحقيقتها.

قال نيقولاي، وهو يفرك يديه:

ـ الحظ في جانبنا! الشيطان وحده يعرف كم كنت قلقاً لئلا يصيبك أذى. هل تسمعين، يا نيلوفنا! خذي مني نصيحة صديق وكفّي عن الخوف من تلك المحاكمة. فكلما اقترب موعدها اقتربت حرية بافل معه. صدقيني! ولعله سيهرب وهو في طريقه إلى المنفى، أما المحاكمة فستكون هكذا على وجه التقريب...

أخذ يصف لها لوحة الجلسة. وبينما هو يتكلم أدركت أن ثمة شيئاً يخافه هو نفسه رغم جهوده لتهدئة روعها. سألت فجأة:

ـ هل تخاف أن أقول شيئاً في المحكمة ينبغي ألا أقوله؟ أو أني سأرجوهم شيئاً ما؟

فهبَّ ناهضاً على قدميه، ولوَّح بيديه مستغفراً، وقال بلهجة مشبعة باللوم:

ـ بالطبع لا!

ـ إني خائفة، وتلك هي الحقيقة. لكني لا أدري مِمَّ أخاف!...

وتوقفت عن الكلام، يجول بصرها عبر الغرفة:

ـ أعتقد أحياناً أنهم سيقسون بالكلام على باشا، وسيقولون: أنت، أيها الفلاح، أنت، يا ابن الفلاح، ماذا تحسب نفسك؟ وبافل رجل عزيز النفس، ولسوف يردّ عليهم، أو سيروح أندريه يسخر منهم. وإن الآخرين نزقون أيضاً، الأمر الذي يدفعك إلى التفكير فيما سيحدث إن فقدوا صبرهم بغتة، فأدانتهم المحكمة... أدانتهم بحيث لا أراهم مرة أخرى أبداً!

فعبس نيقولاي دون أن يجيب، وهو يعبث بلحيته.. وتابعت الأم في هدوء:

ـ ليس من وسيلة لنزع هذه الأفكار من رأسي. وهذا هو السبب في أن المحاكمة... مخيفة إلى هذه الدرجة. وعندما يشرعون يتفحصون كل شيء ويزنون كل شيء، ما أرهب ذلك! ليس الحكم هو المخوف، بل المحكمة. لست أدري كيف أعبِّر عن ذلك...

وأحست أن نيقولاي لم يفهمها، فزاد ذلك في صعوبة التعبير عن مخاوفها.

24

لم تفعل هذه المخاوف، الأشبه بعفونة تعوق رطوبتها الثقيلة تنفسها، سوى النموّ في صدرها. وعندما حلَّ يوم المحاكمة أخيراً ذهبت إلى مكان انعقادها محنية الظهر تحت عبء نير يثقل على قلبها ويرهقها.

حيّاها في الطريق من يعرفها من الضاحية، فكانت تنحني لهم دون أن تنطق حرفاً، وهي تشق لها طريقاً بين الجماهير العابسة. والتقت في أروقة المحكمة ومقرها أقارب المتَّهمين: كانوا يتبادلون الملاحظات بأصوات خفيضة، فتخال أن الكلمات عبث، وأنها لا تستطيع لها فهماً. إنهم جميعاً مشربون بالألم نفسه المنتقلة عدواه إلى الأم، وهي تدرك هذا فيضاعف الثقل وطأته على قلبها.

قال سيزوف، وهو يُفسح لها مكاناً على الدكة:

ـ إجلسي ههنا بالقرب مني.

فجلست صاغرة، أصلحت من هندامها، ثم جحَّظت النظر حواليها. كان مزيج من الشعاعات الخضر والحمر وخيوط صفر رفيعة للغاية تتراقص أمام عينيها. وتمتمت امرأة تجلس بالقرب منها:

ـ ابنك أضل فتانا جريشا الطريق وأهلكه.

فقال سيزوف غاضباً:

ـ صهْ، يا ناتاليا!

نظرت الأم إلى المرأة، فعرفت فيها أم صموئيلوف. كان زوجها يجلس بجانبها، وهو رجل أصلع الرأس، لطيف الطلعة، ضامر الوجه، عريض اللحية الحمراء المنتشرة كالمروحة، يشخص إلى الأمام باستمرار وقد ضيَّق فرجة عينيه، فترتجف لحيته.

كان نور قاتم ينسكب في قاعة المحكمة من خلال نوافذ عالية علق الثلج بها من الخارج. وكانت صورة كبيرة للقيصر تتدلى بين النوافذ في إطار كبير مذهب براق تختفي جوانبه وراء غضون الستر الثقيلة الكستنائية اللون المسترخية على جانبي النوافذ، وإلى الأمام من الصورة مائدة مغطاة بقماش أخضر تحتل كل عرض الصالة تقريباً؛ وإلى اليمين، وراء بعض القضبان المشبكة، كانت دكتان من الخشب تنتصبان جنب الجدار، بينما يُشغل الشمال صفان من المقاعد المكسوة بقماش كستنائي اللون. وكان بعض الكتبة، بياقاتهم الخضر وأزرارهم المذهبة المصطفة فوق صدورهم وبطونهم، يروحون ويغدون دون ضوضاء، ووشوشة من الأصوات المكتومة تسبح بحياء في الجو المضطرب حيث تفوح رائحة حادة تشبه رائحة الصيدلية. كانت كل هذه الألوان والانعكاسات والأصوات والروائح تثقل على الأعين، وتخترق الصدر مع الهواء المُستنشَق، وتملأ القلب الفارغ بخوف راكد يمتزج به الاضطراب والهمود.

وتكلم بعضهم فجأة بصوت مرتفع، فأجفلت الأم، وإذ رأت الجميع ينهضون وقوفاً وقفت بدورها ممسكة بيد سيزوف. انفتح باب مرتفع إلى اليسار دخل منه، مترنحاً، رجل عجوز تغطي نظارتان عينيه الصغيرتين، ويرتجف سالفان رقيقان أشيبان فوق عظام صدغيه. وكانت شفته العليا

الحليقة تهوي في الشدقين الخاليين من الأسنان، وذقنه ووجنتاه البارزتان ترتاحان على ياقة لباسه المرتفعة، الموحية بأن العنق معدومة تحتها. وكان يسنده من الخلف فتى طويل القامة يبدو كأن وجهه المدور الأحمر قد نُحت من الخزف، ومن خلفهما يتقدم في تماهل ثلاثة أشخاص آخرين يرتدون ألبسة طرزت بالذهب، يتبعهم ثلاثة آخرون في ثياب مدنية. أنفقوا زمناً طويلاً حتى اتخذوا أماكنهم إلى المائدة الطويلة، فإذا تمّ ذلك إنحنى أحدهم، وكان محلول أزرار الثياب، حليق الذقن، متعب المحيا، وانثال يهمس شيئاً في أذن الرجل العجوز، وهو يحرك شفتيه المنتفختين في تثاقل وسكون. وجلس الرجل العجوز، منتصب القامة بصورة غريبة، عديم الحراك، يُنصت إلى ما يُهمس إليه، والأم تميّز من وراء زجاج نظارتيه بقعتين صغيرتين عديمتي اللون.

وكان رجل طويل القامة أصلع الرأس يقف عند طرف المنضدة، أمام مكتب صغير، ينظف حنجرته ويقلب الأوراق الموضوعة أمامه.

انحنى الرجل العجوز إلى الأمام، وشرع يتكلم. وقد تفوه بكلماته الأولى في وضوح، أما الكلمات التي تلت ذلك فبدت كأنها تتدحرج فراراً عن شفتيه الرماديتين الرقيقتين:

ـ إني أعلن... أدخلوهم...

همس سيزوف للأم ودفعها برقة ثم نهض واقفاً:

ـ أنظري!

انفتح الباب القائم خلف القضبان، ودلف منه جندي يتنكّبُ سيفاً مجرداً، يتبعه بافل وأندريه وفيودور مازين وكلا الأخوين جوسيف وصمائيولف وبوكين وسوموف وخمسة شبان آخرين لا تعرف الأم أسماءهم. ابتسم بافل في لطف، وافترَّت شفتا أندريه عن ابتسامة عريضة وهو يهز رأسه. وتراءى لها أن ابتسامتهما، ووجههما الحبيب، وحركاتهما اللطيفة قد خففت من وطأة ذلك الجو الثقيل الكئيب المخيم

على القاعة، وحملت إليه النور حتى خبا بريق الذهب فوق الألبسة الرسمية. وانتعشت الأم، واجتاحها تيار من القوة لتلك النفحة من الثقة الهادئة والقوة الحية اللتين حملهما المساجين معهم، فيما ارتفعت وشوشة خافتة إلى الوراء منها، حيث كان القوم حتى ذلك الحين يقبعون في هدوء وينتظرون في إعياء وكلل. همس سيزوف:

ـ ليسوا بخائفين!

وانفجرت أم صموئيلوف تبكي في هدوء. وصاح صوت صارم:

ـ صمتاً!

قال الرجل العجوز:

ـ يجب أن أحذِّركم...

كان بافل وأندريه يجلسان متجاورين على الدكة الأولى مع مازين وصموئيلوف والأخوين جوسيف. وكان أندريه قد حلق ذقنه، وإن أطلق العنان لشاربيه حتى تدليا على جانبي فمه وأشبها برأسه المدور رأس القط. وكان في محياه شيء جديد: سيماء صرامة وحدَّة حول فمه، وظلال ظلمة في عينيه... أما مازين فقد ظهر خطان أسودان على شفته العليا، وتدوَّر وجهه وقد امتلأ بعد أن كان نحيلاً. وكان صموئيلوف مجعد الشعر مثله أبداً، وإيفان جوسيف يبتسم ما شاء له الابتسام. همس سيزوف، وهو يخفض رأسه:

ـ آه! فيودور، يا فيودور!

أرهفت الأم السمع إلى الأسئلة غير الواضحة التي يطرحها الرجل العجوز على المساجين، دون أن ينظر إليهم، ورأسه يرتاح دون حراك في ياقته. وأصغت إلى أجوبة فتاها الهادئة المقتضبة، فخيل إليها أن رئيس المحكمة والقضاة المساعدين لا يمكن أن يكونوا قساة على ابنها، وأشراراً يريدون الأذى به. وبينما هي تتفحص الوجوه الجالسة إلى المنضدة الطويلة، ساعية إلى تخمين نتيجة المحاكمة، راحت بارقة من الرجاء تنمو في قلبها وتتعاظم.

قرأ الفتى الخزفي الوجه وثيقة ما بنغمة رتيبة لا مبالية، فرنَّ صوته في القاعة يملأها ضجراً يخدِّر الحضور، فكأن الرشد سُلب منهم. وكان أربعة محامين يحادثون المتهمين بأصوات خفيضة، ولكنها حية... وكانت حركاتهم سريعة واسعة، حتى أشبهوا طيوراً سوداً ضخمة.

وطفح المقعد القائم على أحد جانبي الرجل العجوز ببدانة قاضي دفنت عيناه الصغيرتان الناعستان في الشحم، بينما جلس على الجانب الآخر من الرجل العجوز قاض آخر محدودب الظهر، أحمر الشاربين، شاحب المحيا أراح في إعياء رأسه على مسند المقعد، وأغمض عينيه نصف إغماضة، وراح يسبح تائهاً في لجة من التفكير. وكذلك كان النائب العام متعباً، ضجراً. وجلست، إلى الوراء من القضاة الشخصيات الهامة التالية: عمدة المدينة، وهو رجل ضخم الجثة، مهيب الطلعة، قعد مستغرقاً في التفكير يداعب وجنته دون انقطاع؛ رئيس مجلس النبلاء، وهو رجل أشيب الشعر، أحمر الوجه، طويل اللحية عريضها، لطيف العينين واسعهما؛ ثم رئيس المحافظة، وهو رجل عريض المعدة التي تسبب له ـ فيما يبدو ـ بعض الارتباك اذ طفق يغطيها بأذناب معطفه التي راحت تنزلق عنها باستمرار.

وارتفع صوت بافل يقول بثبات:

ـ ليس ثمة مجرمون وقضاة، بل ثمة أسرى ومنتصرون ليس غير...

سيطر الهدوء على الجميع، ولم تستطع الأم ـ طوال بضعة ثوان ـ أن تسمع شيئاً خلا صرير ريشة على الورق، وخفقان قلبها أيضاً.

وبدا رئيس المحكمة منصتاً ينتظر ما يتلو ذلك. أما مساعدوه فاضطربوا وراحوا يتململون في مقاعدهم. قال أخيراً:

ـ همْ ـ مْ أندريه ناخودكا! هل تعترف...

فنهض أندريه متباطئاً، ودفع بكتفيه إلى الخلف، وراح يفتل شاربيه وهو ينظر إلى الرجل العجوز من تحت حاجبيه المنخفضين، وأجاب بصوته المألوف الناعم المتمهل، هازاً كتفيه:

ـ ولكن بأي ذنب أعترف! إني لم أقتل أحداً، ولم أسرق أي شيء. أنا، بكل بساطة، أعارض شكلاً من الحياة يقود الناس إلى أن يسرقوا ويقتلوا بعضهم بعضاً...

فقال الرجل العجوز في جهد ولكن بوضوح:

ـ كن أكثر اقتضاباً في أجوبتك.

أحست الأم هرجاً إلى الوراء منها، وشرع الناس يتهامسون ويتحركون، فكأنهم يتخلصون من خيوط العنكبوت التي نسجتها كلمات ذلك الفتى الخزفي الوجه. وهمس سيزوف:

ـ أتسمعين ما يقولون؟

ـ أجب، يا فيودور مازين...

فقال فيودور، وهو يهب على قدميه:

ـ كلا، لن أجيب!

كان وجهه ملتهباً، وعيناه براقتين، قد اختفت يداه ـ لسبب ما ـ خلف ظهره. وتأوه سيزوف، واتسعت عينا الأم دهشة وذهولاً.

ـ لقد رفضت أن يكون لي محام للدفاع. وأنا أرفض التفوّه بأي شيء كان. إني أعتبر هذه المحاكمة غير مشروعة. من أنتم؟ هل أعطاكم الشعب الحق كي تحاكمونا؟ كلا، إنه لم يفعل. إني أرفض الاعتراف بسلطتكم!

وجلس، وخبأ وجهه المضرّج خلف كتف أندريه.

أشار القاضي البدين إلى رئيس المحكمة، وهمس شيئاً في أذنه. ففتح القاضي الشاحب الوجه عينيه، ورشق المساجين بنظرة جانبية، وكتب بالقلم شيئاً على ورقة أمامه. وهزّ رئيس المحافظة رأسه، وحرّك قدميه بحذر حتى يريح معدته أكثر من ذي قبل ويغطيها بيديه، كما مال الرجل العجوز، دون أن يدير وجهه، نحو القاضي الأحمر الشارب وهمس شيئاً في أذنه، فأصغى إليه هذا الأخير مطرق الرأس. أما رئيس مجلس النبلاء

فأسرّ شيئاً إلى النائب العام والعمدة يصغي إليهما، وهو ما برح يداعب وجنته، ثم راح رئيس المحكمة يتكلم من جديد بصوته الرتيب. همس سيزوف في أذن الأم مندهشاً:

ـ إسمعي كيف يقطع عليهم الدرب! إن موقفه أفضل من موقف الآخرين في الحقيقة!

ابتسمت الأم دون أن تفهم شيئاً. كان كل ما يجري أمامها يبدو لها مقدمة مملة عديمة الضرورة لذلك الشيء المخيف الذي سيحدث بعد هنيهة، فيسحقهم جميعاً بهوله البارد. إلا أن كلمات بافل وأندريه ترددت قوية غير هيابة، فكأنهما يتكلمان في دارهما الصغيرة في الضاحية العمّالية لا أمام منصة محكمة معقودة لإدانتهما، كما أن انفجار فيودور اللاهب أنعشها وبعث الحياة في قلبها. ثمة جرأة تنتشر في قاعة المحكمة. وإذا أُخِذَ هرج القوم الجالسين وراءها بعين الاعتبار، فإدراك ذلك ليس وقفاً عليها وحدها. سأل الرجل العجوز:

ـ ما هو رأيك؟

فنهض النائب العام الأصلع الرأس، ووضع إحدى يديه على المكتب أمامه وهو يلقي خطاباً سريعاً ويذكر أرقاماً عديدة. ولم يكن في صوته ما يحمل على الخوف أبداً.

لكن إحساساً ناخساً راح، في الوقت ذاته، يثير القلق من جديد في قلب الأم، إحساساً غامضاً بوجود شيء عدائي في الجو لا يهزّ قبضته أو يزعق بصوته، بيد أنه ينمو باستمرار بصورة خفية غير محسوسة على الاطلاق، ويسبح في تكاسل حول القضاة حتى ليخال المرء أنه يغمرهم في سحابة كثيفة تنصّلهم من كل ما يجري خارجاً عنها وتعزلهم عنه. نظرت إلى القضاة فوجدتهم غامضين لا قبل للادراك بفهمهم. إنهم لا يغضبون على بافل وفيدور كما كانت تتوقع... ولا يهينونهما... بل ليصوّر لها أنهم لا يعلّقون أية أهمية على الأسئلة التي يطرحونها،

فلهجتهم غير مبالية، تعوزهم القوة على سماع الأجوبة عنها، فكأنهم يعرفون سلفاً كل شيء، وكأن كل ما يجري لا يثير فضولهم أبداً.

وقف دركي أمامهم، وانهمر يقول خافض الصوت:

ـ بافل فلاسوف، هو في رأي الجميع، المحرّض الرئيسي...

فسأل القاضي البدين في تكاسل وهدوء:

ـ وماذا عن ناخودكا؟

ـ وهو كذلك...

فنهض أحد المحامين، وقال:

ـ أيمكن أن نقول كلمة؟

فسأل الرجل العجوز:

ـ أثمة اعتراضات؟

تراءى للأم أن سائر القضاة يشكون اعتلالاً في صحتهم، وأن إعياء مريضاً يتجلى في تصرفاتهم وأصواتهم، وأن وجوههم تحمل ذات الطابع من الإجهاد والضجر. وكان من الواضح أنهم يجدون كلَّ هذه الأمور: ألبستهم الرسمية، وقاعة المحكمة، ورجال الدرك والمحامين، وضرورة الجلوس في مقاعدهم، يطرحون الأسئلة ويسمعون الأجوبة، ثقيلة متعبة لا تطاق.

تقدم ذلك الضابط الأصفر الوجه الذي تعرفه إلى أمامهم، وهو الآن يروي ما يعلم عن بافل وأندريه بصوت مرتفع شديد النبرات.

همهمت الأم في حنايا نفسها، وقد أعارته أذنيها:

«لست تعرف الشيء الكثير!».

نظرت إلى الأشخاص الجالسين خلف القضبان، دون خوف من أجلهم ودون شفقة عليهم. إنها لا تستطيع الرثاء لهم؛ فهم لا يثيرون فيها إلا الدهشة، ولا يبعثون في صدرها إلا تلك الموجة الدافئة من المحبة التي تفيض في قلبها الآن. وكانت الدهشة هادئة، المحبة حية

فرحة. كانوا يجلسون هناك شباناً أقوياء مستندين إلى الجدار، لا يعيرون إلا القليل من الانتباه حديثَ القضاة والشهود الرتيب، وحجج المحامين مع النائب العام. يضحك أحدهم في سخرية من وقت لآخر، ويلقي بملاحظة إلى رفاقه فتمرُّ على وجوههم الابتسامة الساخرة نفسها. وكان بافل وأندريه يهمسان دون انقطاع بشيء في أذن أحد المحامين الموكول اليه الدفاع عنهما، وهو الذي رأته الأم في العشية في دار نيقولاي. ومازين، وهو أكثر حيوية وانفعالاً من الآخرين جميعاً، لا يفتأ ينصت إلى حديثهم. وفي بعض الأحيان كان صمونيلوف يتمتم شيئاً لإيفان جوسيف، فيردُّ عليه الآخر بلكزة من مرفقه، ويبذل جهداً عظيماً كي يمتنع عن الضحك حتى ليصبح وجهه أحمر بلون الدم، وتنتفخ وجنتاه، ويطأطىء برأسه كي يخفي ما يبدو على محياه من تلك الامارات. ولقد انفجر ضاحكاً مرتين متواليتين، فكان بعد كل مرة يجلس منكمشاً بضع دقائق محاولاً استعادة زمام نفسه. ولكن فتوَّة طاغية كانت تفور في باطنهم تتحدى كل جهودهم لكبت غليانهم الرائع وتتغلب عليها بكل سهولة ويسر.

لمسها سيزوف في مرفقها، حتى إذا استدارت إليه وجدته مسروراً ولكنه قلق بعض الشيء. همس:

ـ أنظري كم أصبح هؤلاء الأشقياء أقوياء واثقين من أنفسهم؟ لكأنهم أسياد حقيقيون!

كان الشهود في قاعة المحكمة لا ينفكون يتحدثون بأصواتهم المتسرعة العديمة اللون، بينما القضاة يتكلمون مرغمين غير مبالين. وتثاءب القاضي البدين، وهو يغطي فمه بيده السمينة، أما الأحمر شارباه فأضحى أكثر شحوباً منه في أي وقت آخر، وهو يضغط على صدغيه بأصابعه بين الفينة والفينة، ويشخص إلى السقف بعينين واسعتين كأنهما لا تريان شيئاً على الاطلاق. وكان المدعي العام يكتب شيئاً بقلم

الرصاص من حين لآخر، ثم يعود إلى متابعة حديثه المكبوت مع رئيس مجلس النبلاء الذي يمشط لحيته الشائبة، ويحملق بعينيه الكبيرتين الجميلتين، ويبتسم وهو يلوي رقبته بصورة تدل على الخطورة. أما العمدة فجلس متصالب الرجلين يشخص إلى أصابعه مراقباً حركاتها المستمرة فوق ركبتيه. وكان يلوح أن رئيس المحافظة الذي أطرق برأسه واسلتقت معدته فوق ركبتيه، وأحاطت بها ذراعاه في حنان، هو الوحيد الذي يعير وشوشة الأصوات الرتيبة أذنين مفتوحتين، اللهم إلا الرجل العجوز الجالس في مقعده دون حراك مثل الهوائيّ في يوم سكنت ريحه، جديراً هو أيضاً أن يمنح شرف الاستماع إلى ما يجري. ولقد طال ذلك حتى ملأ الضجر من جديد قلوب الناس وأرهقهم.

قال الرجل العجوز، وهو ينهض:

ـ إني أعلن...

وضاعت بقية كلماته وراء شفتيه الرقيقتين. وامتلأت قاعة المحكمة بالتنهدات، والهتافات الخافتة، والسعال، وحفيف الأقدام، بينما قيد المساجين إلى الخارج وهم يبتسمون ويهزون رؤوسهم مسلمين على أقاربهم وأصدقائهم... بل إن إيفان جوسيف لم يتورَّع عن الهتاف غير العالي، متوجهاً إلى شخص ما:

ـ لا تفقد الشجاعة، يا ييجور!...

وخرجت الأم وسيزوف إلى الرواق حيث استوضح الشيخ في رفق وحنان:

ـ هل تذهبين إلى المقصف كي نتناول قدحاً من الشاي؟ لدينا ساعة ونصف الساعة.

ـ لا أريد أن أحتسي شاياً.

ـ وأنا أيضاً. ما رأيك في هؤلاء الفتيان؟ لقد قعدوا هناك وكأنهم البشر الوحيدون على وجه الأرض، وكأن كل ما عداهم لا يعني شيئاً عل الاطلاق. وفيودور ذلك!

اقترب والد صموئيلوف منهما... وقبعته بين يديه... أعلن بابتسامة مرتبكة حائرة:

ـ أرأيتما فتاي جريجوري! لقد رفض كل دفاع وأبى حتى التحدث إليهم. لقد كان أول من فكر في ذلك. أما ابنك، يا بيلاجيا، فقد كان يصرُّ على ضرورة المحامين. ولكن ابني قال إنه لا يريد أي محامٍ مطلقاً... وعندئذ فعل أربعة مثله...

وقفت زوجته إلى جانبه، وهي تطرف بجفنيها كثيراً كي تمنع الدموع في عينيها من الانهمار، وتمسح أنفها بطرف منديلها في الوقت ذاته.

وتابع صموئيلوف، عابثاً بلحيته، شاخصاً بناظريه إلى الأرض:

ـ يا لهذه القضية! عندما ينظر المرء اليهم، هؤلاء الأوغاد، لا يستطيع إلا أن يفكر في حماقتهم عندما ألقوا بأنفسهم في هذه المشاكل، وضيعوا أنفسهم مقابل لا شيء. ثم هو يفكر بغتة: لعل الحقيقة هي معهم رغم كل شيء، وخاصة عندما يرى كيف يزداد عددهم باستمرار في المعمل. والشرطة لا تني تعتقلهم الواحد تلو الآخر، ومع ذلك فهم يتضاعفون كالسمك في النهر. ومرة ثانية يفكر المرء: لعل القوة هي وراءهم رغم كل شيء.

فقال سيزوف:

ـ ليصعب علينا فهم هذه الأمور، يا ستيفان بتروفيتش.

فوافق صموئيلوف:

ـ أجل، ليصعب علينا.

وقالت زوجته وهي تشخر في ضوضاء:

ـ إنهم، جميعاً، في صحة جيدة، أولئك الأوغاد...

توجهت إلى الأم، وعلى محياها العريض الكثير الغضون ابتسامة واسعة.

قالت:

ـ لا تغضبي مني، يا نيلوفنا. لقد نقمت في الصباح الباكر على فتاك من أجل هذا. أقول بصراحة: الشيطان وحده يعرف من هو الملوم أكثر من سواه في هذه القضية. أسمعت ما قال الجواسيس ورجال الدرك عن فتانا جريجوري؟ لقد ساهم بحصّته، هذا القرد الأحمر الرأس!

كان من الواضح أنها فخورة بابنها دون أن تقدّر، فيما يبدو، مشاعرها وعواطفها. ولكن الأم أدركت ذلك، وأجابت بابتسامة لطيفة وكلمات منبعثة من صميم القلب:

ـ القلوب الفتية أسرع إمساكاً بالحقيقة على الدوام...

تاه الناس في الرواق على غير هدى يشكلون جماعات تتحدث بأصوات منفعلة مكتومة. ولم يكن أحد يقف وحيداً تقريباً، بل إن سائر الوجوه تعبر عن الرغبة في الكلام وطرح الأسئلة والاصغاء إلى الأجوبة. وراحوا يتمشون غدوة وروحة في الممر الضيق الأبيض المحصور بين جدارين قاتمين، وكأن ريحاً صرصراً تعصف بهم فيفتشون عن شيء متين ثابت يمكن أن يلقوا عنده مراسيهم.

كان شقيق بوكين البكر، وهو فتى طويل القامة، أشقر الشعر مثل أخيه، يلوّح بذراعيه ويستدير في كل الاتجاهات ساعياً إلى أن يبرهن:

ـ كليبانوف هذا، رئيس المحافظة، لا شأن له ههنا البتة...

فقال عجوز قصير، هو أبوه، رانياً حواليه في حذر:

ـ أغلق فمك، يا قسطنطين!

ـ كلا، لا أريد! ثمة بعض الاشاعات تقول إنه قتل أحد موظفيه في العام الأخير من أجل زوجة الموظف. إنها تعيش معه! ماذا تسمون هذا؟ بالاضافة إلى ذلك، فالجميع يعرفون أنه لص...

ـ محبة بالله، يا قسطنطين...

وقال صموئيلوف:

ـ صحيح ما تقول! صحيح ما تقول! إن المحاكمة غير قانونية من نواح كثيرة...

وسمع بوكين صوته فاقترب منه مسرعاً، جاراً معه سائر الباقين. وكان وجهه أحمر اللون، وهو لا يفتأ يلوح بذراعيه ويصيح:

ـ عندما يكون هناك قضية قتل وسرقة فإن لجنة من المحلفين تحاكم الناس... يحاكمهم عامة الشعب، الفلاحون وسكان المدينة. أما عندما يقوم الناس ضد السلطات فإن السلطات نفسها هي التي تحاكمهم. ما تسمون هذا؟ أنت تهينني، فألطمك على حنكك، فتحاكمني أنت. ولا ريب أنك تجدني مذنباً، ولكن من هو السابق إلى ارتكاب الخطأ؟ أنت.

فرق الحشد حارس أشيب الشعر، مقوس الأنف، مغطى الصدر بالمداليات، وهزّ إصبعه في وجه بوكين متوعداً. قال:

ـ كف عن الصياح، فأنت لست في حانة!

ـ حسناً أيها السيد! إني أفهم، ولكن إذا كنت أنا الذي ضربتك، ثم كنت أنا القاضي، فمن تظن...

فقال الحارس بصرامة:

ـ أظن أنه من الأفضل أن آمر برميك خارج هذا المكان!

ـ يرمون بي خارجاً؟ لماذا؟

ـ لأنك تثير هذا الضجيج. هدىء روعك في الشارع...

فنظر بوكين إلى أولئك الذين يحيطون به، وقال في صوت خافت:

ـ كل ما يريدون هو أن يُسكتوا الناس...

فصاح الشيخ بقسوة وفظاظة:

ـ طبعاً، ماذا تحسب إذن؟

فلوّح بوكين بذراعيه، وبدأ يتكلم في هدوء أكثر:

ـ ولِمَ لا يسمح للشعب بحضور المحاكمة؟ للأقارب فقط؟ إن كانت محاكمتك قانونية فاسمح للجميع بحضورها، من تخاف؟

فأجاب صمونيلوف بصوت مرتفع:

ـ المحاكمة ليست قانونية، صحيح ما تقول!

أرادت الأم أن تروي له ما سمعت من نيقولاي عن عدم شرعية المحاكمة، ولكنها لم تفهم وقتذاك كل ما قال، ثم إنها نسيت بعض الكلمات. حاولت أن تتذكرها، فتنحت جانباً، ولاحظت أن فتى في مقتبل العمر، أشقر الشارب، يراقبها ويده اليمنى في جيب سرواله، مما جعل كتفه اليسرى أوطأ من اليمنى، الأمر الذي بدا مألوفاً لدى الأم نوعاً ما. ولكنه سرعان ما أدار لها ظهره فنسيته في اللحظة ذاتها، منهمكة في أفكارها الخاصة ومحاولتها تذكّر ما فاتها. ولكن أذنها التقطت، في اللحظة التالية، سؤالاً خافتاً:

ـ هذه؟

فجاء الجواب المتلهّف:

ـ نعم!

فتطلعت حواليها. كان الرجل المرفوع الكتف الواحد يقف جانباً يقول شيئاً لجاره، وهو فتى أسود اللحية، يتوشَّح معطفاً قصيراً، وحذاءين يبلغان منه الركبتين.

نقَّبت مرة أخرى في ذكرياتها واضطربت، ولكنها لم تجد شيئاً معيناً واضح الحدود. كانت ممتلئة رغبة ملحة في أن تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى، لتسمع ماذا سيقولون ضده، فتقدّر هكذا ما سيكون حكم المحكمة عليه. بدأت تقول في حيطة وصوت خفيض، متوجهة إلى سيزوف:

ـ أهكذا يسيرون بالمحاكمة؟ يصرفون كل الوقت ساعين لأن يجدوا من ارتكب هذا وذاك، دون أن يعيروا انتباهاً للسبب الذي فعلوه من أجله. وهم جميعاً شيوخ متقدمون في السن. يجب أن يحاكمهم الشباب...

فوافق سيزوف قائلاً:

ـ بلى، ليصعب علينا فهم مثل هذه الأعمال، يصعب جداً!

وهزَّ رأسه متفكراً.

فتح الحارس باب المحكمة، وصاح:

ـ الأقارب، أظهروا بطاقاتكم...

وقال شخص ما في تماهل وبصوت عابس:

ـ البطاقات! لكأننا في سيرك!

إن نقمة غاضبة تعصف بين الناس، فقد أصبحوا أكثر هرجاً وأكثر حرية، وأكثر تطاولاً مع الحرس.

25

دمدم سيزوف شيئاً وهو يأخذ مكانه من الدكة، فسألته الأم:

ـ ما بالك؟

ـ لا شيء بالتحديد. الناس حمقى...

قرع الجرس، وارتفع صوت لا مبال يقول:

ـ المحكمة...

هبّ الجميع نهوضاً مرة أخرى عندما دخل القضاة واتخذوا أماكنهم بالترتيب السابق، ثم جيء بالمساجين إلى مقاعدهم. همس سيزوف:

ـ انتبهي! المدّعي العام سيلقي مرافعته.

فمالت الأم بكل جسدها إلى الأمام واشرأبت عنقها يحدوها توقّع جديد لشيء رهيب.

وقف المدعي العام إلى جانب القضاة، واستدار بوجهه نحوهم، معتمداً بأحد مرفقيه المنصة أمامه، أرسل زفرة عميقة، ثم بدأ يتحدث ملوّحاً بيده اليمنى. لم تستطع الأم التقاط كلماته الأولى، فقد كان صوته ثخيناً سيّالاً، لكنه غير ثابت، فهو سريع تارة، وتارة كثير التماهل.

كانت الكلمات تأتي طوال فترة من الوقت بطيئة رتيبة مثل خياطة دقيقة، ثم تصبح، فجأة، متلاحقة متسارعة فتحلّق في جوّ القاعة مثل سرب من الذباب حول قطعة من السكر. ولم تجد الأم فيها شيئاً مرعباً أو متوعداً، فهي تتبعثر في القاعة باردة كالثلج، رمادية كالرماد، تملأها قليلاً فقليلاً بضجرٍ مثير مثل غبار دقيق جاف. وكان يبدو أن هذا الخطاب، الثري بالكلمات الفقير من كل عاطفة، لا يبلغ بافل ورفاقه مطلقاً، ولا يؤثر فيهم أبداً بكل تأكيد، فهم يجلسون هنالك وراء القضبان هادئين مثلهم أبداً، يتحدثون بأصوات خافتة، ويبتسمون أحياناً، ومن وقت لآخر يعبسون كي يُخفوا ضحكهم.

همس سيزوف:

ـ إنه يكذب.

لم تكن، هي، تستطيع أن تقول هذا. كانت كلمات المدعي العام تصل إلى مسمعيها فتدرك أنه يتهم سائر المساجين دون استثناء. فبينما هو يتكلم عن بافل، شرع يتحدث عن فيودور، وعندما انتهى من فيودور انتقل إلى بوكين، فكأنه يريد حزمهم جميعاً في إبّالة واحدة. ولم ترضَ الأم عن معنى كلماته الصوري التي لم تؤثر فيها ولم تُخفها أبداً. فهي ما برحت تترقب شيئاً مهولاً فتروح تبحث عنه وراء كلماته، في وجهه، وعينيه وصوته، وفي يده البيضاء التي يلوّح بها برشاقة في الفضاء دون انقطاع. أجل، لقد كان ثمة شيء مخيف، والأم تحسه، ولكنها تعجز عن الإمساك به وتعريفه في كلمات محدودة، وإن كان قلبها لا يفتأ يمتلىء بمرارة جافة مؤلمة.

تطلعت إلى القضاة: مما لا ريب فيه أن الخطاب يبعث الضجر في قلوبهم، فهذه الوجوه العديمة الحياة، الرمادية الصفراء، خالية من أي تعبير على الإطلاق. وكلمات المدعي العام تبثُّ في الفضاء ضباباً غير مرئي يتكاثف حول القضاة ويغمرهم أكثر فأكثر بسحابة من اللامبالاة

والانتظار التعب المملّ. ولم يكن رئيس المحكمة يأتي حركة، بل هو يجلس جامداً، مستقيماً كالعصا، ومن وقت لآخر تختلط البقعتان الرماديتان وراء نظارتيه بامتداد وجهه العديم اللون وتذوبان فيه. وبينما هي تحدج هذه اللامبالاة الميتة، هذا التجرُّد العديم الاحساس والعاطفة، لم تستطع الامتناع عن التساؤل «أحقاً أنهم يُحاكمون؟».

انقبض قلبها لهذا الارتباك طارداً شيئاً فشيئاً ذلك الترقُّب لما هو مخيف مرعب، غير محتفظ إلا بإحساس حاد من الإهانة ليس غير.

انتهت مرافعة المدعي العام على غير انتظار، فأضاف إليها بضع كلمات سريعة مقتضبة، وانحنى للقضاة، ثم جلس في مقعده وهو يفرك يديه. وأشار رئيس مجلس النبلاء نحوه برأسه وهو يحملق بعينيه، ومدَّ العمدة يده إليه، أما رئيس المحافظة فشخص إلى معدته بكل بساطة وابتسم. ولكن القضاة لم يبتهجوا بخطابه فيما يبدو، فظلوا في مقاعدهم جامدين دون حراك، ثم قال الرجل العجوز، وهو يقرِّب ورقة من وجهه حتى كادت تلتصق به:

ـ والآن، فإن المحكمة ستستمع إلى محامي الدفاع عن فيدوسييف وماركوف وزاجاروف.

فنهض المحامي الذي أبصرته الأم في العشية عند نيقولاي. كان وجهه عريضاً دمثاً، ذا عينين صغيرتين تلتمعان مثل شفرتين حادتين من تحت حاجبيه الحمراوين، تقطعان الهواء مثل المقص. وراح يتكلم بصوت مرتفع، وبصورة واضحة غير متسرعة، ولكن الأم لم تستطع متابعة خطابه.

همس سيزوف في أذنها:

ـ أفهمت ما يقول؟ فهمت؟ يقول إن المساجين كانوا مختلطي العقل نصف مجانين. هل فيودور مجنون؟

كانت خيبة الأمل تجتاحها بصورة فظيعة حتى لم تستطع إلى الجواب

سبيلاً. وازداد إحساسها بالإهانة حتى أصبح ثقلاً هائلاً يجثم على قلبها. إن بيلاجيا لتفهم الآن لِمَ كانت تنتظر العدالة. لقد كانت تنتظر أن تشهد لقاء شريفاً صارماً بين حقيقة ابنها وحقيقة قضاته. كانت تنتظر أن يستجوبه القضاة طويلاً وبانتباه جم، وفي تدقيق كثير عما يعتمل في باطنه، وأنهم سينظرون بأعين ثاقبة إلى أفكاره وأفعاله وكل حياته حتى إذا رأوا الحقيقة أعلنوا بصوت مرتفع وبكل عدالة:

ـ إن هذا الإنسان لعلى حق صراح!

ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث. كان يبدو أن أولئك المتهمين المقدمين إلى المحكمة بعيدون جداً عن أن تصل إليهم بصائر قضاتهم، لا بل إن هؤلاء لا يأبهون لهم مطلقاً. وأضاعت الأم، في إعيائها، كل اهتمام بالمحاكمة، فراحت تفكر دون إصغاء إلى ما يقال وقد غمر قلبها احساس بالاهانة:

«أتسمون هذا محاكمة؟»

وهمس سيزوف مؤيداً:

ـ هذا ما يستحقونه!

كان محام آخر يتكلم الآن، وهو رجل قصير القامة ذو وجه حاد القسمات شاحب اللون، ساخر التقاطيع. وكان القضاة يقاطعونه باستمرار. وقفز المدعي العام غاضباً وتفوّه بسرعة بشيء عن سير المحاكمة، حتى إذا انتهى نطق الرجل العجوز باحتجاج ضعيف، فأصغى إليهما محامي الدفاع مطرق الرأس احتراماً، ثم تابع خطابه.

قال سيزوف:

ـ إنخسهم، انخسهم جيداً...

واجتاحت القاعة موجة من الهرج، وبدا أن طاقة متعطشة إلى القتال انطلقت من عقالها عندما شرع المحامي يلسع جلد القضاة السميك المتقادم العهد بكلماته ألاذعة. وبدا أن القضاة يقتربون من بعضهم البعض منتفخين متجهمين حتى يردوا طعنات بلاغته الحادة.

ولقد نهض بافل الآن، فإذا الهدوء يخيم فجأة على القاعة. ومالت الأم إلى الأمام بكل جسدها. كان بافل يتكلم في هدوء:

ـ إني لا أعترف، باعتباري عضواً في حزب، بأي حكم إلا ذلك الذي يدينني به حزبي، ولذلك فلن أتكلَّم كي أدافع عن نفسي. ولكني سأحاول، نزولاً عند رغبة رفاقي الذين رفضوا أيضاً الدفاع عن أنفسهم، أن أوضح لكم تلك الأمور التي لم تفهموها. لقد دعا المدعي العام مظاهرتنا تحت راية الديموقراطية الاشتراكية عصياناً على السلطة الحاكمة، وراح ينظر إلينا طوال الوقت على أننا قوم نحاول قلب القيصر. ولكني أحب أن أوضح هنا أننا لا نعتبر المَلَكية الغلّ الوحيد الذي يقيّد بلادنا، ولكنه الغل الأول والأقرب، الغل الذي من واجبنا تحرير الشعب من ربقته...

أضحى السكون أعمق بفعل رنين صوته القوي الذي لاح كأنه يدفع جدران قاعة المحكمة بعيداً، حتى ليخال المرء أن بافل بعد جداً وأصبح في مستوى أعلى من السامعين له.

تململ القضاة في ضيق وقلق في مقاعدهم. وهمس رئيس مجلس النبلاء شيئاً في أذن القاضي المترهل الوجه الذي أشار برأسه، ثم همس شيئاً في أذن الرجل العجوز اليمنى، بينما همس القاضي المعتلّ شيئاً آخر في أذنه اليسرى، فاستدار الرجل العجوز مترنحاً في مقعده ذات اليمين وذات اليسار، وقال شيئاً لبافل، ولكن صوته ضاع في تيار حديث فلاسوف المتدفق في ثبات

ـ نحن اشتراكيون، وهذا يعني أننا ضد الملكية الخاصة التي تفرّق الناس وتجعل بعضهم يقيم ضد بعض، وتخلق عداء بين المصالح لا وفاق له، وتلجأ إلى الكذب والخداع في محاولات ستر هذا العداء أو تبريره، ويفسد سائر البشر بالأكاذيب، والرياء، والحقد. نحن نعتقد أن مجتمعنا الذي ينظر إلى الفرد على أنه وسيلة للاثراء هو مجتمع لا

إنساني معاد لنا، فلا نستطيع قبول أخلاقه الكاذبة الثنائية؛ نحن نرفض وقاحة موقفه من الفرد ووحشيته؛ نحن نريد أن نناضل، ولسوف نناضل، ضدّ كل أشكال الاستعباد الجسدي والأخلاقي الذي يفرضه على الفرد مثل هذا المجتمع، ضد سائر وسائل سحق الكائنات البشرية في سبيل الجشع الأناني الشخصي. نحن العمال قوم نصنع سائر الأشياء من دمى الصغار حتى الآلات الجبارة بعملنا وكدِّنا، ومع ذلك فنحن قوم محرومون من حق الدفاع عن كرامتنا الإنسانية. يستطيع أي كان تسخيرنا لمآربه الشخصية، ولكننا نريد الآن أن نحقّق درجة من الحرية تمكننا من استلام سائر السلطات بأيدينا. وإن شعاراتنا بسيطة للغاية، فلتسقط الملكية الخاصة!، سائر وسائل الانتاج ملك للشعب، السلطة كلها للشعب، العمل واجب الجميع على حد سواء. ومن هنا تستطيعون أن تجدوا أننا لسنا مجرّد متمردين عصاة!

وأطلق بافل ضحكة قصيرة، وأرسل أصابعه في شعره ببطء، والتمع النور في عينيه الزرقاوين أكثر تألقاً منه في أي وقت آخر.

قال الرجل العجوز في صوت مرتفع واضح النبرات:

ـ أرجوك أن تتكلم ضمن الموضوع!

واستدار كي ينظر إلى بافل، فشخص للأم أن نوراً جشعاً خبيثاً التمع في عينه اليسرى الخابية. وأمعن سائر القضاة النظر في ابنها، وقد التصقت أعينهم بوجهه وجسده يريدون امتصاص قوته، متعطشين إلى دمائه حتى يبقوا الحياة في أجسادهم المنهوكة المضعضعة. ولكنه وقف هناك، طويل القامة، منتصب الظهر، قوياً باسلاً، يقول في صوت هادىء واضح النبرات وهو يمد يده نحوهم:

ـ نحن ثوريون، وسنبقى ثوريين ما دام البعض لا يفعلون إلا إصدار الأوامر، والبعض لا يفعلون إلا العمل والتنفيذ. نحن ضد ذلك المجتمع الذي أُمِرتم بالدفاع عن مصالحه: نحن أعداؤه اللُّد، كما أننا أعداؤكم

أيضاً، فليس من مصالحة ممكنة بيننا إذن ما لم ننتصر في نضالنا. وإننا، نحن العمال، لعلى يقين تام بالنصر! إن أسيادكم ليسوا بأقوياء كما يحسبون، فتلك الملكية الخاصة التي يضحون من أجل توسيعها وحمايتها بملايين الحيوات التي استعبدوها، تلك القوة بالذات التي تعطيهم السلطة علينا، تثير الشقاق فيما بينهم، وتدمرهم جسدياً ومعنوياً. إن تكاليف الدفاع عن الملكية الخاصة لباهظة. والحقيقة الراهنة أنكم، أنتم أسيادنا جميعاً، أكثر عبودية منا. إنكم مستعبدون روحياً ـ أما نحن فمستعبدون جسدياً فقط. أنتم عاجزون عن تحرير ذواتكم من نير العادات والتقاليد، هذا النير الذي قتلكم روحياً. ولكن شيئاً لا يمنعنا، نحن، عن أن نكون أحراراً في الروح. فالسموم التي تغذوننا بها أضعف من الترياق الذي تصبون، رغم إرادتكم، في ضمائرنا. وإن وعينا للحقيقة ينمو باطراد، وبسرعة متزايدة، وهو يجذب أفضل الناس ـ سائر أولئك السالمين أخلاقياً حتى اذا كانوا من بيئتكم الخاصة عينها. أنظروا فقط... أنتم لا تجدون من يستطيع القيام بدفاع أخلاقي عن سلطتكم لقد استهلكتم حتى الآن سائر الحجج التي يمكن أن تنقذكم من الهجمات الساحقة التي تشنُّها عليكم العدالة التاريخية. إنكم عاجزون عن خلق أية أفكار جديدة، فلقد أجدبتم فكرياً. بينما تنمو أفكارنا، وهي تلتهب بتألق متزايد الشدة والاشعاع، تشمل الجماهير الشعبية وتنظّم نضالها في سبيل الحرية. إن وعي الدور العظيم الذي سيلعبه العمال سيوحِّد أرواحهم في العالم كله في روح واحدة وليس لديكم شيء تجابهون به تجدُّد الحياة هذا، أللهم إلا الوحشية والصّفاقة. ولكن الصّفاقة كثيرة الوضوح، وأما الوحشية فتثير النقمة، وإن الأيدي المطبقة اليوم على أعناقنا سوف تمتد إلينا غداً في مصافحة أخوية. طاقتكم مضاعفة الذهب الآلية، وهي تقسمكم فرقاً، مصيرها أن يلتهم بعضها بعضاً؛ أما طاقتنا فتقوم في وعي حي متزايد الشدة باطراد، وعي تضامن سائر الشغيلة. كل ما تفعلون

إجرام، لأنه موجه نحو استعباد الناس؛ أكاذيبكم وجشعكم شروركم خلقت عالماً من الأشباح والأبالسة لإخافة البشر، وإنه لواجبنا أن نحررهم من هؤلاء الأبالسة. لقد انتزعتم الإنسان من الحياة ودمرتموه، ولكن الاشتراكية ستأخذ هذا العالم الذي هدمتموه وتعيد بناءه في كلّ واحد عظيم. ذلك سيحدث بكل تأكيد!

وتوقف بافل برهة عابرة، ثم ردد في نبرات أقوى وأعذب:

ـ ذلك سيحدث بكل تأكيد!

تهامس القضاة وكشروا بصورة غريبة دون أن يحيدوا بأعينهم الجشعة عن بافل، فأحست الأم أنهم يوسخون جسده القوي بنظراتهم المليئة حسداً لصحته، وقوته، وحيويته. وكان المساجين يستمعون إلى خطاب رفيقهم بانتباه شديد، شاحبي الوجوه، براقي الأعين سعادة وهناء. وكانت الأم تنهل كلاً من كلمات فتاها، فتنطبع في ذهنها في صفوف متراصة. ولقد قاطع الرجل العجوز بافل عدة مرات، محاولاً إيضاح شيء ما، حتى إنه كشَّر مرة عن ابتسامة كئيبة. وكان بافل يتوقف في كل مرة كي يعود فيتابع الحديث في ثبات رزين يجرُّ الناس للإصغاء إليه، مخضعاً إرادة القضاة لإرادته الخاصة. ولكن الرجل العجوز صاح أخيراً في عنف ومدَّ يده ملوحاً، فاتخذ صوتُ بافل، جواباً عليه، نغمةً من السخرية:

ـ إني أختم حديثي... ليس لي رغبة في إهانتكم شخصياً. بل إني امتلأت، على العكس، عطفاً نحوكم وأنا جالس ههنا شاهداً مرغماً على هذه المهزلة التي تسمونها محاكمة. إنكم كائنات بشرية رغم كل شيء، وإننا لنأسف دائماً عندما نرى الكائنات البشرية، حتى الذين يعادون قضيتنا، ينحطُّون هكذا بمثل هذا العار، ويتدهورون في خدمة الظلم، محرومين كل الحرمان من شعورهم بالكرامة الإنسانية...

جلس دون أن ينظر إلى القضاة، بينما ثبتت الأم أنظارها فيهم منقطعة الأنفاس وهي تنتظر.

كان وجه أندريه مشرقاً كل الإشراق وهو يضغط على يد بافل، وانحنى نحوه صموئيلوف، ومازين، والباقون جميعاً، فابتسم بافل مرتبكاً من حماسة رفاقه، وتطلع نحو أمه وأشار برأسه، فكأنه يسألها:

«هل أنت راضية؟».

فأجابت بتنهيدة سعيدة وقد أشرق وجهها بموجة دافئة من المحبة.

همس سيزوف:

ـ والآن، فإن المحاكمة الحقيقية تبدأ، لقد نخسهم جيداً، أليس كذلك؟

فهزّت رأسها ولم تفه بحرف، سعيدة لأن ولدها تكلم بكل تلك الجرأة ـ ولربما كانت أكثر سعادة لأنه انتهى من خطابه. وكان سؤال لا يفتأ يهاجم ذهنها بضرباته:

«والآن، ماذا تفعلون، يا ترى؟».

26

لم يقل ابنها شيئاً جديداً عليها، فقد كانت متآلفة مع سائر أفكاره. ولكنها أحست للمرة الأولى هنا، أمام المحكمة، بقوة إيمانه الغريبة الجاذبة. كانت مذهولة لرزانة بافل، فراح خطابه يتكاثف في صدرها مثل نجمة مشعة من الايمان بقضيته، وبانتصاره النهائي. وانتظرت أن يبدأ القضاة نقاشاً حاداً معه الآن، يناقضونه في غضب، ويقدمون آراءهم الخاصة. غير أن أندريه نهض واقفاً، وتأرجح في مكانه، ورمى القضاة بنظرة صارمة من تحت حاجبيه، وقال:

ـ يا حضرات المحامين...

فقال القاضي المعتل بصوت مرتفع غاضب:

ـ أنت تخاطب القضاة، ولا تخاطب المحامين...

وميَّزت الأم في وجه أندريه سيماء الخبث. ارتجف شارباه، والتمعت عيناه ببريق من المكر مألوف عنده، وحكّ رأسه بعنف بيده الطويلة وتنهد وهز رأسه وقال:

ـ حقاً؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة، بل محامين...

فلاحظ الرجل العجوز في جفاء:

ـ أرجوك أن تتحدث في الموضوع!

ـ في الموضوع؟ حسناً جداً! إني لأضطر نفسي إذن على القبول بكونكم قضاة حقاً، رجالاً شرفاء مستقلين...

ـ إن المحكمة لفي غنى عن تقديرك!

ـ هي في غنى؟ حسناً، ومع ذلك فسأتابع... فلنقل إذن إنكم قوم حياديون، غير متحيزين، دون «هذا لكم» و «هذا لنا». إن أمامكم فريقين، يقول أحدهما شاكياً: لقد سرقني وصفعني، والآخر يقول: إني أملك الحق في سرقة الناس وصفعهم لأني أملك بندقية....

فسأل الرجل العجوز، وهو يرفع صوته:

ـ هل أنت عاجز عن الحديث في الموضوع؟

كانت يداه ترتجفان، فابتهجت الأم وهي تراه غاضباً. ولكنها استاءت من سلوك أندريه... إن تصرفه لا يتناسق مع خطاب ابنها... إنها تريد أن تكون حججهم رزينة، وقورة.

رمى الأوكراني الرجل العجوز بنظرة في سكون قبل أن يتابع في رزانة، وهو يمسح رأسه:

ـ في الموضوع؟ ولِمَ أتكلم معكم في الموضوع؟ قال لكم رفيقي كل ما يجب أن تعرفوه في الوقت الحاضر. وإن آخرين سيقولون لكم البقية عندما يحين الوقت...

فأنهض الرجل العجوز نفسه في مقعده، وصاح:

ـ أمنعك من الكلام! جريجوري صموئيلوف!

فضم الأوكراني شفتيه، وجلس على مقعده بتكاسل. ووقف صموئيلوف إلى جانبه، وهو يدفع بخصل شعره المجعد إلى الوراء:

ـ المدعي العام دعا رفاقي برابرة، أعداء للحضارة...

ـ قيِّد نفسك بما يتعلق بمحاكمتك الخاصة!

ـ وهذا يتعلق بها. ليس هناك شيء لا يتعلَّق بالناس الشرفاء. ثم إني أرجوكم ألا تقاطعوني. ما هي حضارتكم؟ هذا ما أود معرفته.

فقال الرجل العجوز، وهو يعرِّي أسنانه:

ـ لسنا هنا لنخوض نقاشاً معكم! انتقل إلى القضية!

إن تبدلاً واضحاً طرأ على القضاة بعد كلمات أندريه، فكأنها كنَّست شيئاً كان عالقاً بهم، فظهرت بقع حمر على وجوههم الرمادية، وراحت شرارات خضر باردة تلتمع في عيونهم: لقد ثارت نقمتهم لخطاب بافل، ولكن قوة كلماته أجبرتهم على احترامه، والامتناع عن التعبير بالكلام عن نقمتهم هذه. ولكن الأوكراني أزاح ذلك العائق، وكشف عما كان يكمن وراءه، فراحوا يتهامسون، مكشرين بصورة غريبة، مهتاجين بشدة حتى أصبحت حركاتهم سريعة جداً، غير معهودة في القضاة.

ـ إنكم تعلمون الناس كيف يكونون جواسيس، تفسدون النساء والفتيات. وتجعلون من الرجال لصوصاً وقتلة، وتسممونهم بالفودكا، والحروب الدولية، والأكاذيب العامة، والعربدة، والجهالة... تلك هي حضارتكم! وإننا لأعداء مثل هذه الحضارة!

فصاح الرجل العجوز وهو يرفع ذقنه:

ـ أرجوك!

لكن صموئيلوف ردّ عليه، مضرّج الوجه، براق العينين، صائحاً:

ـ نحن نحترم ونقدّر تلك الحضارة الأخرى التي تُلقون بخالقيها في السجن كي يتعفنوا ويضيعوا عقولهم...

ـ أمنعك عن الكلام! فيودور مازين!

فهبَّ مازين الصغير على قدميه، منتصباً ناحلاً كالخرز، قال بصوت متقطع:

ـ إني... إني أقسم! أنا أعلم أنكم أصدرتم سلفاً حكمكم عليَّ!

شحب وجهه كثيراً حتى بدا أن عينيه هما كل ما بقي منه. صاح، وهو يهزُّ قبضته:

ـ أنا ـ أقسم لكم بشرفي ـ أينما أرسلتم بي، فلسوف أتدبر أمر هربي بطريقة ما، وأتابع العمل والنشاط دائماً ـ طوال حياتي. إني أقسم على ذلك!

أرسل سيزوف فحيحاً عالياً وتململ في مقعده، واجتاحت موجة من الضجيج المكتوم الغريب الجمهور المتفاقم الهياج، وبكت إحدى النساء، بينما أصابت أحد الحاضرين نوبة عنيفة من السعال. وتطلع رجال الدرك إلى المساجين في ذهول، وإلى المتفرجين في غضب. وتمايل القضاة في مقاعدهم في حين صاح الرجل العجوز بصوت حاد:

ـ إيفان جوسيف!

ـ ليس لديّ ما أقول!

ـ فاسيلي جوسيف!

ـ وكذلك أنا!

ـ فيودور بوكين!

فنهض الفتى المبيض، الخرنوبي الشعر، في تثاقل، وقال ببطء وهو يهز رأسه:

ـ يجب أن تخجلوا من أنفسكم. إني رجل قليل الثقافة ولكني أستطيع مع ذلك فهم ما هو عدل!

ورفع يده فوق رأسه ولاذ بالصمت، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة فكأنه يرنو إلى شيء ما في المنتأى. وصاح الرجل العجوز في دهشة غاضبة، وهو يرتمي إلى الوراء في مقعده:

ـ ما هذا؟

جلس مكفهر الوجه. كان في كلماته القاتمة شيء كثير الضخامة والأهمية، شيء من العتاب المكتئب الساذج. ولقد أحسّ ذلك سائر الحاضرين، لا بل إن القضاة أيضاً أصاخوا بسمعهم فكأنهم يتوقعون صدى يكون أوضح من أقوال بوكين نفسها. وخيّم سكون متجلد على المتفرجين لا يحطمه إلا غصات من البكاء خافتة مرتعشة. وأخيراً هزّ المدعي العام كتفيه وأرسل ضحكة قصيرة، وسعل رئيس مجلس النبلاء، وشملت القاعة من جديد موجة من الوشوشة.

همست الأم في أذن سيزوف:

ـ هل يتكلم القضاة؟

ـ لقد انتهى كل شيء، ولم يبقَ إلا الإدانة...

ـ لا شيء سواها؟

ـ لا...

لم تستطع أن تصدقه.

كانت والدة صموئيلوف تتحرك باضطراب دائب فوق دكتها، وهي تدفع بيلاجيا بكتفها ومرفقها. سألت زوجها بصوت خافت:

ـ ما هذا؟ كيف يمكن ذلك؟

ـ كما ترين، إنه ممكن تماماً.

ـ وماذا يفعلون بجريشا؟

ـ أفٍ، دعيني وشأني...

كان الجميع يحسون وقوع بعض تشقق في داخلهم ويدركون حدوث بعض تمزق، انحطام شيء لم يكن منتظراً، فطفقوا يطرفون بأعينهم دون فهم، فكأنهم يراقبون كتلة غير واضحة الحدود، غامضة المعنى، لكن ذات قوة لا تقاوم، تحترق بلهيب عظيم. وراح الناس، دون أن يفهموا هذا الشيء العظيم الذي كُشف النقاب عنه بغتة أمام أعينهم، يبعثرون

بتسارع هذا الشعور غير المألوف في أمور تافهة يستطيعون فهمها. سأل بوكين البكر في همس مرتفع دون أن يخجل:

ـ إسمعوا ـ لِمَ لا يتركونهم يقولون ما يريدون قوله؟ لقد تركوا المدعي العام يقول ما يحلو له، وما شاءت له قريحته أن يقول...

وكان أحد الحجّاب يقف قرب المقاعد، فلوَّح بيده في وجه الناس وقال محذراً بصوت غير مرتفع:

ـ هدوءاً، هدوءاً...

وانحنى صموئيلوف من وراء ظهر زوجته، وراح يتمتم بكلمات متكسرة:

ـ حسناً، فلنقل إنهم مذنبون، ولكن أعطوهم فرصة كي يوضحوا ما يريدون! ضد من هم؟ هذا ما أريد معرفته. ذلك يثير اهتمامي أنا أيضاً...

فحذّر الحاجب، وهو يهزُّ إصبعه في وجه صموئيلوف:

ـ صه!

فهز سيزوف رأسه في كآبة.

أجالت الأم نظرها في القضاة فلاحظت أن انفعالهم يتزايد، وهم يتحادثون بصورة غير واضحة. وكان صدى أصواتهم البارد اللزج يلفح وجهها فيرتعش له خداها، ويمتلىء فمها بطعم كريه مزعج. وخيل إليها، لسبب ما، أنهم يتكلمون عن أجساد ابنها ورفاقه، عن عضلات هؤلاء الفتيان وأعضائهم الطافحة دماً حاراً وقوة حية. إن مثل هذه الأجساد لتثير فيهم حسد المتسولين الوضيع، وذلك النهم الرديء الدبق الذي يتملك عادة نفوس المرضى المنهكين. إنهم يطقطقون بشفاههم، ويتحسرون على خسارة مثل تلك الأجساد القمينة بالعمل وزيادة الغنى، الضمينة بأن تكون خلّاقة، وأن تتمتع بالحياة. ولكن هذه الأجساد تترك الآن ميدان الحياة العملي وترفضها وأصبحت ممتنعة بعد الآن على

الامتلاك، والاستثمار، والاستهلاك. وذلك هو السبب في أن هؤلاء الفتيان يثيرون في القضاة الشيوخ تلك النقمة القارصة، المتعطشة إلى الثأر، التي تحسها الحيوانات المستضعفة حين ترى الطعام الطازج أمام عينيها ولكنها تفتقر إلى القوة اللازمة للإمساك به، هذه الحيوانات التي لم تعد بقادرة أن تنال شبعها من قوى المخلوقات الأخرى، بل كان عزمها أن تزمجر وتعوي إذ ترى وسيلة طيبة لإرواء غليلها تفلت منها وتضيع عليها.

كانت هذه الأفكار الغريبة الفجة تتضح في ذهنها أكثر فأكثر كلما زادت إمعاناً في دراسة القضاة. وهدهد لها أنهم لا يبذلون أدنى جهد كي يخبئوا ذلك الجشع الشديد وهذا الغيظ العاجز اللذين يميزان المخلوقات الجائعة التي عرفت يوماً معنى الشبع والتخمة. وكان يخيفها ـ وهي المرأة والأم التي جسد ابنها أعزُّ عليها في آخر تحليل، مما يطلقون عليه اسم النفس ـ أن ترى هذه الأعين الخابية تزحف على وجهه، وتلمس صدره وكتفيه وذراعيه، وتحتك ببشرته الحية فكأن هذا الاحتكاك سيدفىء الدم الجاري في أوردتهم الضامرة، وعضلاتهم المنهوكة نصف الميتة. إن وخزات الجشع والحسد التي يلسعهم بها تأمل هؤلاء الفتيان الذين قدر لهم أن يدينوهم، فيحرمون بذلك أنفسهم من أجسادهم إلى الأبد، لتبعث الحياة فيهم نوعاً ما. وبدا لها أن بافل يعي هذا الاحتكاك الرطب الكريه، فينظر إليها مرتعشاً مرتجف الأوصال.

ترنّى بافل إليها في هدوء وحنان وفي نظرته ظل من الإعياء. ومن وقت لآخر كان يشير اليها برأسه ويبتسم. وقرأت في ابتسامته، الأشبه ما تكون بلمسات قلبها اللطيفة، هذه الكلمات: «الحرية ـ عما قريب!».

نهض القضاة فجأة، فنهضت الأم أيضاً دون وعي منها. قال سيزوف:

ـ ها هم ذاهبون!

فسألت الأم:

ـ من أجل الإدانة؟

ـ نعم. . .

انقطع التوتر الذي كانت ترزح تحته على حين بغتة، فاجتاحها إعياء شديد خانق. وراح حاجـباها يرتجفان، وانبثقت قطرات من العرق فوق جبينها، وانبجس في قلبها شعور ثقيل الوطأة من الأذى وخيبة الأمل، سرعان ما استحال إلى كراهية للقضاة والمحكمة جميعاً. وأحست ألماً شديداً في الحاجـبين فأمرّت يدها على جبينها بشدة وتطلعت حواليها. كان أقارب المساجـين قد انطلقوا نحو القضبان، وقاعة المحكمة غاصة بدوي الأحاديث، فذهبت بدورها إلى بافل، وضغطت على يده وأجهشت بالبكاء وقد طفح قلبها ألماً وفرحاً في وقت واحد، وضاعت في تيه من العواطف المتناقضة. راح بافل يحادثها في لطف، بينما الأوكراني يضحك ويهزل.

بكت سائر النسوة، لا غماً، بل خضوعاً لطبيعة البكاء. لم يكن ثمة أي غم ساحق يسقط من العلاء غير منظور وعلى غير انتظار، بل كان ثمة ضرورة الفراق عن أبنائهن، وهذه الضرورة المكتئبة التي خففت من وطأتها أيضاً انفعالات هذا النهار. كان الآباء والأمهات ينظرون إلى أبنائهم بمشاعر مختلطة يمتزج فيها ـ بصورة غريبة ـ الارتياب والتشكك بالشباب وإِحساس تفوُّقهم المعتاد على فتيانهم، بشعور أقرب ما يكون إلى الاحترام. إن الفضول الذي أثاره هؤلاء الفتيان الذين تكلموا بكل تلك الجرأة غير الهيابة عن بناء حياة أخرى أفضل من هذه ليكسف تلك الأفكار الكئيبة الملحاحة التي تراودهم عن حياتهم بعد الآن. وكُظمت العواطف لاستحالة التعبير عنها، ولكن الكلمات كانت غزيرة عن توافه الأمور مما يتعلق بالثياب، والبياض، وضرورة العناية بالصحة.

وراح بوكين البكر يلوح بذراعيه وهو يحاول إقناع أخاه الأصغر:

ـ العدالة ـ تلك هي القضية! ولا شيء آخر!

فأجاب الأخ الأصغر:

ـ اعتنِ جيداً بزرزوري...

ـ سأفعل!

وأمسك سيزوف بابن أخيه من يده، وقال في تماهل:

ـ حسناً، يا فيودور هذا يعني أنك تغادرنا...

فانحنى فيودور وهمس شيئاً في أذنه وهو يبتسم في خبث. وكذلك ابتسم جندي الحرس القريب منهما، ولكنه أسرع يستعيد هيئته الصارمة وهو يتنحنح.

حدّثت الأم فتاها مثل بقية النسوة تماماً ـ عن الثياب وعن صحته ـ ولكن صدرها كان مليئاً بآلاف الأسئلة المتعلقة بساشا، وبها هي نفسها وبه أيضاً، تقبع تحت هذا كله موجة هائلة من المحبة لابنها، ورغبة عظيمة في إدخال السرور إلى قلبه، وفي أن تكون قريبة من فؤاده حتى الدرجة القصوى. وولى ذلك الخوف من حدوث شيء ما كثير الرهبة، تاركاً ارتعاشاً مقيتاً لدى ذكرى القضاة، وتلك الانطباعات القاتمة المتوارية في أعماق ذهنها. كانت تحسُّ ولادة فرح عظيم براق في جوفها لم تكن تفهمه، وترتبك بسبب هذا. وإذ رأت أن الأوكراني يتكلم مع الجميع، وأنه يحتاج إلى حنانها أكثر مما يحتاج بافل إليه، استدارت نحوه تحدثه. قالت:

ـ إني لم أعجب بمحاكمتكم هذه!

فاستجلى، وعلى شفتيه ابتسامة امتنان:

ـ لِمَ لا، يا أميمة؟ الطاحون عتيق. ولكنه جيد كالعقيق.

فقالت في تردد:

ـ ليس فيها ما يخيف، ولكنها لا توضح لك أين هو الحق، وأين هو الباطل...

فهتف أندريه:

ـ أوه! إذن فهذا ما تريدين؟ أتحسبين أنهم معنيون بالبحث عن الحقيقة؟

فقالت، وهي تتنهد وتبتسم:

ـ لقد كنت أظن أنها ستكون مخيفة...

ـ المحكمة!

فأسرع كل إلى مكانه.

اعتمد رئيس القضاة المائدة بيد واحدة، بينما أمسك بورقة في يده الأخرى قريبة من وجهه، وراح يقرأ بصوت ضعيف مدوٍ يشبه طنين نحلة.

قال سيزوف مرهف السمع:

ـ إنها الإدانة!

جثم السكون على القاعة، وقد وقف الجميع وأعينهم عالقة بالرجل العجوز الذي أشبه في ضآلته وانتصابه وجفافه عصا تمسك بها يد غير منظورة. وكان بقية القضاة وقوفاً أيضاً؛ رئيس المحافظة، وقد مال رأسه على أحد الجانبين وعلقت عيناه بالسقف؛ والعمدة، وقد تصالبت يداه فوق صدره؛ ورئيس مجلس النبلاء، وهو يمشط لحيته؛ والقاضي المعتل وزميله البدين والمدعي العام، وهم ينظرون في اتجاه المساجين. ووراء القضاة كان القيصر يتطلع من صورته، متألقاً في بزة حمراء، وسيماء اللامبالاة تكسو وجهه الأبيض الذي تزحف فوقه الآن حشرة صغيرة.

قال سيزوف، وهو يتنهد ارتياحاً:

ـ النفي! حسناً، شكراً لله على أن كل شيء انتهى. لقد قالوا: «الأشغال الشاقة». لا بأس يا أماه، لا بأس!

فقالت في صوت متعب:

ـ كنت أعلم ذلك.

ـ وعلى أية حال، فنحن نعرف الآن بكل التأكيد، أما قبل فمن كان يدري؟

واستدار نحو المساجين وهم يغادرون القاعة، وصاح:

ـ إلى اللقاء، يا فيدور! وأنتم جميعاً أيضاً! يحفظكم اللّه!

وأشارت الأم برأسها في سكون إلى ابنها والباقين، وأرادت أن تبكي، لكنها خجلت من نفسها.

27

دهشت عندما خرجت من قاعة المحكمة إذ شاهدت الليل يرين على المدينة. كانت المصابيح تلتهب في الشوارع، والنجوم تتلألأ في السماء. وقد تجمهرت جماعات من الناس قرب بناء المحكمة، يدوي صوت الثلج المتجمد وهو يتكسر تحت أقدامهم في الهواء القارس، وتتردد بينهم أصوات فتية تقاطع بعضها بعضاً. تطلع رجل يلبس قبعة رمادية في وجه سيزوف، وسأل بسرعة:

ـ ما هو الحكم؟

ـ النفي.

ـ للجميع؟

ـ نعم.

ـ شكراً!

وابتعد الرجل، فقال سيزوف:

ـ أترين؟ الناس مهتمون بالقضية...

أحاط بهما بغتة عشرة من الفتيات والفتيان، يمطرونهما بوابل من الأسئلة فيجتذبون أناساً آخرين ينضمون إلى حلقتهم النامية باطراد. وتوقفت الأم وسيزوف معاً يتلقيان الأسئلة عن الإدانة وعن سلوك المساجين، وعن الذين ألقوا الخطب وماذا قالوا فيها... وكانت سائر

هذه الأسئلة تطفح بفضول مشوق متلهف تبعث حميته وصدقه في النفس رغبة جموحاً في إرضائه.

قال أحد الواقفين بصوت غير مرتفع:

ـ أيها السادة! هذه والدة بافل فلاسوف!

فسيطر السكون على الجميع بعد برهة.

ـ إسمحي لي بمصافحتك!

وأمسكت يد قوية بأصابع الأم، وارتفع صوت منفعل يقول:

ـ سيكون ابنك لنا جميعاً مثالاً للشجاعة والإقدام.

وترددت صيحة مرتفعة:

ـ عاش العامل الروسي!

وازدادت الهتافات وتضاعفت. وهي تنطلق تارة من هنا وتارة من هناك. وتراكض الناس من كل حدب وصوب يتحلّقون حول الأم وسيزوف. ورنت صفارات رجال الشرطة تقطع الفضاء، ولكنها لا تستطيع خنق الأصوات أو إغراقها في لعلعتها. وكان سيزوف يضحك، أما الأم فيتراءى لها أنّ ذلك كله إنْ هو إلا حلم جميل، فتبتسم وتنحني وتروح تضغط على أيدي الناس وحلقها غاص بدموع الفرح، ورجلاها ترتجفان إعياء، فيما قلبها الطافح بهجة وسعادة يعكس سائر الانطباعات مثل سطح بحيرة براق لامع. وبدأ شخص قريب منها يتكلم بصوت عصبي واضح النبرات:

ـ أيها الرفاق! إن الوحش الذي يلتهم الشعب الروسي قد أطبق اليوم أيضاً بأنيابه الشريرة الجشعة على...

وقال سيزوف:

ـ هيا بنا، يا أماه!

ظهرت ساشا في هذه اللحظة من مكان ما، وتأبطت ذراع الأم وقادتها بسرعة إلى الرصيف الآخر من الطريق. قالت:

ـ هيا بنا قبل أن يحدث اصطدام مع الشرطة، أو يعتقل بعض الحاضرين. النفي إلى سيبيريا؟

ـ نعم!

ـ وكيف تكلم؟ ولكنني أعلم ـ لقد كان أقوى الجميع، وأبسطهم أيضاً، وأكثرهم صرامة بكل تأكيد. إن طبيعته حنون مرهفة الشعور، ولكنه يخجل من إظهار ذلك.

هدأت من روع الأم كلمات حبها هذه، المهموس بها بكل تلك الحماسة وبكل تلك الحمية، وبعثت فيها قوة جديدة، فسألت ساشا في هدوء ولطف وهي تضغط على ذراعها:

ـ ومتى ستلحقين به؟

فأجابت الفتاة، وهي تنظر في ثقة إلى الأمام منها:

ـ حين أجد من يستلم عملي هنا. وعلى أية حال، فإني أنتظر إدانة بدوري، ومن المحتمل أن يرسلوني إلى سيبيريا أيضاً، فإن فعلوا سألتهم أن يرسلوني إلى حيث أرسلوه.

فجاء صوت سيزوف يقول من ورائهما:

ـ وفي هذه الحال بلّغيه تحياتي، قولي له فقط: «من سيزوف». إنه يعرفني، فأنا عم فيودور مازين...

فتوقفت ساشا واستدارت إليه ومدت له يدها:

ـ إني أعرف فيودور، واسمي ساشا.

ـ واسم أبيك؟

فتطلعت في وجهه، وأجابت:

ـ ليس لي أب.

ـ هل مات؟

ـ كلا لم يمت!

وأجابت الفتاة بانفعال. رنَّ في صوتها شيء عنيد صارم، وانعكس في تقاطيع وجهها أيضاً:

ـ إنه اقطاعي، ورئيس مجلس ناحية الآن... يسرق الفلاحين...

ـ كذا؟

قال سيزوف ذلك في ارتباك وراح يسير إلى جانب الفتاة في سكون، وهو يرشقها بنظرات جانبية طوال الوقت. قال أخيراً:

ـ إلى اللقاء، يا أم! إني ذاهب من اليسار ههنا. إلى اللقاء، يا فتاتي. أنت قاسية على أبيك هذا، أليس كذلك؟ بالطبع، ذلك من شأنك وحدك...

فصاحت ساشا في انفعال وحمية:

ـ إن كان ابنك شريراً، إن كان يؤذي الشعب وأنت تحتقره، أفما كنت تقول ذلك؟

فأجاب الرجل الهرم بعد لحظة من الصمت:

ـ كنت أقوله بالطبع!

ـ وهذا يعني أن العدالة أعزُّ عليك من ابنك، وإنها لأعزُّ عليَّ من والدي...

فابتسم سيزوف، وهزَّ رأسه وتنهد. ثم قال:

ـ هكذا إذن! تعرفين كيف تتكلمين! إذا كنت ستبقين على هذه الحال فيما بعد أيضاً لا بدّ ستقهرين الشيوخ مثلي وتتغلَّبين عليهم... إنك لقوية جداً! إلى اللقاء، ولك أفضل تمنياتي. ولكن ما رأيك في أن تكوني أرحم بالناس قليلاً؟ إلى اللقاء، يا نيلوفنا. عندما ترين بافل، قولي له إني سمعت خطابه. إني لم أفهم كل ما جاء فيه، ولقد كان بعضه مخيفاً نوعاً ما، ولكنه كان صحيحاً وحقاً على العموم!

رفع قبعته، واختفى وراء الزاوية في وقار.

قالت ساشا، وهي تتبعه بنظرة مبتسمة من عينيها الواسعتين:

ـ يبدو أنه شخص رائع!

واستبان للأم أن وجه الفتاة اليوم ألطف وأرق منه عادة.

عندما بلغتا الدار جلستا متجاورتين على الديوان وبدأت الأم من جديد تتحدث عن سفر ساشا للحاق بباڤل. ووجدت الأم السكون مريحاً، أما ساشا فرفعت حاجبيها الكثيفين في تفكر وراحت تنظر في المدى أمامها بعينين واسعتين حالمتين، وعلى محياها الشاحب سيماء التأمل الرزين.

ـ عندما يولد أطفالكما، فسألحق بكما للعناية بهم، ولن تكون حياتنا أسوأ منها ههنا. ولن يصعب على باڤل أن يجد عملاً. فهو يستطيع أن يفعل بيديه أي شيء كان...

فتطلعت ساشا إلى الأم متسائلة، وقالت:

ـ أفلا تنوين اللحاق به منذ الآن؟

فأجابت الأم، وهي تتنهد:

ـ وما حاجته إليّ؟ لن أفعل إذن إلا مضايقته واعتراض سبيله فيما لو أراد الفرار. لن يقبل أبداً بذهابي معه...

فأشارت ساشا برأسها، وقالت:

ـ أنت على حق، فهو لن يقبل أبداً.

وأضافت الأم في شيء من الخيلاء:

ـ وبالاضافة، فهناك عملي ههنا!

قالت ساشا في تفكر:

ـ نعم، وهذا حسن...

انتفضت فجأة، فكأنها تلقي بعيداً عنها بشيء يثقل عليها، .وشرعت تقول في هدوء وبساطة:

ـ لن يقبل بالعيش هناك. ومن المؤكد أنه سيهرب...

ـ وماذا عنك؟ وعن الطفل، إن كان ثمة طفل؟

ـ سوف نرى ذلك في حينه. يجب ألا يأخذني بعين الاعتبار، وأنا لن أسمح لنفسي قط بالوقوف في طريقه. وسيصعب عليّ كثيراً الافتراق عنه، ولكني سأتدبر أمري طبعاً. لن أقف أبداً في طريقه! أبداً!

وأدركت الأم أن ساشا قمينة تماماً بأن تفعل ما تقول، فرثت لها. قالت، وهي تعانقها:

ـ سيكون ذلك قاسياً عليك، يا عزيزتي!

فابتسمت ساشا في حنان والتصقت بجسدها بالأم. وفي تلك اللحظة دخل نيقولاي، متعباً مجهد القوى، وقال بسرعة وهو يخلع معطفه:

ـ يفضل أن تولي الادبار، يا ساشنكا، قبل أن يفوت الأوان! إن جاسوسين لم يكفا عن ملاحقتي منذ الصباح... بصورة مكشوفة للغاية حتى لتفوح رائحة الاعتقال منها، وإن حدسي لا يخدعني أبداً، فلا ريب أن شيئاً حدث. وعلى فكرة، إليك خطاب بافل... لقد قررنا أن نطبعه. خذيه إلى لودميلا، واسأليها أن تعمل بأقصى ما تستطيع من سرعة. لقد ألقى بافل خطاباً رائعاً، يا نيلوفنا... انتبهي إلى الجواسيس، يا ساشا...

فرك يديه المتجمدتين وهو يتكلم، ثم ذهب إلى مكتبه وبدأ يُخرج بسرعة أوراقاً من الجرارات مزَّق بعضها، ووضع بعضها الآخر جانباً. كان أشعث الشعر مشغول البال:

ـ لقد مضى زمن غير طويل منذ نظَّفت هذه الجرارات للمرة الأخيرة، والشيطان وحده يعلم من أين جاءت كل هذه الأشياء إليها. وأعتقد أنه يحسُن ألا تقضي الليل في الدار، يا نيلوفنا. ما رأيك؟ لمن المضجر أن يشاهد المرء هذه المهزلة. ثم قد يأخذونك أنت الأخرى. ولكن ينبغي لك أن تحملي خطاب بافل هنا وهناك...

ـ وماذا عساهم يريدون مني؟

فلوّح نيقولاي بيده أمام عينيه، وهو يقول في حزم:

ـ إن لدي أنفاً يشمُّ مثل هذه الأمور. ثم إنك تستطيعين تقديم يد المعونة إلى لودميلا، فمنْ الخير ألا تتعرضي للخطر إذن...

سُرَّت الأم بفكرة المساهمة في طبع خطاب ابنها، فقالت:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فسوف أذهب.

وأضافت مندهشة من نفسها في هدوء وحزم:

ـ لا أخاف الآن من شيء على الاطلاق، فشكراً لله!

فهتف نيقولاي، دون أن ينظر إليها:

ـ رائع! ولكن الأفضل أن تقولي لي أين هي حقيبتي وثيابي. لقد أطبقت على كل شيء بيديك هاتين، حتى أصبح يستحيل عليّ العثور على ممتلكاتي نفسها.

كانت ساشا تحرق الأوراق في الموقد بسكون، وهي تخلط في عناية الرماد بالفحم.

قال نيقولاي، وهو يمدّ يده إليها:

ـ آن لك الذهاب، يا ساشا! إلى اللقاء! لا تنسي أن ترسلي إليَّ ما يظهر من كتب هامة. إلى اللقاء، أيتها الرفيقة العزيزة. كوني حذرة...

فسألت ساشا:

ـ هل تتوقع مدة اعتقال مديدة؟

ـ الشيطان وحده يدري! الظاهر أنهم يملكون أدلّة ضدي. ألا يفضل أن ترافقيها، يا نيلوفنا؟ إن ملاحقة شخصين معاً أصعب من ملاحقة كل بمفرده.

ـ هل تذهبين؟

فأجابت الأم:

ـ حسناً، سأرتدي ثيابي في لحظة واحدة...

وراحت تراقب نيقولاي ملياً، ولكنها لم تستطع أن تميّز فيه شيئاً غريباً، أللهم إلا ذلك القناع الشاف من القلق الذي يكسو تقاسيم وجهه بسيمائها المألوفة من الرقة واللطف. ما كان يصدر عن هذا الرجل، وقد أضحى أعزّ على قلبها من الآخرين جميعاً، حركة تنمُّ عن عصبية أو إشارة تدل على اضطراب وانفعال. لقد حدب دائماً على الجميع بالعناية عينها، وكان في كل حين لطيفاً هادئاً، وحيداً أبداً.

وهو ما برح الآن في نظر الجميع، مثله قبلاً، إنساناً يعيش حياة باطنية خفية تتقدم سائر الحيوات وتسبقها. وكانت تدرك أنه أقرب إليها من الباقين جميعاً، وأنها تحبه مع ذلك حباً حذراً غير وطيد الثقة في نفسه. أما الآن فهي ترثي له بصورة لا تطاق ولا تحتمل، ولا تجرؤ مع ذلك على إظهار إشفاقها لأن هذا سيلقي الاضطراب والارتباك في نفسه، فيبدو عندئذ مضحكاً نوعاً ما، وهي لا تريد أن تراه على هذه الحال.

عندما عادت إلى الغرفة وجدت نيقولاي ممسكاً بيد ساشا، وهو يقول:

ـ رائع! إني لعلى يقين من أن ذلك حسن لك وله على السواء، فقليل من السعادة الشخصية لا يؤذي أحداً. هل أنت مستعدة، يا نيلوفنا؟

اقترب منها، وهو يبتسم ويصلح من وضع نظارتيه:

ـ حسناً، إلى اللقاء... بعد ثلاثة أو أربعة شهور... بعد ستة شهور في نهاية الأمر كما أرجو... ستة شهور... إنها لقطعة كبيرة من الحياة... اعتني بنفسك، أرجوك، والآن فلنتعانق...

أحاطها، نحيلاً رقيقاً، بذراعيه القويتين وتطلع في عينيها، ثم ضحك قائلاً:

ـ يبدو أني وقعت في حبك، حتى أعانقك هكذا!

قبلت جبينه وخديه، دون أن تقول شيئاً، ولكن يديها كانتا ترتجفان، فأبعدتهما حتى لا يلاحظ ما اعتراهما من ارتعاش.

ـ كوني حذرة غداً! وإليك ما يجب أن تفعليه: أرسلي صبياً صغيراً إلى هنا صباحاً. يعيش في بيت لودميلا مثل هذا الصبي. حتى يتحقق مما حدث. حسناً، إلى اللقاء، أيتها الرفيقتان! كل شيء على ما يرام!

وعندما وصلتا الشارع، قالت ساشا في هدوء:

ـ إذا اضطر يوماً أن يمضي إلى ملاقاة الموت، مضى إليه بمثل هذه البساطة وبتسرع نوعاً ما كما في هذه المرة. وعندما ينظر الموت إليه

متطلعاً في محياه، فسوف يُصلح من وضع نظارتيه ويقول: «رائع!»، ثم يموت.

فقالت الأم همساً:

ـ إني أحبه!

ـ إنه يدهشني، ولكني لا أحبه. إني أحترمه كل الاحترام، فهو لطيف، بلْهَ حنون في بعض الأحيان، ولكن فيه شيئاً جافاً... إنه ليس إنسانياً بصورة كافية... يبدو أننا ملاحقتان، فالأفضل أن نفترق ـ لا تذهبي إلى لودميلا إذا وجدت أنك متبوعة.

ـ أعلم هذا!

لكن ساشا استمرت تقول في إصرار:

ـ لا تذهبي، بل تعالي إلى بيتي. إلى اللقاء الآن!

واستدارت بسرعة، وعادت أدراجها من حيث أتت.

28

كانت الأم تجلس، بعد عدة دقائق، في غرفة لودميلا الصغيرة بجانب الموقد تتدفأ، فيما صاحبة الدار، المرتدية ثوباً أسود محزوماً بزنار من الجلد في وسطه، تذرع الأرض ذهاباً وإياباً في بطء، وهي تملأ الغرفة بحفيف ثوبها ورنين صوتها الآمر. وكانت النار تطقطق وتعوي في الموقد وهي تمتص الهواء، وصوت المرأة يسبح ثابتاً متساوي النبرات:

ـ الناس بلهاء أكثر بكثير منهم أشراراً، فهم لا يستطيعون رؤية سوى ما هو تحت أنوفهم، ما يمكن تناوله سريعاً. ولكن كل ما هو في متناول اليد رخيص... والأشياء البعيدة هي الثمينة العزيزة. من حيث الجوهر لو كانت الحياة على غير ما هي عليه... لو أنها أيسر والبشر أعقل

لكان ذلك أكثر فائدة وراحة للجميع. ولكن لا بدّ، كي نحقق ذلك، من خوض غمار بعض المشاكل في الوقت الحالي...

ووقفت فجأة تجاه الأم، وقالت في هدوء أكثر وكأنها تعتذر:

ـ إني لا أرى الناس إلا قليلاً، وعندما يأتي أحد لزيارتي فإني أروح في ثرثرة لا نهاية لها. هذا مضحك، أليس كذلك؟

ـ فقالت الأم:

ـ لماذا؟

حاولت أن تعرف أين تقوم هذه المرأة بطبع منشوراتها وكراساتها، فلم تستطع اكتشاف شيء غير طبيعي البتة. كانت في هذه الغرفة، بنوافذها الثلاث المطلة على الشارع، أريكة ومكتبة ومائدة وبضعة مقاعد وسرير إلى جانب الجدار. وكانت مغسلة تحتل إحدى الزوايا قرب السرير، والموقد يحتل زاوية أخرى، وصور فوتوغرافية للوحات معلقة على الجدران الأربعة في كل الجهات. وكان كل شيء جديداً نظيفاً متيناً، ولكن المرأة الصارمة تلقي على سائر الأشياء ظلاً بارداً. وأحست الأم أن ثمة شيئاً مخيفاً، ولكنها لم تستطع تخمين مكانه. تطلعت إلى البابين: أحدهما يطل على الرواق الصغير وقد دخلت منه؛ أما الثاني، وهو مرتفع ضيق، فينتصب إلى جانب الموقد. قالت مرتبكة، وهي تحسُّ أن لودميلا تراقبها:

ـ لقد جئت في عمل!

ـ أعلم ذلك فالناس لا يأتون لزيارتي إلا من أجل عمل ما.

خيل إلى الأم أنها تميز نغمة غريبة في صوت لودميلا. فتطلعت في محياها لترى ابتسامة شاحبة مرتسمة على شفتيها الرقيقتين ولمعان عينيها الخابيتين وراء زجاج نظارتيها، فردَّت ناظريها إلى إحدى الزوايا، ومدَّت يدها بخطاب بافل:

ـ خذي. هم يودون منك أن تطبعي هذا في أسرع وقت ممكن.

ثم حدثتها عن توقع نيقولاي لاعتقاله:

دسَّت لودميلا الورقة في حزامها دون أن تنبس ببنت شفة ثم جلست، فالتمعت انعكاسات النار، حمراء زاهية، على زجاج نظارتيها، بينما راحت ابتسامتها الدافئة تتلاعب فوق وجهها الجامد. قالت في هدوء وحزم بعد أن أصغت إلى أقوال الأم:

ـ عندما يأتون ورائي فسوف أطلق النار عليهم! إني أملك الحق في الدفاع عن نفسي ضد العنف، ولا بدَّ لي من إشعال نار القتال ضده، ما دمت أدعو الآخرين إلى ذلك.

وتلاشى لمعان النار عن وجهها، فأضحى مرة أخرى صارماً، متكبراً نوعاً ما.

فكرت الأم في رفق فجأة:

«إن حياتك لبائسة!».

وشرعت لودميلا تقرأ خطاب بافل بإحجام وتردد، ولكنها راحت تنحني أكثر فأكثر على الورقة وهي تتابع القراءة، حتى انتهت إلى إلقاء الصفحات جانباً، الواحدة تلو الأخرى، في لهفة ونفاد صبر. وأخيراً نهضت، وشدت كتفيها منتصبة القامة، واقتربت من الأم.

قالت:

ـ خطاب رائع جداً.

ووقفت لحظة مطرقة الرأس.

ـ لا أريد أن أتحدث إليك عن ابنك... فأنا لم ألتق به أبداً، كما أني لا أحب الأحاديث المؤلمة. إني أعرف معنى الألم الذي يعتصر القلب عندما يُرسل إلى المنفى إنسان عزيز على القلب جداً. ولكن أود أن أسأل ـ هل من الحسن أن يكون للمرء مثل هذا الابن؟

فقالت الأم:

ـ كثيراً.

ـ وذلك ليس ـ مرعباً؟

فأجابت الأم بابتسامة هادئة:

ـ أبداً، بعد الآن...

فمسحت لودميلا شعرها الأملس بيد سمراء، ثم استدارت إلى النافذة. ومرَّ خيال عابر على وجهها: لعله كان خيال ابتسامة مكبوتة.

ـ سوف أطبعه بسرعة. أرقدي أنت، فقد قضيت يوماً صعباً ولا بد أنك متعبة. أضطجعي على السرير هذا فأنا لن أنام، ولربما أيقظتك في الليل كي تساعديني... أطفئي المصباح عندما تسعين إلى الفراش.

ألقت حطبتين في الموقد، وخرجت من الباب الضيق، وأغلقته وراءها بإحكام. راقبتها الأم وهي تغادر الغرفة، ثم شرعت تخلع ثيابها وأفكارها مشغولة بها:

«إنها حزينة لسببٍ ما...».

كانت شديدة الإعياء دائخة الرأس، ولكن أفكارها هادئة بصورة غريبة، وكل شيء يضيء في عينيها بنور لطيف عذب يغمر روحها في هدوء عظيم. وكان هذا الهدوء مألوفاً لديها، فهو يهبط عليها دائماً بعد كل انفعال عنيف. ولقد كان يبعث في نفسها بعض القلق في البدء، أما الآن فلا يعمل إلا على توسيع آفاق روحها وتوطيدها بعاطفة جموح عتية. أطفأت المصباح ثم تسلقت السرير البارد، وانكمشت تحت الغطاء، ولم تلبث أن استغرقت في نوم عميق...

عندما فتحت عينيها كانت الغرفة تعج بنور نهار الشتاء الأبيض البارد.

وتطلعت لودميلا إليها من الأريكة حيث كانت تضطجع، وكتاب بين يديها، ثم ابتسمت بطريقة غير معهودة لديها. هتفت الأم مرتبكة:

ـ يا إلّهي! يا لي مخلوقة غريبة! هل تقدم النهار كثيراً؟

فأجابت لودميلا:

ـ عمي صباحاً! ستدق الساعة العاشرة عما قريب. إنهضي وسوف نتناول قليلاً من الشاي.

ـ لِمَ لم توقظيني؟

ـ أوشكت أن أفعل ذلك، ولكن عندما اقتربت منك كنت تبتسمين في نومك بسلام عظيم...

نهضت عن الأريكة بحركة رشيقة، واقتربت من السرير وانحنت على الأم، فاستطاعت هذه أن تميز في عيني المرأة الخابيتين شيئاً مألوفاً لديها وعزيزاً عليها.

ـ بدا لي أن إيقاظك مؤلم، فلربما كنت تحلمين حلماً سعيداً...

ـ لم أفعل!

ـ سواء ذلك. لقد أحببت ابتسامتك. كانت كثيرة الهدوء والطيبة و... كبيرة جداً!

وضحكت لودميلا، وكان ضحكها رقيقاً، مخملي الإهاب:

ـ لقد حملني ذلك على التفكير فيك. ما أصعب حياتك!

فارتجف حاجبا الأم، وشرعت تفكر في سكون. هتفت لودميلا

ـ بالطبع هي صعبة!

فقالت الأم في تردد:

ـ لست على يقين تام من ذلك. فهي تبدو صعبة أحياناً، ولكنها كثيرة الامتلاء ـ وكل الأشياء فيها كثيرة الرزانة، مدهشة، تتلاحق عن قرب في سرعة عظيمة...

هبّت في صدرها تلك الموجة المألوفة من الحيوية تملأ ذهنها بالأفكار والصور، فجلست في السرير وراحت في سرعة تكسو أفكارها بالكلمات.

ـ إنها تستمر وتستمر... متجهة أبداً نحو الغاية نفسها.. هناك أشياء صعبة كثيرة. الناس يتألمون، ويُنكلّ بهم... ينكّل بهم بصورة وحشية، وكثير من الأفراح ممنوع عنهم. ذلك قاسٍ للغاية!

ألقت لودميلا برأسها إلى الوراء وشملتها بناظريها، ثم قالت:

ـ ولكنك لا تتحدثين عن نفسك!

ألقت الأم نظرة اليها فتركت السرير، وشرعت ترتدي ثيابها.

ـ كيف تستطيعين أن تفصلي نفسك عن الآخرين عندما تحبين هذا وذاك وتخافين من أجلهم جميعاً... وترثين لهم جميعاً... جميعهم يحتشدون معاً هناك في قلبك... كيف تستطيعين أن تفصلي نفسك عنهم؟

وقفت برهة في وسط الغرفة غير مكتملة اللباس ضائعة في لجة من التفكير. وهُدِهدَ لها أنها لم تعد تلك المرأة المفعمة مخاوف وقلقاً من أجل ابنها، المشغولة بالتفكير في كيف تستطيع حماية جسده من الأذى. تلك المرأة لم يعد لها بعد الآن وجود، فلقد انسحبت من الميدان، وذهبت إلى مكان بعيد بعيد، أو لعلها احترقت بنار عواطفها فطهَّر ذلك الحريق روحها وأضاءها، نافحاً إياها بقوة جديدة. وتنصت إلى ما في أعماق روحها تريد أن تكشف ما في حنايا قلبها، خائفة من إيقاظ المخاوف القديمة.

سألتها لودميلا في حنان، وهي تقترب منها:

ـ فيمَ تفكرين؟

فأجابت الأم:

ـ لا أدري.

تبادلتا النظر في سكون وابتسمتا، ثم غادرت لودميلا الغرفة وهي تقول:

ـ لأتساءل عما يجري لسماوري هناك.

تطلعت الأم من النافذة. كان النهار أرِزاً نيّراً، وكذلك كان صدرها يطفح نوراً، سوى أن الدفء يرين عليه أيضاً. وأرادت أن تتحدث عن كل شيء... وأن تتحدث طويلاً بهناء وغبطة، ويغمر قلبها شعور غامض بالامتنان لشخص ما من أجل كل ما عمَّر روحها من أحاسيس. وهو

الآن يلتهب هناك بنور قرمزي، ذلك النور الذي يسبق مغيب الشمس. وأثارت مشاعرها الرغبة في الصلاة. هذه الرغبة التي لم تجربها منذ زمن طويل، ولمع في خاطرها وجه فتى، وسمعت صوتاً واضحاً ينادي: «هذه أم بافل فلاسوف!». ورأت عيني ساشا السعيدتين الحنونين، وهيئة ريبين القاتمة، ومحيا ابنها الهادىء، البرونزي اللون، ونظرة نيقولاي المضطربة المرتبكة، ثم امتزج كل هذا، بغتة في زفرة عميقة واحدة، واختلط في سحابة وحيدة شاقة متعددة الألوان غمرت كل أفكارها في إحساس بالسلام عظيم شاسع الأبعاد.

قالت لودميلا، وهي تدلف إلى الغرفة من جديد:

ـ لقد كان نيقولاي على حق، فقد أوقفوه. لقد أرسلت الصبي للاستكشاف كما نصحتني، فعاد يقول: إن ثمة رجال شرطة في الفناء، كما أنه رأى شرطياً يختبىء وراء البوابة، والجواسيس منبثين حول الدار في كل مكان. الصبي يعرفهم.

فقالت الأم، وهي تهزُّ رأسها:

ـ آه، يا للرجل المسكين...

وتنهدت، دون حزن، مما أذهلها في سرها.

قالت لودميلا في هدوء، والعبوس يعلو وجهها:

ـ لقد قام حديثاً بإلقاء محاضرات كثيرة أمام العمال هنا في المدينة، فآن له على العموم أن يُعتقل. ولقد نصحه رفاقه بالذهاب فأبى أن يقبل بنصائحهم... يؤتى لي أن الناس، في مثل هذه الحالات، يجب أن يُرغموا على الذهاب إرغاماً ولا يقنعوا به امتناعاً...

وفي تلك اللحظة بدا في فرجة الباب صبي أسود الشعر، مضرج الخدين، جميل العينين الزرقاوين، مقوس الأنف، وسأل بصوت رنان:

ـ هل آتي بالسماور؟

ـ ارجوك يا سيريوجا! هو ربيبي.

خيِّل إلى الأم أن لودميلا على غير عادتها هذا النهار، فهي أكثر بساطة وأقل بعداً. وكان في حركات جسدها الرائع الرشيقة كثير من الجمال والقوة، مما خفف من حدة وجهها الشاحب، الصارم التقاطيع. وقد زاد الليل في الدوائر المستقرة تحت عينيها، وأصبح المرء يُحسُّ في داخلها جهداً مستمراً، ووتراً مشدوداً حتى الحد الأقصى في روحها.

وعاد الفتى بالسماور، فقالت لودميلا:

ـ إسمح لي أن أقدمك، يا سيريوجا. هذه بيلاجيا نيلوفنا والدة العامل الذي أدانوه بالأمس في المحكمة.

فانحنى سيريوجا دون أن يقول شيئاً، وهزّ يد الأم مصافحاً، وغادر الغرفة كي يعود إليها برغيف من الخبز، ثم اتخذ مكانه إلى المائدة. وبينما راحت لودميلا تصب الشاي، سعت لاقناع الأم بالعدول عن الذهاب إلى الدار حتى تتبين غاية الشرطة من الانتظار هناك.

ـ لعلهم ينتظرونك أنت أيضاً! من المحتمل أن يرسلوا في طلبك كي يستجوبوك...

ـ فليفعلوا! وليعتقلوني إن أرادوا ـ ليس في ذلك ضرر كبير. آوٍ لو نوزع قبلاً خطاب بافل!

ـ لقد صففت الأحرف حتى الآن، وغداً سيكون لدينا نسخ كافية للمدينة والضاحية العمالية... هل تعرفين ناتاشا؟

ـ طبعاً!

ـ خذي النسخ إليها...

كان الصبي يقرأ الصحيفة كمن لا يسمع شيئاً، ولكنه يرشق وجه الأم بنظراته بين الفينة والفينة، فإذا ما لقيت عينيه المرحتين ابتهجت وابتسمت. وشرعت لودميلا تتحدث مرة أخرى عن اعتقال نيقولاي دون أسىً، فتجد الأم ذلك طبيعياً للغاية. ومرَّ الوقت أسرع من المعتاد، فما إن انتهوا من طعام الافطار حتى كان الوقت ظهراً. هتفت لودميلا:

ـ يا للّه!

قرع الباب بسرعة في هذه اللحظة. فنهض الصبي ونظر إلى لودميلا في تساؤل بعينين متضيقتين.

ـ إفتح الباب، يا سيريوجا! من هذا، يا تُرى؟

وضعت يدها في جيب سترتها بحركة هادئة، وهي تقول للأم:

ـ إن كان القادمون رجال الدرك، فقفي أنت هناك في الزاوية يا بيلاجيا نيلوفنا، أما أنت يا سيريوجا...

فأجاب الفتى في هدوء، وهو يخرج:

ـ إني أعلم!

وابتسمت الأم. لم تعد هذه الاستعدادات تقلقها ـ لقد فارقها كل توقع للكارثة. ولكن الطارق لم يك سوى الطبيب الصغير. قال بسرعة:

ـ قبل كل شيء، لقد اعتُقل نيقولاي. أها! هكذا فأنت ههنا، يا نيلوفنا، ألم تكوني في الدار ساعة الاعتقال؟

ـ لقد أرسلني إلى هنا.

ـ ويْ! كذا؟ لا أعتقد أن ذلك سيعود عليك بأية فائدة! ثم إن بعض الفتيان قد طبعوا، في الليلة الفائتة، خمسمائة نسخة من خطاب بافل على الهكتوغراف. ولقد رأيتها ـ إنها ليست سيئة... بل نظيفة واضحة... وهم يريدون توزيعها في المدينة هذه الليلة بالذات، ولكنني أعارض في ذلك، إذ يفضل أن توزّع المنشورات المطبوعة في المدينة، والاحتفاظ بتلك لمكان آخر.

فقالت الأم في لهفة:

ـ سآخذها إلى ناتاشا! أعطنيها!

كانت لهفتها عظيمة كي تنشر خطاب فتاها في أسرع وقت ممكن كي تغرق الأرض بأسرها بكلماته، فراحت تثبت عينيها متوسلة في وجه الطبيب وهي تنتظر جوابه. قال متردداً، وهو يتطلع في ساعته:

ـ الشيطان وحده يعلم إن كان في مقدورك القيام بذلك الآن! الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعون. وموعد أول قطار هو الثانية والدقيقة الخامسة، وستصلين في تمام الخامسة والربع، أي عند هبوط المساء. بيد أن الوقت لن يكون متأخراً على أية حال، لكن ليست هذه هي المشكلة. . .

فردت لودميلا عابسة:

ـ ليست هذه هي المشكلة!

وسألت الأم، وهي تقترب منهما:

ـ ما هي المشكلة؟ أن ينجز العمل على خير وجه فقط. . .

فرشقتها لودميلا بنظرة متمعنة، ثم قالت وهي تمسح جبينها:

ـ ذلك خطر عليك. . .

فسألت الأم في إصرار حار:

ـ ولِمَ؟

فأجاب الطبيب بكلمات سريعة متكسرة:

ـ إليك السبب في ذلك: لقد غادرت الدار قبل اعتقال نيقولاي بساعة واحدة، وذهبت إلى المصنع حيث يعرفونك على أنك عمة المعلمة، وبعد فترة قصيرة ظهرت منشورات ممنوعة في المصنع، كل هذا يشكل عقدة حول عنقك.

فقالت الأم في عناد متزايد:

ـ إن أحداً لن يلاحظني هناك! وإذا اعتقلوني بعد عودتي وسألوني أين كنت. . .

وترددت لحظة قصيرة، ثم صاحت:

ـ أعرف ما سأقول! سأذهب من هناك رأساً إلى الضاحية حيث أعرف صديقاً هناك ـ سيزوف ـ وسأقول إني ذهبت مباشرة من المحاكمة إلى داره ـ كي أخفف عن قلبي إن صح التعبير. وهو يحتاج إلى المؤاساة

أيضاً، فابن أخيه أدين بدوره. ولسوف يشهد بالشيء نفسه. ما رأيكما؟

وإذ أحست أنهما يميلان إلى تلبية رغبتها، انطلقت تتكلم في عناد أكبر يحدوها الأمل في الاسراع باقناعهما، حتى استجابا إليها أخيراً، فقال الطبيب في تردد وإِحجام:

ـ حسناً، تستطيعين الذهاب!

ولم تقل لودميلا شيئاً، وهي لا تفتأ تذرع أرض الغرفة غارقة في التفكير، وقد أصبح وجهها الآن قاتماً نحيلاً، وعضلات عنقها المشدودة تفصح الجهد الذي تبذل كي تحفظ رأسها بوضعه الطبيعي كما لو أصبح ثقيلاً على حين بغتة وسقط فوق صدرها من تلقاء نفسها. لاحظت الأم ذلك، فقالت مبتسمة:

ـ جميعكم تهتمون بي كثيراً، ولكنكم لا تعيرون أنفسكم أدنى اهتمام على الاطلاق...

فقال الطبيب:

ـ هذا ليس صحيحاً، فنحن نهتم بأنفسنا. نحن مضطرون إلى ذلك. وإننا لقساة كل القسوة على أولئك الذين نجدهم يضيعون قواهم دون جدوى. هذا ما نفعل! والآن... لسوف تستلمين نسخ الخطاب في المحطة...

وأوضح لها كيف سيتمّ ذلك، ثم نظر في وجهها، وقال:

ـ والآن، حظاً سعيداً!

لكن ظلاً من الاستياء كان يرين على محياه لحظة غادر الغرفة. اقتربت لودميلا من الأم، وقالت وهي ترسل ضحكة قصيرة:

ـ لأستطيع أن أفهمك...

تأبطت ذراعها، وشرعت من جديد تجوس أرض الغرفة بخطاها:

ـ إن لي ابناً أنا أيضاً، وهو في الثالثة عشرة من عمره الآن، ولكنه يعيش مع أبيه. إن زوجي نائب مدَّعي عام، وأما الولد فهو معه. إلى مَ سيصير؟ كثيراً ما أفكر في ذلك...

وانكسر صوتها، ثم تابعت بعد برهة في هدوء وتفكر:

ـ أنه يتربى على أيدي عدو واعٍ لسائر الناس الذين أحبهم والذين اعتبرهم أروع أناس على وجه البسيطة. ولربما يشب ابني عدواً لي. إنه لا يستطيع عيشاً معي، فأنا أحيا تحت اسم مستعار. وأنا لم أرَه منذ ثماني سنوات... ثماني سنوات! يا له من زمن طويل!

ووقفت عند النافذة، وراحت تنظر إلى السماء الشاحبة المقفرة.

ـ لو عاش معي كنت أقوى إذن، وما كان هذا الجرح يؤلم قلبي أبداً... ولو مات، فذلك يكون أسهل عليّ إذن وأيسر...

فتمتمت الأم، وقلبها يتمزق ألماً ومواساة:

ـ آهٍ، يا عزيزتي!

فقالت لودميلا، وهي تطلق ضحكة قصيرة:

ـ أنت محظوظة! ما أروع ذلك... الأم والابن جنباً إلى جنب ـ إنه لأمر نادر للغاية!

فهتفت بيلاجيا، مدهوشة من ذات كلماتها:

ـ بلى، ذلك رائع جداً!

ثم قالت، وهي تخفض صوتها فكأنها تتفوه بسرّ خطير:

ـ وأنتم جميعاً ـ نيقولاي إيفانوفيتش وسائر الذين يتبعون الحقيقة ـ أنتم جميعاً جنباً إلى جنب! لقد أصبح الناس، فجأة أقارب أعزاء، وإني لأفهمكم جميعاً، إني لا أستطيع أن أفهم الكلمات، ولكني أستطيع أن أفهم كل شيء آخر.

ـ كذلك هي الأمور... كذلك هي الأمور...

ووضعت الأم يدها على صدر لودميلا، وأخذت تدفعها في لطف، وتابعت في شبه همس، وكأنها هي نفسها تتأمل في الكلمات التي تتفوه بها:

ـ أبناؤنا يمشون فوق الأرض. ذلك ما أفهم ـ أبناؤنا يمشون فوق

الأرض ـ فوق الأرض بأسرها ـ من كل حدب وصوب نحو هدف واحد. أطهر الناس قلباً، أشرف الناس فكراً، يسيرون قُدُماً ضد الشرّ دون ارتعاش، يدوسون الكذب تحت أقدامهم القوية، فتيان، أقوياء البنية، بريئون من كل عيب، يوجهون قواهم كلها نحو غرض واحد ـ ألا وهو العدالة. إنهم يمشون نحو الانتصار على الألم الإنساني، وقد احتشدوا ليكنسوا كل بؤس عن وجه البسيطة، وليقضوا على القباحة المعششة في الأرض ـ ولسوف يقضون عليها! ولقد قال لي أحدهم إنهم سيشعلون شمساً جديدة ـ ولسوف يشعلونها بكل تأكيد! وإنهم سوف يوحّدون جميع القلوب المنكسرة في قلب واحد متوحد ـ ويقيناً أنهم سيوحدونها!

وتذكرت كلمات صلوات منسية، انبثقت من صدرها كالشرر تشعل فيها ايماناً جديداً:

ـ أبناؤنا يسلكون طريق الحقيقة والعقل، ويحملون المحبة إلى قلوب البشر، يغطون الأرض بسماء جديدة، وينيرون الأرض بنار جديدة ـ نار القلب التي لا تنطفىء. تنبثق حياة جديدة، تولد من محبة أبنائنا للجنس البشري بمجموعه. ومن يملك القدرة على إطفاء هذا اللهيب؟ من؟ أية قوة تستطيع أن تدمر قوة المحبة؟ أية قوة تستطيع أن تعترض سبيلها؟ من الأرض هي انبثقت، والحياة بأسرها تتلهف إلى انتصارها ـ الحياة بأسرها!

تركت لودميلا وقد أعيتها قوة انفعالها، وجلست وهي تتنفس بصعوبة فائقة. وكذلك ابتعدت لودميلا في سكون وحذر فكأنها تخاف أن تزعج شيئاً ما وتعكر صفوه، وراحت تنتقل في خفة عبر الغرفة، ونظرة عينيها الخابيتين العميقة مثبتة أمامها، يخيَّل للناظر إليها أنها ازدادت طولاً ونحولاً وانتصاباً. وكان وجهها الصارم الرقيق يعبر عن تفكير عميق، وشفتاها منضمتين في عصبية. وسرعان ما سكنّ الهدوء المخيم على

الغرفة من انفعال الأم، فلاحظت حال لودميلا وسألتها بنغمة هادئة مذنبة:

ـ لربما قلتُ شيئاً ما كان يجدر بي قوله؟؟

فاستدارت لودميلا وتطلعت إليها كالمذعورة، ثم تكلمت بسرعة وهي تمدّ يدها إلى الأم، فكأنها تريد أن توقف شيئاً في طريقها:

ـ لا، لا، كذلك هي الأمور، كذلك هي! ولكن يجب أن لا نتكلم عنها بعد الآن أبداً، فلتبق كما عبرّت أنت عنها!

وازداد هدوء صوتها، وهي تضيف:

ـ عليك الذهاب عما قريب ـ فما برحت أمامك طريق طويلة.

ـ أجل، عما قريب. لو تدرين كم أنا سعيدة! سأحمل إلى الآخرين كلمات ابني، كلمات لحمي ودمي نفسيهما! لكأني أعطي من نفسي ذاتها!

ابتسمت، لكن ابتسامتها لم تنعكس على وجه لودميلا إلا في غموض وإبهام. وأحست الأم أن فرحتها تتضاءل بصرامة المرأة الأخرى، فتجتاحها فجأة رغبة عنيدة في أن تصبّ نارها الملتهبة في صدرها، في تلك النفس الشموس العابسة، لتحمل تلك المرأة على التجاوب مع نداءات قلب يلتهب فرحاً وصفاء، فتناولت يدي لودميلا وضغطت عليهما بشدة وهي تقول:

ـ يا حبيبتي! وما أحسن أن يعلم المرء أن ثمة نوراً يضيء جميع الناس، وأن ساعة ستأتي يراه فيها الجميع فيستديرون إليه بقلوبهم!

وارتعش وجه الأم اللطيف العريض، والتهبت عيناها، وارتجف جفناها فوقهما كجناحين يظللان بريقهما. كانت نشوى بتلك الأفكار العظيمة التي تضج في صدرها وتفور، بفعل كل ما عاشت حتى ذلك الحين وجرَّبت، فراحت تعصر خلاصة تلك الأفكار وتكثّفها في بلورات الكلمات البراقة النامية والمتضاعفة في هذا القلب الخريفي، تنيرها القوة

الخلاقة لشمس الربيع المحترقة هناك والمشعة ببريق متزايد اللمعان أبداً.

ـ ذلك أشبه بإلّه جديد يولد للشعب! كل شيء للجميع ـ والجميع من أجل كل شيء! هكذا أفهم أنا عملكم جميعاً! في الحقيقة إنكم جميعاً رفاق، أرواح متقاربة، أبناء أم واحدة، وهذه الأم هي الحقيقة!

وجرفتها من جديد موجة انفعال، فانقطعت عن الكلام وشهقت نفساً عميقاً، وقالت وهي تفتح ذراعيها في عناق عريض:

ـ وعندما أقول لنفسي هذه الكلمة ـ رفاق ـ أسمع في قلبي صوتاً يقول إنهم سائرون قدُماً!

وبلغت هدفها. لقد تضرَّج محيا لودميلا دهشة، وارتجفت شفتاها، وراحت دموع كبيرة شافة تتدحرج على وجنتيها.

احتوتها الأم بين ذراعيها وهي تضحك في سكون، وتفرح فرحاً عذباً بانتصار قلبها.

وبينما هما تفترقان تطلعت لودميلا في وجه الأم، وقالت في صوت خافت:

ـ هل تعرفين ما أحسن أن يكون المرء معك؟

29

بلغت الشارع، فأطبق الهواء المتجلِّدّ على جسدها في عناقٍ قاس، ودغدغ حنجرتها ومنخريها، وأمسك بخناقها وحرمها، ثانية قصيرة، من أنفاسها. توقفت تتطلع حواليها فرأت عربة صغيرة تقف عند زاوية قريبة فيها سائق بقبعة شعثاء، وإلى أبعد منها، في الشارع الطويل، يمشي رجل باسق القامة منحني العود، غارق الرأس بين الكتفين، وإلى الأمام منه جندي يركض وهو يفرك أذنيه. فكرت:

«لا ريب أنهم أرسلوا به يشتري حاجة ما من الحانوت!».

تابعت طريقها، مسرورة بسماع الثلج يتكسر تحت قدميها في حيوية وفتوة. وبلغت المحطة قبل موعد القطار. غير أن غرفة الانتظار من الدرجة الثالثة، الوسخة العاجة بالدخان، كانت مزدحمة تغص بالناس، بعد أن طرد البرد إليها عدداً كبيراً من عمال السكة، والحوذيين، وكثيراً من الناس المرتدين ألبسة مهترئة المحرومين من أي مأوى آخر يلجأون إليه. وكان ثمة عدد من المسافرين أيضاً، ومن بينهم بعض الفلاحين، وتاجر بدين يرتدي معطفاً سميكاً، وكاهن ترافقه ابنته المجدورة الوجه، وخمسة جنود، وبعض الحرفيين المضطربين القلقين. وكان القوم يدخنون ويتحدثون، ويحتسون الشاي والفودكا؛ وشخص ما، عند المقصف، يطلق أكداساً من الضحك، وأمواج من الدخان تتموج فوق الرؤوس دون انقطاع. وكان الباب يصرُّ كلما فُتح، فإذا صُفق ارتجف زجاج النوافذ وإطاراتها، وكان جوُّ الغرفة عاجًّاً برائحة من التبغ والسمك المملَّح تخدش الأنوف.

اتخذت الأم مقعداً بيِّنا للعيان عند المدخل وراحت تنتظر. كانت موجة من الهواء البارد تهب عليها كلما فتح الباب، فتسرُّ بذلك، وتروح تنهل من الهواء أنفاساً عميقة. وكان الداخلون مثقلين برزم كبيرة، فإذا حاولوا عبور الباب في معاطفهم الشتائية السميكة، علقوا في فرجته بصورة مضحكة وهبُّوا يطلقون السباب وهم يلقون برزمهم فوق الأرض، أو المقاعد الخشبية، يتنحنحون وهم ينفضون الثلج عن أكمامهم وياقاتهم ولحاهم وشواربهم.

ودلف من الباب فتى يحمل حقيبة صفراء في يده، وتطلع فيما حوله بسرعة، واتجه نحو الأم رأساً. قال بصوت خافت:

ـ أأنت ذاهبة إلى موسكو؟

فأجابت:

ـ نعم إلى تانيا.

ـ خذيها!

وضع الحقيبة على الدكة إلى جانبها، وأشعل لفافة بسرعة، ورفع قبعته عن رأسه قليلاً ثم اختفى من خلال الباب الآخر دون أن يضيف شيئاً آخر. وربتت الأم على جلد الحقيبة البارد، ثم اعتمدتها بمرفقها، وشرعت تتفحص القوم حولها وعلى محياها سيماء الرضى. وبعد برهة قصيرة نهضت تتخذ مقعداً آخر أقرب إلى المخرج. مشت منتصبة القامة ترنو إلى الوجوه المارة من أمامها غير هيَّابة، وهي تحمل بكل يسر وسهولة الحقيبة التي لم تكن كبيرة أو ثقيلة على الإطلاق.

اصطدم بها شاب قصير المعطف مرفوع الياقة، ثم تنحى جانباً في صمت وسكون، وقد رفع يده إلى رأسه. وخيِّل إليها أن فيه شيئاً مألوفاً لديها، فالتفتت إلى الوراء لتجد إحدى عينيه الشاحبتين مثبتة فيها من وراء ياقة معطفه. اخترقتها نظرته كحدِّ الموسى، فارتجفت يدها التي تحمل الحقيبة بعصبية، وأحست بغتة أن حملها يزداد ثقلاً. فكرت: «لقد رأيته في مكانٍ ما من قبل!». وحاولت كظم هذا الاحساس المقيت وطرده من صدرها، فرفضت تحديد ذلك الشعور البارد الذي راح يضغط على قلبها في بطء، ولكن في عناد أيضاً بيد أنه نما وصعد حتى حلقها، وغمر فمها بمرارة جافة فتملّكتها رغبة لا تقاوم في أن تستدير وتلقي نظرة أخرى على هذا الرجل، وإذ فعلت رأته يقف في المكان ذاته، ينقل ثقل جسده من رجل إلى رجل أخرى فكأنه يريد أن يفعل شيئاً ما، فلا يجد القدرة كي يحزم أمره عليه. وكانت يده اليمنى مدفوعة بين أزرار معطفه، واليسرى مدفونة في جيبه بحيث تبدو كتفه اليمنى أكثر ارتفاعاً من الكتف اليسرى.

اقتربت من دكة في تماهل وجلست عليها في بطء وحذر فكأنها تخاف أن تسحق شيئاً ما في باطنها. واستيقظت الذكرى في ذهنها بتأثير توقُّع

شرّ مستطير، فتذكرت المناسبتين اللتين رأت فيهما هذا الرجل من قبل: الأولى في الحقول المجرَّدة، غير بعيد عن السجن، بعد فرار ريبين؛ والثانية في المحكمة حيث رأت ضابط الشرطة الذي أرسلته في الطريق الضالة يتعقب ريبين واقفاً إلى جانبه، فأدركت مباشرة أنهم يعرفونها وأنها ملاحقة ـ لم يكن في ذلك مجال للارتياب. تساءلت:

«هل وقعتُ في الشبكة؟».

وارتعشت بعد هنيهة وردَّت على نفسها:

«ربما لم يحن الوقت بعد...».

وسرعان ما بذلت جهداً إرادياً عنيفاً، وقالت في جفوة:

«لقد وقعت في الشبكة!».

تطلعت حواليها دون أن ترى شيئاً، وراحت الأفكار تتلاحق في ذهنها الفكرة تلو الفكرة مثل شرارات تلتهب وتنطفىء في الحال:

ـ «هل أترك الحقيبة وأولي الأدبار؟».

ولكن شرارة أكثر تألقاً احتلَّت سريعاً مكان الفكرة السابقة:

«أأهجر كلمات ابني! أتركها بين أيدي مثل هؤلاء...».

وضمت الحقيبة إلى صدرها:

«هل أحملها معي؟.. هل أهرب؟..».

بدت لها هذه الأفكار غريبة عنها، فكأنَّ شخصاً غيرها اضطرها إليها اضطراراً، فهي تلفحها وتحترق في ذهنها وتثقب قلبها مثل أسلاك لاهبة. وأخرجها الألم الذي بعثته فيها تلك الأفكار عن رشدها، وأبعدها عن بافل وعن سائر الأشياء التي أصبحت عزيزة على قلبها. وأحست قوة معادية تضغط على كتفيها وصدرها وتذلها، وتغرقها في هلع هائل مميت. وراحت أوردة صدغيها تنبض بعنف، وهبت حرارة شديدة في جذور الشعر مِن رأسها.

واهتز فجأة كل كيانها لحركة حادة هائلة انبثقت في قلبها، وداست

تلك الشرارات الصغيرة، الوضيعة المستضعفة، وهي تقول لنفسها في حزم وقوة:

«يا للعار!».

ارتاحت في اللحظة نفسها، وامتلأت شجاعة ويأساً، وأضافت

«لا تشيني ابنك، فهم لا يخافون قط!».

لاقت عيناها نظرة كئيبة وجلة، والتمع في خاطرها وجه ريبين، وشخص لها أن تلك الثواني القليلة من التردد جعلتها أكثر ثباتاً، فإذا خفقان قلبها يهدأ ويتلاشى. فكرت وهي تختلس النظر فيما حولها:

«ماذا سيحدث الآن، يا ترى؟».

نادى الجاسوس أحد حرس المحطة، وهمس شيئاً في أذنه وهو يدل عليها بعينيه، فحملق الحارس فيه طويلاً ثم تراجع، بينما اقترب حارس آخر ـ وكان رجلاً هرماً، ضخم الجثة، أشيب الشعر، مرسل اللحية ـ وأنصت إلى ما يقال له، ثم عقد ما بين حاجبيه، وأشار برأسه إلى الجاسوس وبدا يشقُّ طريقه نحو الدكة حيث تجلس الأم. واختفى الجاسوس في لمح البصر.

اقترب الحارس متباطئاً، يتمعن في وجه الأم بنظرة غاضبة، فتراجعت حتى وسط الدكة. فكرت:

«لو أنهم لا يضربونني...».

توقف قبالتها، واعتصم هنيهة بالصمت، ثم قال في صوت خافتٍ قاس:

ـ ماذا تنتظرين؟.

ـ لا شيء.

ـ هكذا؟ أيتها اللصة! أتمتهنين السرقة وأنت في مثل هذه السن؟

صفعتها كلماته ـ مرة، مرتين! كان الخبث القاسي الكامن فيها مؤلماً للغاية فكأنه يجرح الوجنتين منها، ويقتلع العينين من محجريهما...

صاحت بأعلى صوتها، وقد راح كل ما يحيط بها يدوّم في إعصار غضبها وثورتها، إعصار مرارة الاهانة التي تلقتها:

ـ أنا؟ أنا لست لصة! أنت تكذب!

شدّت على الحقيبة في عنف، ففتح غطاؤها. صاحت، وهي تهبُّ واقفة على قدميها وترفع قبضة من المنشورات فوق رأسها:

ـ أنظر أنت! أنظروا جميعاً!

استطاعت أن تسمع، من خلال الطنين في أذنيها، هتافات القوم الذين تراهم جاؤوا يتراكضون بسرعة من كل حدب وصوب.

ـ ماذا حدث؟

ـ هناك ـ جاسوس...

ـ ما هذا؟

ـ يقول إنها لصة...

ـ مثل هذه المرأة المحترمة؟ بخٍ، بخٍ...

صاحت الأم في صوت مرتفع، وقد هدأ من روعها قليلاً رؤية الناس المتجمهرين حولها بكثافة:

ـ أنا لست لصة! لقد جرت البارحة محاكمة بعض المتهمين السياسيين. وكان بينهم ابني فلاسيوف. ولقد ألقى في المحكمة خطاباً ـ وهذا هو! إني أحمله إلى الشعب حتى يقرأوه ويفكروا في الحقيقة...

تناول أحد الوقوف من يدها منشوراً في حيطة وحذر فلوَّحت هي بالمنشورات في الفضاء ورمتها فوق رؤوس الحشد حولها. وصاح أحدهم بصوت مذعور:

ـ لسوف ينتقمون منك من أجل هذا!

رأتهم الأم يختطفون المنشورات ويدسونها في معاطفهم وفي جيوبهم فثبت ذلك من عزيمتها مجدَّداً. وشرعت تتكلم مستوفزة وهي أهدأ وأثبت من ذي قبل، تحسُّ فخراً مستيقظاً وفرحاً مكبوتاً من قبل ينموان بازدياد

في صدرها. وبينما هي تتكلم، كانت تتناول المنشورات من الحقيبة وتلقي بها ذات اليمين وذات الشمال في الأيدي الممتدة بلهفة لتلتقفها:

ـ هل تعلمون لماذا قدَّموا ابني والذين كانوا معه جميعاً إلى المحكمة؟ لسوف أقول لكم لماذا، وأنتم ستصدقون قلب أم وشعرها الشائب. لقد قدموهم إلى المحاكمة لأنهم بكل بساطة، يحملون الحقيقة اليكم جميعاً! ولقد اكتشفتُ البارحة إن إنساناً لا يستطيع نكران تلك الحقيقة ـ أبداً ليس من ينكرها!

ونما الحشد يشكِّل، في سكون وهدوء، حلقة من الأجساد الحية تحيط بالمرأة في إحكام.

ـ الفقر، والجوع، والمرض ـ هذا ما يكسب الناس من عملهم! كل الأشياء ضدنا ـ نحن نموت مرهقين، طوال حياتنا، يوماً بعد يوم، في عملنا، ونحن أبداً معفَّرون في الوحل، مخدوعون دائماً، بينما يمتصُّ الآخرون كل الفرح والفوائد حتى التخمة، ويقيدوننا في الجهل إلى الأبد، مثلما يقيدون الكلب إلى سلسلته، حتى لا نعرف شيئاً على الإطلاق؛ وفي الخوف، حتى نخاف من كل شيء دون تفريق! حياتنا أشبه بليلٍ طويل مظلم!

وارتفع جواب خفيض يقول:

ـ هذا حق!

ـ سدوا لها فمها!

وقعت عينا الأم، وراء الحشد، على الجاسوس وبرفقته اثنان من رجال الدرك، فأسرعت توزع بقية المنشورات. وعندما بلغت يدها الحقيبة، اصطدمت بيد أخرى، فقالت وهي تنحني جانباً:

ـ خذها، خذها!

وصاح الدركيان، وهما يدفعان الناس جانباً:

ـ تفرقوا!

فأفسح القوم لهما الطريق مرغمين، وهم يتعثرون في طريقهما ويمنعونهما عن التقدم، ربما دون أن يرغبوا في ذلك ويريدوه. كان الناس ينجذبون بقوة لا تقاوم نحو المرأة الشائبة الشعر، الواسعة العينين الشريفتين في وجهها اللطيف. إنهم يجدون أنفسهم الآن، وهم المنعزلون في الحياة، المتباعدون عن بعضهم البعض، وقد توحدوا في جسد واحد تدفئه هذه الكلمات اللاهبة التي ربما فتَّش عنها طويلاً عدد كبير من تلك القلوب التي داسها ظلم الحياة ونسفها. وقف الأقربون إليها في سكون، مثبتة عيونهم فيها بانتباه مشوق، حتى لتحس أنفاسهم الدافئة تلفح وجهها.

ـ إذهبي، أيتها العجوز!

ـ لسوف يقبضون عليك في دقيقة واحدة!..

ـ آه! يا لها من جريئة!

وصاح الدركيان، وهما يقتربان منها شيئاً فشيئاً:

ـ إذهبوا من هنا! تفرقوا!

ترنح القوم القريبون منها، وتماسكوا بالأيدي. وتراءى لها أنهم جميعاً على استعداد لأن يفهموا ويصدقوها، فأرادت أن تعجل وتقول لهم كل ما تعرفه، كل تلك الأفكار التي جرَّبت قواها وجبروتها، والتي تهب في يسر من أعماق قلبها لتشكل أغنية رائعة، فتدرك الأم في ألم وعذاب أنها أعجز من أن تنشد الأغنية التي تصدر عن شفتيها جشَّاء، مرتجفة، متكسرة:

ـ إن كلمات ابني هي كلمات شريفة لعامل لم يبع نفسه. لسوف تعرفونها من جرأتها!

كان زوج من العيون الفتية عالقاً بها في هلع وإشراق.

تلقّت ضربة في صدرها أوقعتها على الدكة. وكانت أذرع الدركيين تتأرجح فوق رؤوس القوم، وتطبق على التلابيب والأكتاف وتلقي بالناس

جانباً، وتنتزع القبعات وترمي بها بعيداً. وأضحى كل شيء أسود مضطرباً في عيني الأم، ولكنها تغلبت على ضعفها لتصيح بما تبقى من قوة في صوتها:

ـ وحدوا أيها الناس قواكم في قوة واحدة، عاتية!

أمسك بها دركي من ياقتها بيد ضخمة حمراء، وراح يهزها بعنف وهو يصيح:

ـ إخرسي!

اصطدم رأسها بالحائط، فخيَّمت على قلبها، برهة، سحابة من ذعر، ولكنه عاد مرة أخرى يفجر اللهب فيبعثر السحابة ويلاشيها.

قال الدركي:

ـ إمشي!

ـ لا تدعوا شيئاً يخيفكم، فليس من شيء يمكن أن يكون أكثر مرارة من الحياة التي تعيشون...

ـ إخرسي، قلت لك!

أمسك الدركي بذراعها، وشدَّها بعنف، وأمسك الدركي الآخر بذراعها الثانية، واقتاداها معاً وهما يخطوان بخطوات واسعة.

ـ... أكثر من المرارة التي تلتهم قلوبكم كل يوم وتقرض صدوركم!

واندفع الجاسوس إلى الأمام منها، يهزُّ قبضته في وجهها ويصيح بصوت حاد:

ـ إخرسي، أيتها الكلبة!

فالتمعت عيناها واتسعتا، وراح فكها السفلي يرتجف بعنف، فصاحت وهي تثبت قدميها على بلاط الغرفة اللزج:

ـ لن تستطيعوا قتل الروح المنبعثة للحياة!

ـ أيتها الكلبة!

ولطمها الجاسوس على وجهها بحركة قصيرة من يده، فارتفع صوت يصيح في خبث:

ـ إنها تنال ما تستحق، هذه الكلبة الهرمة!

أعماها هنيهة شيء أسود وأحمر، وامتلأ فمها بطعم مالح من الدماء. ولكن ضجيجاً من الهتافات القصيرة حياها:

ـ لا تضربها!

ـ هيا بنا، أيها الفتيان!

ـ يا لك من وغد، أنت!

ـ إضربوه!

ـ لن يستطيعوا إغراق عقولنا بالدماء!

دقوها في ظهرها وعنقها، ولطموها على كتفها ورأسها، فراح كل شيء يترنح أمام عينيها، ويحوّم في إعصار هائج من الصياح والعويل والصفير. كانت ثمة أشياء ثقيلة أصمت أذنيها، وملأت حلقومها، وأطبقت على خناقها بعزم، فمادت الأرض تحت قدميها، وتراخت ركبتاها، وارتجف جسدها تحت لسعات الألم المحرقة وثقل، ثم ترنح عاجزاً خائر القوى. ولكن عينيها لم تفقدا بريقهما، لا بل التقتا بأعين كثيرة أخرى تلتهب جميعاً بتلك النار البراقة الجريئة التي أصبحت عزيزة جداً على قلبها.

دفعوها من خلال الباب، فانتزعت إحدى يديها من قبضة الدركي وتمسكت بمصراع الباب وصاحت:

ـ لن يغرقوا الحقيقة، ولو في محيط من الدماء... ضربوها على يدها.

ـ إنكم لا تثيرون إلا إسعار نيران الحقد عليكم، يا أيها المجانين، وذلك سوف يسقط على رؤوسكم يوماً ما!

وأمسك بها أحد الدركيين من عنقها وراح يخنقها، فشخرت:

ـ يا لكم من مساكين:

فأجاب أحدهم بنشيج عنيف.

... صاحت الأم بصوت مرتفع: أنا لست لصّة، لقد جرت البارحة محاكمة بعض المتهمين السياسيين، وكان بينهم ابني فلاسوف. لقد ألقى في المحكمة خطاباً .. إنني أحمله إلى الشعب حتى يقرأوه ويفكروا في الحقيقة..

... ثم لوَّحت بالمناشير في الفضاء ورمتها فوق رؤوس الحشد حولها. هل تعلمون ما هي الحقيقة؟

الفقر، الجوع، المرض ... نحن نموت مرهقين ونحن معفَّرون في الوحل، مخدوعون بينما يمتصّ الآخرون كل الفرح والفوائد حتى التخمة. وأسرعت توزع المناشير للناس المحتشدين. فأمسك بها دركي من ياقتها وهي تصيح: وحّدوا أيها الناس قواكم في قوة واحدة عاتية! وصاحت في وجه الدركيين: إنكم لا تثيرون إلا نيران الحقد عليكم!

وأمسك بها أحد الدركيين من عنقها وراح يخنقها فشخرت. وكانت المناشير تملأ الفضاء ويلتقطها الحشد الكبير لمعرفة الحقيقة التي من أجلها قتلت الأم.

